فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خال من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية

يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري

أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"

"١٢٤٨-١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعه

خادم العلم

عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الحادي عشر



١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



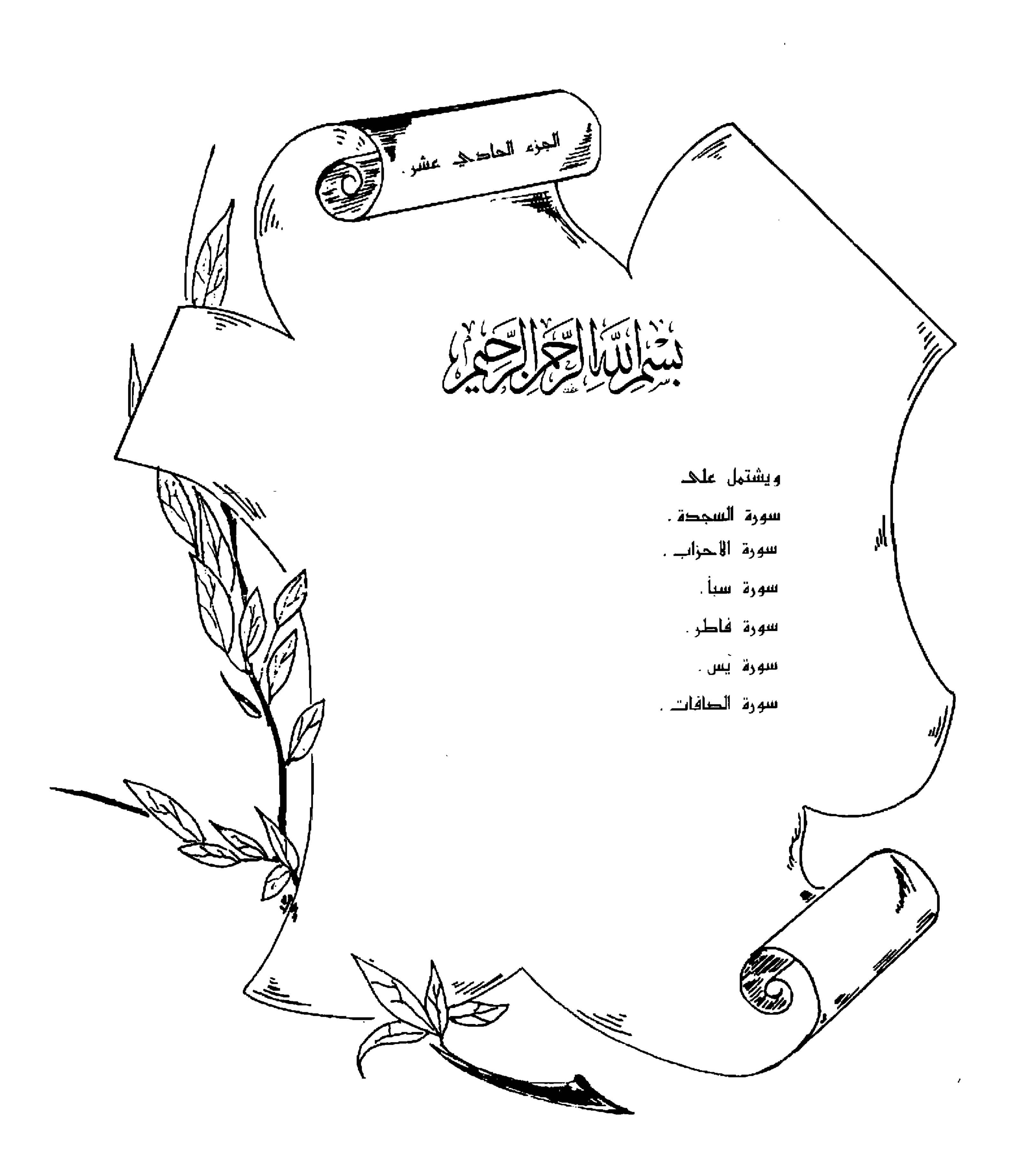
شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE


الجزء الحادي عشر .
بسم الله الرحمن الرحيم
ويشتمل على
سورة السجدة .
سورة الأحزاب .
سورة سبأ .
سورة فاطر .
سورة يس .
سورة الصافات .



سورة السجدة

﴿ آياتها تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية ﴾

بناء على الاختلاف في أن آخر الآية: (لفي خلق جديد).أو هو (كافرون) فعلى الاول : تكون ثلاثين ، وعلى الثاني : تكون تسعا وعشرين ، وهي مكية، قاله: ابن عباس وابن الزبير.

وأخرج البخاري عنه: هي مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة ﴿ أفمن كان مؤمنا ﴾الى تمام الآيات الثلاث . وكذا قال الكلبي ومقاتل ، وقيل الا خمس آيات من قوله: (تتجافى جنوبهم) الى قوله: (الذي كنتم به تكذبون). وقد ثبت عند مسلم ؛ وأهل السنن من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة بألم تنزيل السجدة، وهل أتى على الانسان.

وأخرج أحمد والدارمي والترمذي والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم: عن جابر قال كان النبي ﷺ : « لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة، وتبارك الذي بيده الملك » . وقد وردت في فضائل هذه السورة أحاديث .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

﴿ الٓمٓ ﴾ قد قدمنا الكلام على فاتحة هذه السورة في البقرة وفي مواضع كثيرة من فواتح السور والله أعلم بمراده به .

﴿ تنزيل الكتاب ﴾ فيه أوجه خمسة ذكرها السمين ﴿ لا ريب فيها ﴾ أي لا شك في أنه ﴿ من رب العالمين ﴾ وأنه ليس بكذب ولا سحر ولا كهانة ولا أساطير الأولين ﴿ أم يقولون ؟ ﴾ أم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة أي بل أيقولون ؛ فأضرب عن الكلام الأول إلى ما هو معتقد الكفار مع الاستفهام المتضمن للتقريع والتوبيخ .

﴿ افتراه ﴾ أي افتعله واختلقه من تلقاء نفسه ثم أضرب عن معتقدهم هذا إلى بيان ما هو الحق في شأن الكتاب فقال :

﴿ بل ﴾ إضراب إبطال لنفس افتراه وحده ، وعلى هذا كل ما في القرآن إضراب فهو انتقال إلا هذا ، فإنه يجوز أن يكون إبطالاً لإنه إبطال لقولهم أي . ليس هو كما قالوا ، بل ﴿ هو الحق من ربك ﴾ فكذبهم سبحانه في دعوى الافتراء ، ثم بين العلة التي كان التنزيل لأجلها فقال :

﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ وهم العرب ؛ وكانوا أمة

أمية لم يأتهم رسول، وقيل قريش خاصة، والتقدير لتنذر قوماً العقاب ، وجوز أبو حيان أن تكون ﴿ ما ﴾ موصولة أي العقاب الذي أتاهم وهو ضعيف جداً ، فإن المراد تعليل الإنزال بالانذار لقوم لم يأتهم نذير قبله ، لا تعليله بالإنذار لقوم قد أنذروا بما أنذرهم به . وقيل : المراد بالقوم أهل الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ أي كي يهتدوا أو رجاء أن يهتدوا والترجي معتبر من جهته عليه السلام .

﴿ الله الذي خلق ﴾ أي أوجد وأبدع ﴿ السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ على التوزيع كما يأتي في سورة فصلت ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في الأعراف وغيرها ، والمراد من ذكرها هنا تعريفهم كمال قدرته ، وعظيم صنعه ليسمعوا القرآن ويتأملوه . قال الحسن الأيام هنا هي من أيام الدنيا ، وقيل : مقدار اليوم ألف سنة من سني الدنيا ، قاله الضحاك ، فعلى هذا المراد بالأيام هنا هي من أيام الآخرة لا من أيام الدنيا ، وليست ثم للترتيب في قوله :

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ بل بمعنى الواو ، والعرش في اللغة سرير الملك والمراد به هنا الجسم النوراني المحيط بالعالم كله ، وهذا الاستواء في سبع مواضع من القرآن الكريم والأصل الراجح أن نعتقد ما ورد به القرآن ولا نؤوله ولا نصرفه عن وجهه وهو نص وظاهر في أن الله تعالى فوق العرش بائن من خلقه بالمعنى الذي يليق بجنابه الأقدس الأعلى وتأويله إخراج النص أو الظاهر عن معناه وهذا لا يجوز قطعاً إلا عند وجود ما يساويه أو يتقدم عليه ويعارضه ودونه خرط القتاد .

وقد اختلف الناس في هذا على أربعة عشر قولاً : ، أولاها بالصواب مذهب سلف الأمة وأئمتها ، أنه استوى عليه بلا كيف ، مع تنزيهه عما لا يجوز عليه ، والآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة جداً ، وهي تغني عن غيرها . وردَّت الجهمية هذه الصفة الثابتة له سبحانه ، وتبعها المعتزلة ، ورد عليهم الحافظ ابن القيم في إعلام الموقعين بثمانية عشر وجهاً ،

يطول ذكرها ، وقد جمع أهل العلم فيها سيما أهل القرآن وأصحاب الحديث مباحث ، بل رسائل ، بل كتباً ، طولوها بذكر الأدلة النقلية ، بل العقلية ، والمسألة أوضح من أن تلتبس على عارف ، وأبين من أن يحتاج فيها إلى التطويل ، ولكن لما وقعت فيها تلك القلاقل والزلازل بين بعض الطوائف الإسلامية الحق الصراح فيها ، وأطال سيما الحنابلة وأهل الحديث ، فلهم في ذلك الفتن الكبرى ، والملاحم العظمى ، وما زالوا هكذا في عصر بعد عصر إلى يومنا هذا ، والحق ما عرفناك من مذهب السلف الصالح ، فالاستواء على العرش ، وكونه تعالى فوق الخلق عاليا عليهم ، قد نطق به القرآن الكريم في مواطن يكثر حصرها ، ويطول نشرها ، وكذلك صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غير حديث ، بل هذا مما يجده كل فرد من أفراد الناس في نفسه ، ويحسه في فطرته ، وتجذبه إليه طبيعته ، كما تراه في كل من استغاث بالله سبحانه ، والتجأ إليه ، ووجه دعاءه إلى جنابه الرفيع ، وعزه المنيع ، فإنه يشير عند ذلك بكفه ، أو يرمي بطرفه ، يستوى في ذلك عند عروض أسباب الأدعية ، وحدوث بواعث الاستغاثة ، ووجود مقتضيات الانزعاج ، وظهور دواعي الالتجاء ، عالم الناس وجاهلهم ، وباديهم وحاضرهم ، والماشي على طريقة السلف والمقتدي بأهل التأويل من الخلف .

فالسلامة والنجاة في إمرار ذلك على الظاهر والإذعان بأن الاستواء والاستقرار[١] والكون في الفوق ثابتة على ما نطق به الكتاب والسنة من دون

---

(١) يذهب أنصار مذهب الخلف إلى التأويل واستهجان مذهب السلف مع التسليم بأنه أسلم فيقولون مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم وناهيك بهذا من شطط ،ويقابلهم في الطرف الآخر بعض دعاة مذهب السلف ،فتند بهم أحياناً قوة الاندفاع في الدفاع عن مذهب السلف فينحرفون إلى التفسير الذي يقابل التأويل عند خصومهم؛ ومن هذا تعبير المؤلف بكلمة الاستقرار كعطف تفسيرلكلمة الاستواء وهي كلمة لعمر الحق ليس لها أصل في الروايات القرآنية أو الحديثية في الاستواء ، ومذهب السلف أبلغ ما ورد فيه قول مالك بن أنس : الاستواء معلوم ،والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة أهو الاستقرار في كلام المؤلف يوهم بالكيف والتجسيم حاشاه . المطيعي .

تكييف ، ولا تعطيل ، ولا تشبيه ، ولا تمثيل والمؤول غير مقتد بالسلف ، ولا واقف في طريق النجاة ولا معصوم عن الخطأ ، ولا سالك في جادة السلامة والاستقامة . قال في حجة الله البالغة : واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث وسموهم مجسمة مشبهة ، وقالوا هم المستترون بالكيفية، وقد وضح عليّ وضوحا بيناً أن استطالتهم هذه ليست بشيء وأنهم مخطئون في مقالتهم ، رواية ودراية ، وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى انتهى .

﴿ ما لكم من دونه ﴾ أي ليس لكم من دون الله أو من دون عذابه ﴿من ولي﴾ يواليكم، ويرد عنكم عذابه ﴿ ولا شفيع ﴾ يشفع لكم عنده ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ تذكر تدبر وتفكر ، وتسمعون هذه المواعظ سماع من يفهم ويعقل ، حتى تنتفعوا بها وتؤمنوا ، ولما بين سبحانه خلق السموات والأرض وما بينهما؛ بين تدبيره لأمرها فقال:

﴿ يدبّر ﴾ أي يحكم ﴿ الأمر ﴾ بقضائه وقدره ﴿ من السماء إلى الأرض ﴾ إلى أن تقوم الساعة ، والمعنى: ينزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، كما قال سبحانه: ﴿**الله** الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر **بينهن**﴾. ومسافة ما بين سماء الدنيا والأرض التي تحتها نزولاً وطلوعاً ألف سنة من أيام الدنيا .

وقيل : المراد بالأمر المأمور به من الأعمال،أي ينزله مدبراً من السماء إلى الارض،وقيل : يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة أحكامها وآثارها إلى الارض . وقيل : ينزل الوحي مع جبريل،وقيل العرش موضع التدبير،كما أن ما دون العرش موضع التفصيل كما في قوله : ثم استوى على العرش يدبر الأمر يفصل الآيات ، وما دون السموات موضع التصرف قال تعالى : ﴿**ولقد** صرفناه بينهم ليذكروا﴾. وقال ابن عباس:يدبر الأمر هذا في الدنيا أي شأنها وحالها ، والأمور التي تقع فيها ، والمراد بتدبير أمرها القضاء

السابق، الذي هو الإرادة الازلية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص ، ثم لما ذكر سبحانه تدبير الأمر قال :

﴿ ثم يعرج ﴾ قرأ الجمهور على البناء للفاعل، وقرىء على البناء للمفعول والأصل يعرج به أي يرجع ذلك الأمر، ويعود ذلك التدبير والتصرف في المخلوقات بالحشر ، والحساب ، ووزن الاعمال ، والتعذيب، والتنعيم، وغير ذلك مما يقع في ذلك اليوم ﴿ إليه ﴾ سبحانه ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب، وقرىء بالتحتية على الغيبة أي تعدونه من أيام الدنيا ، وذلك باعتبار مسافة النزول من السماء ، والطلوع من الأرض كما قدمنا . وقيل : إن المراد يعرج إليه في يوم القيامة الذي مقداره كذا من أيام الدنيا ، وذلك حين ينقطع أمر الدنيا ، ويموت من فيها وقيل هي أخبار أهل الارض تصعد إليه مع من يرسله إليها من الملائكة، والمعنى: أنه يثبت ذلك عنده ، ويكتب في صحف ملائكته ما عمله أهل الأرض في كل وقت من الأوقات إلى أن تبلغ مدة الدنيا آخرها . وقيل : المعنى يثبت في عمله موجوداً بالفعل في برهة من الزمان ، هي مقدار ألف سنة والمراد طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان .

وقيل : يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها في اللوح المحفوظ فينزل بها الملائكة . ثم يعرج إليه في زمان هو كألف سنة من أيام الدنيا . وقيل يقضي قضاء ألف سنة فينزل به الملائكة ، ثم يعرج بعد الألف لألف آخر . وقيل: المراد أن الأعمال التي هي طاعات يدبرها الله سبحانه ، وينزل بها ملائكته ، ثم لا يعرج منها إليه إلا الخالص بعد مدة متطاولة لقلة المخلصين من عباده .

وقيل الضمير في يعرج يعود إلى الملك ، وإن لم يجر له ذكر لأنه مفهوم من السياق وقد جاء صريحاً في قوله : ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ والضمير في (إليه) راجع إلى السماء على لغة من يذكرها ، أو إلى مكان الملك الذي يرجع

إليه ، وهو الذي أقرَّه الله فيه .

وقيل المعنى يدبر أمر الشمس في الطلوع والغروب ، ورجوعها إلى موضعها من الطلوع في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة وقيل المعنى أن الملك يعرج إلى الله في يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة فإن ما بين السماء والارض مسافة خمسمائة[1] عام، فمسافة النزول من السماء إلى الارض والرجوع من الارض إلى السماء ألف عام، وقد رجح هذا جماعة من المفسرين منهم ابن جرير .

وقيل : مسافة النزول ألف سنة ، ومسافة الطلوع ألف سنة - روى ذلك عن الضحاك . وهذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة، وليس المراد به مسمى اليوم الذي هو مدة النهار بين ليلتين والعرب قد تعبر عن المدة باليوم كما قال الشاعر:

يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الاعداء تأديب

فإن الشاعر لم يرد يومين مخصوصين، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين، فعبَّر عن كل واحد من الشطرين بيوم . وعن ابن عباس في الآية قال : من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض ، وعنه قال : لا يتنصف النهار في مقدار يوم من أيام الدنيا في ذلك اليوم ، حتى يقضي بين العباد ، فينزل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النارِ النارَ ولو كان إلى غيره لم يفرغ في خمسين ألف سنة ، وعنه قال: في يوم من أيامكم هذه ومسيرة ما بين السماء والأرض خمسمائة عام .

وقد استشكل جماعة الجمع بين هذه الآية ، وبين قوله : ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ فقيل في الجواب : إن يوم

(١) ورد في هذا حديث موضوع كتاب «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» صفحة ٤٥٠ برقم ٢٢ ونصه: «بين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام» فلا يعتد به.

القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا ؛ ولكنه باعتبار صعوبته وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة ؛ والعرب تصف كثيراً يوم الكريهة بالطول ، كما تصف يوم السرور بالقصر .

وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام ؛فمنها ما مقداره ألف سنة ، ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة . وقيل : هي أوقات مختلفة يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة ، ثم ينقل إلى نوع آخر فيعذب خمسين ألف سنة . وقيل مواقف القيامة خمسون موقفاً كل موقف ألف سنة ، فيكون معنى يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة أنه يعرج إليه في وقت من تلك الأوقات أو موقف من تلك المواقف وعن مجاهد ، وقتادة والضحاك أنه أراد سبحانه في قوله :﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى ، التي هي مقام جبريل .

والمراد أنه يسير جبريل ومن معه من الملائكة في ذلك المقام إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة في مقدار يوم واحد من أيام الدنيا ، وأراد بقوله في يوم كان مقداره ألف سنة المسافة التي بين الأرض وبين السماء الدنيا هبوطاً وصعوداً فإنها مقدار ألف سنة من أيام الدنيا .

وقيل : إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع ، لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة ، فقوله في يوم كان مقداره ألف سنة يعني : يدبر الأمر في زمان يوم منه ألف سنة ؛فكم يكون الشهر منه ، وكم تكون السنة منه،وعلى هذا فلا فرق بين ألف سنة وبين خمسين ألف سنة .

وقيل :غير ذلك، وقد وقف حبر الامة ابن عباس لما سئل عن الآيتين ، وقال هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم . وقال ابن المسيب للسائل هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيهما وهو أعلم مني ، والإشارة بقوله :

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى الله باعتبار اتصافه بتلك الأوصاف أي : ذلك الخالق المدبر ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي العالم بما غاب عن الخلق وما حضرهم ، وفي هذا معنى التهديد لأنه سبحانه إذا علم بما يغيب وما يحضر ، فهو مجاز لكل عامل بعمله ، أو فهو يدبر الأمر بما تقتضيه حكمته ﴿العزيز﴾ القاهر الغالب ﴿الرحيم﴾ بعباده ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ قرىء بفتح اللام وبإسكانها فعلى الأولى خلقه فعل ماض نعتاً لشيء ، وعلى الثانية ففي نصبه أوجه :

الأول: أن يكون بدلاً من (كل شيء) بدل اشتمال ، والضمير عائد إلى : كل شيء ، وهذا هو الوجه المشهور عند النحاة .

الثاني: أنه بدل كل من كل ، والضمير راجع إلى الله سبحانه ، ومعنى (أحسن) حسن ؛ لأنه ما من شيء إلا وهو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة فكل المخلوقات حسنة .

الثالث : أن يكون (كل شيء) هو المفعول الأول ، وخَلْقَهُ هو المفعول الثاني ، على تضمين أحسن معنى أعطى ، والمعنى : أعطى كل شيء خلقه الذي خصه به ، وقيل : على تضمينه معنى ألهم . قال الفراء : ألهم خلقه كل شيء يحتاجون إليه .

الرابع : أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة أي خلقه خلقاً كقوله:صُنْعَ اللهِ،وهذا قول سيبويه ، والضمير يعود إلى الله سبحانه

والخامس : أنه منصوب بنزع الخافض ، والمعنى : أحسن كل شيء في خلقه ، ومعنى الآية أنه أتقن وأحكم خلق مخلوقاته ، فبعض المخلوقات ـ وإن لم تكن حسنة في نفسها ـ فهي متقنة محكمة ، فيكون هذه الآية معناها معنى أعطى كل شيء خلقه أي : لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ولا خلق البهيمة على خلق الانسان . وقيل هو عموم في اللفظ خصوص في المعنى ، أي أحسن خلق كل شيء حسن . وقال ابن عباس:أما رأيت القردة ليست بحسنة ، ولكنه أحكم خلقها . وعنه في الآية قال : أما آنست القردة ليست بحسنة ، ولكنه أحكم خلقها ، وقال : خلقه : صورته . وقال أحسن كل شيء القبيح والحسن ، والعقارب ، والحيات ، وكل شيء مما خلق ، وغيره لا يحسن شيئاً من ذلك .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ لقينا عمرو بن زرارة الأنصاري في حلة قد أسبل ، فأخذ النبي ﷺ بناحية ثوبه ، فقال يا رسول الله إني أحمش الساقين ؛ فقال رسول الله ﷺ « ياعمرو ابن زرارة إن الله عز وجل قد أحسن كل شيء يا عمرو إن الله لا يحب المسبلين». وأخرج أحمد والطبراني عن الشريد بن سويد قال: «أبصر النبي ﷺ رجلا قد أسبل إزاره فقال ارفع إزارك ، فقال: يا رسول الله إني أحنف تصطك ركبتاي، فقال: ارفع إزارك كل خلق الله حسن».

﴿ وبدأ خلق الإنسان ﴾ يعنى آدم خلقه ﴿ من طين ﴾ فصار على صورة بديعة ، وشكل بديع حسن ﴿ ثم جعل نسله ﴾ أي ذريته ﴿ من سلالة ﴾ أي نطفة؛سميت الذرية سلالة لأنها تنسل من الأصل ، وتنفصل عنه ، وقد تقدم تفسيرها في سورة المؤمنين، والمذكور هنا صفة آدم، ثم صفة ذرية آدم ﴿ من ماء مهين ﴾ أي ممتهن لا خطر له عند الناس ، وهو المني . وقال الزجاج:من ماء ضعيف .

﴿ ثم سواه ﴾ أي الإنسان الذي بدأ خلقه من طين وهو آدم ، أو جميع النوع ، والمراد انه عدل خلقه وسوى شكله ، وقومه وناسب بين أعضائه على ما ينبغي كقوله في أحسن تقويم .

﴿ ونفخ فيه من روحه ﴾ أي جعله حياً حساساً بعد أن كان جماداً ، وبالإضافة للتشريف والتكريم ، وهذه الاضافة تقوي أن الكلام في آدم لا في ذريته ، وإن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع ، وقيل للتخصيص ، أي نفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبعلمه ، والأول أولى ثم خاطب جميع النوع فقال :

﴿ وجعل لكم ﴾ وفيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب ، ولم يخاطبهم قبل ذلك لأن الخطاب إنما يكون مع الحي فلما قال ونفخ فيه من روحه خاطبه بعد ذلك **وقال**: وجعل لكم :

﴿ السمع ﴾ أي الأسماع ﴿ والأبصار ، والأفئدة ﴾ أي القلوب تكميلاً لنعمته عليكم ، وتتميماً لتسويته لخلقكم، حتى تجتمع لكم هذه النعم ، فتسمعون كل مسموع،وتبصرون كل مبصر ، وتعقلون كل متعقل ، وتفهمون كل ما يفهم ، وأفرد السمع لكونه مصدراً يشمل القليل والكثير ، وخص السمع بذكر المصدر دون البصر والفؤاد ، فذكرهما بالاسم ، ولهذا جمعا لأن السمع قوة واحدة . ولها محل واحد ، وهو الأذن ، ولا اختيار لها فيه ، فإن الصوت يصل إليها ولا يقدر على رده ، ولا على تخصيص السمع ببعض المسموعات دون بعض ؛ بخلاف الأبصار فمحلها العين ، وله فيه اختيار ، فإنها تتحرك إلى جانب المرئي دون غيره ، وتطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشيء ، وكذلك الفؤاد له نوع اختيار في إدراكه فيتعقل هذا دون هذا ، ويفهم هذا دون هذا .

﴿ قليلاً ما ﴾ أي شكراً قليلاً ، أو زماناً قليلاً ﴿ تشكرون ﴾ وفي هذا بيان لكفرهم لنعم الله ، وتركهم لشكرها إلا فيما ندر من الأحوال .

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

﴿ وقالوا ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أباطيلهم ، بطريق الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة ، إيذاناً بأن ما ذكر من عدم شكرهم لتلك النعم موجب للإعراض عنهم ، وتعديد جناياتهم : ﴿ أئـذا ضللنا في الأرض ﴾ الضـلال الغيبوبة يقال ضل الميت في التراب إذا غاب وبطل ، والعرب تقول للشيء إذا غلب عليه غيره ، حتى خفي أثره : قد ضل . قال قطرب : المعنى غبنا في الأرض ، قرىء ضللنا بفتح ضاد معجمة ، ولام مفتوحة ، بمعنى : ذهبنا ، وضعنا ، وصرنا تراباً ، وغبنا عن الأعين بالدفن فيها . وقرىء : ضللنا بكسر اللام ، وهي لغة العالية من نجد . قال الجوهري : وأهل العالية يقولون: ضللت بالكسر ، قال وأضله أي أضاعه ، وأهلكه ، يقال ضل الميت إذا دفن .

وقرىء صللنا بصاد مهملة ، ولام مفتوحة أي أنتنا ، وبها قرأ عليّ ، والحسن ، والأعمش ، وأبان بن سعيد . قال النحاس : ولا يعرف في اللغة صللنا ، ولكن يقال : صل اللحم إذا أنتن . قال الجوهري : صل اللحم ، يصل بالكسر صلولاً إذا أنتن ، مطبوخاً ، كان أو نيئاً ، والعامل في إذا محذوف تقديره : نبعث ، أو نخرج لدلالة قوله :

﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾ عليه أي نبعث ونصير أحياء ، والهمزة للاستنكار ، وهذا قول منكري البعث من الكفار ، فأضرب الله سبحانه من بيان كفرهم بإنكار البعث إلى بيان ما هو أبلغ منه ، وهو كفرهم بلقاء الله فقال:

﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ أي : جاحدون له مكابرة وعناداً ، فإن اعترافهم بأنه المبدىء للخلق ، يستلزم اعترافهم بأنه قادر على الإعادة ، ثم أمر

الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يبين لهم الحق ، ويرد عليهم ما زعموه من الباطل فقال :

﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ يقال:توفاه الله واستوفى روحه ، إذا قبضه إليه ، وملك الموت هو عزرائيل[1] وقال ذلك هنا ، وقال في الأنعام : توفته رسلنا ، وفي الزمر : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، ولا منافاة لأن الله تعالى هو المتوفي حقيقة بخلق الموت ، وأمر الوسائط بنزع الروح ، وهم غير ملك الموت أعوان له ينزعونها من الأظافر الى الحلقوم فصحت الإضافات كلها ، والتفعيل والاستفعال يلتقيان في مواضع مثل : تقضيته ، واستقضيته ، وتعجلته ، واستعجلته .

﴿ الذي وكل بكم ﴾ أي : بقبض أرواحكم عند حضور آجالكم ، قيل : إن ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه ، ثم يأمر أعوانه بقبضها والله تعالى هو الآمر بذلك، وهذا وجه الجمع بين الآيات كما تقدم ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي : تصيرون إليه تعالى أحياء بالبعث والنشور ، لا إلى غيره فيجازيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿ ولو ترى ﴾ لو امتناعية وجوابه محذوف ، أي لرأيت أمراً فظيعاً ، وهولاً هائلاً ، لا يقدرقدره، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . قال الزجاج والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مخاطبة لأمته ؛ فالمعنى:ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب ، أو الخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائناً من كان،إذ المراد بيان كمال سوء حالهم ، وبلوغها من الفظاعة إلى حيث لا يختص استغرابها واستعظامها براء دون راء ، ممن اعتاد مشاهدة الأمور البديعة ، والدواهي الفظيعة ، بل كل من تتأتى منه الرؤية

---

(١) لم يثبت أن ملك الموت اسمه هكذا،وملك الموت اسم جنس للملائكة التي تتولى قبض الأرواح بدليل قوله تعالى « توفته رسلنا وهم لا يفرطون » وفي الحديث « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش » ولم يقل وعزرائيل ، ولم يرد اسم عزرائيل في خبر معتبر والله أعلم . المطيعي .

يتعجب من هولها وفظاعتها ، ويجوز أن يكون ﴿ لو ﴾ للتمني ، والمضي فيها وفي ﴿ إذ ﴾ لأن الثابت في علم الله بمنزلة الواقع .

﴿ إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم ﴾ المراد بهم هم القائلون : أئذا ضللنا في الأرض ، ويجوز أن يراد بالمجرمين كل مجرم ، ويدخل فيه أولئك القائلون دخولاً أولياً ، والمعنى : مطأطئوها وخافضوها حياء وندماً على ما فرط منهم في الدنيا من الشرك بالله ، والعصيان له .

﴿ عند ربهم ﴾ أي عند محاسبته لهم ﴿ ربنا ﴾ أي : يقولون ربنا ﴿ أبصرنا ﴾ الآن ما كنا نكذب به ﴿ وسمعنا ﴾ ما كنا ننكره ، وقيل أبصرنا صدق وعيدك ، وسمعنا تصديق رسلك ؛ فهؤلاء أبصروا حين لم ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع .

﴿ فارجعنا ﴾ إلى الدنيا ﴿ نعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ كما أمرتنا ، وحسبما تقضيه تلك الآيات ﴿ إنا موقنون ﴾ أي مصدقون ، وقيل مصدقون بالذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وصفوا أنفسهم بالإيقان الآن طمعاً فيما طلبوه من إرجاعهم إلى الدنيا وأنى لهم ذلك ؟ فقد حقت عليهم كلمة الله فإنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . وقيل : هذا ادعاء منهم لصحة الأفئدة ، والاقتدار على فهم معاني الآيات ، والعمل بموجبها ، كما أن قبله ادعاء لصحة صفتي البصر والسمع ، كأنهم قالوا أيقنا وكنا من قبل لا نعقل شيئاً أصلاً ، وإنما عدلوا إلى الجملة الاسمية المؤكدة إظهاراً لثباتهم على الإيقان ، وكمال رغبتهم فيه ، وكل ذلك للجد في الاستدعاء طمعاً في الاجابة إلى ما سألوه من الرجعة ، وقيل معنى إنا موقنون ، أنها قد زالت عنهم الشكوك التي كانت تخالطهم في الدنيا ، لما رأوا ما رأوا وسمعوا ما سمعوا . قيل والمعنى صرنا نسمع ونبصر ، فلا يحتاج الى تقدير مفعول ، ثم رد الله عليهم لما طلبوا الرجعة بقوله :

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥)﴾

﴿ ولو شئنا لآتينا ﴾ أعطينا ﴿ كل نفس هداها ﴾ أي رشدها ، وتوفيقها إلى الإيمان يعني ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا جميعاً ، فلم يكفر منهم أحد ؛ ولكن لم نعطهم ذلك اللطف لما علمنا منهم اختيار الكفر ، وإيثاره ، وهو حجة على المعتزلة فانهم أولوا الآية بمشيئة الجبر ، وهو تأويل فاسد . قال النحاس : في معنى هذا قولان أحدهما أنه في الدنيا ، والآخر أنه في الآخرة ، أي : لو شئنا لرددنا إلى الدنيا .

﴿ ولكن حق القول مني ﴾ أي نفذ قضائي ، ووجب قدري ، وسبقت كلمتي ، وثبت وعيدي .

﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ هذا هو القول الذي وجب من الله ، وحق على عباده ، ونفذ فيه قضاؤه ، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطى كل نفس هداها ، وإنما قضى عليهم بهذا لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة ، وأنهم ممن يختار الضلالة على الهدى ، وقدم الجن لأن المقام مقام تحقير ، ولأن الجهنميين منهم أكثر فيما قيل ، ولا يلزم من قوله : أجمعين دخول جميع الإنس والجن فيها ، لأنها تفيد عموم الأنواع لا الأفراد ، قاله بعض المحققين ، ورد بأنه لو قصد ما ذكر كان المناسب التثنية دون الجمع بأن يقول : كليهما ، فالظاهر أنها لعموم الأفراد ، والتعريف فيهما للعهد،والمراد عصاتهما ، ويؤيده قوله في آية أخرى خطاباً لإبليس : ﴿**لأملأن** جهنم منك ، وممن تبعك منهم أجمعين﴾،قاله الشهاب .

وفي تخصيص الانس والجن إشارة الى أنه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنم .

﴿ فذوقوا ﴾ أي : العذاب ، والفاء لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله ، أي فإذا دخلوا النار ، قالت لهم الخزنة : ذوقوا ؛ قاله مقاتل واستعار الذوق للإحساس ، وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس،وإن لم يكن مطعوماً لإحساسها به كإحساس الذائقة بذوق المطعوم .

﴿ بما نسيتم لقاء يومكم ﴾ الباء للسببية ، وفيه إشعار بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق القول المتقدم ، بل بذاك واختلف في النسيان المذكور ههنا ، فقيل : هو النسيان الحقيقي ، وهو الذي يزول عنده الذكر .

وقيل هو الترك ، قاله الضحاك ، ويحيى بن سلام . والمعنى على الأول أنهم لم يعملوا لذلك اليوم فكانوا كالناسين له ، وعلى الثاني لا بد من تقدير مضاف قبل اللقاء أي : فذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاءيومكم هذا،ورجح الثاني المبرد ، قال الرازي في تفسيره: إن اسم الاشارة في قوله ﴿ هذا ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:أن يكون إشارة إلى اللقاء،وأن يكون إلى اليوم ، وأن يكون إلى العذاب .

﴿ إنا نسيناكم ﴾ أي تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعل الناس قطعاً لرجائكم قال يحيى : المعنى نسيناكم بما تركتم الايمان بالبعث في هذا اليوم ، تركناكم من الخير ، وكذا قال السدي ، وقال مجاهد : تركناكم في العذاب .

﴿ وذوقوا ﴾ تكرير هذا للتأكيد والتشديد ، ولتبيين المفعول المطوي للذوق وللإشعار بأن سببه ليس مجرد النسيان ، بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصي ، التي كانوا مستمرين عليها في الدنيا ﴿ عذاب الخلد ﴾ أي الدائم الذي لا انقطاع له ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي ، والتكذيب .

﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾ مستأنفة لبيان من يستحق الهداية إلى الإيمان ومن لا يستحقها ، والمعنى : إنما يصدّق بآياتنا وينتفع بها ﴿ الذين إذا ذكروا بها ﴾ لا غيرهم ممن يذكر بها أي : يوعظ بها ، ولا يتذكر ، ولا يؤمن بها .

﴿ خروا سجداً ﴾ أي : سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيماً لآيات الله ، وخوفاً من سطوته وعذابه وتواضعاً، وخشوعاً ، وشكراً على ما رزقهم من الاسلام .

﴿ وسبحوا بحمد ربهم ﴾ أي نزّهوه عن كل ما لا يليق به متلبسين بحمده على نعمه ، التي أجلُّها وأكملها الهداية الى الايمان بالآيات،قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في شأن الصلوات الخمس ، ومعنى الآية قالوا في سجودهم:سبحان الله وبحمده،أو سبحان ربي الأعلى وبحمده .

وقال سفيان : المعنى صلوا حمداً لربهم ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ عن الايمان به ، والسجود له كما استكبر أهل مكة عن السجود ، أي حال كونهم خاضعين لله متذللين له ، غير مستكبرين عليه .

وقال ابن عباس : لا يستكبرون عن اتيان الصلاة في الجماعات ، قيل : هذه من عزائم سجود القرآن للقارىء والمستمع .

قال سليمان الجمل والمراد بالآيات في هذه الآية إن كان مطلق القرآن ـ وإن لم تكن فيه آية سجدة ـ أشكل قوله خروا سجداً فإن السجود لا يشرع لتلاوة القرآن إلا إذا كان فيه آية سجدة من آيات السجود المعروفة ، وإن كان المراد بها خصوص آيات السجدات أشكل قوله إذا ذكروا بها ، مع تفسير التذكير بالوعظ كما ذكروه ووجه الاشكال أن أكثر آيات السجدات بل كلها ليس فيها وعظ أي تخويف وتذكير بالعواقب ، إذ هذا حقيقة الوعظ بل غالبها لمدح الساجدين تصريحاً وذم غيرهم تلويحاً كهذه الآية،وقد يكون بعكس ذلك أي ذم غير الساجدين تصريحاً ، ومدح الساجدين تلويحاً ، كآية الانشقاق ، فليتأمل فلم نر من المفسرين من بينّ هذا ، ولا من تعرض له انتهى .

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ استئناف ، أو حال ، أي ترتفع وتنبو وتتنحى يقال جفا الشيء عن الشيء وتجافى عنه إذا لم يلزمه ، ونبا عنه وتنحى قال الزجاج ، والرماني،التجافي والتجفي إلى جهة فوق ؛ وكذلك هو في الصفح عن المخطىء في سب ونحوه ، والجنوب جمع جنب ، أي متجافية جنوبهم عن مضاجعهم ، والمضاجع جمع مضجع ، وهو الموضع الذي يضطجع فيه، وهم المتهجدون في الليل الذين يقومون للصلاة عن الفراش، وبه قال الحسن ومجاهد وعطاء، والجمهور.

والمراد بالصلاة صلاة التنفل بالليل من غير تقييد،وقال قتادة ، وعكرمة هو النفل ما بين المغرب والعشاء وبه قال أبو حازم ، ومحمد بن المنكدر،وقيل هي صلاة الأوّابين، وقيل صلاة العشاء فقط وهو رواية عن الحسن وعطاء . وقال الضحاك صلاة العشاء والصبح في جماعة ، وقيل هم الذين يقومون لذكر الله ، سواء كان في صلاة أو غيرها .

عن أنس بن مالك أن هذه الآية نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى : العتمة ، وعنه قال : نزلت في صلاة العشاء ، وعنه قال : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء ، وعنه قال : كنا نجتنب الفراش قبل صلاة العشاء .

وعنه قال : ما رأيت رسول الله ﷺ راقداً قط قبل صلاة العشاء ولا متحدثاً بعدها : فإن هذه الآية نزلت في ذلك .

وعن ابن عباس في الآية أن النبي ﷺ قال : « هم الذين لا ينامون قبل صلاة العشاء » ، فأثنى عليهم ، فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه ، فوقتها قبل أن ينام الصغير ، ويكسل الكبير . أخرجه ابن مردويه .

وعن بلال قال : كنا نجلس في المسجد وناس من أصحاب رسول

الله ﷺ يصلون بعد المغرب العشاء ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع .

وعن أنس نحوه وعنه قال : كانوا ينتظرون ما بين المغرب والعشاء يصلون .

وعن معاذ بن جبل قال : قيام العبد من الليل ، وعنه عن النبي ﷺ - وذكر حديثاً ، وأرشد فيه الى أنواع من الطاعات - وقال فيه : وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم قرأ هذه الآية أخرجه أحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجة . والحاكم وصححه ، والبيهقي . وغيرهم .

وعن أبي هريرة مرفوعاً في حديث قال فيه : وصلاة المرء في جوف الليل . ثم تلا هذه الآية أخرجه ابن مردويه .

وعن أنس في الآية قال : كان لا تمر عليهم ليلة إلا أخذوا منها . وأشهر الأقاويل أن المراد منه صلاة الليل ، وبه قال جماعة من أهل العلم - وقد ورد في فضل قيام الليل - والحث عليه من الأحاديث الصحيحة ما هو مذكور في كتب السنة .

وعن كعب قال :إذا حشر الناس نادى مناد هذا يوم الفصل . أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ الحديث رواه أحمد . وعن ابن عباس يقول: كلما استيقظوا ذكروا الله ، إما في الصلاة ، وإما في القيام ، أو قعوداً أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله .

﴿ يدعون ﴾ أي تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين ﴿ ربهم خوفاً ﴾ من عذابه ﴿ وطمعاً ﴾ في رحمته ، قال ابن عباس خوفاً من النار ، وطمعاً في الجنة . وفيه دليل على صحة العبادة ، والدعاء بالخوف والطمع ، وقد حققنا ذلك في هداية السائل ، فليرجع اليها .

﴿ ومما رزقناهم ﴾ أي من الذي رزقناهم ، أو من رزقهم ﴿ ينفقون ﴾ وذلك الصدقة الواجبة ، وقيل صدقة النفل،والأولى الحمل على العموم .

﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ النكرة في سياق النفي تفيد العموم ، أي لا تعلم نفس من النفوس أي نفس كانت ما أخفاه الله

سبحانه لأولئك الذين تقدم ذكرهم مما تقر بـه أعينهم ، قال أبـو السعود:أي لا ملك مقـرب ، ولا نبي مـرسـل ، فضـلاً عـما عـداهم ، وقيـل : المـراد لا تعلم نفس مـا أخفى لهم علماً تفصيلياً ، وإلا فنحن نعلم ما أُعدّ للمؤمنين من النعيم إجمالاً من حيث انه غرف في الجنة ، وقصور ، وأشجار ، وأنهار ، وملابس ، ومآكل وغير ذلك - قرىء (قرة) بالافراد، وقرأت بالجمع ، وقرىء ما أخفي بسكون الياء على أنه فعل مضارع مسند الى الله سبحانه ، وقرىء بفتحها فعـلاً ماضياً مبنياً للمفعول ، وما نخفي بالنون مضمومة ، ويخفي بالتحتية .

قال ابن عباس : كان عرش الله على الماء فاتخذ جنة لنفسـه ، ثم اتخذ دونها أخرى ، ثم أطبقهما بلؤلؤة واحدة ، ثم قال ومن دونهما جنتان ، لم يعلم الخلق ما فيهما ، وهي التي قال الله : فلا تعلم نفس مـا أخفي لهم من قرة أعين تـأتيهم منها كـل يوم تحفـة . وعنه قـال:هذا ممـا لا تفسير لـه،وعن ابن مسعود قال : انه لمكتوب في التوراة : لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع مـا لم تر عين ، ولم تسمـع أذن ، ولم يخطر على قلب بشـر ، ولا يعلم ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، وانه لفي القرآن : فلا تعلـم نفس مـا أخفي لهم من قرة أعين . وأخـرج البخاري ، ومسلـم وغيـرهمـا عن أبي هـريـرة ، عن رسول الله ﷺ : قـال الله : [أعددت لعبـادي الصـالحين مـا لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر][1] قال أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم :﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾

وفي الباب أحاديث عن جماعة من الصحـابة ، وهي معـروفة فـلا نطول بذكرها ، وقيل أخفوا أعمالهم فـأخفى الله ثوابهم ، وفيـه دليل على أن المـراد الصلاة في جوف الليل ، ليكون الجزاء وفاقاً ، ثم بين سبحانـه أن ذلك بسبب أعمالهم الصالحة ، فقال :

﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي لأجل الجزاء بما كانوا يعملونه في الدنيا من الطاعات أو جوزوا جزاء بذلك .

---

(١) تقدم ذكره .

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ ﴾ الاستفهام للانكار أي ليس المؤمن كالفاسق . فقد ظهر ما بينهما من التفاوت والتباين ، ولهذا قال ﴿ لا يستوون ﴾ ففيه زيادة تصريح لما أفاده الانكار الذي أفاده الاستفهام على أبلغ وجه وآكده ليبني عليه التفصيل الآتي ، قال الزجاج جعل الاثنين جماعة حيث قال لا يستوون ، لأجل معنى ﴿ من ﴾ وقيل لكون الاثنين أقل الجمع . وقيل أراد الجنس منهما ، ولم يرد مؤمناً واحداً ، ولا فاسقاً واحداً ، وهذا أولى ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وفي السمين أنه ﷺ كان يتعمد الوقف على فاسقاً ، ويبتدى بقوله لا يستوون . أي في المآل ، والمستقر ، أو في الشرف والمثوبة ، والضمير فيه لمن الواقعة على الفريقين ، وفيه مراعاة معناها بعد مراعاة لفظها ، والمراد بالفسق الكامل بقرينة المقابلة للمؤمنين ، وإلا فالمؤمن قد يكون فاسقاً ، ونظيره : ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾؟وقوله :﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات﴾ الآية ، إذ ليس كل مجرم ومسيء كافراً .

وعن ابن عباس قال : قال الوليد بن عتبة لعلي بن أبي طالب :أنا أحدُّ منك سناناً ، وأشجع جناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ حشواً للكتيبة منك فقال له علي : اسكت فإنما أنت فاسق ، فنزلت هذه الآية ، يعني بالمؤمن علياً ، وبالفاسق الوليد وروى نحو هذا عن عطاء بن يسار ، والسدي ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، ثم بين سبحانه عاقبة حال الطائفتين وبدأ بالمؤمنين

فقال :

﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى ﴾ قرىء بالجمع وبالإفراد ، والمأوى هو الذي يأوون اليه ، وأضاف الجنات اليه لكونه المأوى الحقيقي . وقيل : المأوى جنة من الجنات تأوى إليها أرواح الشهداء ، وقيل : هي عن يمين العرش ، وقد تقدم الكلام على هذا .

﴿ نزلاً ﴾ أي : إنها معدة لهم عند نزولهم ، وهو في الأصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب ، إكراماً له كما بيناه في آل عمران ، وقرىء نزلاً بسكون الزاي ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ أي بسبب ما كانوا يعملونه ، وليس المراد السبب الحقيقي ، حتى يخالف حديث (لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله) . بل ما يفضي الى الجنة بمقتضى وعد الله تعالى ثم ذكر الفريق الآخر فقال :

﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ أي خرجوا عن طاعة الله ؛ وتمردوا عليه وعلى رسله بالكفر والتكذيب ، واعلم أن العمل الصالح له مع الايمان تأثير ، فلذلك قال:آمنوا وعملوا الصالحات ، وأما الكفر فلا التفات الى الأعمال معه ، فلهذا لم يقل وعملوا السيئآت ، لأن المراد من قوله فسقوا كفروا ، ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل ؛ لظُنَّ أن مجرد الكفر لا عقاب عليه ﴿ فمأواهم النار ﴾ أي منزلهم الذي يصيرون إليه ، ويستقرون فيه هو النار .

﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ أي إذا أرادوا الخروج منها أعيدوا إليها راغمين مكرهين ، وقيل إذا دفعهم اللهب إلى أعلاها رُدّوا إلى مواضعهم ، وكلمة ﴿ في ﴾ للدلالة على أنهم مستقرون فيها ، وإنما الإعادة من بعض طبقاتها الى بعض .

﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ والقائل لهم هذه المقالة هم خزنة جهنم من الملائكة أو القائل لهم هو الله عز وجل وفي هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا في النار من الاغاظة لهم ما لا يخفى وهذا دليل على أن المراد بالفاسق الكافر إذ التكذيب يقابل الايمان .

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ وهو عذاب الدنيا، قال الحسن ، وأبو العالية ، والضحاك ، والنخعي : هو مصائب الدنيا وأسقامها ،وقيل: الحدود ، وقيل : القتل بالسيف يوم بدر ، وقيل :سني الجوع بمكة سبع سنين ، حتى أكلوا فيها الجيف والعظام ، والكلاب . وقيل عذاب القبر . ولا مانع من الحمل على الجميع ، والذوق حسي ومعنوي .

﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ وهو عذاب الآخرة ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ مما هم فيه من الشرك والمعاصي بسبب ما ينزل بهم من العذاب ، إلى الايمان والطاعة ويتوبون عما كانوا فيه ، وفي هذا التعليل دليل على ضعف قول من قال :إن العذاب الأدنى هو عذاب القبر ، قال ابن مسعود: العذاب الأدنى يوم بدر ، والعذاب الأكبر يوم القيامة ، لعل من بقي منهم أن يتوب فيرجع ، وعنه قال :العذاب الأدنى سنون أصابتهم لعلهم يتوبون ، وقال أُبي بن كعب العذاب الأدنى مصائب الدنيا ، والروم والبطشة والدخان،وعنه قال:يوم بدر، وقال ابن عباس :الحدود . قال الكرخي :وفي هذا الترجي وجهان : أحدهما معناه لنذيقنهم إذاقة الراجين ، كقوله : إنا نسيناكم يعني تركناكم كما يترك الناسي ، حيث لا يلتفت إليه أصلاً فكذلك ههنا . والثاني نذيقهم العذاب إذاقة ـ يقول القائل اذا رآهم ـ لعلهم يرجعون بسببه انتهى .

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ أي : لا أحـد أظلم منه لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الاقبال على الايمـان والطاعـة ، فجعل الإعراض مكان ذلك ، والمجيء بثم للدلالة على استبعاد ذلك وأنه مما ينبغي أن لا يكون ، والاستفهام إنكاري .

﴿ إنـا من المجرمين منتقمـون ﴾ أي : من أهل الاجـرام على العموم ، فيدخل فيه من أعرض عن آيات الله دخولاً أولياً قال أبـو السعود : أي كـل من اتفق منـه إجرام ـ وإن هـانت جريمتـه ـ فكيف بمن هو أظلم من كـل ظـالـم ؟ وأشد جرماً من كل مجرم ؟ .

أخرج ابن منيع وابن جرير وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وغيرهم ـ قـال السيوطي بسند ضعيف ـ عن معاذ بن جبل : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ثـلاث من فعلهن فقد أجـرم : من عقد لـواء في غير حق ، أو عق والـديه ، أو مشى مع ظالم لينصره فقد أجرم ، يقول الله : إنـا من المجرمين منتقمـون » . قال ابن كثير بعد اخـراجه : هذا حديث غريـب .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أي : التوراة ، وانما ذكر موسى لقـربه من النبي ﷺ ووجـود من كان على دينـه الزامـاً لهم : وانما لم يختـر عيسى عليـه السـلام للذكر والاستـدلال ، لأن اليهود مـا كانـوا يوافقـون على نبوتـه ، وأمـا النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام ، فتمسك بالمجمع عليه .

﴿ فلا تكن ﴾ يا محمد ﴿ في مرية ﴾ أي شـك ، وريبة ﴿ من لقائـه ﴾ قال الواحـدي : قال المفسـرون وعد رسـول الله ﷺ أنه سيلقى مـوسى قبل أن يموت ثم لقيه في السماء أو في بيت المقدس حين أسـري به ، وهذا قول مجاهد والكلبي والسدي ، وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة ، وستلقاه فيها وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى للكتاب ، قاله الزجاج وقال الحسن : إن معناه ولقد آتينا موسى الكتاب فكذب وأوذي ، فلا تكن في

شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى ، فيكون الضمير في لقائه على هذا الى محذوف والمعنى من لقائه : ما لاقى موسى ، قال النحاس : وهذا قول غريب .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى قل : يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ، فلا تكن في مرية من لقائه ، فجاء معترضاً بين ولقد آتينا موسى الكتاب ، وبين قوله الآتي ، وجعلناه هدى لبني إسرائيل .

وقيل الضمير راجع إلى الكتاب الذي هو الفرقان ، كقوله : **﴿وإنك لتلقى القرآن﴾** ، والمعنى إنا قد آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي ، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ونظيره ، وما أبعد هذا ؟ ولعل الحامل لقائله عليه قوله : **﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾** فإن الضمير راجع إلى الكتاب ، وقيل : إن الضمير في لقائه عائد إلى الرجوع المفهوم من قوله : **﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾** ، أي لا تكن في مرية من لقاء الرجوع وهذا بعيد جداً ، قال السمين : وهذه أقوال بعيدة ذكرت للتنبيه على ضعفها ، وأظهرها أن الضمير إما لموسى ، وإما للكتاب ، أي لا تَرْتَبْ في أن موسى لقي الكتاب ، وأنزل عليه .

وقد أخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما من حديث ابن عباس قال قال النبي ﷺ : رأيت ليلة أسرى بي موسى بن عمران رجلاً طويلاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض ، سبط الرأس ، ورأيت مالكاً خازن جهنم ، والدجال في آيات اراهن الله إياه ، قال **﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾** ، فكان قتادة يفسرها أن النبي ﷺ قد لقي موسى .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه والضياء في المختارة بسند ـ قال السيوطي صحيح .

عن ابن عباس عن النبي ﷺ ، فلا تكن في مرية من لقائه قال : من لقاء موسى ، قيل أو لقي موسى ؟ قال نعم ألا ترى إلى قوله واسأل من أرسلنا من

قبلك من رسلنا ؟ .

وروى البخاري عن أنس أن النبي ﷺ قال أتيت على موسى ليلة المعراج عند الكثيب الأحمر ، وهو قائم يصلي في قبره .
وصح في حديث المعراج أيضاً أنه رآه في السماء السادسة ، فلعل رؤيته كانت في قبره قبل صعوده إلى السماء ، ثم صعد إليها فوجده هناك قد سبقه لما يريده الله ، وهذا وجه الجمع بين هذين الحديثين ، على ما ذكره الخازن . واختلف في الضمير في قوله :

﴿ وجعلناه ﴾ فقيل راجع إلى الكتاب أي جعلنا التوراة ﴿ هدى لبني إسرائيل ﴾ قاله الحسن وغيره ، وقال قتادة إنه راجع إلى موسى ، أي وجعلنا موسى هدى لبني إسرائيل .
﴿ وجعلنا منهم أئمة ﴾ أي قـادة يقتدون بهم في دينهم وهم الأنبياء الذين كانوا في بني إسرائيل ، وقيل هم أتباع الأنبياء ، وقيل العلماء قاله قتادة وقرىء أأمة .

قال النحاس: وهو لحن عند جميع النحويين ، لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة ﴿ يهدون ﴾ أي يدعونهم إلى الهداية بما يلقونه إليهم من أحكام التوراة ومواعظها ﴿ بأمرنا ﴾ لهم بذلك أو لأجل أمرنا .

﴿ لما صبروا ﴾ أي حين صبروا والضمير للأئمة ، وفي ﴿ لما ﴾ معنى الجزاء ، والتقدير لما صبروا جعلناهم أئمة ، أي لصبرهم ، وهذا الصبر هو صبرهم على مشاق التكليف والهادية للناس ، وقيل صبروا عن الدنيا ، وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس .

﴿ وكانوا بآياتنا ﴾ التنزيلية التي في تضاعيف الكتاب ﴿ يوقنون ﴾ أي يصدقون بها ، ويعلمون أنها حق ، وأنها من عند الله ، لمزيد تفكرهم ، وكثرة تدبرهم .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ أي يقضي بينهم ، ويحكم بين المؤمنين والكفار . وقيل يقضي بين الأنبياء وأممهم ، حكاه النقاش ﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فيظهر المحق من المبطل .

﴿ أو لم يهد لهم ﴾ أي أو لم يتبين لأهل مكة ؟ والهمزة للإنكار ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي أغفلوا ولم يتبين لهم . وقرىء : يهد بالتحتية وبالنون ، وهي واضحة ، والفاعل ما دل عليه قوله ﴿ كم أهلكنا ﴾ أي كثرة إهلاكنا ، وقال المبرد : إن الفاعل الهدى ، المدلول عليه بـ ﴿ يهدي ﴾ أي أو لم يهد لهم الهدى ﴿ من قبلهم ﴾ حال من قوله ﴿ من القرون ﴾ كعاد وثمود ، وقوم لوط ، ونحوهم .

﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ أي والحال أنهم يمشون في مساكن المهلكين ، ويشاهدونها ، وينظرون ما فيها من العبر ، وآثار العذاب ، ولا يعتبرون بذلك .

وقيل الضمير يعود إلى المهلكين ، والمعنى أهلكناهم حال كونهم ماشين في مساكنهم ، والأول أولى ، وقيل جملة مستأنفة بيان لوجه هدايتهم ، والمعنى يمرون في أسفارهم إلى التجارة على ديارهم وبلادهم ﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور

من كثرة إهلاكنا الأمم الخالية ﴿ لآيات ﴾ عظيمة ﴿ أفلا يسمعون ﴾ ويتعظون بها .

﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ أي : أو لم يعلموا بسوقنا الماء إلى الأرض التي لا تنبت إلا بسوق الماء إليها ؟ وقيل هي اليابسة وأصله من الجرز ، وهو القطع ، أي التي قطع نباتها لعدم الماء ، وأزيل بالمرة ، ولا يقال للتي لا تنبت أصلاً كالسباخ جرز لقوله الآتي: ﴿نخرج به زرعاً﴾ قال ابن عباس الجرز التي لا تُمطَر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً إلا ما يأتيها من السيول وعنه قال هي أرض باليمن .

وقيل: أبين،قال القرطبي في تفسيره والإسناد عن ابن عباس صحيح لا مطعن فيه،وقيل أرض عدن . قال الضحاك هي الأرض العطشاء ، وقال الفراء:هي الأرض التي لا نبات فيها،وقال الأصمعي هي الأرض التي لا تنبت شيئاً . قال المبرد يبعد أن يكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام . وقيل هي مشتقة من قولهم رجل جروز ، إذا كان لا يبقى شيئاً إلا أكله،وكذلك ناقة جروز ، إذا كانت تأكل كل شيء تجده،وقال مجاهد إنها أرض النيل لأن الماء إنما يأتيها في كل عام .

﴿ فنخرج به ﴾ أي : بالماء ﴿ زرعاً تأكل منه أنعامهم ﴾ أي من الزرع ، كالتبن والقصل ، والورق ، وبعض الحبوب المخصوصة بها ، ونحوها مما لا يأكله الناس ﴿ وأنفسهم ﴾ أي : يأكلون من الحبوب ، والثمار ، والأقوات الخارجة من الزرع مما يقتاتونه ، وقدم الأنعام لأن انتفاعها مقصور على النبات ، ولأن أكلها منه مقدم ، لأنها تأكله قبل أن يثمر ، ويخرج سنبله .

﴿ أفلا يبصرون ﴾ هذه النعم ويشكرون المنعم ويوحِّدونه، لكونه المتفرد بإيجاد ذلك ، وجعلت الفاصلة : يبصرون لأن الزرع مرئي ، وفيما قبله يسمعون لأن ما قبله مسموع ، أو ترقياً إلى الأعلى في الاتعاظ مبالغة في التذكير ، ودفع العذر .

﴿ ويقولون ﴾ بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاء . والقائلون هم الكفار على العموم ، أو كفار مكة على الخصوص ﴿ متى هذا الفتح ﴾ الذي تعدنا به ، يعنون بالفتح القضاء والفصل بين العباد ، وهو يوم البعث الذي يقضي الله فيه بين العباد ، قاله مجاهد وغيره ، قال الفراء ، والقتيبي : هو فتح مكة .

قال قتادة : قال أصحاب النبي ﷺ للكفار . إن لنا يوماً نتنعم فيه ونستريح ، ويحكم الله بيننا وبينكم ، يعنون يوم القيامة ، فقال الكفار : متى هذا الفتح ؟ وقال السدي : هو يوم بدر ، لأن أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون للكفار إن الله ناصرنا ، ومظهرنا عليكم ، وعن ابن عباس قال: يوم بدر فتح للنبي ﷺ فلم ينفع الذين كفروا إيمانهم بعد الموت ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تدعونه من نصر المؤمنين ، وإظهارهم على الكفار ، ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يجيب عليهم فقال :

﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ﴾ وفي هذا دليل على أن يوم الفتح هو يوم القيامة ، الذي هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ، لأن يوم فتح مكة ؛ ويوم بدر : كليهما مما ينفع الإيمان ، وقد أسلم أهل مكة يوم الفتح ، وقبل منهم ذلك النبي ﷺ . والمعنى : ولا يقبل منهم الإيمان ، والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم ؛ للتنبيه على أنه ليس مما ينبغي أن يسأل عنه لكونه أمراً بيناً وإنما المحتاج إلى البيان عدم نفع إيمانهم في ذلك اليوم كأنه قيل : لا تستعجلوا فكأني بكم قد آمنتم فلم ينفعكم واستنظَرتم فلم تُنظَروا ، والآية إن عمت غير المستهزئين فهي تعميم بعد تخصيص ، وإن خصت بهم فهو إظهار في مقام الإضمار تسجيلاً عليهم بالكفر ، وبياناً لعلة عدم النفع وعدم إمهالهم .

﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يمهلون ولا يؤخرون بتأخير العذاب عنهم ليتوبوا ويعتذروا ، ولما فتحت مكة هرب قوم من بني كنانة فلحقهم خالد بن الوليد ؛ فأظهروا الإسلام فلم يقبله منهم خالد وقتلهم .

﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي عن سفههم وتكذيبهم ، ولا تجبهم إلا بما أمرت به ﴿ وانتظر ﴾ يوم الفتح ، وهو يوم القيامة أو يوم إهلاكهم بالقتل ، وموعدي لك بالنصر عليهم ﴿ إنهم منتظرون ﴾ لإهلاككم ،أو انتظر عذابنا إياهم فهم منتظرون ذلك .

والآية منسوخة بآية السيف، وذلك قوله لاينفع . . الخ قاله ابن عباس ، وقيل غير منسوخة إذ يقع الإعراض مع الأمر بالقتال،وقرىء منتظرون بفتح الظاء ، مبنياً للمفعول . قال الفراء: لا يصح هذا إلا بإضمار أي إنهم منتظر بهم، قال أبو حاتم: الصحيح الكسر، أي انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك .





سورة الاحزاب

(هي ثلاث وسبعون آية)

قال ابن عباس : نزلت بالمدينة وعن ابن الزبير مثله وعن زر قال : قال لي أبي بن كعب : كأين تقرأ سورة الاحزاب أو كأين تعدها؟ قلت : ثلاثاً وسبعين آية فقال : قط؟ لقد رأيتها وانها لتعادل سورة البقرة ؛ أو أكثر من سورة البقرة . ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم . فرفع فيما رفع . قال ابن كثير : واسناده حسن .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد يا أيها الناس : ان الله بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها : الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما ألبتة . ورجم رسول الله ﷺ . ورجمنا بعده . فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله » . وقد روي عنه نحو هذا من طرق .

وعن عائشة قالت : كانت سورة الاحزاب تقرأ في زمان النبي ﷺ مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها الا على ما هو الآن .

قال النسفي : وأما ما يحكى أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾

﴿ يا أيها النبي ﴾ أي : يا أيها المخبر عنا ، المأمون على أسرارنا ، المبلغ خطابنا ، وإنما لم يقل : يا محمد كما قال : يا آدم ، يا موسى ، تشريفاً له ، وتنويهاً بفضله ، وتصريحه باسمه في قوله : محمد رسول الله ونحوه ، لتعليم الناس بأنه رسول الله ليلقبوه بذلك ، ويدعوه به .

﴿ اتق الله ﴾ أي : دم على ذلك وازدد منه ، فهو باب واسع ، وعرض عريض ، لا يدرك مداه ، ولا ينال منتهاه .

﴿ ولا تطع الكافرين ﴾ من أهل مكة ، ومن هو على مثل كفرهم ﴿ والمنافقين ﴾ الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر . قال الواحدي : إنه أراد سبحانه بالكافرين : أبا سفيان ، وعكرمة ، وأبا الأعور السلمي ، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ أرفض ذكر آلهتناء وقل إن لها شفاعة لمن عبدهاءقال : والمنافقين عبدالله بن أبيءوعبدالله بن سعد بن أبي سرح .

﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ أي : كثير العلم والحكمة بليغهما ، قال النحاس : « ودل بقوله هذا على أنه كان يميل إليهم يعني النبي ﷺ استدعاء لهم إلى الاسلام ، والمعنى أن الله عز وجل لو علم أن ميلك إليهم فيه منفعة لما

نهاك عنهم ، لأنه حكيم » ولا يخفى بعد هذه الدلالة التي زعمها ولكن هذه الجملة تعليل لجملة الأمر بالتقوى ، والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين ، والمعنى :أنه لا يأمرك أو ينهاك إلا بما علم فيه صلاحاً أو فساداً لكثرة علمه ، وسعة حكمته .

﴿واتبع ﴾ في جميع أمورك ﴿ ما يوحى إليك من ربك ﴾ من القرآن ولا تتبع شيئاً مما عداه من مشورات الكافرين والمنافقين ، ولا من الرأي البحت ، فإن فيما أوحي إليك ما يغنيك عن ذلك .

﴿ إن الله كان بما تعلمون خبيراً ﴾ تعليل لأمره باتباع ما أوحي إليه ، وتأكيد لموجبه ، والأمر له ﷺ أمر لأمته ، فهم مأمورون باتباع القرآن ، كما هو مأمور باتباعه ، ولهذا جاء بخطابه وخطابهم في قوله: بما تعلمون على قراءة الجمهور بالفوقية على الخطاب ، وقرىء بالتحتية ، والواو ضمير الكفرة والمنافقين ، أي : إنه خبير بمكايدهم ؛ فيدفعها عنك .

﴿ وتوكل على الله ﴾ أي اعتمد عليه وفوض أمورك إليه ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي حافظاً يحفظ من توكل عليه ، وقيل : كفيلاً برزقك ، وقال الزجاج : لفظه وإن كان لفظ الخبر فالمعنى اكتف بالله وكيلاً ، ثم ذكر سبحانه مثلاً توطئة وتمهيداً لما يتعقبه من الأحكام القرآنية التي هي من الوحي الذي أمره الله باتباعه فقال :

﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ وقيل : هي مثل ضربه الله للمظاهر ، أي : كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى تكون له أمان وكذلك لا يكون الدعي ابن الرجل ، وقيل كان الواحد من المنافقين يقول: لي قلب يأمرني بكذا، وقلب بكذا فنزلت الآية برد النفاق وبيان أنه لا يجتمع مع الإسلام ؛ كما لا يجتمع قلبان ، والقلب بضعة صغيرة على هيئة الصنوبرة خلقها الله وجعلها محلاً للعلم و﴿ من ﴾ زائدة وقال : في جوفه لأنه معدن الروح الحيواني المتعلق للنفس الإنساني ومنبع القوى بأسرها،فيمتنع

تعدده لأنه يؤدي إلى التناقض وهو أن يكون كل منهما أصلاً لكل القوى وغير أصل لها .

عن ابن عباس قال : قام النبي ﷺ يوماً يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه : الا ترى أن له قلبين قلباً معكم وقلباً معهم،فنزل ﴿ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾.

وعنه بلفظ:صلى النبي ﷺ صلاة،فسها فيها،فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون فقالوا : إن له قلبين ، فنزلت. وعنه أيضاً قال : كان رجل من قريش يسمى من دهائه : ذا القلبين فأنزل الله هذا في شأنه .

﴿ وما جعل أزواجكم اللائي تظاهـرون منهن أمهاتكم ﴾ قـرىء اللائي بياء ساكنة بعد همزة وبياء ساكنة بعد ألف محضة قال أبو عمرو بن العلاء: إنها لغة قريش التي أمر الناس أن يقرأوا بها وتظاهرون مضارع ظاهر،وقرىء مضارع تظاهر والأصل تتظاهرون وقرىء تظهرون والأصل تنظهرون ، وأخذ ذلك من لفظ الظهر كأخذ لبى من التلبية ، وإنما عُدّي بمن لأنه ضُمّن معنى التباعد ، كأنه قيل : متباعدين من نسائكم بسبب الظهار ، كما تقدم في تعدية الايلاء بمن في البقرة ـ

والظهار أصله أن يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي،والمعنى ما جعل الله نساءكم اللاتي تقولون لهن هذا القول كأمهاتكم في التحريم،ولكنه منكر من القول وزور ، وإنما تجب به الكفارة بشرطه ، وهو العود كما ذكر في سورة المجادلة بقوله : والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا أي نفسه بأن يخالفوه بإمساك المظاهر منها زمناً يمكنه أن يفارقها فيه أو لا يفارقها ، لأنه مقصود المظاهر وصف المرأة بالتحريم وإمساكها يخالفه قاله الكرخي .

﴿ وما جعل أدعياءكم ﴾ أي : وكذلك ما جعل الأدعياء الذين تدعون أنهم أبناؤكم ﴿ أبناءكم ﴾ والأدعياء جمع دعي ، وهو الذي يدعى ابناً لغير أبيه

فهو فعيل بمعنى مفعول،ولكن جمعه على أدعياء غير مقيس لأن أفعلاء إنما يكون جمعاً لفعيل،المعتل اللام إذا كان بمعنى فاعل؛ نحو تقي وأتقياء ، وغني وأغنياء ، وهذا وإن كان فعيلاً معتل اللام لأن أصله دعيو فأدغم إلا أنه بمعنى مفعول فكان القياس جمعه على فَعلى كقتيل وقتلى وجريح وجرحى ، ومريض ومرضى ، ونظير هذا في الشذوذ قولهم : أسير وأسارى ، والقياس أسرى ، وقد سمع فيه الأصل قاله السمين .

﴿ ذلكم ﴾ أي ما تقدم من ذكر الظهار والادعاء ﴿ قولكم بأفواهكم ﴾ أي ليس ذلك إلا مجرد قول بالأفواه ، ولا تأثير له في الخارج ،فلا تصير المرأة به أمه، ولا ابن الغير به إبناً ، ولا يترتب على ذلك شيء من أحكام الأمومة والبنوة .

وقيل : الإشارة راجعة إلى الادعاء أي : ادعاؤكم أن أبناء الغير أبناؤكم لا حقيقة له بل هو مجرد قول بالفم ؛ إذ الابن لا يكون إلا بالولادة وفيه نسخ التبني ، وذلك أن الرجل كان في الجاهلية يتبنى الرجل ، فيجعله كالابن المولود يدعوه إليه الناس ، ويرث ميراثه ، وكان النبي ﷺ أعتق زيد بن حارثة الكلبي وتبناه قبل الوحي وآخى بينه وبين حمزة،فلما تزوج زينب ـ وكانت تحت زيد ـ قال المنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه ، وهو ينهى الناس عن ذلك ، فأنزل الله هذه الآية ، ونسخ بها التبني .

قال النحاس : وهذا من نسخ السنة بالقرآن . قال القرطبي : أجمع أهل التفسير على أن هذا القول أنزل في زيد بن حارثة .

﴿ والله يقول الحق ﴾ الذي يحق اتباعه لكونه حقاً في نفسه ، لا باطلاً ، فيدخل تحته دعاء الأبناء لآبائهم ﴿ وهو يهدي السبيل ﴾ أي يدل على الطريق الموصلة إلى الحق ، وفي هذا إرشاد للعباد إلى قول الحق ، وترك قول الباطل والزور ، ثم صرح سبحانه بما يجب على العباد من دعاء الأبناء للآباء فقال:

ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ للصلب وانسبوهم إليهم ، ولا تدعوهم إلى غيرهم ؛ أخرج البخاري ، ومسلم وغيرهما، عن عمر أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : أدعوهم لآبائهم ، فقال رسول الله ﷺ أنت زيد بن حارثة بن شراحيل .

﴿هو أقسط عند الله﴾ تعليل للأمر بدعاء الابناء للآباء، والضمير راجع إلى مصدر : ادعوهم ومعنى أقسط : أعدل ، أي أعدل من كل كلام يتعلق بذلك فترك الإضافة للعموم ، كقوله : الله أكبر ، أو أعدل من قولكم : هو ابن فلان ، ولم يكن ابنه لصلبه ،وأقسط أفعل تفضيل ، قصد به الزيادة مطلقاً ، من القسط بمعنى العدل ، وانظر إلى فصاحة هذا الكلام ، حيث وصل الجمل الطلبية . ثم فصل الخبرية عنها ، ووصل بينها ؛ ثم فصل الاسمية عنها ووصل بينها،ثم فصل بالطلبية ثم تمم الإرشاد للعباد فقال :

﴿ فإن لم تعلموا آباءهم ﴾ تنسبونهم إليهم ﴿ فإخوانكم ﴾ أي فهم إخوانكم ﴿ في الدين ومواليكم ﴾ فقولوا : أخي ومولاي ، ولا تقولوا : ابن فلان حيث لم تعلموا آباءهم على الحقيقة ، قال الزجاج : مواليكم ، أي أولياؤكم في الدين .

وقيل المعنى: فان كانوا محررين ولم يكونوا أحراراً فقولوا : موالي فلان

﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ أي إثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأً من غير عمد قبل النهي ، فنسبتموه إلى غير أبيه ﴿ ولكن ﴾ الإثم .

﴿ ما تعمدت قلوبكم ﴾ وهو ما قلتموه على طريقة العمد ، من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم مع علمكم بذلك ، قال قتادة : لو دعوت رجلاً بغير أبيه وأنت ترى أنه أبوه ، لم يكن عليك بأس بخلاف الحال في زيد فإنه لا يجوز أن يقال فيه زيد بن محمد ، فإن قاله أحد متعمداً عصى بقوله هذا ، عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة أن النبي ﷺ قال : « من ادعى إلى غير أبيه ، وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » أخرجه البخاري ومسلم .

﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ يغفر للمخطىء ويرحمه ، ويتجاوز عنه . أو غفور للذنوب ، رحيماً بالعباد ، ومن جملة من يغفر له ويرحمه من دعا رجلاً لغير أبيه خطأً ، أو قبل النهي عن ذلك ، أو على سبق اللسان ؛ ثم ذكر سبحانه لرسوله مزية عظيمة ، وخصوصية جليلة ؛ لا يشاركه فيها أحد من العباد فقال :

﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ أي هو أحق بهم ، وأرأف ، وأشفق في كل ما دعاهم إليه من أمور الدين والدنيا ، فإن نفوسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم ، وهو يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم ، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم ، وإن كانوا محتاجين إليها ، ويجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبهم أنفسهم ، ويجب عليهم أن يقدموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم. وبالجملة فإذا دعاهم النبي ﷺ لشيء ودعتهم أنفسهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدموا ما دعاهم إليه ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم ويقدموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم وتطلبه خواطرهم .

وقيل : المراد بأنفسهم في الآية بعضهم فيكون المعنى أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض، وقيل هي خاصة بالقضاء أي هو أولى بهم من

أنفسهم فيما قضى بينهم،وقيل أولى بهم في الجهاد بين يديه وبذل النفس دونه . وقيل:أولى بهم أي أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم كقوله بالمؤمنين رؤوف رحيم .

وفي قراءة ابن مسعود: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم) وقال مجاهد : كل نبي أبو أمته ولذلك صار المؤمنون إخوة لأن النبي ﷺ أبوهم في الدين ،والأول أولى .

وقد أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرأوا إن شئتم:﴿**النبي أولى** بالمؤمنين من **أنفسهم**﴾فأيما مؤمن ترك مالاً فلترثه عصبته من كانوا فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه » .

وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن بريدة قال : غزوت مع عليّ اليمن فرأيت منه جفوة ،فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت علياً فنقصته فرأيت وجه رسول الله ﷺ تغير وقال ، يا بريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم قلت بلى يا رسول الله ﷺ قال : « من كنت مولاه فعليّ مولاه . »

﴿ وأزواجه ﴾ ﷺ سواء دخل بهن أو لا وسواء مات عنهن أو طلقهن ﴿ أمهاتهم ﴾ أي مثل أمهاتهم في الحكم بالتحريم ومنزَّلات منزلتهن في استحقاق التعظيم ، فلا يحل لأحد أن يتزوج بواحدة منهن ، كما لا يحل له أن يتزوج بأمه ،فهذه الأمومة مختصة بتحريم النكاح لهن تحريماً مؤبداً ، وبالتعظيم لجنابهن لا في النظر إليهن ، والخلوة بهن فإنه حرام في حقهن ، كما في حق سائر الأجانب،وتخصيص المؤمنين يدل على أنهن لسن أمهات نساء[1] المؤمنين ،

(١) إن أبسط مبادىء اللغة تقتضي شمول الذكران والإناث للتغليب ، وهي قضية من البداهة حيث =

ولا بناتهن أخوات المؤمنين ولا إخوتهن أخوال المؤمنين .

وقال القرطبي : الذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء كما يدل عليه قوله : ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة ، قال : ثم إن في مصحف أبيّ بن كعب وأزواجه أمهاتهم ، وهو أب لهم ، وقرأ ابن عباس بعد لفظ أنفسهم ، وهو أب وأزواجه أمهاتهم .

عن عائشة أن امرأة قالت لها يا أمه ، فقالت: «أنا أم رجالكم ولست أم نسائكم» . وعن أم سلمة قالت أنا: «أم الرجال منكم والنساء» .

وعن بجالة قال: مر عمر بن الخطاب بغلام وهو يقرأ في المصحف : وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم ، فقال: يا غلام حكّها، فقال: هذا مصحف أبي فذهب إليه فسأله ، فقال: إنه كان يلهيني القرآن ويلهيك الصفق في الأسواق وهن فيما وراء ذلك كالإرث ونحوه كالأجنبيات. ولهذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن ثم بين سبحانه أن القرابة أولى ببعضهم البعض فقال :

﴿ وأولو الأرحام ﴾ جمع رحم وهو القرابة ﴿ بعضهم أولى ﴾ أي أحق ﴿ ببعض ﴾ في الميراث ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنفال وهي ناسخة لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة . قال قتادة: لما نزل قوله سبحانه في سورة الأنفال ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ فتوارث المسلمون بالهجرة ثم نسخ ذلك بهذه الآية ، وكذا قال غيره .

ويحتمل أن يكون النسخ بآية الأنفال وهو قوله:﴿وأولو لأرحام بعضهم

= لا تحتاج إلى هذه الفنقيلات اللجوج فإذا قال الله «يا أيها الذين آمنوا» تناول نداؤه اللائي آمن ، وإذا قال : «إنما المؤمنون إخوة» دل على إخوة المؤمنات فأزواجه ﷺ أمهات المؤمنات كما هن أمهات ذكران المؤمنين . المطيعي .

أولى ببعض في كتاب الله﴾ قال الشهاب: وهذا الاحتمال أولى ، لأن سورة الأنفال متقدمة نزولاً على هذه السورة فنسبة النسيخ إليها أولى ، وتكون هذه الآية مؤكدة لتلك ،وقيل إن هذه الآية ناسخة للتوارث بالحلف والمؤاخاة في الدين ؛ وقيل معنى الآية لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر .

﴿ في كتاب الله ﴾ أي هذه الأولوية وهذا الاستحقاق كائن وثابت فيه والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو القرآن، أو آية المواريث ﴿ من المؤمنين والمهاجرين ﴾ المعنى إن ذوي القرابات من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض ، أو أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين الذين هم أجانب .

وقيل إن معنى الآية: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ إلا ما يجوز لأزواج النبي ﷺ من كونهن كالأمهات في تحريم النكاح،وفي هذا من الضعف ما لا يخفى ﴿ إلا ﴾ هذا الاستثناء إما متصل من أعم العام ، والتقدير أولى ببعض في كل شيء من الإرث وغيره إلا .

﴿ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً ﴾ من صدقة أو وصية فإن ذلك جائز ، قاله قتادة ، والحسن ، وعطاء ، ومحمد بن الحنفية قال ابن الحنفية نزلت في إجازة الوصية لليهودي والنصراني ، فالكافر وليّ في النسب لا في الدين فتجوز الوصية له ، قال في الخازن: إن الله لما نسخ التوارث بالحلف ، والإخاء ، والهجرة ، أباح أن يوصي الرجل لمن تولاه بما أحب من ثلث ماله ، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً ، والمعنى لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به وضمن (تفعلوا) معنى توصلوا أو تسدوا، فعُدّي بإلى . وقال مجاهد: أراد بالمعروف النصرة وحفظ الحرمة بحق الإيمان والهجرة ﴿ كان ذلك ﴾ أي نسخ الميراث بالهجرة والمحالفة والمعاقدة ورده إلى ذوي الأرحام من القرابات ﴿ في الكتاب ﴾ أي في اللوح المحفوظ ، أو في التوراة أو في القرآن ﴿ مسطوراً ﴾ مكتوباً .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩)﴾

﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾ كأنه قال : يا أيها النبي اتق الله واذكر أن الله أخذ ميثاق الأنبياء أو التقدير كان هذا الحكم مكتوباً في الكتاب ووقت أخذنا،قاله السمين ، قال قتادة أخذ الله الميثاق على النبيين خصوصاً على أن يصدق بعضهم بعضاً ويتبع بعضهم بعضاً ، وأن ينصحوا لقومهم وأن يعبدوا الله ويدعوا الناس إلى عبادته ، وإلى الدين القيم ، وأن يبلغوا رسالات ربهم ، وذلك حين أخرجوا من صلب آدم كالذر ـ وهو جمع ذرة ـ وهي أصغر النمل وهي صغيرة جداً ، بحيث إن نحو الأربعين منها أصغر من جناح بعوضة ـ والميثاق هو اليمين ، وقيل هو الإقرار بالله والوصية والأمر ، والأول أولى ، وقد سبق تحقيقه ، ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم ولغيرهم فقال :

﴿ومنك﴾ خصوصاً ﴿ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾ ووجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل لكونهم أصحاب الشرائع المشهورة ، والكتب المذكورة ، ومن أولي العزم من الرسل وتقديم ذكر نبينا ﷺ مع تأخر زمانه فيه من التشريف له والتعظيم ما لا يخفى،وتقديم نوح في آية : شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، لأنها سيقت لوصف ما بعث به نوح من العهد القديم ، وما بعث به نبينا ﷺ من العهد الحديث وما بعث به من توسطهما من الأنبياء المشاهير ، فكان تقديم نوح فيها أشد مناسبة للمقصود

من بيان أصالة الدين وقدمه ، قاله الكرخي . ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير ذكره ووصفه بالغلظ فقال :

﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ أي عهداً شديداً على الوفاء بما حملوا أو ما أخذه الله عليهم من عبادته والدعاء إليها ، ويجوز أن يكون قد أخذ الله عليهم الميثاق مرتين : فأخذه عليهم في المرة الأولى مجرد الميثاق بدون تغليظ ولا تشديد ، ثم أخذه عليهم ثانية مغلظاً شديداً ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ .

أخرج الطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي مريم الغساني أن اعرابياً قال : يا رسول الله أي شيء كان أول نبوتك قال: أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم ، ثم تلا هذه الآية الى قوله : ميثاقاً غليظاً ، ودعوة إبراهيم قال : وابعث فيهم رسولاً منهم ، وبشرى عيسى ابن مريم ، ورأت أم رسول الله ﷺ في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام .

وعن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله متى أخذ ميثاقك ؟ قال وآدم بين الروح والجسد،وعنه قال : قيل يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد،أخرجه البزار والطبراني،وفي الباب أحاديث قد صحح بعضها. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال في الآية: كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث ، فبدأ بي قبلهم . أخرجه ابن عساكر ، وابن مردويه ، وأبونعيم. وعن ابن عباس قال ميثاقهم عهدهم ، وعنه قال إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم .

﴿ ليسأل ﴾ أي لكي يسأل ﴿ الصادقين عن صدقهم ﴾ في تبليغ الرسالة الى قومهم تبكيتاً للكافرين بهم ، وفي هذا وعيد لغيرهم لأنهم إذا كانوا يسألون

عن ذلك فكيف غيرهم ؟ وقيل ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم كما في قوله ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ .وقوله ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾ . وقيل فعل ذلك ليسأل . وقيل :عن صدقهم عن عملهم لله عز وجل . وقيل : ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم في قلوبهم والكافرين عن تكذيبهم ، فاستغنى عن الثاني بذكر مسببه وهو قوله :

﴿ وأعد للكافرين ﴾ وقيل التقدير أثاب الصادقين ، وأعد للكافرين وقيل : المعنى أكد على الأنبياء الدعوة الى دينه ليثيب المؤمنين ، وأعد للكافرين ﴿ عذاباً أليماً ﴾ قاله السمين ،وقيل :الكلام قد تم عند قوله عن صدقهم وجملة ﴿ وأعد ﴾ مستأنفة لبيان ما أعده للكفار .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله ﴾ الكائنة ﴿ عليكم ﴾ هذا تحقيق لما سبق من الأمر بالتقوى بحيث لا يبقى معه خوف من أحد ﴿ إذ ﴾ أي حين .

﴿ جاءتكم جنود ﴾ والمراد بها جنود الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ وغزوه الى المدينة وهي الغزوة المسماة غزوة الخندق وكانت بعد حرب أحد بسنة[1] وهم أبو سفيان بن حرب بقريش ومن معهم من الألفاف،وعيينة ابن حصن الفزاري ومن معه من قومه غطفان ، وبنو قريظة والنضير فضايقوا المسلمين مضايقة شديدة كما وصف الله سبحانه في هذه الآيات ، وكانت هذه الغزوة في شوال سنة خمس من الهجرة قاله ابن اسحق . وقال ابن وهب ، وابن القاسم ، عن مالك كانت في سنة أربع . وقد بسط أهل السير في هذه الوقعة ما هو معروف فلا نطيل بذكرها .

(١) الصحيح أنها وقعت بعد أحد بسنتين أي في السنة الخامسة من الهجرة في شهر شوال على التحديد أما غزوة أحد فكانت في السنة الثالثة من الهجرة وبين الغزوتين حدثت أحداث تتخم هذين العامين كيوم الرجيع ورهط عضل والقارة واستشهاد زيد بن الدثنة وخبيب وأصحابهما بماء هذيل ثم بئر معونة ثم إجلاء بني النضير في السنة الرابعة وغزوة ذات الرقاع وغزوة بدر الآخرة ثم غزوة دومة الجندل ثم الخندق . المطيعي .

أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل ، وابن عساكر من طرق عن حذيفة قال:لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعوداً ، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا . وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ، ولا أشد ريحاً في أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهي ظلمة ما يرى أحد منا أصبعه . فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ويقولون : إن بيوتنا عورة . وما هي بعورة فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، فيتسللون . ونحن ثلثمائة أو نحو ذلك إذا استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى مر عليّ وما عليّ جنة من العدو ، ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي ، فأتاني وأنا جاث على ركبتي فقال : من هذا ؟ فقلت : حذيفة ، قال : حذيفة ؟ فتقاصرت إلى الأرض فقلت : بلى يا رسول الله ـ كراهية أن أقوم ـ قال قم ، فقال : إنه كان في القوم خبر فأتني بخبر القوم،قال : وأنا من أشد القوم فزعاً وأشدهم قراً فخرجت ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم احفظه من بين يديه . ومن خلفه ، وعن يمينه . وعن شماله ، ومن فوقه ، ومن تحته . قال : فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قراً في جوفي فما أجد منه شيئاً ، فلما وليت قال يا حذيفة ، لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني ، فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ، ويمسح خاصرته ويقول : الرحيل ، الرحيل ، ثم دخلت العسكر فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون : يا آل عامر الرحيل ، الرحيل ، لا مقام لكم وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز شبراً فوالله اني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم ، الريح تضربهم ، ثم خرجت نحو النبي ﷺ فلما انتصفت في الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً معتمين فقالوا أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم ، فرجعت الى رسول الله ﷺ فأخبرته ، وهو مشتمل في شملة يصلي ، وكان إذا حز به أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم أني تركتهم يترحلون ، وأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم

جنود الآية﴾ .

وعن ابن عباس في قوله : إذ جاءتكم جنود ، قال : كان يوم أبي سفيان يوم الأحزاب ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً ﴾ قال مجاهد هي ريح الصبا أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ، ونزعت فساطيطهم ، وهي ريح تهب من الشرق ، وكانت باردة شديدة جداً ، ومع هذا لم تتجاوزهم . ويدل على هذا ما ثبت عنه (ﷺ) من قوله : « نصرت **بالصبا**، وأهلكت عاد بالدبور» أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس .

وعنه قال لما كان ليلة الأحزاب جاءت الشمال الى الجنوب فقالت انطلقي فانصري الله ورسوله ، فقالت الجنوب إن الحرة لا تسري بالليل فغضب الله عليها وجعلها عقيماً ، فأرسل الله عليهم الصبا فأطفأت نيرانهم ، وقطعت أطنابهم ، فقال رسول الله ﷺ نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور ، فذلك قوله فأرسلنا عليهم ريحاً الآية ، وقيل الصبا ريح فيها روح ما هبت على محزون إلا ذهب حزنه ، وللشعراء تفنن بها كثير يعرفه كل من له إلمام بدواوينهم .

﴿ وجنوداً لم تروها ﴾ وهي الملائكة ، وكانوا ألفاً ، ولم يقاتلوا ، وإنما ألقوا الرعب في قلوب الأحزاب . قال المفسرون : بعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد ، وقطعت أطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وجالت الخيل بعضها في بعض ، وأرسل الله عليهم الرعب ، وكثر تكبيرهم في جوانب العسكر ، حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه يا بني فلان هلم إليّ فإذا اجتمعوا قال لهم النجاء النجاء ، فانهزموا من غير قتال ﴿ وكان الله بما تعملون ﴾ أيها المسلمون من ترتيب الحرب ، وحفر الخندق ، واستنصاركم به ، وتوكلكم عليه ﴿ بصيراً ﴾ وقرىء يعملون بالتحتية أي بما يعمله الكفار من العناد لله ولرسوله والتحزب على المسلمين واجتماعهم عليهم من كل جهة .

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾

﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ﴾ أي اذكر إذ جاءوكم من أعلى الوادي ، وهو من جهة المشرق والذين جاءوا من هذه الجهة هم غطفان وسيدهم عيينة بن حصن ، وهوازن وسيدهم عوف ابن مالك ، وأهل نجد وسيدهم طليحة بن خويلد الأسدي ، وانضم اليهم عوف بن مالك ، وبنو النضير . وعن عائشة في الآية قالت كان ذلك يوم الخندق ﴿ ومن أسفل منكم ﴾ أي من أسفل الوادي من جهة المغرب من ناحية مكة ، وهم قريش ومن معهم من الأحابيش وسيدهم أبو سفيان بن حرب وجاء أبو الأعور السلمي ومعه حيي بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة من وجه الخندق ومعهم عامر بن الطفيل .

﴿ وإذ ﴾ معطوف على ما قبله داخل معه في حكم التذكير ﴿ زاغت الأبصار ﴾ أي مالت وعدلت عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى عدوها مقبلاً من كل جانب ، وقيل شخصت دهشاً من فرط الهول والحيرة ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ جمع حنجرة ، وهي جوف الحلقوم ، وقيل رأس الغلصمة ، والغلصمة رأس الحلقوم،وقيل هي منتهى الحلقوم،والحلقوم مجرى الطعام والشراب وقيل مجرى النفس،والمريء مجرى الطعام والشراب ، وهو تحت الحلقوم وقال الراغب رأس الغلصمة من خارج ، والمعنى ارتفعت القلوب عن مكانها ووصلت من الفزع والخوف الى الحناجر ، فلولا أنه ضاق الحلقوم عنها وهو الذي نهايته الحنجرة لخرجت ، كذا قال قتادة ، وقيل هو على طريق المبالغة المعهودة في كلام العرب وإن لم ترتفع القلوب الى ذلك المكان ولا خرجت عن موضعها ، ولكنه مثل في اضطرابها وجبنها، قال الفراء والمعنى

أنهم جبنوا وجزع أكثرهم ، وسبيل الجبان إذا اشتد الخوف أن تنتفخ رئته ، فإذا انتفخت الرئة ارتفع القلب الى الحنجرة ، ولهذا يقال للجبان:انتفخ سحره .

﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ المختلفة ، فبعضهم ظن النصر ورجا الظفر ، وبعضهم ظن خلاف ذلك . وقال الحسن ظن المنافقون أنه يستأصل محمد وأصحابه وظن المؤمنون أنه ينصر . وقيل : الآية خطاب للمنافقين ، والأولى ما قاله الحسن ، فيكون الخطاب لمن أظهر الاسلام على الاطلاق ، أعم من أن يكون مؤمناً في الواقع أو منافقاً .

واختلف القراء في الألف في الظنونا ، فأثبتها وصلاًووقفاً جماعة وتمسكوا بخط المصحف العثماني ، وجميع المصاحف في البلدان ، فإن الألف فيها كلها ثابتٌوتمسكوا أيضاً بما في أشعار العرب من مثل هذا . وأيضاً أن هذه الألف تشبه هاء السكت لبيان الحركة ، وهاء السكت تثبت وقفاً ، للحاجة اليها ، وقد تثبت وصلاً إجراء للوصل مجرى الوقف ، وقرىء بحذفها في الوصل والوقف معاً لأنها لا أصل لها ، وقالوا هي من زيادات الخط فكتبت كذلك ولا ينبغي النطق بها ، وأما الشعر فهو يجوز فيه للضرورة ما لا يجوز في غيره،وقولهم : أجريت الفواصل مجرى القوافي غير معتد به ، لأن القوافي يلزم الوقف عليها غالباً،والفواصل لا يلزم ذلك فيها فلا تشبه بها ، وقرىء باثباتها وقفاً ، وحذفها وصلاً إجراء للفواصل مجرى القوافي في ثبوت ألف الإطلاق ولأنها كهاء السكت ، وهي تثبت وقفاً وتحذف وصلاً ، قاله السمين وهذه القراءة راجحة باعتبار اللغة العربية ، وهذه الألف هي التي تسميها النحاة ألف الاطلاق ، والكلام فيها معروف في علم النحو ، وهكذا اختلف القراء في الألف التي في قوله : الرسولا والسبيلا ، كما يأتي في آخر هذه السورة .

﴿ هنالك ابتلي المؤمنون ﴾ ظرف مكان يقال للمكان البعيد : هنالك كما يقال للقريب هنا ، وللمتوسط : هناك . أي في ذلك المكان الدحض وهو

الخندق ، وقد يكون ظرف زمان ، أي عند ذلك الوقت ابتلوا وهو منصوب بابتلى ، وقيل : بتظنون ، واستضعفه ابن عطية ، والمعنى : إن في ذلك المكان أو الزمان اختبر المؤمنون بالخوف والقتال والجوع والحصر وغيرها ليتبين المؤمن من المنافق وامتحنوا بالصبر على الإيمان .

﴿وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ قرأ الجمهور زلزلوا بضم الزاى الأولى؛ وكسر الثانية على ما هو الأصل في المبني للمفعول،وروي عن أبي عمرو أنه قرأ بكسر الأولى وروى الزمخشري عنه أنه قرأ بإشمامها كسراً ، وقرأ الجمهور زلزالاً بكسر الزاي الأولى وقرأ عاصم ، والجحدري ، وعيسى بن عمر بفتحها ، وهما لغتان .

قال الزجاج :كل مصدر من المضاعف على فعلال يجوز فيه الكسر والفتح نحو قلقلته قلقالاً وزلزلوا زلزالاً ، والكسر أجود ، وقد يراد بالمفتوح اسم الفاعل نحو صلصال ، بمعنى مصلصل ، وزلزال بمعنى مزلزل قال ابن سلام معنى زلزلوا حركوا بالخوف تحريكاً شديداً بليغاً .

وقال الضحاك : هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم الا موضع الخندق . وقيل : المعنى انهم اضطربوا اضطراباً مختلفاً ، فمنهم من اضطرب في نفسه ، ومنهم من اضطرب في دينه .

﴿ وإذ يقول المنافقون ﴾ يعني : معتب بن قشير ، وقيل عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ هو الشك والريبة أي أهل الشك والاضطراب ، قيل هم قوم لا بصيرة لهم في الدين كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله ﴾ من النصر والظفر أو فتح فارس والروم ﴿ إلا غروراً﴾ أي : باطلاً من القول ، وكان القائلون بهذه المقالة نحو سبعين رجلاً من أهل النفاق والشك ، وهذا القول المحكي عن هؤلاء كالتفسير للظنون المذكورة ، أي كان ظن هؤلاء هذا الظن كما كان ظن المؤمنين النصر ، وإعلاء كلمة الله .

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾

﴿ وإذا قالت طائفة منهم ﴾ قال مقاتل : هم بنو سالم من المنافقين وقال السدي هم عبد الله بن أبيّ وأصحابه ، وقيل هم أوس بن قيظي وأصحابه . والطائفة تقع على الواحد فما فوقه ، والقول الذي قالته هذه الطائفة هو قوله :

﴿ يا أهل يثرب لا مقام لكم ﴾ أي لا موضع ، ولا مكانة إقامة لكم ؛ أو لا إقامة لكم ههنا في العسكر . قرىء (مقام) بفتح الميم وبضمها على أنه مصدر من أقام يقيم ، وعلى الأولى هو اسم مكان ، وهما سبعيتان .

قال أبو عبيدة يثرب اسم الأرض ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها ، قال السهيلي وسميت يثرب لأن الذي نزلها من العمالقة اسمه يثرب بن عميل . وقيل يثرب اسم لنفس المدينة ، ولم تصرف للعلمية ووزن الفعل فإنها على وزن يضرب .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله ، هي طابة ، هي طابة ، هي طابة » . ولفظ أحمد : إنما هي طابة واسناده ضعيف . وكأنه ﷺ كره هذه اللفظة لما فيها من التثريب وهو التقريع ، والتوبيخ .

﴿ فارجعوا ﴾ أمروهم بالهرب من عسكر النبي ﷺ ، وذلك أن رسول

الله ﷺ والمسلمين خرجوا عام الخندق حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع[1] والخندق بينهم وبين القوم فقال هؤلاء المنافقون ليس ههنا موضع إقامة وأمروا الناس بالرجوع الى منازلهم بالمدينة ، وسلع جبل خارج المدينة قريب منها بينها وبين الخندق ، وقيل : المعنى ارجعوا عن الإيمان إلى الكفر ، وقيل عن القتال ، والأول أولى ﴿ ويستأذن فريق منهم النبي ﴾ في الرجوع إلى منازلهم وهم بنو حارثة ، وبنو سلمة .

﴿ يقولون إن بيوتنا عورة ﴾ أي ضائعة سائبة ، ليست بحصينة ولا ممتنعة من العدو ، وقال ابن عباس مخلية نخشى عليها السرق . وعن جابر نحوه . قال الزجاج يقال : عور المكان يعور عوراً وعورة ، وبيوت عورة وعورة وهي مصدر . قال مجاهد ، ومقاتل ، والحسن قالوا : بيوتنا ضائعة نخشى عليها السراق. وقال قتادة : قالوا بيوتنا مما يلي العدو ، ولا نأمن على أهلنا . قال الهروي : كل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عورة ، والعورة في الأصل الخلل في البناء ونحوه ، بحيث يمكن دخول السارق فيها ، فأطلقت على المختل ، والمراد ذوات عورة وقرىء عورة بكسر الواو أي قصيرة الجدران .

قال الجوهري : العورة كل حال يتخوف منه في ثغر أو حرب ، قال النحاس : يقال أعور المكان إذا تبينت فيه عورة ، وأعور الفارس إذا تبين منه موضع الخلل ، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله :

﴿ وما هي بعورة ﴾ فكذبهم الله سبحانه فيما ذكروه ، ثم بين سبب استئذانهم وما يريدونه به فقال :

﴿ إن يريدون إلا فراراً ﴾ أي ما يريدون إلا الهروب من القتال ، وقيل المراد ما يريدون إلا الفرار من الدين .

---

(١) جبل حول المدينة يلي هضبة بني حرام ، وهضبة بني النجار وفيها منزل حسان بن ثابت الذي لجأ إليه النساء والأطفال من آل البيت وكانوا يشرفون من هذا البيت على منازل بني قريظة . المطيعي .

﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ﴾ يعني بيوتهم ، أو المدينة . والأقطار النواحي ، جمع قطر وهو الجانب والناحية ، والمعنى لو دخلت عليهم بيوتهم أو المدينة من جوانبها جميعاً لا من بعضها هذه العساكر المتحزبة ، ونزلت بهم هذه النازلة الشديدة ، واستبيحت ديارهم . وهتكت حرمهم ومنازلهم .

﴿ ثم سئلوا الفتنة ﴾ من جهة أخرى عند نزول هذه النازلة الشديدة بهم ﴿ لآتوها ﴾ أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة ، يعنى إدخال بني حارثة أهل الشام[١] على المدينة ، ومعنى الفتنة هنا إما القتال في العصبية كما قال الضحاك ، أو الشرك بالله ، أو الرجعة إلى الكفر الذي يبطنونه ويظهرون خلافه كما قال الحسن قرىء لآتوها بالمد أي لأعطوها من أنفسهم ، وبالقصر أي لجاؤوها وفعلوها ، وهما سبعيتان .

﴿ وما تلبثوا بها ﴾ أي بالمدينة بعد أن أتوا الفتنة ﴿ إلا ﴾ تلبثاً ﴿ يسيراً ﴾ حتى يهلكوا كذا قال الحسن والسدي والفراء والقتيبي ، وقال أكثر المفسرين : إن المعنى وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلاً ، بل هم مسرعون إليها راغبون فيها لا يقفون عنها إلا مجرد وقوع السؤال لهم ، ولا يتعللون عن الاجابة بأن بيوتهم في هذه الحالة عورة مع أنها قد صارت عورة على الحقيقة ، كما تعللوا عن إجابة الرسول والقتال معه بأنها عورة ولم تكن إذ ذاك عورة ، ثم حكى الله سبحانه عنهم ما قد كان وقع منهم من قبل من المعاهدة لله ولرسوله بالثبات في الحرب ، وعدم الفرار عنه فقال :

---

(١) عندما دخلت جيوش بني أمية الحجاز ودحرت جيوش عبد الله بن الزبير وقتلته في الكعبة صلبته وحرقته ومثلت به ، وكان ذلك في يوم الثلاثاء لسبع خلت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين . المطيعي .

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل ﴾ أي حلفوا من قبل غزوة الخندق ، ومن بعد بدر أن لا يولوا ظهورهم فراراً من العدو ، بل يثبتوا على القتال حتى يموتوا شهداء ، وهم قوم لم يحضروا وقعة بدر . قال قتادة وذلك أنهم غابوا عن بدر ، ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر فقالوا : لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن .

﴿ لا يولون الأدبار ﴾ أي لا ينهزمون وجاء على حكاية اللفظ فجاء بلفظ الغيبة ، ولو جاء على حكاية المعنى لقيل: لا نولي ﴿ وكان عهد الله مسؤولاً ﴾ عنه ومطلوباً صاحبه بالوفاء به ، ومجازى على ترك الوفاء به .

﴿ قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ﴾ لأنه لا بد لكل انسان من الموت إما حتف نفسه أو بقتل بالسيف في وقت معين ، سبق به القضاء وجرى به القلم ، فمن حضر أجله مات أو قتل ، فرّ أولم يفر .

﴿ وإذاً لا تمتعون ﴾ أي : وإن نفعكم الفرار مثلاً فمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتع ﴿ إلا ﴾ تمتعاً أو زماناً ﴿ قليلاً ﴾ بعد فراركم إلى أن تنقضي

آجالكم ، وكل آت قريب ، قرىء : تمتعون بالفوقية والتحتية وبحذف النون .

﴿ قل : من ذا الذي يعصمكم ﴾ أي يجيركم ﴿ من الله إن أراد بكم سوءاً ؟ ﴾ أي هلاكاً أو هزيمة أو نقصاً في الأموال وجدباً ومرضاً ﴿ أو ﴾ يصيبكم بسوء إن ﴿ أراد ﴾ الله ﴿ بكم رحمة ﴾ ؟ يرحمكم بها من خصب ونصر وعافية وإطالة عمر ، وهذا على حد قوله : علفتها تبناً وماء بارداً ، وليس معمولاً للسابق ، وهو : يعصمكم ، لعدم صحة المعنى عليه .

وفي السمين قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة ولا عصمة إلا من الشر ؟ قلت : معناه أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر الكلام ، وأجرى مجرى قوله : متقلداً سيفاً ورمحاً ، وحمل الثاني على الأول لما في ا لعصمة من منع المنع . قال الشيخ : أما الوجه الأول ففيه حذف جملة لا ضرورة تدعو إلى حذفها ، والثاني هو الوجه ، لا سيما إذا قدر مضاف محذوف ، أي يمنعكم من مراد الله ، قلت : وأين الثاني من الأول ولو كان معه حذف جمل ؟ انتهى .

﴿ ولا يجدون لهم من دون الله ﴾ أي غيره ﴿ ولياً ﴾ يواليهم وينفعهم ويدفع الضرر عنهم ﴿ ولا نصيراً ﴾ ينصرهم من عذاب الله ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ يقال : عاقه واعتاقه وعوقه إذا صرفه عن الوجه الذي يريده .

﴿ والقائلين لاخوانهم هلم إلينا ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبي ﷺ ، وذلك أنهم قالوا لهم : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، ولو كانوا لحماً لالتقمهم أبو سفيان وحزبه ، فخلوهم وتعالوا إلينا ، وقيل : إن القائل لهذه المقالة اليهود ، ومعنى هلم : أقبل وأحضر ، اسم فعل أمر : وأهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد والجماعة والمذكر والمؤنث وعند غيرهم من العرب كبني تميم فعل أمر،يقولون : هلم للواحد المذكر،وهلمي للمؤنث،وهلما للاثنين،وهلموا للجماعة ، وقد مر الكلام على هذا في سورة الأنعام ، والمعنى : ارجعوا إلينا واتركوا محمداً فلا تشهدوا

معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك ، وقيل : تعالوا إلينا لتستريحوا يعني أن يهود المدينة طلبوا المنافقين ليستريحوا ، وخوفوا المؤمنين ليرجعوا ، وهلم هنا لازم ، وفي الأنعام متعد لنصبه مفعوله ، وهو شهداءكم ، بمعنى أحضروهم ، وههنا بمعنى احضروا وتعالوا ، وكلام الزمخشري هنا مؤذن بأنه متعد أيضاً ، وحذف مفعوله فإنه قال : هلموا إلينا أي قربوا أنفسكم إلينا .

﴿ ولا يأتون البأس ﴾ أي الحرب والقتال ﴿ إلا ﴾ إتياناً ﴿ قليلاً ﴾ خوفاً من الموت ويقفون قليلاً مقدار ما يرى شهودهم ثم ينصرفون ، وقيل : المعنى لا يحضرون القتال إلا رياء وسمعة من غير اكتساب ، ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيراً .

﴿ أشحة ﴾ أي بخلاء ﴿ عليكم ﴾ لا يعاونونكم بحفر الخندق ولا بالنفقة في سبيل الله قاله مجاهد وقتادة ، وقيل : أشحة بالقتال معكم ، وقيل : بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم ،وقيل: أشحة بالغنائم إذا أصابوها، قاله السدي. العامة على نصب: أشحة، وفيه وجهان.

أحدهما : أنه منصوب على الذم .

والثاني : على الحال من ضمير : يأتون قاله الزجاج أو هلم الينا قاله الطبري ، وقرىء بالرفع أي هم أشحة وهو جمع شحيح ، وهو جمع لا يقاس عليه ، إذ قياس فعيل الوصف الذي عينه ولامه من واد واحد أن يجمع على أفعلاء نحو خليل وأخلاء ، وظنين ، وأظناء ، وضنين ، وأضناء ، وقد سمع أشحاء وهو القياس ، والشح ، البخل وتقدم في آل عمران قاله السمين .

﴿ فإذا جاء الخوف ﴾ من قبل العدو قاله السدي أو منه ﷺ قاله ابن شجرة ﴿ رأيتهم ﴾ أي أبصرتهم ﴿ ينظرون إليك ﴾ في تلك الحالة خوفاً من القتال على القول الأول ، ومن النبي ﷺ على الثاني ﴿ تدور أعينهم ﴾ يميناً

وشمالاً لذهول عقولهم حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة ، وقيل لشدة خوفهم حذراً أن يأتيهم القتل من كل جهة ، وذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه .

﴿ كالذي يغشى عليه من الموت ﴾ أي كدوران عين الذي قرب من الموت ، وهو الذي نزل به الموت وغشيته أسبابه ، فيذهل اليه ، ويذهب عقله ويشخص بصره ، فلا يطرف ، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف ، ويقال للميت إذا شخص بصره دارت عيناه ودارت حماليق عينيه .

﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم ﴾ أي استقبلوكم ﴿ بألسنة حداد ﴾ أي ذربة تفعل كفعل الحديد يقال: سلق فلان فلاناً بلسانه إذا أغلظ له في القول مجاهراً ، قال الفراء : أي آذوكم بالكلام في الأمن بألسنة سليطة ذربة ويقال : خطيب مسلاق ومصلاق إذا كان بليغاً ، قال القتيبي : المعنى آذوكم بالكلام الشديد ، والسلق : الأذى قال ابن عباس : معناه عضوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة ، قال قتادة : المعنى بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة يقولون.أعطونا فإنا قد شهدنا معكم فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لساناً ، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم ، قال النحاس وهذا قول حسن .

﴿ أشحة على الخير ﴾ أي على الغنيمة يشاحون المسلمين عند القسمة ، قاله يحيى بن سلام ، وقيل على المال أن ينفقوه في سبيل الله قاله السدي ، ويمكن أن يقال معناه إنهم قليلو الخير من غير تقييد بنوع من أنواعه ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات .

﴿ لم يؤمنوا ﴾ إيماناً خالصاً بل هم المنافقون يظهرون الايمان ويبطنون الكفر ﴿ فأحبط الله أعمالهم ﴾ أي أبطلها بمعنى أظهر بطلانها لأنها لم تكن أعمالاً صحيحة تقتضي الثواب حتى يبطلها الله وتحبط ، قال مقاتل أبطل جهادهم لأنه لم يكن في إيمان ، أو المراد أبطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعاً لمنفعة دنيوية أصلاً ﴿ وكان ذلك ﴾ الاحباط لأعمالهم أو كان نفاقهم ﴿ على الله يسيراً ﴾ هيناً بإرادته .

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ أي يحسب هؤلاء المنافقون لجبنهم أن الأحزاب أي قريشاً وغطفان واليهود باقون في معسكرهم لم يذهبوا إلى ديارهم ، ولم ينهزموا ففروا إلى داخل المدينة ، وذلك لما نزل بهم من الفشل والروع والفرق والجبن .

﴿ وإن يأت الأحزاب ﴾ مرة أخرى بعد هذه المرة،والذهاب ﴿ يودوا لو أنهم بادون في الأعراب ﴾ أي يتمنون لو أنهم كانوا في بادية لما حل بهم من الرهبة ، والبادي خلاف الحاضر ، يقال : بدا يبدو بداوة إذا خرج الى البادية وسكنها .

﴿ يسألون عن أنبائكم ﴾ وأخباركم وما آل إليه أمركم ، وما جرى لكم ، كل قادم عليهم من جهتكم ، أو يسأل بعضهم بعضاً عن الأخبار التي بلغته من أخبار الأحزاب ، ورسول الله ﷺ ، والمعنى أنهم يتمنون أنهم بعيد عنكم يسألون عن أخباركم من غير مشاهدة للقتال ، لفرط جبنهم وضعف نياتهم ﴿ ولو كانوا فيكم ﴾ أي معكم في هذه الغزوة مشاهدين للقتال ﴿ ما قاتلوا ﴾ معكم ﴿ إلا ﴾ قتالاً ﴿ قليلاً ﴾ خوفاً من العار وحمية على الديار ، أو رياء من غير احتساب .

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ أي قدوة صالحة ، يقال : لي في فلان أسوة أي لي به اقتداء ، والأسوة من الائتساء كالقدوة من الاقتداء اسم يوضع موضع المصدر يقال : ائتسى فلان بفلان أي اقتدى به ، قال الجوهري :الأسوة والإسوة بالضم والكسر والجمع أسى وإسى ، وقد قرىء بهما وهما سبعيتان وهما أيضاً لغتان كما قال الفراء وغيره .

وفي هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول الله ﷺ أي لقد كان لكم في رسول الله حيث بذل نفسه للقتال ، وخرج إلى الخندق لنصرة دين الله أسوة ، والمعنى اقتدوا به اقتداء حسناً ، وهو أن تنصروا دين الله وتوازروا رسوله ، ولا تتخلفوا عنه ، وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو إذ كسرت رباعيته ، وجرح وشج وجهه ، وجاع بطنه ، وقتل عمه حمزة ، وأوذي بضروب الأذى فصبر ، وواساكم مع ذلك بنفسه ، فافعلوا أنتم كذلك أيضاً ، واستنوا بسنته ، وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً فهي عامة في كل شيء ؛ ومثلها : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ وقوله: ﴿قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

عن ابن عمر قال في الآية : هذا في جوع رسول الله ﷺ وقد استدل بهذه الآية جماعة من الصحابة في مسائل كثيرة اشتملت عليها كتب السنة ، وهي خارجة عما نحن بصدده ، نعم فيه دلالة على لزوم الاتباع ، وترك التقليد الحادث الذي أصيب به الاسلام ، أي مصيبة وهل هذه الأسوة على الايجاب أو على الاستحباب ، فيه قولان ، قال القرطبي يحتمل أن تحمل على الايجاب في أمور الدين ، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا .

﴿ لمن كان يرجو الله ﴾ أي حسنة كائنة لمن يرجو الله والمراد أنهم الذين يرجون الله ويخافون عذابه ، يعني يرجون ثوابه ولقاءه ﴿ واليوم الآخر ﴾ أي أنهم يرجون رحمة الله فيه أو يصدقون بحصوله ، وأنه كائن لا محالة وهذه الجملة تخصيص بعد التعميم بالجملة الأولى .

﴿ وذكر الله ﴾ أي ولمن ذكر الله في جميع أحواله ذكراً ﴿ كثيراً ﴾ وجمع بين الرجاء لله والذكر له فإن بذلك تتحقق الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ ، ثم بين سبحانه ما وقع من المؤمنين المخلصين عند رؤيتهم للأحزاب ومشاهدتهم لتلك الجيوش التي أحاطت بهم كالبحر العباب فقال :

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ﴾ الاشارة بهذا الى ما رأوه من الجيوش أو إلى الخطب الذي نزل ، والبلاء الذي دهم ، وهذا القول منهم قالوه استبشاراً بحصول ما وعدهم الله ورسوله من مجيء هذه الجنود وأن يتعقب مجيئهم إليهم نزول النصر والظفر من عند الله ، و ﴿ ما ﴾ في ﴿ ما وعدنا ﴾ هي الموصولة أو المصدرية ، ثم أردفوا ما قالوه بقولهم :

﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ أي ظهر صدق خبرهما ووجه إظهار الاسم الشريف والرسول بعد قوله ﴿ما وعدنا الله ورسوله﴾ ، هو قصد التعظيم ، وأيضاً لو أضمرهما لجمع بين ضميري الله ورسوله في لفظ واحد وقال صدقا ، وقد ورد النهي عن جمعهما كما في حديث [بئس خطيب القوم انت]، لمن قال ومن يعصهما فقد غوى ،وأما قوله صلى الله عليه وسلم [من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما]، فالجواب أنه صلى الله عليه وسلم أعرف بقدر الله منا فليس لنا أن نقول كما يقول ،قاله السمين .

﴿ وما زادهم ﴾ ما رأوه من اجتماع الأحزاب عليهم ومجيئهم ﴿ إلا إيماناً ﴾ بالله ﴿ وتسليماً ﴾ لأمره ، قال الفراء : ما زادهم النظر الى الأحزاب إلا ذلك قال علي بن سليمان رأي يدل على الرؤية ، وتأنيث الرؤية غير حقيقي ؛ والمعنى ما زادهم الرؤية إلا إيماناً بالرب ؛ وتسليماً للقضاء ، ولو قال ما زادتهم لجاز ،وعن ابن عباس قال: في الآية ان الله قال لهم في سورة البقرة ﴿ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء﴾ ، فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله فتأول المؤمنون ذلك فلم يزدهم إلا إيماناً وتسليماً .

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

﴿ من المؤمنين ﴾ المخلصين ﴿ رجال صدقوا ﴾ أي أتوا بالصدق من صدقني إذا قال الصدق ﴿ ما عاهدوا الله عليه ﴾ اي وفّوا بما عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة من الثبات معه والمقاتلة لمن قاتله ، بخلاف من كذب في عهده وخان الله ورسوله ، وهم المنافقون،وقيل هم الذين نذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا له ولم يفروا .

اخرج البخاري وغيره عن أنس ﷺ: [نرى هذه الآية نزلت في أنس ابن النضر]، وأخرج ابن سعد ، وأحمد ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، والبغوي في معجمه وابن جرير وابن ابي حاتم وأبو نعيم والبيهقي عن أنس قال : « غاب عمي أنس بن النضر عن بدر فشق عليه وقال اول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ؟ لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع ، فشهد يوم أحد فاستقبله سعد بن معاذ قال يا أبا عمرو أين ؟ قال واهاً لريح الجنة أجدها دون أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين طعنة وضربة ورمية ، ونزلت هذه الآية ، وكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه . وقد روي عنه نحوه من طريق اخرى عند الترمذي وصححه ، والنسائي وغيرهما .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ، ثم قرأ: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ ثم قال :أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله ، فأتوهم وزوروهم ، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه ، وقد تعقب الحاكم ، في تصحيحه الذهبي ، كما ذكر ذلك السيوطي .

ولكنه قد أخرج الحاكم حديثاً آخر وصححه ، وأخرجه أيضاً البيهقي في الدلائل عن أبي ذر قال لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أحد مر على مصعب بن عمير مقتولاً على طريقه ، فقرأ ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ الآية وأخرج ابن مردويه من حديث خباب مثله ، وهما يشهدان لحديث أبي هريرة ، ثم فصل سبحانه حال الصادقين بما وعدوا الله ورسوله ، وقسمهم إلى قسمين فقال :

﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ أي فرغ من نذره ، ووفّى بعهده ، وصبر على الجهاد حتى استشهد ،وقال ابن عمر: أي مات على ما هو عليه من التصديق والإيمان . والنحب ما التزمه الإنسان واعتقد الوفاء به وأوجبه على نفسه ، والقتل ، والموت . قال ابن قتيبة قضى نحبه أي : قتل . وأصل النحب : النذر كانوا يوم بدر نذروا إن لقوا العدو أن يقاتلوا حتى يقتلوا أو يفتح الله لهم فقتلوا ، فقيل : فلان قضى نحبه ، أي قتل . والنحب أيضاً الحاجة وإدراك الأمنية يقول قائلهم : مالي عندهم نحب ، والنحب العهد ، ومعنى الآية أن من المؤمنين رجالاً أدركوا أمنيتهم ، وقضوا حاجتهم ، ووفّوا بنذرهم ، فقاتلوا حتى قتلوا ، وذلك يوم أحد كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر .

أخرج الترمذي وحسنه ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن مردويه عن طلحة أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل : سله عمن قضى نحبه من هو؟ وكانوا لايجترؤون على مسألته يوقرونه ويهابونه ، فسأله الأعرابي ،

فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ، ثم إني طلعت من باب المسجد فقال : أين السائل عمن قضى نحبه ؟ قال الاعرابي أنا قال : هذا ممن قضى نحبه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من حديثه نحوه .

وأخرج الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « طلحة ممن قضى نحبه » .

وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من سره أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة » . أخرجه سعيد بن منصور ، وأبو يعلى ، وأبو نعيم ، وابن المنذر وغيرهم .

وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله ، وأخرج ابن منده وابن عساكر من حديث أسماء بنت أبي بكر نحوه .

وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن عليّ إن هذه الآية نزلت في طلحة .

وأخرج أحمد والبخاري وابن مردويه عن سليمان بن صرد قال قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب الآن نغزوهم ولا يغزونا .

﴿ ومنهم من ينتظر ﴾ قضاء نحبه حتى يحضر اجله كعثمان بن عفان ، وطلحة ، والزبير ، وأمثالهم فإنهم مستمرون على الوفاء بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله ﷺ ، والقتال لعدوه ، ومنتظرون لقضاء حاجتهم وحصول أمنيتهم بالقتل ، وإدراك فضل الشهادة .

﴿ وما بدلوا تبديلاً ﴾ أي ما غيروا عهدهم الذي عاهدوا الله ورسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم ، بل ثبتوا عليه ثبوتاً مستمراً ، أما الذين قضوا نحبهم فظاهر ، وأما الذين ينتظرون قضاء نحبهم فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا ولم يغيروا ولا بدلوا .

﴿ ليجزي الله ﴾ اللام يجوز أن يتعلق بصدقوا أو بزادهم أو بما بدلوا أو بمحذوف كأنه قيل: وقع جميع ما وقع ليجزي الله ﴿الصادقين بصدقهم﴾ بوفائهم بالعهد.

﴿ ويعذب المنافقين إن شاء ﴾ إذا لم يتوبوا ﴿ أو يتوب عليهم ﴾ بما صدر عنهم من التغيير والتبديل إن تابوا ، جعل المنافقين كانهم قصدوا عاقبة السوء ، وأرادوها بسبب تبديلهم وتغييرهم ، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم ، فكل من الفريقين مسوق إلى عاقبة من الثواب والعقاب ، فكأنما استويا في طلبها والسعي لتحصيلها،ومفعول إن شاء وجوابها محذوفان أي إن شاء تعذيبهم عذبهم ، وذلك إذا أقاموا على النفاق ، ولم يتركوه ولم يتوبوا عنه .

﴿ إن الله كان غفوراً ﴾ لمن تاب منهم بقبول التوبة ﴿ رحيما ﴾ بمن أقلع عما كان عليه من النفاق بعفو الحوبه ثم رجع سبحانه ، إلى حكاية بقية القصة وما امتن به على رسوله والمؤمنين من النعمة فقال :

﴿وردَّ الله الذين كفروا ﴾ وهم الأحزاب كأنه قيل ؛ وقع ما وقع من الحوادث ورد الله الذين كفروا ﴿ بغيظهم ﴾ الباء للسببية ﴿ لم ينالوا خيراً ﴾ المعنى أن الله ردهم بغيظهم لم يشف صدورهم ، ولا نالوا خيراً في اعتقادهم وهو الظفر بالمسلمين ، أو لم ينالوا خيراً أي خير ، بل رجعوا خاسرين لم يربحوا إلا عناء السفر ، وغرم النفقة .

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ بما أرسله من الريح والجنود من الملائكة ﴿ وكان الله قوياً ﴾ على كل ما يريده إذا قال له : كن فيكون ﴿ عزيزاً ﴾ قاهراً غالباً لا يغالبه أحد من خلقه: ولا يعارضه معارض في سلطانه وجبروته .

روى البخاري عن سلمان بن صرد قال سمعت رسول الله ﷺ حين انجلى الأحزاب يقول : « الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم » .

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ أي عاضدوهم وعاونوهم على رسول الله ﷺ ﴿ من أهل الكتاب ﴾ وهم بنو قريظة فإنهم عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان ، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ وصاروا يداً واحدة مع الأحزاب وكانت في آخر ذي[1] القعدة سنة خمس .

وقيل : سنة أربع ﴿ من صياصيهم ﴾ جمع صيصية وهي الحصون ، وكل شيء يتحصن به فهو صيصية ؛ ومنه صيصية الديك ، وهي الشوكة التي في رجله وصياصي البقر والظباء : قرونها لأنها تمنع بها ، ويقال لشوكة الحائك الذي يسوي بها السدي واللحمة : صيصية .

وأخرج احمد ، وابن مردويه ، وابن أبي شيبة عن عائشة خرجت يوم الخندق أقفو الناس فإذا أنا بسعد بن معاذ رماه رجل من قريش يقال له ابن الفرقة بسهم فأصاب أكحله فقطعه، فدعا الله سعد فقال : اللهم لا تمتني حتى

(١) مر لنا في تفسير قوله تعالى : «إذ جاءتكم جنود» تحقيق أن الغزوة وقعت في شوال من السنة الخامسة وكان المصنف قد ذكر أنها في الرابعة وهنا يرجح المصنف أنها في الخامسة في شهر ذي القعدة بل في آخره وقد اتفقنا معه في السنة هنا وخالفناه هناك ويبدو أنه تحقق من التاريخ بعد كتابة ما مر قبل وللمصنف العذر لا سيما وأن من القائلين بوقوعها في السنة الرابعة علماء تتقاصر الأعناق دون مطاولتهم مثل الإمام النووي وغيره ومع هذا أقوال مرجوحة لا تثبت أمام التحقيق . المطيعي .

تقر عيني من قريظة .

فبعث الله الريح على المشركيـن وكفى الله المؤمنين القتال ، ولحق أبو سفيان ومن معه بتهامه ؛ ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وأمر ببقية من أدم فضربت على سعد في المسجد .

قالت فجاء جبريل وإن على ثناياه لوقع الغبار ، فقال أو قد وضعت السلاح ؟ لا والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح .

اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم فلبس رسول الله ﷺ لأُمَته وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة .

فلما اشتد حصرهم واشتد البلاء عليهم قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله ﷺ .

قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأتى به على حمار فقال رسول الله ﷺ : احكم فيهم .

قـال فإني أحكم فيهم أن تقتـل مقـاتلتهم وتسبى ذراريهم ، وتقسم أموالهم .

فقال : لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله .

﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ أي : الخوف الشديد حتى سلموا أنفسهم للقتـل وأولادهم ونساءهم للسبي ، وهي معنى قـوله : ﴿ فـريقاً تقتلون ﴾ منهم .

﴿ وتأسرون فريقاً ﴾ قرىء الفعلان بالتحتية وبالفوقية فيهما على الخطاب وبالفوقية في الأول وبالتحتية في الثاني **فالفريق الأول** هم الرجال **والفريق الثاني** هم النساء ، والذرية . والجملة مبينة ومقررة لقذف الرعب في قلوبهم ، ووجه تقديم المفعول في الأول وتأخيره في الثاني . أن الرجال لما كانوا أهل الشوكة وكان الوارد عليهم أشد الأمرين وهو القتل كان الاهتمام بتقـديم ذكرهم أنسب بالمقام .

وقد اختلف في عدد المقتولين والمأسورين فقيل : كان المقتـولون من ستمائة إلى سبعمائة ، وقيل سبعمائة ، وقيل ثمانمائة ، وقيل تسعمائة وكان المأسورون سبعمائة وخمسين ، وقيل تسعمائة .

﴿ وأورثكم أرضهم ﴾ أي عقارهم وخيلهم ﴿ وديارهم ﴾ أي منازلهم وحصونهم ﴿ وأموالهم ﴾ أي الحلي والأثاث والمواشي والسلاح والدراهم والدنانير والنقود والأمتعة .

﴿ و ﴾ أورثكم ﴿ أرضاً لم تطؤها ﴾ بعد لقصد القتال ، واختلف المفسرون في تعيين هذه الأرض المذكورة فقال يزيد بن رومان وابن زيد ، ومقاتل إنها خيبر،ولم يكونوا إذ ذاك قد نالوها فوعدهم الله بها . قال سليمان الجمل: وأخذت بعد قريظة بسنتين أو ثلاث لأن خيبر كانت في السابعة في المحرم وهي مدينة كبيرة ذات حصون ثمانية وذات مزارع ونخل كثير ، بينها وبين المدينة الشريفة أربع مراحل. انتهى ملخصاً وتمام هذه القصة في سيرة الحلبي .

وقال قتادة : كنا نتحدث أنها مكة ، وقال الحسن : فارس والروم ، وقال عكرمة هي كل أرض تفتح على المسلمين الى يوم القيامة والمضي[1] لتحقق وقوعه ﴿ وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ أي هو سبحانه قدير على كل ما أراده من خير وشر ، ونعمة ونقمة ، وعلى إنجاز ما وعد به من الفتح للمسلمين .

﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ﴾ قيل هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من المنع من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قد تأذى ببعض الزوجات . قال الواحدي قال المفسرون: إن أزواج النبي صلى الله عليه

---

(١) هكذا في الأصل ويبدو أن بها تصحيفاً فتكون : (والمعنى الخ) والمقصود على هذا أن صيغة الخبر جاءت تشمل الماضي والمستقبل لتحقق وقوع التوريث لأرض الأعداء وديارهم وأخرى لم يطأوها . المطيعي .

وسلم سألنه شيئاً من عرض الدنيا ، وطلبن منه الزيادة في النفقة ، وآذينه بغيرة بعضهن على بعض ، فآلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهن شهراً وأنزل الله آية التخيير هذه، وكن يومئذ تسعاً: عائشة، وحفصة،وام سلمة، وام حبيبة، وسودة،وهؤلاء من نساء قريش، وصفية الخيبرية، وميمونة الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية.

واختلف في عدة ازواجه صلى الله عليه وسلم وترتيبهن وعدة من مات منهن قبله، ومن مات هو عنهن، ومن دخل بها ومن لم يدخل بها، ومن خطبها ولم ينكحها،ومن عرضت نفسها عليه، والمتفق على دخوله بهن إحدى عشرة امرأة، كذا في المواهب وقد بسط الكلام عليهن في المقصد الثاني منه جداً فارجع اليه إن شئت.

﴿إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي سعتها ونضارتها ورفاهيتها وكثرة الاموال والتنعم فيها ﴿فتعالين﴾ أي أقبلن إليّ بإرادتكن واختياركن لأحد الأمرين.

﴿امتّعْكن﴾ أي أعطيكن المتعة ﴿وأسرحكن﴾ أي أطلقكن قرأ الجمهور في الفعلين بالجزم جوابا للأمر. وقيل ان جزمهما على انهما جواب الشرط، وعلى هذا يكون قوله فتعالين اعتراضاً بين الشرط والجزاء، وقرىء بالرفع فيهما على الاستئناف﴿ سراحاً جميلاً ﴾ المراد به هو الواقع من غير ضرار على مقتضى السنة.

﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله﴾ أي تردن رسوله، وذكر الله للإيذان بجلالة محمد ﷺ عنده تعالى ﴿والدار الآخرة﴾ اي الجنة ونعيمها ﴿فإن الله أعد للمحسنات منكن﴾ اي اللاتي عملن عملاً صالحاً ﴿اجراً عظيماً ﴾ لا يمكن وصفه، ولا يقادر قدره، وذلك بسبب احسانهن وبمقابلة صالح عملهن.

وقد اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي ﷺ ازواجه على قولين: الاول انه خيرهن بإذن الله في البقاء على الزوجية او الطلاق فاخترن البقاء وبهذا قالت عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبي والزهري وربيعة. والثاني: أنه إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكهن، ولم يخيرهن في الطلاق، وبهذا قال علي والحسن وقتادة، والراجح الاول.

واختلفوا ايضاً في المخيرة اذا اختارت زوجها هل يحسب مجرد ذلك التخيير على الزوج طلقة ام لا؟ فذهب الجمهور من السلف والخلف الى انه لا يكون التخيير مع اختيار المرأة لزوجها طلاقا، لا واحدة ولا اكثر. وقال علي وزيد بن ثابت: ان اختارت زوجها فواحدة بائنة، وبه قال الحسن والليث وحكاه الخطابي والنقاش عن مالك.

والراجح الاول، لحديث عائشة الثابت في الصحيحين قالت: خيّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعده طلاقاً، ولا وجه لجعل مجرد التخيير طلاقاً. ودعوى انه كناية من كنايات الطلاق مدفوعة بأن المخير لم يرد الفرقة بمجرد التخيير، بل اراد تفويض المرأة وجعل امرها بيدها، فإن اختارت البقاء بقيت على ما كانت عليه من الزوجية، وإن اختارت الفرقة صارت مطلقة. واختلفوا في اختيارها لنفسها هل يكون ذلك طلقة رجعية؟ أو بائنة؟.

فقال بالأول عمر وابن مسعود وابن عباس وابن أبي ليلى والثوري والشافعي.

وقال بالثاني علي وأبو حنيفة وأصحابه، وروي عن مالك، والراجح الأول؛لأنه يبعد كل البعد أن يطلق رسول الله ﷺ نساءه على خلاف ما أمره الله به. وقد أمره بقوله إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن، وروي عن زيد بن ثابت: أنها إذا اختارت نفسها فثلاث طلقات، وليس لهذا القول وجه.

وقـد روي عن علي أنهـا اذا اختـارت نفسهـا فليس بشيء واذا اختـارت زوجها فواحدة رجعية .

وقد أخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن مردويه عن جابر قـال : أقبل أبـو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببـابه جلوس ، والنبي ﷺ جـالس ، فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا ، والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت ، فقـال عمر : لأكلمن النبي ﷺ لعله يـضحـك فقال عمر . يا رسول الله لو رأيت ابنة زيـد امرأة عمـر سألتني النفقـة آنفاً فوجأت في عنقها ؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى بـدت نواجـذه وقال : هن حولي يسألنني النفقة .

فقـام أبو بكـر الى عائشـة ليضـربهـا ، وقـام عمـر الى حفصـة كـلاهمـا يقولان : تسألان رسول الله (ﷺ) ما ليس عنده ؟ فنهاهمـا رسول الله (ﷺ) فقلن نسـاؤه : « والله لا نسأل رسـول الله (ﷺ) بعـد هـذا المجلس مـا ليس عنده »، وأنزل الله الخيار فبدأ بعـائشة فقـال : إني ذاكر لـك امراً مـا أحب ان تعجلي فيه حتى تستأمـري أبويـك قالت مـا هو ؟ فتـلا عليها ﴿يا أيها النبي قـل لأزواجك﴾ الآية فقالت عائشة : أفيك استـأمر أبـوي ؟ بل اختـار الله ورسولـه ، واسألك ان لا تذكر لنسائك ما اخترت فقال إن الله لم يبعثني متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا اخبرتها .

واخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة أن رسول الله (ﷺ) جاءها حين أمـره الله ان يخير أزواجـه قالت فبـدأ بي فقال : اني ذاكـر لك امـراً فـلا عليـك أن لا تستعجلي حتى تستأمـري أبويـك ، وقد علم أن أبـوي لم يكونـا يـأمراني بفـراقه ، فقـال : إن الله قال : يـا أيها النبي قـل لأزواجك الى تمـام الآيـة ، فقلت : ففي أي هذا استأمر أبـوي ؟ فإني أريـد الله ورسولـه والـدار الآخرة ، وفعل أزواج النبي (ﷺ) مثل ما فعلت ، ثم لمـا اختار نسـاء رسول الله (ﷺ) إياه أنزل فيهن هذه الآيات تكرمة لهن وتعظيماً لحقهن فقال :

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾

﴿ يا نساء النبي من يأت منكن ﴾ من بيانية لأنهن كلهن محسنات ﴿ بفاحشة ﴾ أي معصية ﴿ مبينة ﴾ أي ظاهرة القبح ، واضحة الفحش ، وقد عصمهن الله عن ذلك وبرأهن وطهرهن فهو كقوله تعالى : لئن اشركت ليحبطن عملك ، وقيل : المراد بالفاحشة : النشوز وسوء الخلق ، وقال قوم : الفاحشة اذا وردت معرفة فهي الزنا واللواط ، واذا وردت منكرة فهي سائر المعاصي ، واذا وردت منعوتة فهي عقوق الزوج ، وفساد عشرته . وقالت فرقة : قوله هذا يعم جميع المعاصي ، وكذلك الفاحشة كيف وردت .

﴿ يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ أي يعذبهن الله مثلي عذاب غيرهن من النساء اذا أتين بمثل تلك الفاحشة ، وذلك لشرفهن وعلو درجتهن ، وارتفاع منزلتهن ، ولأن ما قبح من سائر النساء كان منهن أقبح ، فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل ، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي (ﷺ) ، ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد من العاصي الجاهل ، لأن المعصية من العالم أقبح ، ولذا فضل حد الأحرار على العبيد .

وقد ثبت في هذه الشريعة في غير موضع ان تضاعف الشرف وارتفاع

الدرجات يوجب لصاحبه اذا عصى تضاعف العقوبات . وقرىء يضعف على البناء للمفعول ، وفرق أبو عمرو وأبو عبيد بين يضاعف ويضعف فقالا : يكون يضاعف ثلاثة عذابات ويضعف عذابين قال النحاس : هذه التفرقة التي جاء بها لا يعرفها أحد من أهل اللغة ، والمعنى في : يضاعف ويضعف واحد ، أي يجعل ضعفين ، وهكذا ضعف ما قالاه ابن جرير .

قال قوم : لو قدر الله الزنا من واحدة ـ وقد اعاذهن الله عن ذلك ـ لكانت تحد حدّين لعظم قدرها ، كما يزاد حد الحرة على الأمة ، والعذاب بمعنى الحد قال تعالى: ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾، وعلى هذا فمعنى الضعفين معنى المثلين او المرتين ، وقال مقاتل: هذا التضعيف في العذاب إنما هو في الآخرة ، كما إن إيتاء الأجر مرتين في الآخرة وهذا حسن لأن نساء النبيﷺ لم يأتين بفاحشة توجب حداً .

وقد قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط ، وإنما خانتا في الايمان والطاعة . وقال بعض المفسرين : العذاب الذي توعدن به ضعفين هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وكذلك الأجر . قال ابن عطية: وهذا ضعيف ، اللهم إلا ان تكون أزواج النبي (ﷺ) لا ترفع عنهن حدود الدنيا عذاب الآخرة على ما هو حال الناس عليه بحكم حديث عبادة بن الصامت ، وهذا امر لم يرد في أزواج النبي (ﷺ) ولا حفظ تقريره .

﴿ وكان ذلك ﴾ أي تضعيف العذاب ﴿ على الله يسيراً ﴾ هيناً لا يتعاظمه ولا يصعب عليه ، فليس كونكن تحت النبي (ﷺ) وكونكن جليلات شريفات مما يدفع العذاب عنكن ، وليس امر الله كأمر الخلق حتى يتعذر عليه تعذيب الأعزة بسبب كثرة اوليائهن وأعوانهن أو شفعائهن وإخوانهن .

﴿ ومن يقنت ﴾ قرىء بالتحتية وكذا يأت منكن حملاً على لفظ من في

الموضعين ، وقرىء بالفوقية حملاً على المعنى ، والقنوت الطاعة أي يطع .

﴿منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين﴾ يعني أنه يكون لهن من الأجر على الطاعة مثلاً ما يستحقه غيرهن من النساء اذا فعلن تلك الطاعة وفي هذا دليل قوي على أن معنى يضاعف لها العذاب ضعفين أنه يكون العذاب مرتين لا ثلاثاً ، لأن المراد إظهار شرفهن ومرتبتهن في الطاعة والمعصية ، يكون حسنتهن كحسنتين وسيئتهن كسيئتين ولو كانت كثلاث سيئات لم يناسب ذلك كون حسنتهن كحسنتين ، فإن الله أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهن مضاعفة تزيد على مضاعفة أجرهن،قيل الحسنة بعشرين حسنة ، وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن ، وفيه إشارة الى أنهن أشرف نساء العالمين .

﴿ وأعتدنا لها ﴾ زيادة على الأجر مرتين ﴿ رزقاً كريماً ﴾ جليل القدر،قال المفسرون: هو نعيم الجنة ، حكى ذلك عنهم النحاس ، ثم أظهر سبحانه فضيلتهن على سائر النساء تصريحاً فقال :

﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾ قال الزجاج: لم يقل كواحدة من النساء لأن (أحد) لفظ عام للمذكر والمؤنث والواحد والجماعة ، وقد يقال على ما ليس بآدمي ، كما يقال : ليس فيها أحد لا شاة ولا بعير ، والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف .

قال ابن عباس : يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات ، أنتن أكرم علي وثوابكن أعظم لدي ، ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد فقال :

﴿ ان اتقيتن ﴾ الله فأطعتنه فان الأكرم عند الله هو الأتقى ، فبين سبحانه أن هذه الفضيلة لهن إنما تكون بملازمتهن للتقوى لا لمجرد اتصالهن بالنبيﷺ وقد وقعت منهن ولله الحمد التقوى البينة، والايمان الخالص ، والمشي على طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه اي ان اتقيتن فلستن كأحد من النساء . وقيل ان جوابه قوله :

﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ والأول أولى ،والمعنى: لا تُلِن القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات من النساء ، لا ترققن الكلام قال ابن عباس يقول :لا ترخصن بالقول ، ولا تخضعن بالكلام . وعنه قال: مقارنة الرجال بالقول فانه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة وهي قوله :

﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ أي فجور وشهوة أو شك وريبة ، أو نفاق .

والمعنى لا تقلن قولاً يجد المنافق والفاجر به سبيلاً الى الطمع فيكن والمرأة مندوبة الى الغلظة في المقال اذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع فيهن.

﴿ وقلن قولاً معروفاً ﴾ عند الناس أي حسناً مع كونه خشناً بعيداً من الريبة على سنن الشرع لا ينكر منه سامعه شيئاً ، ولا يطمع فيكن أهل الفسق والفجور بسببه ، أو قولاً يوجبه الاسلام والدين عند الحاجة اليه ببيان من غير خضوع . وقيل : القول المعروف ذكر الله تعالى والأول أولى .

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ قرأ الجمهور بكسر القاف من وقر يقر وقاراً أي سكن والأمر منه قر بكسر القاف وللنساء قرن مثل عدن وزن ، وقال المبرد هو من القرار لا من الوقار ؛ تقول قررت بالمكان ـ بفتح الراء ـ والأصل اقررن بكسر الراء فحذفت الراء الأولى تخفيفاً كما قالوا في ظللت ظلت،ونقلوا حركتها الى القاف واستغني عن الف الوصل بتحريك القاف . وقال أبو علي الفارسي: أبدلت الراء الأولى ياء كراهة التضعيف؛كما أبدلت في قيراط ودينار وصارت الياء حركة الحرف الذي ابدلت منه ، والتقدير : أقيرن ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحريك الياء بالكسر فتسقط الياء لاجتماع الساكنين وتسقط همزة الوصل لتحريك ما بعدها فيصير قرن،وقرىء بفتح القاف وأصله قررت بالمكان اذا أقمت فيه بكسر الراء أقر بفتح القاف كحمد يحمد،وهي لغة أهل الحجاز ، ذكر ذلك ابو عبيد عن الكسائي ، وذكرها الزجاج وغيره .

قال الفراء : هو كما تقول : هل حسست صاحبك أي هل أحسسته ، قال أبو عبيد : كان أشياخنا من أهل العربية ينكرون القراءة بالفتح للقاف،وذلك لأن قررت بالمكان أقر لا يجوزه كثير من اهل العربية،والصحيح قررت اقر بالكسر ، ومعنى الآية الأمر لهن بالتوقر والسكون في بيوتهن ، وان لا يخرجن .

وهذا يخالف ما ذكرناه هنا عنه عن الكسائي وهو من اجل مشايخه،وقد

وافقه على الانكار لهذه القراءة أبو حاتم فقال:ان قرن بفتح القاف لا مذهب له في كلام العرب قال النحاس،قد خولف أبو حاتم في قوله إنه لا مذهب له في كلام العرب بل فيه مذهبان أحدهما حكاه الكسائي والآخر عن علي بن سليمان،فأما المذهب الذي حكاه الكسائي فهو ما قدمناه من رواية أبي عبيدة عنه وأما المذهب الذي حكاه علي بن سليمان فقال: إنه من قررت به عيناً أقر ، وقيل المعنى واقررن به عيناً في بيوتكن.

قال النحاس: وهو وجه حسن،وأقول ليس بحسن ولا هو معنى الآية؛فان المراد بها أمرهن بالسكون والاستقرار في بيوتهن،وليس من قرة العين اي الزمن بيوتكن ، عن محمد بن سيرين قال: نبئت انه قيل لسودة زوج النبي ﷺ «مالك لا تحجّين ولا تعتمرين كما تفعل اخواتك » ؟ فقالت « قد حججت واعتمرت وأمرني الله ان اقر في بيتي ، فوالله لا اخرج من بيتي حتى اموت » قال : فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها » .

﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ التبرج ان تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره مما تستدعي به شهوة الرجل ، وقد تقدم معنى التبرج في سورة النور ، قال المبرد هو مأخوذ من السعة ؛ يقال في أسنانه برج اذا كانت متفرقة ، والمعنى اظهار الزينة وابراز المحاسن للرجال . وقيل التبرج هو التغنج والتبختر ، والتكسر في المشي ، وهذا ضعيف جداً ، والأول أولى .

وقد اختلف في المراد بالجاهلية الأولى فقيل ما بين آدم ونوح أو زمن داود وسليمان . وقيل ما بين نوح وإدريس قاله ابن عباس ، وكانت الف سنة وقيل : ما بين نوح وإبراهيم . وقيل ما بين موسى وعيسى أو ما بين عيسى ومحمد قاله ابن عباس. وقيل ما قبل الاسلام والجاهلية الأخرى قوم يفعلون

مثل فعلهم في آخر الزمان ، أو الأولى جاهلية الكفر والأخرى جاهلية الفسوق ، والفجور في الاسلام وقد بين حكمها في قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الخ

وقيل نذكر الأولى وان لم تكن لها أخرى . وقال المبرد: الجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء،قال: وكان نساء الجاهلية يظهرون ما يقبح إظهاره حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخليلها فيتفرد خليلها بما فوق الإزار الى أعلى ويتفرد زوجها بما دون الإزار الى أسفل وربما سأل احدهما صاحبه البدل .

قال ابن عطية والذي يظهر لي أنه أشار الى الجاهلية التي لحقنها وأدركنها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها ، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة،لأنهم كانوا لا غيرة عندهم فكان أمر النساء دون حجبة وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كن عليه ؛ وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى كذا قال ، وهو قول حسن ، ويمكن ان يراد بالجاهلية الأخرى ما يقع في الاسلام من التشبه بأهل الجاهلية بقول أو فعل، فيكون المعنى ولا تبرجن أيها المسلمات بعد إسلامكن تبرجاً مثل تبرج أهل الجاهلية التي كنتن عليها،وكان عليها من قبلكن ، أي لا تحدثن بأفعالكن وأقوالكن جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل . وعن عائشة قالت: الجاهلية الأولى كانت على عهد ابراهيم كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال ، وكانت عائشة اذا قرأت هذه الآية تبكي حتى يبتل خمارها ، رواه مسروق .

﴿ وأقمن الصلاة ﴾ الواجبة ﴿ وآتين الزكاة ﴾ المفروضة ﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ فيما أمر وفيما نهى ، وخص الصلاة والزكاة ثم عمم فأمرهن بالطاعة لله ولرسوله في كل ما هو شرع لأنهما أصل الطاعات البدنية والمالية ، ولأن من واظب عليهما جرتاه الى ما وراءهما .

﴿ إنما يريد الله ﴾ أي إنما أوصاكن الله بما أوصاكن من التقوى وأن لا تخضعن بالقول،ومن قول المعروف ، والسكون في البيوت ، وعدم التبرج

واقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة .

﴿ ليذهب عنكم الرجس ﴾ والمراد بالرجس الاثم والذنب المدنسان للاعراض الحاصلان بسبب ترك ما أمر الله به ، وفعل ما نهى عنه فيدخل في ذلك كل ما ليس فيه رضا الله وقيل : الرجس الشك ، وقيل : السوء،وقيل : عمل الشيطان والعموم أولى ﴿ أهل البيت ﴾ نصبه على النداء او المدح .

﴿ ويطهركم ﴾ من الأرجاس والأدناس ﴿ تطهيراً ﴾ كاملاً وفي استعارة الرجس للمعصية والترشيح لها بالتطهير تنفير عنها بليغ ، وزجر لفاعلها شديد .

وقد اختلف اهل العلم في أهل البيت المذكورين في الآية فقال ابن عباس وعكرمة وعطاء والكلبي ومقاتل وسعيد بن جبير : إن أهل البيت المذكورين في الآية هم زوجات النبيﷺ خاصة قالوا : والمراد بالبيت بيت النبيﷺ ومساكن زوجاته ، لقوله : واذكرن ما يتلى في بيوتكن ، وأيضاً السياق في الزوجات من قوله : يا أيها النبي قل لأزواجك الى قوله لطيفاً خبيراً، وقاله ابو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة .

وروي عن الكلبي ان أهل البيت المذكورين في الآية هم علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة ، ومن حججهم الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للاناث ، وهو قوله عنكم ، وليطهركم،ولو كان للنساء خاصة لقال عنكن ، وليطهركن،وأجاب الأولون عن هذا بأن التذكير باعتبار لفظ الأهل كما قال سبحانه : ﴿أتعجبين من امر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾،وكما يقول الرجل لصاحبه : كيف أهلك ؟ يريد زوجته أو زوجاته ، فيقول هم بخير.

ولنذكر ههنا ما تمسك به كل فريق : أما الأولون فتمسكوا بالسياق فإنه في الزوجات كما ذكرنا،وبما أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس في الآية قال : نزلت في نساء النبي(ﷺ) خاصة . وقال عكرمة

من شاء باهلته أنها نزلت في ازواج النبي (ﷺ) وروي هذا عنه بطرق، وأمّاما تمسك به الآخرون فأخرج الترمذي وصححه ، وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في سننه ، من طرق عن أم سلمة قالت في بيتي نزلت إنما يريد الله الآية ، وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم رسول الله(ﷺ) بكساء كان عليه،ثم قال: هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة أيضاً أن النبي (ﷺ) كان في بيتها على منامة له عليه كساء خيبري فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة فقال رسول الله (ﷺ) ادعي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً فدعتهم ، فبينما هم يأكلون اذ نزلت على النبيﷺ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً فأخذ النبي (ﷺ) بفضلة كسائه فغشاهم إياها ثم أخرج يده من الكساء وألوى بها الى السماء ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً قالها ثلاث مرات ، قالت ام سلمة فأدخلت رأسي في الستر فقلت يا رسول الله وأنا معكم ؟ فقال : إنك الى خير مرتين وأخرجه أحمد أيضاً من حديثها وفي إسناده مجهول وهو شيخ عطاء وبقية رجاله ثقات ، وقد أخرجه الطبراني عنها من طريقين بنحوه .

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره لحديث ام سلمة طرقاً كثيرة في مسند أحمد وغيره ، وأخرج ابن مردويه والخطيب من حديث أبي سعيد الخدري نحوه واخرج الترمذي وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن عمر ابن أبي سلمة ربيب النبي (ﷺ) قال لما نزلت هذه الآية على النبي (ﷺ) وذكر نحو حديث ام سلمة .

وأخرج ابن أبي شيبة واحمد ومسلم وابن جرير وابن ابي حاتم والحاكم

عن عائشة قالت خرج النبيﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر اسود فجاء الحسن والحسين فأدخلهما معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه ثم قال: إنما يريد الله الآية.

وأخرج ابن ابي شيبة واحمد وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن واثلة ابن الأسقع قال : جاء رسول اللهﷺ الى فاطمة ومعه علي وحسن وحسين حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه ، وأجلسن حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه وأنا مستدبرهم ، ثم تلا هذه الآية وقال : اللهم هؤلاء اهل بيتي اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً قلت : يا رسول الله وأنا من أهلك ؟ قال . وانت من أهلي ، قال واثلة : إنه لأرجى ما أرجوه . وله طرق في مسند أحمد .

واخرج ابن أبي شيبه واحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس أن رسول اللهﷺ كان يمر بباب فاطمة اذا خرج الى صلاة الفجر يقول : الصلاة يا أهل البيت الصلاة ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ، ويطهركم تطهيراً .

وأخرج مسلم عن زيد بن أرقم ان رسول اللهﷺ قال أذكركم الله في أهل بيتي فقيل لزيد : ومن أهل بيته ؟ اليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته،ولكن أهل بيته من حرم عليهم الصدقة بعده ، آل علي وآل عقيل، وآل جعفر ، وآل عباس .

واخرج الحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : قال رسول اللهﷺ ان الله قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً ، فذلك قوله : وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، فأنا من أصحاب اليمين ؛ وأنا خير أصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين أثلاثاً

فجعلني في خيرها ثلثاً فذلك قوله ﴿وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون السابقون﴾ فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة وذلك قوله ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم﴾، وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً فذلك قوله :﴿انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء قال : رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ قال : رأيت رسول الله ﷺ اذا طلع الفجر جاء الى باب علي وفاطمة فقال : الصلاة الصلاة إنما يريد الله الآية وفي إسناده أبو داود الأعمى وهو وضاع كذاب ، وفي الباب أحاديث وآثار ، وقد ذكرنا ههنا ما يصلح للتمسك دون ما لا يصلح ، وقد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات ولعلي وفاطمة والحسن والحسين ، أما الزوجات فلكَونهن المرادات في سياق هذه الآيات كما قدمنا ، ولكونهنَ الساكنات في بيوته (ﷺ) النازلات في منازله ، ويعضد ذلك ما تقدم عن ابن عباس وغيره ، وأما دخول علي وفاطمة والحسن والحسين فلكونهم قرابته وأهل بيته في النسب ، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول ، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين اعمل بعض ما يجب اعماله وأهمل ما لا يجوز إهماله ، وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي وابن كثير وغيرهما .

وقال جماعة : هم بنو هاشم واستدلوا بما تقدم من حديث ابن عباس ، ويقول زيد بن أرقم المتقدم حيث قال : ولكن آله من حرم الصدقة بعده : آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس ، فهؤلاء ذهبوا الى أن المراد بالبيت بيت النسب .

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ أي اذكرن موضع النعمة اذ صيركن الله في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة او اذكرنها وتفكرن فيها لتتعظن بمواعظ الله أو اذكرنها للناس ليتعظوا بها ويهتدوا بهداها،أو اذكرنها بالتلاوة لها لتحفظنها ولا تتركن الاستكثار من التلاوة ، قال القرطبي : قال اهل التأويل ؛ آيات الله هي القرآن،والحكمة السنة،وقال مقاتل المراد بالآيات والحكمة أمره ونهيه في القرآن .

وقيل : ان القرآن جامع بين كونه آيات بينات دالة على التوحيد، وصدق النبوة ، وبين كونه حكمة مشتملة على فنون من العلوم والشرائع . وقال قتادة في الآية القرآن والسنة يمنن بذلك عليهن .

وأخرج ابن سعد عن ابي أمامة بن سهل في الآية قال كان رسول الله ﷺ يصلي في بيوت أزواجه النوافل بالليل والنهار .

﴿ إن الله كان لطيفاً ﴾ بأوليائه ﴿ خبيراً ﴾ بجميع خلقه وجميع ما يصدر منهم من خير وشر وطاعة ومعصية فهو يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

﴿إن المسلمين والمسلمات ﴾ بدأ سبحانه بذكر الاسلام الذي هو مجرد الدخول في الدين والانقياد له مع العمل ، كما ثبت في الحديث الصحيح ان النبيﷺ لما سأله جبريل عن الاسلام قال : هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان، ثم عطف على المسلمين المسلمات تشريفاً لهن بالذكر وهكذا فيما بعد إن كن داخلات في لفظ المسلمين والمؤمنين ونحو ذلك ، والتذكير إنما هو لتغليب الذكور على الاناث كما في جميع ما ورد في الكتاب العزيز من ذلك،ثم ذكر :

﴿ والمؤمنين والمؤمنات ﴾ وهم من يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره كما ثبت ذلك في الصحيح عن رسول اللهﷺ ﴿والقانتين والقانتات ﴾ القانت المطيع العابد ، وكذا القانتة،وقيل المداومين على العبادة والطاعة .

﴿ والصادقين والصادقات ﴾ هما من يتكلم بالصدق ويتجنب الكذب ويفي بما عوهد عليه .

﴿ والصابرين والصابرات ﴾ هما من يصبر عن الشهوات وعلى مشاق التكليف .

﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ اي المتواضعين لله الخائفين منه الخاضعين في عبادتهم لله .

﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ هما من تصدق من ماله بما اوجبه الله عليه ، وقيل ذلك اعم من صدقة الفرض والنفل.

﴿ والصائمين والصائمات ﴾ قيل : ذلك مختص بالفرض ، وقيل هو أعم .

﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ فروجهن عن الحرام بالتعفف والتنزه والاقتصار على الحلال .

﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾ الله كثيراً هما من يذكر الله على جميع احواله،وفي ذكر الكثرة دليل على مشروعية الاستكثار من ذكر الله سبحانه بالقلب واللسان والخبر لجميع ما تقدم هو قوله :

﴿ أعد الله لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم التي اذنبوها ﴿ وأجراً عظيماً ﴾ على طاعاتهم التي فعلوها من الاسلام والايمان والقنوت والصدق والصبر والخشوع والتصدق والصوم والعفاف والذكر ، ووصف الأجر بالعظيم للدلالة على أنه بالغ غاية المبالغ،ولا شيء اعظم من أجر هو الجنة ونعيمها الدائم الذي لا ينقطع ولا ينفد اللهم اغفر دنوبنا وأعظم أجورنا .

وقد أخرج احمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله فما لنا لا نذكر في القرآن كما تذكر الرجال فلم يرعني منه ذات يوم الا نداؤه على المنبر وهو يقول : « إن الله يقول إن المسلمين والمسلمات الآية واخرج عبد بن حميد والترمذي وحسنه والطبراني عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي (ﷺ) فقالت ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء فنزلت هذه الآية ، وعن ابن عباس قال : قالت النساء يا رسول الله ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات فنزلت هذه الآية أخرجه الطبراني وابن جرير وابن مردويه بإسناد ، قال السيوطي : حسن .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿ وما كان ﴾ أي ما صح وما استقام ﴿لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ قال القرطبي : لفظ ما كان وما ينبغي ونحوهما معناها الحظر والمنع من الشيء والإخبار بأنه لا يحل شرعاً ان يكون ، وقد يكون لما يمتنع عقلاً كقوله :﴿ما كان لكم ان تنبتوا شجرها﴾،ومعنى الآية: انه لا يحل لمن يؤمن بالله -إذا قضى الله أمراً- أن يختار من امر نفسه ما شاء ، بل يجب عليه أن يذعن للقضاء ويوقف نفسه تحت ما قضاه الله عليه ، واختاره له ، ويجعل رأيه تبعاً لرأيه . وجمع الضمير في قوله لهم ومن أمرهم ؛ لأن مؤمناً ومؤمنة وقعا في سياق النفي ، فهما يعمان كل مؤمن ومؤمنة ، قرىء أن يكون بالتحتية؛لأنه قد فرق بين الفعل وفاعله المؤنث بقوله:لهم مع كون التأنيث غير حقيقي ، وقرىء بالفوقية لكونه مسنداً الى الخيرة وهي مؤنثة لفظاً والخيرة مصدر بمعنى الاختيار ، ودل ذلك على ان الأمر للوجوب،وقرىء بسكون التحتية وبتحريكها ، ثم توعد سبحانه من لم يذعن لقضاء الله وقدره فقال :

﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ في أمر من الأمور ومن ذلك عدم الرضاء بالقضاء ﴿ فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾ أي ضل عن طريق الحق ضلالاً ظاهراً واضحاً لا يخفى.فإن كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر ، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق .

عن ابن عباس قال: «إن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها. قالت : لست بناكحته

قال : بلى فانكحيه. قالت: يا رسول الله أؤامر نفسي،فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله. قالت: قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً ، قال : نعم قالت : إذن لا أعصي رسول الله (ﷺ) قد انحكته نفسي» أخرجه ابن جرير وابن مردويه ، وعنه قال : قال رسول الله (ﷺ) لزينب : اني أريد أن أزوجك زيد بن حارثة فإني قد رضيته لك . قالت : يا رسول الله لكني لا أرضاه لنفسي ، وأنا أيّم قومي ، وبنت عمتك ، فلم أكن لأفعل فنزلت هذه الآية : (وما كان لمؤمن) يعني : زيداً(ولا مؤمنة)يعني زينب (إذا قضى الله ورسوله امراً)يعني النكاح في هذا الموضع (أن تكون لهم الخيرة من أمرهم)،يقول : ليس لهم الخيرة من أمرهم خلاف ما أمر الله به ، قالت : قد اطعتك فاصنع ما شئت ، فزوجها زيداً ودخل عليها أخرجه ابن مردويه .

وعن ابن زيد قال: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول امرأة هاجرت فوهبت نفسها للنبي (ﷺ) فزوجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالا :انما أردنا رسول الله (ﷺ) فزوجها عبده ، وكان تزوج زيد بزينب قبل الهجرة بنحو ثمان سنين ، وبعد ما طلق زيد زينب زوجه (ﷺ) أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت وهبت نفسها للنبي (ﷺ) فزوجها من زيد ، وكان زوجه قبلها أم أيمن وولدت له أسامة ، وكانت ولادته بعد البعثة بثلاث سنين ، وقيل بخمس ، وفي شرح المواهب ان أم أيمن ، هي بركة الحبشية بنت ثعلبة اعتقها عبد الله ابو النبي (ﷺ) ، وقيل بل اعتقها هو (ﷺ) وقيل : كانت لأمه أسلمت قديماً وهاجرت الهجرتين ماتت بعده (ﷺ) بخمسة أشهر ، وقيل بستة ، ودلت الآية على لزوم اتباع قضاء الكتاب والسنة ، وذم التقليد والرأي ، وعدم خيرة الأمر في مقابلة النص من الله ورسوله (ﷺ) وإن كان السبب خاصاً فان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

لما زوج رسول الله ﷺ زيد بن حارثة بزينب بنت جحش كما مر أنزل الله سبحانه :

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾

﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك ﴾ هو زيد بن حارثة أنعم الله عليه بالاسلام وأنعم عليه رسول الله ﷺ بأن اعتقه من الرق ، وكان من سبي الجاهلية اشتراه رسول الله ﷺ في الجاهلية وأعتقه وتبناه ، وسيأتي في سبب نزول الآية ما يوضح المراد منها . قال القرطبي .وقد اختلف في تأويل هذه الآية فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين منهم ابن جرير والطبري وغيره : الى ان النبي ﷺ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش ، وهي في عصمة زيد وكان حريصاً على أن يطلقها زيد . فيتزوجها هو .

ثم ان زيداً لما أخبره بأنه يريد فراقها وشكا منها غلظة القول وعصيان الأمر والأذى باللسان والتعظم بالشرف قال له : اتق الله فيما تقول عنها وأمسك عليك زوجك زينب ، وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها . وهذا الذي كان يخفي في نفسه ولكنه فعل ما يجب عليه من الأمر بالمعروف . قال علماؤنا رحمهم الله : وهذا القول أحسن ما قيل في هذه الآية وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين كالزهري والقاضي أبي بكر بن العلاء القشيري والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم ، انتهى ما قاله القرطبي ملخصاً .

﴿ واتق الله ﴾ في أمرها ولا تعجل بطلاقها ﴿ وتخفي ﴾ الواو للحال أي والحال أنك تخفي ﴿ في نفسك ما الله مبديه ﴾ هو نكاحها ان طلقها زيد ،

وقيل : حبها .

﴿ وتخشى النـاس ﴾ أي تستحييهم أو تخاف من تعييرهم أن يقولوا : أمـر مولاه بطلاق امرأته ثم تزوجها ﴿ والله أحق أن تخشـاه ﴾ في كل حـال وتخاف منه وتستحييه ولا تأمر زيداً بإمساكه زوجته بعد أن أعلمك الله أنها تكون زوجتك فعـاتبه الله على هـذا ، قال بعضهم : وما ذكروه في تفسيـر هذه الآيـة من وقوع محبتها في قلب النبيﷺ، وإرادته طلاق زيد لها فيه أعظم الحرج ، وما لا يليق بمنصبهﷺ وإقدام عظيم من قائله وقلة معـرفة بحق النبي (ﷺ) وبفضله، وكيف يقال : رآها فأعجبته وهي بنت عمته ولم يزل يـراها منـذ ولدت ولا كـانت النساء يحتجبن منهﷺ وهو زوجها لزيد، فلا يشـك في تنزيـه النبي (ﷺ) عن أن يأمـر زيداً بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها قال : وأصح ما في هذا الباب ما قالـه علي ابن الحسين : إن الله قد اعلمه أنها ستكون من أزواجه ، وإن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد وقـال : إني أريد أن أطلقها ، قال لـه : أمسك عليـك زوجك، فعـاتبه الله تعالى ، وقال : لم قلت أمسك عليك زوجك ؟ وقد أعلمتـك أنها ستكون زوجتك .

قال الخطيب : وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة، لأن الله تعالى أعلم أنه يبدي ويظهر ما أخفاه ، ولم يظهر غير تزويجها منه ، فقال تعالى : زوجناكها . فلو كان الـذي أضمره رسـول اللهﷺ محبتها أو إرادة طـلاقها لكـان يظهـر ذلـك ؛ لأنـه لا يجـوز أن يخبـر الله أنـه يـظهـره ، ثم يكتمـه فـلا يـظهـره ، فدل على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله من أنها ستكون زوجته، وإنما ذلك استحياء أن يخبر زيداً ان التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي .

قال الكرخي : وهذا القول هو المنصور المعول عليه عند الجمهور .

وقال البغوي : وهذا هو الأولى ، وإن كان الآخر ـ وهو أنه أخفى محبتهـا أو نكاحها لو طلقها ـ لا يقدح في حال الأنبياء ، لأن العبد غيـر ملوم على ما يقـع في قلبه من مثل هذه الأشياء ، ما لم يقصد فيه المأثم لأن الود وميل النفس من طبع البشر انتهى . ولهذا قال ابن عباس : كان في قلبه حبها . وقال قتادة : ود أنه لو

طلقها زيد. قال الخازن: وهذا قول حسن مرضي ، وكم من شيء يتحفظ منه الانسان ويستحي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع ، وحلال مطلق ، لا مقال فيه ولا عيب عند الله ، وربما كان الدخول في ذلك المباح سلّماً الى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين،وهو إنما جعل طلاق زيد لها وتزويج النبيﷺ إياها؛لإزالة حرمة التبني وإبطال سنته كما قال تعالى :﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾.

﴿ فلما قضى زيد منها وطراً ﴾ قضاء الوطر في اللغة بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء يقال قضى وطراً منه إذا بلغ ما أراد من حاجته فيه،والمراد هنا أنه قضى وطره منها بنكاحها والدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة ، وتقاصرت عنه همته وطابت عنها نفسه. وقيل المراد به الطلاق لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة.وقال المبرد: الوطر الشهوة والمحبة.

وقال ابو عبيدة الوطر الأرب والحاجة. قال الإمام ابو القاسم عبد الرحمن السهيلي :كان يقال زيد بن محمد،حتى نزل«أدعوهم لآبائهم» فقال: أنا زيد بن حارثة وحرم عليه أنا زيد بن محمد.فلما نزع هذا الشرف وهذا الفخر منه ، وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يختص بها أحد من أصحاب النبيﷺ وهو أنه سمّاه في القرآن أي في هذه الآية،فذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم،حتى صار اسمه قرآناً يتلى في المحاريب ، ونوه به غاية التنويه،فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوة محمدﷺ ، ألا ترى الى قول أُبي بن كعب ؟ حين قال له النبي (ﷺ) « ان الله أمرني أن اقرأ عليك سورة كذا فبكى » وقال: أذكرت هنالك،وكان بكاؤه من الفرح ـ حيث ان الله تعالى ذكره فكيف بمن صار اسمه قرآناً يتلى مخلداً لا يبلى ؟ يتلوه أهل الدنيا اذا قرأوا القرآن،وأهل الجنة كذلك أبداً لا يزال على ألسنة المؤمنين، كما لم يزل مذكوراً على الخصوص عند رب العالمين ، إذ القرآن كلام الله القديم ، وهو باق لا يبيد.فاسم زيد في الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة يذكره في تلاوتهم السفرة الكرام البررة،وليس ذلك لاسم من اسماء المؤمنين الا لنبي من

الأنبياء ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله مما نزع منه ، وزاد في الآية أن قال : ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ أي بـالإيمـان فـدل على أنه من أهـل الجنة علم ذلك قبل ان يموت وهذه فضيلة أخرى رضي الله تعالى عنه انتهى .

﴿ زوجناكها ﴾ وقرىء زوجتكها،يعني ولم نحوجك إلى ولي من الخلق يعقد لك عليها تشريفاً لك ولهـا،فلما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ولا عقد ولا تقدير صداق ولا شيء مما هو معتبر في النكاح في حق أمته ، وهذا من خصـوصياتـه (صـلى الله عليـه وسلم) التي لا يشاركـه فيها أحـد بإجمـاع المسلمين ، وكان تزوجه بزينب سنة خمس من الهجرة .

وقيل سنة ثلاث .وهي أول من مات بعـده من زوجاتـه الشريفـات المطهرات ماتت بعده بعشر سنين عن ثلاث وخمسين سنة،وقيل المراد به الأمر له بأن يتزوجها والأول أولى وبه جاءت الأخبار الصحيحة .

وقد أخرج أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم عن أنس قال :«جاء زيد ابـن حارثة يشكو زينب الى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:اتق الله وامسك عليك زوجك ، فنزلت : وتخفي في نفسك ما الله مبديه فتزوجها رسول الله (صـلى الله عليه وسلم)؛ فما أوْلَم على امرأة من نسائه ما أوْلَم عليها؛ذبح شاة وأطعم الناس خبزاً ولحماً حتى تركوه ، فكانت تفتخر على أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) تقول زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات ، وكانت تقول لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) جدي وجدك واحد ، وليس من نسائك من هي كذلك غيري ، وقد أنكحنيك الله والسفير في ذلك جبريل» قاله الخازن .

وقال عمر وابن مسعود ما نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) آية هى أشد عليه من هذه الآية . وقال أنس : فلو كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كاتماً شيئاً لكتم هذه الآية ، وكذا روي عن عائشة .

﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج ﴾ أي ضيق ومشقة؛علة للتزويج ، وهو دليل على أن حكمه وحكم الأمة واحد إلا ما خصه الدليل ﴿ في أزواج أدعيائهم ﴾ أي في التزوج بأزواج من يجعلونه ابناً كما كانت تفعله العرب فإنهم كانوا يتبنون من يريدون ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد تبنى زيد بن حارثة وكان يقال له زيد بن محمد حتى نزول قوله سبحانه﴿أدعوهم لآبائهم﴾. وكانت العرب تعتقد أنه يحرم عليهم نساء من تبنوه كما يحرم عليهم نساء أبنائهم حقيقة ، والأدعياء جمع دعي؛وهو الذي يدعى ابناً من غير أن يكون ابناً على الحقيقة ، فأخبرهم الله أن نساء الأدعياء حلال لهم .

﴿ إذا قضوا منهن وطراً ﴾ بخلاف ابن الصلب فإن امرأته تحرم على أبيه بنفس العقد عليها .

﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ أي قضاؤه في أمر زينب أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء ماضياً موجوداً في الخارج لا محالة .

وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب قالوا تزوج حليلة ابنه ، فأنزل الله :﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير ، فلبث حتى صار رجلاً يقال له: زيد بن محمد ؛فأنزل الله ﴿أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ يعني أعدل أخرجه الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبراني وغيرهم.

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أنس قال:لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد: اذهب فاذكرها عليّ فانطلق. قال: فلما رأيتها عظمت في صدري ؛ فقلت: يا زينب أبشري .أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤآمر ربي. فقامت إلى مسجدها،ونزل القران،وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله

صلى الله عليه وسلم ؛ أطعمنا الخبز واللحم،فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام،فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن،ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك ؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر ، فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ، ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا: ﴿لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾الآية، ثم بيّن سبحانه أنه لم يكن على رسول الله صلى الله عليه وسلم حرج في هذا النكاح فقال : ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ﴾ أي فيما أحل الله له وقدره وقضاه ، يقال : فرض له كذا أي قدر له ﴿ سنة الله ﴾ أي سن الله ذلك سنة ، أو اسم وضع موضع المصدر ؛ قاله الزمخشري أو مصدر كصنع الله ووعد الله .

﴿ في الذين خلوا من قبل ﴾ أي أن هذا هو السنن الأقوم في الأنبياء والأمم الماضية أن ينالوا ما أحله الله لهم من أمر النكاح وغيره ، توسعة عليهم ، فكان لهم الحرائر والسراري . عن كعب القرظي قال: يعني يتزوج من النساء ما شاء هذا فريضة، وكان من قبل من الأنبياء هذا سنتهم ، قد كان لسليمان بن داود ألف امرأة منها ثلثمائة سرية ، وكان لداود مائة امرأة. وقال ابن جريج :الذين خلوا هم داود والمرأة التي نكح زوجها واسمها: اليسية؛ فذلك سنة في محمد وزينب .

﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾أي قضاء مقضياً ، وحكماً مبتوتاً ، وهو كظل ظليل وليل أليل وروض أريض في قصد التأكيد ، والقضاء : الارادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه ، والقدر عبارة عن إيجاده إياها على تقدير مخصوص معين ، لكن كلاً منهما يستعمل بمعنى الآخر ، فالمراد إيجاد ما تعلقت به الإرادة قاله الشهاب ، ثم ذكر سبحانه الأنبياء الماضين وأثنى عليهم فقال :

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ﴾ مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به الى عباده وخشيته في كل فعل وقول ﴿ ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾ أي سواه ولا يبالون بقول الناس ولا بتعييرهم فيما أحل الله لهم ، بل خشيتهم مقصورة على الله سبحانه .

﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ حاضراً في كل مكان ، حافظاً لأعمال خلقه يكفي عباده كل ما يخافونه أو محاسباً لهم في كل شيء ، ولما تزوج ﷺ زينب قال الناس إمرأة ابنه فأنزل الله :

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ أي ليس هو ﷺ بأب لزيد بن حارثة على الحقيقة حتى تحرم عليه زوجته ، ولا هو اب لأحد لم يلده ، قال الواحدي : قال المفسرون لم يكن أبا أحد لم يلده، وقد ولد له من الذكور إبراهيم ، والقاسم ، والطيب والمطهر . قال القرطبي : ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلاً ، قال وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ولم يكونا رجلين معاصرين له . قال النسفي : وكل رسول أبو أمته فيما يرجع الى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم ، ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء ، وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة، فكان حكمه كحكمهم، والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير .

﴿ ولكن رسول الله ﴾ قال الأخفش والفراء : ولكن كان رسول الله ، وأجاز الرفع وكذا قرأ ابن أبي عبلة بالرفع في رسول وفي خاتم على معنى : ولكن هو رسول الله .

﴿ وخاتم النبيين ﴾ وقرأ الجمهور بتخفيف لكن ونصب رسول وخاتم ووجه النصب على خبرية كان المقدرة كما تقدم ، ويجوز أن يكون بالعطف على (أبا أحد) وقرىء بتشديد (لكن) ، ونصب رسول ، على أنه اسمها،وخبرها محذوف أي ولكن رسول الله هو ، وقرأ الجمهور: وخاتم بكسر التاء،وقرىء بفتحها ومعنى الأولى أنه ختمهم أي جاء اخرهم ومعنى الثانية أُنه صار كالخاتم لهم الذي يختمون به ويتزينون بكونه منهم ، وقيل : كسر التاء وفتحها لغتان ، قال أبو عبيدة: الوجه الكسر لأن التأويل أنه ختمهم ، فهو خاتمهم ، وأنه قال: أنا خاتم النبيين وخاتم الشيء آخره ، ومنه قولهم:خاتمه المسك .

وقال الحسن : الخاتم هو الذي ختم به ، والمعنى: ختم الله به النبوة فلا نبوة بعده ولا معه. قال ابن عباس : يريد لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابناً يكون بعده نبياً ، وعنه أن الله لما حكم أن لا نبي بعده؛ لم يعطه ولداً ذكراً يصير رجلاً ، وعيسى ممن نبىء قبله،وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمدﷺ كأنه بعض أمته .

﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ قد أحاط علمه بكل شيء ، ومن جملة معلوماته هذه الأحكام التي ذكرت هنا. أخرج أحمد ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل النبيين كمثل رجل بنى داراً فانتهى الى لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر قال قال رسول الله ﷺ : مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل ابتنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة؛فكان من دخلها فنظر اليها قال ما أحسنها إلا موضع اللبنة فأنا موضع اللبنة حتى ختم بي الأنبياء » .

وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه .

وأخرج أحمد والترمذي وصححه ، من حديث أبي ابن كعب نحوه أيضاً .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾ أمر سبحانه عباده بأن يستكثروا من ذكره بالتهليل والتحميد والتسبيح وكل ما هو ذكر لله تعالى ، قال مجاهد : هو أن لا ينساه أبداً،وقال الكلبي : ويقال ذكراً كثيراً بالصلوات الخمس ، وقال مقاتل : هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير على كل حال ، وقال ابن عباس في الآية لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها أجلًا معلوماً ، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي اليه ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله،فقال: ﴿اذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ بالليل والنهار ، في البر والبحر ، في السفر والحضر ، في الغنى والفقر ، في الصحة والسقم ، في السر والعلانية وعلى كل حال،وقد ورد في فضل الذكر والاستكثار منه أحاديث كثيرة .

وقد صنف في الأذكار المتعلقة بالليل والنهار جماعة من الأئمة كالنسائي والنووي والجزري وغيرهم ، وقد نطقت الآياتِ القرآنية بفضل الذاكرين وفضيلة الذكر ، ولذكر الله أكبر، وقد ورد أنه أفضل من الجهاد كما في حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد والترمذي والبيهقي : «أن رسول الله ﷺ سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال : الذاكرون الله كثيراً . قلت: يا رسول الله ومن الغازين في سبيل الله ؟ قال : لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى يتكسر ويتخضب دماً لكان الذاكرون أفضل منه درجة ، وأخرج أحمد عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم،وأرفعها في درجاتكم،وخير لكم من إعطاء الذهب والورق،وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا وما هو يا رسول الله ؟ قال : ذكر الله عز وجل وأخرجه أيضاً الترمذي وابن ماجة .

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة قال : قال رسول

الله ﷺ سبق المفردون. قالوا: وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وصححه ، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله (ﷺ) قال : أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أذكروا الله حتى يقول المنافقون إنكم مراؤون.

﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ أي نزهوه عما لا يليق به في وقت البكرة ووقت الأصيل ، وهما أول النهار وآخره ، وتخصيصهما بالذكر لمزيد ثواب التسبيح فيهما ، وخص التسبيح بالذكر بعد دخوله تحت عموم قوله : اذكروا الله تنبيهاً على مزيد شرفه وأنافة ثوابه على غيره من الأذكار ، وقيل المراد بالتسبيح بكرة: فصلاة الفجر، وبالتسبيح أصيلاً صلاة المغرب ، وقال قتادة وابن جرير : المراد صلاة الغداة وصلاة العصر ، وقال الكلبي : أما بكرة فصلاة الفجر ، وأما أصيلاً :فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

قال المبرد : والأصيل العشي ، وجمعه أصائل ، وقد ورد في فضل التسبيح بخصوصه أحاديث ثابتة في الصحيحين وغيرهما؛فمن ذلك حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال في يوم مائة مرة سبحان الله وبحمده حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر» .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لنا: أيعجز أحدكم أن يكتسب كل يوم الف حسنة. فقال رجل : كيف يكتسب أحدنا ألف حسنة ؟ . قال: يسبح الله مائة تسبيحة ، فيكتب له ألف حسنة ، ويحط عنه ألف خطيئة وقيل معنى سبحوه قولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله. زاد في نسخة :العلي العظيم؛فعبر بالتسبيح عن أخواته. والمراد بقوله : كثيراً هذه الكلمات يقولها الطاهر ، والجنب ، والحائض ، والمحدث .

هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ الصلاة من الله على العباد رحمة لهم وبركةٌ عليهم ، ومن الملائكة الدعاء لهم والاستغفار كما قال:﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : المعنى ويأمر ملائكته بالاستغفار لكم ، والجملة مستأنفة كالتعليل لما قبلها من الأمر بالذكر والتسبيح .وقيل : الصلاة من الله على العبد هي إشاعة الذكر الجميل في عباده ، وقيل الثناء عليه،وعطف ملائكته على الضمير المستكن في يصلي لوقوع الفصل بقوله (عليكم) فأغنى ذلك عن التأكيد بالضمير المنفصل ، والمراد بالصلاة هنا معنى مجازى يعم صلاة الله بمعنى الرحمة ، وصلاة الملائكة بمعنى الدعاء ، لئلا يجمع بين حقيقة ومجاز في كلمة واحدة ، واللام في قوله :

﴿ ليخرجكم من الظلمات الى النور ﴾ متعلق بيُصلي، أي يعتني بأموركم هو وملائكته ليخرجكم من ظلمات المعاصي الى نور الطاعات ومن ظلمة الضلالة الى نور الهداية ، ومعنى الآية تثبيت المؤمنين على الهداية ، ودوامهم عليها؛لأنهم كانوا وقت الخطاب على الهداية ، قال الحفناوي : جمع الأول لتعدد أنواع الكفر،وأفرد الثاني لأن الايمان شيء واحد لا تعدد فيه ،

ثم أخبر سبحانه برحمته للمؤمنين تأنيساً لهم وتثبيتاً فقال :

﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ وفي هذه الجملة تقرير لمضمون ما تقدمها، ثم بين سبحانه أن هذه الرحمة منه لا تخص السامعين وقت الخطاب ، بل هي عامة لهم ، ولمن بعدهم ، وفي الدار الآخرة فقال :

﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ أي تحية المؤمنين من الله سبحانه يوم لقائهم له عند الموت ، أو عند البعث،وعند دخول الجنة هي التسليم عليهم منه عز وجل،يقول الله تبارك وتعالى : السلام عليكم ، وقيل : المراد تحية بعضهم لبعض يوم يلقون ربهم : سلام ، وذلك لأنه كان بالمؤمنين رحيماً ، فلما شملتهم رحمته وأمنوا من عقابه ، حيا بعضهم بعضاً سروراً واستبشاراً ، والمعنى : سلامة لنا من عذاب النار .

قال الزجاج : المعنى فيسلمهم الله من الآفات ، ويبشرهم بالأمن من المخافات يوم يلقونه ، وقيل : الضمير في يلقونه راجع الى ملك الموت ، وهو الذي يحييهم كما ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلم عليه ، قاله البراء بن عازب،وقال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام ، وقال مقاتل :هو تسليم الملائكة عليهم يوم يلقون الرب كما في قوله :﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾ .

﴿وأعد لهم أجراً كريماً ﴾ أي في الجنة،أو أعد لهم في الجنة رزقاً حسناً،ما تشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم ، وهذا بيان لآثار رحمته تعالى الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار رحمته الواصلة اليهم قبل ذلك،ثم ذكر سبحانه صفات رسول الله ﷺ التي أرسله لها فقال:

﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ﴾ أي على أمته يشهد لمن صدقه وآمن به،وعلى من كَذَّبه وكفر به ، قال مجاهد شاهداً على أمته بالتبليغ إليهم وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم .

﴿ ومبشراً ﴾ للمؤمنين برحمة الله وبالجنة ، وبما أعدَّهُ لهم من جزيل الثواب وعظيم الأجر ﴿ ونذيراً ﴾ للكافرين والعصاة بالنار وبما أعدّه الله لهم من أليم العقاب.

﴿ وداعياً إلى الله ﴾ يدعو عباد الله الى التوحيد والإيمان بما جاء به والعمل بما شرعه لهم. ومعنى ﴿ بإذنه ﴾ بأمره بذلك وتقديره .

وقيل: بتيسيره قاله الكرخي وغيره. ﴿وسراجاً منيراً﴾ يستضاء به في ظلم الضلالة كما يستضاء بالمصباح في الظلمة. قال الزجاج: (وسراجاً) أي ذا سراج منير أي كتاب نير، وهو القرآن، وإنما شبه الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالسراج دون الشمس مع أنها أتم لأن المراد بالسراج هنا الشمس؛ كما قال تعالى: وجعل الشمس سراجاً، أو شبه بالسراج لأنه تفرع منه بهدايته جميع العلماء؛ كما يتفرع من السراج سرج لا تحصى بخلاف الشمس.

﴿ وبشر المؤمنين ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام؛كأنه قيل:فراقب أحوال الناس،وبشر المؤمنين من أمتك ﴿ بأن لهم من الله فضلاً كبيرا ﴾ على مؤمني سائر الأمم في الرتبة والشرف ، وزيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والإحسان، وقد بين ذلك سبحانه بقوله :﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير﴾.

عن ابن عباس قال : لما نزلت: (يا أيها النبي) الآية،وقد كان صلى الله عليه وسلم أمر علياً ومعاذاً أن يسيرا إلى اليمن فقال: « انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا » فإنها قد أنزلت عليّ (يا أيها النبي إنا أرسلناك) الآية .

وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما: عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله

ابن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوارة، قال أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح» وزاد أحمد : ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ، وقد ذكر البخاري في صحيحه في البيوع هذا الحديث فقال :

وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام ولم يقل : عبد الله بن عمرو ، وهذا أولى فعبد الله بن سلام هو الذي كان يسأل عن التوراة فيخبر بما فيها ، ثم نهاه سبحانه عن طاعة أعداء الدين فقال:

﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ فيما يشيرون به عليك من المداهنة في الدين ، والمداراة في أمر الدعوة ، ومن استعمال لين الجانب في التبليغ. وفي الآية تعريض لغيره من أمته لأنه ﷺ معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه ويشيرون به عليه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في أول السورة ﴿ ودع أذاهم ﴾ أي لا تبال بما يصدر منهم إليك من الأذى بسبب تصلبك في دين الله وشدتك على أعدائه ، أو دع أن تؤذيهم أنت مجازاة لهم على ما يفعلونه من الأذى لك؛ فالمصدر على الأول مضاف الى الفاعل؛ وعلى الثاني مضاف الى المفعول، قيل: هي منسوخة بآية السيف .

﴿ وتوكل على الله ﴾ في كل شؤونك ﴿وكفى بالله وكيلاً ﴾ توكل اليه الأمور وتفوض اليه الشؤون فمن فوض إليه أموره كفاه ، ومن وكل اليه أحواله لم يحتج فيها إلى سواه ، ولما ذكر سبحانه قصة زيد وطلاقه لزينب وكان قد دخل بها وخطبها النبي ﷺ بعد انقضاء عدتها كما تقدم ، خاطب المؤمنين مبيناً لهم حكم الزوجة اذا طلقها زوجها قبل الدخول فقال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ﴾ أي عقدتم بهن عقد النكاح أو بالكتابيات ، وإنما خص المؤمنات بالذكر للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيراً للنطفة ، وقد اختلف في لفظ النكاح ، هل هو حقيقة في الوطء ؟ أو في العقد ؟ أو فيهما على طريقة الاشتراك ؟ وكلام صاحب الكشاف في هذا الموضع يشعر بأنه حقيقة في الوطء ، فإنه قال : النكاح الوطء وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له من حيث إنه طريق إليه ، ونظيره تسمية الخمر إثماً لأنها سبب في اقتراف الإثم، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد ، كما قاله صاحب الكشاف والقرطبي وغيرهما .

﴿ ثم ﴾ التراخي ليس قيداً ، وفائدة التعبير بثم إزالة ما عسى أن يتوهم من أن تراخي الطلاق بقدر إمكان الإصابة كما يؤثر في النسب يؤثر في العدة ﴿ طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ﴾ أي تجامعوهن ، فكنى عن ذلك بلفظ المس ومن آداب القرآن الكناية عن الوطء بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والغشي والإتيان.

وقد استدل بهذه الآية القائلون بأنه لا طلاق قبل النكاح ، وهم الجمهور ، وبه قال علي وابن عباس وجابر ومعاذ وعائشة،وبه قال سعيد بن المسيب وعروة وشريح وسعيد بن جبير والقاسم وطاووس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار ومجاهد والشعبي وقتادة وأكثر أهل العلم ، وبه قال الشافعي ، وذهب ابن مسعود ومالك وأبو حنيفة الى صحة الطلاق قبل النكاح اذا قال :اذا تزوجت فلانة فهي طالق فتطلق اذا تزوجها ، وبه قال النخعي وأصحاب الرأي،وقال ربيعة والأوزاعي : ان عيّن امرأة وقع وإن عمّم

فلا يقع ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : لا طلاق فيما لا تملك ، ولا عتق فيما لا تملك، ولا بيع فيما لا تملك ، أخرجه أبو داود والترمذي بمعناه. وعن ابن عباس قال : جعل الله الطلاق بعد النكاح أخرجه البخاري .

﴿فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ أي تحصونها بالاقراء والأشهر ، أجمع العلماء على أنه إذا كان الطلاق قبل المسيس والخلوة فلا عدة ، وذهب أحمد الى أن الخلوة توجب العدة والصداق ، وقد حكى ذلك الإجماع القرطبي وابن كثير، والمعنى : تستوفون عددها، من عددت الدراهم فأعتدها، وإسناد ذلك الى الرجال للدلالة على أن العدة حق لهم كما يفيده قوله : (فما لكم) وقرئ: تعتدونها بتشديد الدال وبتخفيفها ، وفي هذه وجهان أحدهما: أن يكون بمعنى الأولى مأخوذ من الاعتداد أي تستوفون عددها ولكنهم تركوا التضعيف لقصد التخفيف ، قال الرازي : ولو كان من الاعتداء الذي هو الظلم لضعف، لأن الاعتداء يتعدى بعلى ، وقيل من الاعتداء بحذف حرف الجر أي تعتدون عليها أي على العدة مجازاً .

والوجه الثاني: أن يكون المعنى تعتدون فيها والمراد بالاعتداء هذا هو ما في قوله :﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾ فيكون معنى الآية على القراءة الأخرى: فما لكم عليهن من عدة تعتدون عليهن فيها بالمضارة وقد أنكر ابن عطية صحة هذه القراءة عن ابن كثير ، وقال: ان البزي غلط عليه وهذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ ولقوله:﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر﴾.

﴿ فمتعوهن ﴾ أي أعطوهن ما يستمتعن به، والمتعة المذكورة هنا قد تقدم الكلام عليها في البقرة . وقال سعيد بن جبير: هذه المتعة المذكورة هنا منسوخة بالآية التي في البقرة ، وهي في قوله :﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾، وقيل المتعة هنا: هي أعم من أن تكون نصف الصداق ، أو المتعة خاصة إن لم يكن قد سمي لها فمع التسمية

للصداق تستحق نصف المسمى عملاً بقوله (فنصف ما فــرضتم)،ومع عدم التسمية تستحق المتعة عملاً بهذه الآية ، ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ولا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن اوتفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾، وهذا الجمع لا بد منه ، وهو مقدم على الترجيح وعلى دعوى النسخ ، ويخصص من هذه الآية من توفي عنها زوجها ، فإنه اذا مات بعد العقد عليها وقبل الدخول بها كان الموت كالدخول فتعتدّ اربعة اشهر وعشراً ، قال ابن كثير بالاجماع ، فيكون المخصص هو الاجماع .

﴿ وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾ أي أخرجوهن من غير إضرار ولا منع حق من منازلكم ، إذ ليس لكم عليهن عدة ، والسراح الجميل الذي لا ضرار فيه وقيل: هو ان لا يطالبها بما كان قد أعطاها، وقيل هو هنا كناية عن الطلاق وهو بعيد ، لأنه قد تقدم ذكر الطلاق ، ورتب عليه التمتع ، وعطف عليه السراح الجميل ، فلا بد أن يراد به معنى غير الطلاق .

وعــن ابن عباس في الآية قال: هذا في الرجل يتزوج المرأة ثم يطلقها من قبل أن يمسها فإذا طلقها واحدة بانت منه ولا عدة عليها تتزوج من شاءت ثم قال: ﴿فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميـلاً﴾ ،يقول: إن كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف وإن لم يكن سمى لها صداقاً متعها على قدر عسره ، ويسره وهو السراح الجميل .

وعن ابن عمـر قال : ﴿إذا نكحتم المؤمنـات ثم طلقتموهن﴾ منسـوخة نسختها التي في البقرة (فنصف ما فرضتم)، وعن سعيد بن المسيب نحوه ، وعن الحسن وأبي العالية قالا: ليست بمنسوخة لها نصف الصداق،ولها المتاع وعن ابن جريج قال بلغ ابن عباس أن ابن مسعود يقول : إن طلق ما لم ينكح فهو جائز فقال ابن عباس: أخطأ في هذا إن الله يقول: إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، ولم يقـل: اذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهن . وعن ابن عباس أنه تلا هذه الآية وقال : لا يكون طلاق حتى يكون نكاح،وقد وردت أحاديث فيها: أنه لا طلاق إلا بعد نكاح وهي معروفة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

﴿ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ﴾ ذكر سبحانه في هذه الآية أنواع الأنكحة التي أحلها لرسوله، وبدأ بأزواجه اللاتي قد أعطاهن أجورهن أي مهورهن فإن المهور أجور الإبضاع، ولهذا قال الكرخي: إن النكاح بلفظ الإجارة جائز.

وقال أهل الرأي : التأبيد من شرط النكاح ، والتأقيت من شرط الإجارة وبينهما منافاة ، وإيتاء الأجور إما تسليمها معجلة ، أو فرضها أو تسميتها في العقد ، واختلف في معنى الآية فقال ابن زيد والضحاك: إن الله أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها؛فتكون الآية مبيحة لجميع النساء ما عدا ذوات المحارم ، وقال الجمهور : المراد أحللنا لك أزواجك الكائنات عندك لأنهن قد اخترنك على الدنيا وزينتها ، وهذا هو الظاهر؛لأن قوله : أحللنا وآتيت ماضيان ؛وتقييد الاحلال بإيتاء الأجور ليس لتوقف الحل عليه؛لأنه يصح العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل مع الوطء ، والمتعة مع عدمه.فكأنه لقصد الإرشاد الى ما هو أفضل .

﴿ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ﴾ أي السراري اللاتي دخلن في ملكك بالغنيمة.والمعنى : مما رده الله عليك من الكفار بالغنيمة من نسائهم

المأخوذات على وجه القهر والغلبة مثل: صفيه وجويرية فاعتقهما وتزوجهما ، وقد كانت مارية مما ملكت يمينه فولدت له إبراهيم ، وليس المراد بهذا القيد إخراج ما ملكه بغير الغنيمة؛فانها تحل السرية المشتراة والموهوبة ونحوهما ولكنه خرج مخرج الغالب وأشار به الى ما هو الأفضل كالقيد الأول المصرح بإيتاء الأجور ، وهكذا قيد المهاجرة في قوله:

﴿ وبنات عمك وبنات عماتك ﴾ أي نساء قريش ﴿ وبنات خالك وبنات خالاتك ﴾ أي نساء بني زهرة ﴿ اللاتي هاجرن معك ﴾ فانه للإشارة الى ما هو الأفضل،وللايذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر ، أي أحللنا لك ذلك زائداً على الأزواج اللاتي آتيت أجورهن على قول الجمهور ، لأنه لو أراد أحللنا لك كل امرأة تزوجت وآتيت أجرها لما قال بعد ذلك : وبنات عمك وبنات عماتك ، لأن ذلك داخل فيما تقدم ، والأول أولى والمراد بالمعية هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها.قال النسفي :ليس(مع) للقران، بل لوجودها فحسب ، كقوله : وأسلمتُ مع سليمان .

وقيل إن هذا القيد أعني المهاجرة معتبر ، وإنها لا تحل له من لم تهاجر من هؤلاء كما في قوله :﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾،ويؤيد هذا حديث أم هانىء وسيأتي .

ووجه إفراد العم والخال،وجمع العمة والخالة،ما ذكره القرطبي ان العم والخال في الاطلاق اسم جنس،كالشاعر والراجز،وليس كذلك العمة والخالة قال وهذا عرف لغوي ، فجاء الكلام عليه بغاية البيان،وحكاه عن ابن العربي وقال ابن كثير انه وحد لفظ الذكر لشرفه،وجمع الأنثى كقوله: عن اليمين وعن الشمائل ، وقوله يخرجهم:﴿من الظلمات الى النور﴾،وجعل: ﴿**الظلمات والنور**﴾ وله نظائر كثيرة انتهى .

وقال النيسابوري : وإنما لم يجمع العم والخال اكتفاء بجنسيتهما مع أن لجمع البنات دلالة على ذلك لامتناع اجتماع أختين تحت واحد ، ولم يحسن

هذا الاختصار في العمة والخالة لإمكان سبق الوهم الى أن التاء فيهما للوحدة انتهى .وكل وجه من هذه الوجوه يحتمل المناقشة بالنقض والمعارضة ، وأحسنها تعليل جمع العمة والخالة تسبق الوهم الى أن التاء للوحدة وليس في العم والخال ما يسبق الوهم اليه بأنه أريد به الوحدة الا مجرد صيغة الإفراد وهي لا تقتضي ذلك بعد إضافتها لما تقرر من عموم أسماء الأجناس المضافة؛على أن هذا الوجه الأحسن لا يصفو عن شوب المناقشة أيضاً؛قال الشهاب .

وقد سئل كثير عن حكمة إفراد العم والخال دون العمة والخالة حتى أن السبكي صنف جزءاً فيه سماه بذل الهمة في إفراد العم وجمع العمة . وقد رأيت لهم فيه كلمات كلها ضعيفة ، كقول الرازي : إن العم والخال على زنة المصدر ويستوي فيه المفرد والجمع بخلاف العمة والخالة وقيل: إنهما يعمان إذا أضيفا،والعمة والخالة لا يعمان لتاء الوحدة انتهى .

أخرج الترمذي وحسنه ؛وابن جرير،والطبراني وغيرهم عن أم هانيء بنت أبي طالب قالت :(خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني ، فأنزل الله : يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك إلى قوله هاجرن معك)قالت:فلم أكن أحل له لأني لم أهاجر معه ، كنت من الطلقاء .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من وجه آخر عنها قالت : نزلت في هذه الآية : ﴿وبنات عماتك اللاتي هاجرن معك﴾ أراد النبي أن يتزوجني فنهي عني إذ لم أهاجر .

وعن ابن عباس في قوله: (إنا أحللنا لك أزواجك) إلى قوله:(خالصة لك) قال فحرم الله عليه سوى ذلك من النساء ، وكان قبل ذلك ينكح في أي النساء شاء لم يحرم ذلك عليه . وكان نساؤه يجدن من ذلك وجداً شديداً أن ينكح في أي النساء أحب ، فلما أنزل : إني حرمت عليك من النساء سوى ما قصصت عليك أعجب ذلك نساءه .

﴿ وامرأة مؤمنة ﴾ أي : وأحللنا لك امرأة مصدقة بالتوحيد ، وهذا يدل

على أن الكافرة لا تحل له ، قال إمام الحرمين : وقد اختلف في تحريم الحرة الكافرة عليه ، قال ابن العربي : والصحيح عندي تحريمها،وبهذا يتميز علينا ، فإنه ما كان في جانب الفضائل والكرامات فحظه فيه أكثر ، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أطهر فجوز لنا نكاح الحرائر الكتابيات ، وقصر هو ﷺ على المؤمنات ، ولهذا كان لا تحل له الكتابية الكافرة لنقصانها بالكفر،انتهى . وأما تسرّيه بالأمة الكتابية فالأصح فيه الحل لأنه ﷺ استمتع بأمته ريحانه قبل أن تسلم كذا في المواهب وكانت يهودية من سبي قريظة ، ومما خص به أيضاً أنه يحرم عليه نكاح الأمة ولو مسلمة لأن نكاحها معتبر بخوف العنت ، وهو معصوم ، وبفقدان مهر الحرة ونكاحه غنى عن المهر ابتداء وانتهاء ، وبرق الولد ومنصبه ﷺ ينزه عنه كذا في الروض وشرحه .

﴿ إن وهبت نفسها للنبي ﴾ أي ملكتك بضعها بأي عبارة كانت بغير صداق ، وأما من لم تكن مؤمنة فلا تحل لك بمجرد هبتها نفسها لك ، ولكن ليس ذلك بواجب عليك بحيث يلزمك قبول ذلك ، بل مقيداً بإرادتك فهي جملة شرطية لا تستلزم الوقوع ، ولهذا قال : ﴿ إن أراد النبي أن يستنكحها ﴾ يقال نكح واستنكح مثل عجل واستعجل ، وعجب واستعجب .

ويجوز أن يراد الاستنكاح بمعنى طلب النكاح أو طلب الوطء قاله القرطبي،أي يصيرها منكوحة له ، ويتملك بضعها بتلك الهبة بلا مهر ، وذلك جار منه مجرى القبول.وحيث لم تكن الآية نصاً في كون تملكيها بلفظ الهبة لم تصلح أن تكون مناطاً للخلاف في انعقاد النكاح بلفظ الهبة،وإيراده في الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات عن الخطاب للإيذان بأنها المناط لثبوت الحكم،فيختص به كما ينطق به قوله الآتي: (خالصة لك) وقد قيل إنه لم ينكح النبي من الواهبات أنفسهن أحداً ، ولم يكن عنده منهن شيء ، قال قتادة: كانت عنده ميمونة بنت الحرث ، قال الشعبي : هي زينب بنت خزيمة الأنصارية أم المساكين،وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل : هي أم شريك بنت جابر الأسدية ،وقال عروة ابن الزبير وهي أم حكيم بنت الأوقص

السلمية .

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في السنن عن عائشة قالت: (التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم). وأخرج البخاري وغيره عن عروة: (أن خولة بنت حكيم كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ)، وعن محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبدالله ابن عبيدة قالوا: تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة؛ ستاً من قريش : خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة ، وثلاثاً من بني عامر بن صعصعة، وامرأتين من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحرث ، وهي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم وزينب أم المساكين والعامرية وهي التي اختارت الدنيا ، وامرأة من بني الجون، وهي التي استعاذت منه، وزينب بن جحش الأسدية، والسبيّتين: صفية بنت حيي وجويرية بنت الحرث الخزاعية .

وأخرج البخاري وابن مردويه عن انس قال جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله هل لك بي حاجة ؟ فقالت ابنة انس ما كان أقل حياءها ؟ فقال: هي خير منك رغبت في النبي صلى الله عليه وسلم فعرضت نفسها عليه .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد الساعدي أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوهبت نفسها له فصمت ، الحديث بطوله وكان من خصائصه صلى الله عيله وسلم أن النكاح ينعقد في حقه بمعنى الهبة من غير ولي . ولا شهود ولا مهر، والزيادة على أربع، ووجوب تخيير النساء وعليه جماعة .

واختلفوا في انعقاد النكاح بلفظ الهبة في حق الأمة ، فذهب أكثرهم إلى أنه لا ينعقد إلا بلفظ النكاح والتزويج، وهو قول سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء ، وبه قال ربيعة ومالك والشافعي .وقال ابراهيم النخعي وأهل الكوفة ينعقد بلفظ التمليك والهبة، ومن قال بالقول الأول اختلفوا في نكاح النبي ﷺ فذهب قوم إلى أنه كان ينعقد في حقه ﷺ بلفظ الهبة ، وذهب قوم

آخرون إلى أنه لا ينعقد كما في حق سائر الأمة وكان اختصاصه في ترك المهر وعدم لزومه له لا في لفظ النكاح واختلفوا في أن العقد بلفظ الهبة هل وقع له بالفعل أم لا .

فقال ابن عباس ومجاهد : لم يكن عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين . وقال آخرون : وقع ، واختلفوا فيها كما تقدم وقال الـزمخشري : قيل الموهوبات أربع: ميمونة وزينب وأم شريك وخولة،وفي السمين: هذا من اعتراض الشرط على الشرط . والثاني قيد في الأول ولذلك اعربوه حالاً ،لأن الحال قيد ولهذا اشترط الفقهاء أن يتقدم الثاني على الأول في الوجود .

فلو قال : إن أكلت إن ركبت فأنت طالق فلا بد أن يتقدم الركوب على الأكـل، وأنه يشترط أن لا يكون ثمة قرينة تمنع من تقدم الثاني على الأول كقولك : إن تزوجتك إن طلقتك فعبدي حر ، فإنه لا يتصور هنا تقديم الطلاق على التزويج إلا أني قد عرض لي إشكال على ما قاله الفقهاء بهذه الآية .

وذلك أن الشرط الثاني هنا لا يمكن تقدمه في الوجود بالنسبة إلى الحكم الخاص بالنبي ﷺ لا أنه لا يمكن عقلاً ، وذلك أن المفسرين فسروا قوله تعالى إن أراد ، بمعنى قبل الهبة لأنه بالقبول منه يتم نكاحه،وهذا لا يتصور تقدمه على الهبة إذ القبول متأخر،وأيضاً فالقصة كانت على ما ذكرته من تأخر إرادته عن هبتها ، وهو مذكور في التفسير .

وقد عرضت هذا الإشكال على جماعة من أعيان زماننا فاعترفوا به ، ولم يظهر عنهم جواب،إلا ما قدمته من أن ثم قرينة مانعة من ذلك كما مثلت لك آنفاً انتهى .

وقد بين الله سبحانه أن هذا النوع من النكاح خاص برسول الله ﷺ ، لا يحل لغيره من أمته فقال .

﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ لفظ : خالصة إما حال من امرأة قاله الزجاج،أو حال من فاعل(وهبت)أي حال كونها خالصة لك دون غيرك ، أو

مصدر مؤكد كوعد الله أي خالص لك خلوصاً،أو نعت مصدر مقدر أي : هبة خالصة ، فنصبها بوهبت ، وقد أجمع العلماء على أن هذا خاص بالنبي ﷺ ، وأنه لا يجوز لغيره ولا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها إلاما روي عن أبي حنيفة وصاحبيه أنه يصح النكاح إذا وهبت وأشهد هو على نفسه بمهر ، وأما بدون مهر فلا خلاف في أن ذلك خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال .

﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من خلوص الإحلال له،أي ما فرضه الله سبحانه على المؤمنين في حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه ، فإن ذلك حق عليهم مفروض لا يحل لهم الإخلال به ، ولا الاقتداء برسول الله ﷺ فيما خصه الله به توسعة عليه وتكريماً له،فلا يتزوجوا إلا أربعاً بمهر وبينة وولي .

وعن ابن عمر في الآية قال: فرض الله عليهم أنه لا نكاح إلا بولي وشاهدين .وعن ابن عباس :مثله وزاد ومهر .

﴿ وما ملكت أيمانهم ﴾ أي وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من كونهم ممن يجوز سبيه وحربه ، لا ممن كان لا يجوز سبيه أو كان له عهد من المسلمين؛أي تكون الأمة ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف المجوسية والوثنية،وأن تستبرأ قبل الوطء .

﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾ قال المفسرون: هذا يرجع إلى أول الآية أي أحللنا لك تزواجك وما ملكت يمينك ، والواهبة نفسها لك لكيلا يكون عليك حرج ؛ فتكون اللام متعلقة بأحللنا ،وقيل هي متعلقة بخالصة قاله البيضاوي وأبو السعود، والتعلق باعتبار ما فيه من معنى ثبوت الاحلال وحصوله له ﷺ والأول أولى ، والحرج الضيق،أي وسعنا عليك في التحليل لك لئلا يضيق صدرك فتظن أنك قد أثمت في بعض المنكوحات .

﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ يغفر الذنوب فيما يعسر التحرز عنه،ويرحم العباد بالتوسعة في ذلك،ولذلك وسع الأمر ولم يضيقه .

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾

﴿ ترجي من تشاء منهن ﴾ قرىء ترجي مهموزاً وغير مهموز ، وهما لغتان والإرجاء التأخير. يقال: أرجأت الأمر وأرجيته إذا أخرته ﴿ وتؤوي إليك من تشاء ﴾ أي تضم إليك.يقال : آواه إليه بالمد ضمه إليه،وأوى مقصوراً أي ضم إليه،والمعنى: أن الله وسع على رسوله ﷺ وجعل الخيار إليه في نسائه،فيؤخر من شاء منهن ويؤخر نوبتها ويتركها ولا يأتيها من غير طلاق ، ويضم إليه من شاء منهن ويضاجعها ويبيت عندها .

وقد كان القسم واجباً عليه حتى نزلت هذه الآية فارتفع الوجوب وصار الخيار إليه ، وكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، وممن أرجى سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية ، فكان ﷺ يسوي بين من آوى في القسم ، وكان يقسم لمن أرجاه ما شاء ، هذا قول جمهور المفسرين في معنى الآية ، وهو الذي يناسب ما مضى ، وقد دلت عليه الأدلة الثابتة في الصحيح وغيره .

قال ابن العربي : هذا الذي ثبت في الصحيح هو الذي ينبغي أن يعول عليه لكنه كان يقسم من قبل نفسه دون فرض عليه تطييباً لنفوسهن ، وصوناً لهن عن أقوال الغيرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي . وقيل : هذه الآية في

الواهبات أنفسهن لا في غيرهن من الزوجات قاله الشعبي وغيره،وقيل: معنى الآية في الطلاق أي:تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء .

وقال الحسن . إن المعنى تنكح من شئت من نساء أمتك وتترك نكاح من شئت منهن ، وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله : لا يحل لك النساء من بعد ، وعن ابن عباس : ترجي أي تؤخر ، وعنه قال:من شئت خليت سبيلها منهن ، ومن أحببت أمسكت منهن .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قـالت : كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ،وأقول : تهب المرأة نفسها،فلما أنزل الله : ترجي من تشاء منهن الآية قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك .

وعن أبي رزين قال : هَمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطلق من نسائه فلما رأين ذلك أتينه فقلن : لا تخل سبيلنا وأنت في حل فيما بيننا وبينك افرض لنا من نفسك ومالك بما شئت فأنزل الله ترجي من تشاء منهن ، يقول:تعزل من تشاء فأرجى منهن نسوة ، وآوى نسوة ، وكان ممن أرجى ميمونة وجويرية وأم حبيبة وصفية وسودة ، وكان يقسم بينهن من نفسه وماله ما شاء ، وكان ممن آوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب فكانت قسمته من نفسه وماله بينهن سواء .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية ترجي من تشاء منهن ، فقلت لها ما كنت تقولين ؟ قالت كنت أقول إن كان ذلك إلي فإني أريد أن لا أوثر عليك أحداً .

﴿ ومن ابتغيت ممن عزلت ﴾ الابتغاء الطلب ، والعزل الإزالة،والمعنى إن أردت أن تؤوي إليك امرأة ممن قد عزلتهن من القسمة وتضمها إليك ﴿ فلا جناح عليك ﴾ في ذلك ، والحاصل أن الله سبحانه فوض الأمر إلى رسوله

يصنع في زوجاته ما شاء من تقديم وتأخير وعزل وإمساك ، وضم من أرجى وإرجاء من ضم إليه ، وما شاء في أمرهن فعل توسعة عليه ونفياً للحرج عنه ، وأصل الجناح الميل ، يقال: جنحت السفينة إذا مالت ، والمعنى لا ميل عليك بلوم ولا عتب فيما فعلت .

﴿ذلك﴾ أي ما تقدم من التفويض إلى مشيئته وهو مبتدأ وخبره قوله ﴿أدنى أن تقر أعينهن﴾ أي ذلك التخيير والتفويض فوضناك أقرب إلى رضائهن وأطيب لأنفسهن إذ كان من عندنا لأنهن إذا علمن أنه من الله قرت أعينهن ، واطمأنت نفوسهن ، وذهب التغاير وحصل الرضاء . قرىء تقر على البناء للفاعل مسنداً إلى أعينهن، وقرىء بضم التاء من أقرر وفاعله ضمير المخاطب وبنصب أعينهن على المفعولية ، وقرىء على البناء للمفعول ، وقد تقدم بيان معنى قرة العين في سورة مريم .

﴿ ولا يحزن ﴾ أي لا يحصل معهن حزن بتأثيرك بعضهن دون بعض ﴿ ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ أي بما أعطيتهن من تقريب وإرجاء وعزل وإيواء وكان يقسم بينهن في القسمة حتى مات ، ولم يستعمل شيئاً مما أتيح له ضبطاً لنفسه ، وأخذاً بالأفضل غير سودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنها .

﴿ والله يعلم ما في قلوبكم ﴾ من كل ما تضمرونه ومن ذلك ما تضمرونه من أمور النساء والميل إلى بعضهن ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بكل شيء وبما في ضمائركم لا تخفى عليه خافية ﴿ حليماً ﴾ عنكم لا يعاجل العصاة بالعقوبة فينبغي أن تتقى محارمه لأن انتقام الحليم وغضبه أمر عظيم .

﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾ أي من بعد هؤلاء التسع اللاتي اخترنك واجتمعن في عصمتك وهن التسع اللاتي توفي عنهن . وهن عائشة بنت أبي بكر الصديق وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبي سفيان وسودة بنت

زمعة وأم سلمة بنت أبي أمية وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية وميمونة بنت الحرث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث المصطلقية قاله أبو السعود .

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على أقوال،الأول: أنها محكمة ، وأنه حرم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج على نسائه مكافأة لهن بما فعلن من اختيار الله ورسوله والدار الآخرة؛لما خيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر الله له بذلك،وهذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة والحسن وابن سيرين وابن بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام وابن زيد وابن جرير . وقال أبو أمامة بن سهل حنيف: لما حرم الله عليهن أن يتزوجن من بعده حرم عليه أن يتزوج غيرهن .

وقال أُبي بن كعب وعكرمة وأبو رزين أن المعنى لا يحل لك النساء من بعد الأصناف التي سماها الله قال القرطبي: وهو اختيار ابن جرير وقيل لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات لأنهن لا يصح أن يتصفن بأمهات المؤمنين ، وهذا القول فيه بعد؛لأنه يكون التقدير لا يحل لك النساء من بعد المسلمات ولم يجر للمسلمات ذكر ، وقيل هذه الآية منسوخة بالسنة،وبقوله: ﴿تُرجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء﴾ ،وبهذا قالت أم سلمة وعائشة وعلي بن أبي طالب وعلي بن الحسين وغيرهم. وهذا هو الراجح وسيأتي ما يدل عليه من الأدلة ، عن زياد رجل من الأنصار قال: قلت لأبي بن كعب أرأيت لو أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مُتْنَ أما كان يحل له أن يتزوج ؟ قال وما يمنعه من ذلك ؟ قلت قوله :لا يحل لك النساء من بعد ، قال إنما أحل له ضرباً من النساء ووصف له صفة فقال: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك﴾ إلى قوله (وامرأة مؤمنة)ثم قال :لا يحل لك النساء من بعد هذه الصفة .

وعن ابن عباس قال نُهي رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان

من المؤمنات المهاجرات : ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ الآية،فأحل له الفتيات المؤمنات وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي وحرم كل ذات دين غير الإسلام وقال:﴿ياأيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك﴾ إلى قوله:﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾؟ وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء .

وعنه قال نُهي النبي أن يتزوج بعد نسائه الأول شيئاً ، وعنه في الآية قال:حبسه الله عليهن كما حبسهن عليه ، وعن أنس قال : لما خيرهن فاخترن الله ورسوله قصره عليهن فقال:﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾.

وعن أم سلمة قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم ، وذلك قول الله :﴿ترجي من تشاء منهن﴾الآية ، وأخرج أحمد وأبو داود في ناسخه ، والترمذي وصححه ، والنسائي والحاكم وصححه .

عن عائشة قالت : لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم،لقوله : ﴿ترجي من تشاء منهن﴾الآية، وعن ابن عباس مثله ، وعن أبي رزين : ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ قال : من المشركات إلا ما سبيت فملكت يمينك .

﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ﴾ أي ليس لك أن تطلق واحدة منهن أو اكثر وتتزوج بدل من طلقت منهن أي من المسلمات غيرهن من الكتابيات؛لأنه لا تكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية و ﴿ من ﴾ مزيدة لتأكيد النفي وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم .

وقال ابن زيد : هذا شيء كانت العرب تفعله تقول خذ زوجتي وأعطني زوجتك،وقد أنكر ابن جرير والنحاس ما ذكره ابن زيد؛قال ابن جرير : ما فعلت العرب هذا قط ، ويدفع هذا الإنكار منهما؛ما أخرجه الدارقطني عن أبي

هريرة قال : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي .فأنزل الله عز وجل ولا أن تبدل بهن ، وأخرجه أيضاً عنه البزار وابن مردويه .

وأخرجا عن أبي هريرة قال : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : بادلني امرأتك وأبادلك امرأتي ؛أي تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي ؛فأنزل الله هذه الآية .قال :فدخل عيينة بن حصن الفزاري على رسول الله ﷺ وعنده عائشة فدخل بغير إذن ؛فقال له رسول الله ﷺ : أين الاستئذان ؟ قال يا رسول الله ما استأذنت على رجل من الأنصار منذ أدركت ، ثم قال: من هذه الحميراء إلى جنبك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذه عائشة أم المؤمنين ، قال أفلا أنزل لك عن أحسن خلق الله ؟ قال : يا عيينة إن الله حرم ذلك ، فلما أن خرج قالت عائشة : من هذا ؟ قال أحمق مطاع ، وإنه على ما ترين لسيد قومه .

﴿ ولو أعجبك حسنهن ﴾ وهذا كقولك :اعطوا السائل ولو على فرس .أي : في كل حال ؛ولو على هذه الحالة المنافية للإعطاء ، وقيل : تقديره مفروضاً إعجابك بهن ، أي لا يحل لك التبدل بأزواجك ولو أعجبك حسن غيرهن وجمالها ممن أردت أن تجعلها بدلاً من إحداهن .وهذا التبدل أيضاً من جملة ما نسخه الله في حق رسوله على القول الراجح ونسخها إما بالسنة أو بقوله :(إنا أحللنا لك أزواجك) ،وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف .

قال ابن عباس : يعني أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب لما استشهد جعفر ؛أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخطبها فنهي عن ذلك .

﴿ إلا ما ملكت يمينك ﴾ استثناء من النساء لأنه يتناول الحرائر والاماء وقيل : منقطع ؛والمعنى تحل لك الإماء ، وقد ملك صلى الله عليه وسلم

بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس ملك القبط وهم أهل مصر والاسكندرية وولدت له إبراهيم في ذي الحجة سنة ثمان ومات في حياة أبيه ، وله سبعون يوماً وقيل : سنة وعشرة أشهر وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل عليه بنفسه بل أمرهم فصلوا قاله ابن حجر في شرح الهمزية ، وقد اختلف العلماء في تحليل الامة الكافرة على قولين :

الأول : أنها تحل للنبي صلى الله عليه وسلم لعموم هذه الآية وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن .

والثاني : أنها لا تحل للنبي صلى الله عليه وسلم تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة ، ويترجح القول الأول بعموم هذه الآية وتعليل المنع بالتنزه ضعيف فلا تنزه عما أحله الله فهو طيب لا خبيث باعتبار ما يتعلق بأمور النكاح لا باعتبار غير ذلك فالمشركون نجس بنص القرآن ، ويمكن ترجيح القول الثاني بقوله سبحانه : **﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾** فإنه نهي عام .

﴿ وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾ أي مراقباً حافظاً وفي الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد نكاحها من النساء ، ويدل عليه ما روي عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [**إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل**]. أخرجه ابو داود وعن أبي هريرة أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: [**انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً**].

قال الحميدي : يعني هو الصغر وعن المغيرة بن شعبة قال: خطبت امرأة فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: هل نظرت إليها ؟ قلت لا. قال: فانظر إليها فإنه أحرى أن يُؤْدَم بينكما ، أخرجه الترمذي وقال حسن .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ شروع في بيان ما تجب رعايته على الناس من حقوق نساء النبي إثر بيان ما تجب مراعاته عليه من حقوقهن ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي ﴾ هذا نهي عام لكل مؤمن أن يدخل بيوت رسول الله ﷺ إلا بإذن منه. وسبب النزول ما وقع من بعض الصحابة في وليمة زينب .

وقد أخرج البخاري ومسلم عن أنس قال : قال عمر بن الخطاب :(يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب)،وفي لفظ أنه قال عمر:(يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب)، فأنزل الله آية الحجاب .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام ، فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله :﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن عائشة أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح وكان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم احجُب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالي عشياً ، وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك يا سودة ، حرصاً على أن ينزل الحجاب فأنزل الله الحجاب قال :﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾الآية وأخرج بن سعد عن أنس قال نزل الحجاب مبتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش ، وذلك سنة خمس من الهجرة ، وحجب نساءه من يومئذ ، وأنا ابن خمس عشرة سنة ، وكذا أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان ، وقال: نزل الحجاب على نسائه في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة . وبه قال قتادة والواقدي ، وزعم أبو عبيدة وخليفة بن خياط أن ذلك كان في سنة ثلاث .

وفي الآية دليل على أن البيت للرجل ويحكم لـه به فـإن الله أضافـه إليه إضـافة ملك ، وأما إضافته إلى الأزواج في قوله (مـا يتلى في بيوتكن) فهي إضافة محل بدليل أنه جعل فيها الإذن إلى النبي ﷺ ، والإذن إنما يكون من المالك ، واختلف العلماء في بيوت النبي ﷺ التي كان يسكن فيها نساؤه بعد موته هل هي ملك لهن أو لا ؟ على قولين ، فقالت طائفة : كانت ملكاً لهن بدليل أنهن سكن فيها بعد موت النبي ﷺ إلى وفاتهن ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وهب لهن ذلك في حياته ، الثاني: أن ذلك كان إسكاناً كما يسكن الرجل أهله ، ولم يكن هبة وامتدت سكنـاهن بها إلى المـوت ، وهذا هـو الصحيح ، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبدالبر وابن العربي، وغيرهما . فإن ذلك من مؤونتهن التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استثناها لهن كما استثنى لهن نفقاتهن حين قال : [لا تقسم ورثتي ديناراً ولا درهما ، ما تركت بعد نفقة أهلي ومؤمنة عاملي فهو صدقـه] هكذا قال أهل العلم ، قـالوا:ويدل على ذلك أن مساكنهن لم ترثها عنهن ورثتهن .قالوا: وفي ترك ورثتهن ذلك دليل على أنها لم تكن لهن ملكاً وإنما كان لهن سكنى حياتهن . فلما توفين جعل ذلك

زيادة في المسجد الحرام الذي يعم المسلمين نفعه ، كما جعل ذلك الذي كان لهن من النفقات في تركة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مضين إلى سبيلهن فزيد إلى أصل المال فصرف لمنافع المسلمين مما يعم نفعه الجميع والله الموفق كذا قاله القرطبي .

وأعلم أن قالون همز النبي حيث وقع إلا في موضعين من هذه السورة أحدهما هذه الآية والثاني قوله : ﴿ان وهبت نفسها للنبي﴾ فأبدلها ياء في الوصل وهمزها في الوقف كما ذكره الشاطبي ، ولم يسهلها كما سهل غيرها لأنه رأى الإبدال هنا جارياً على القياس فيه فرجحه لموافقته لغيره ولأنه أفصح من التسهيل ولذلك أنكر على من قال يا نبيء الله بالهمزة وهذا مما لا غبار عليه فلله در التنزيل ، وما فيه من دقائق التأويل .

﴿ إلا أن يؤذن لكم ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا في حال كونكم مأذوناً لكم ، أي إلا مصحوبين بالإذن أو إلا بأن يؤذن لكم أو الى وقت أن يؤذن لكم وقوله : ﴿ إلى طعام ﴾ متعلق بيؤذن على تضمينه معنى الدعاء أي إلا أن يؤذن لكم مدعوين إلى طعام .
﴿ غير ناظرين إناه ﴾ انتصاب غير على الحال، والعامل فيه يؤذي، أو مقدر . أي : ادخلوا غير ناظرين ، ومعنى ناظرين منتظرين ، وإناه نضجه وإدراكه ، يقال:أنى يأنى إناً إذا حان وأدرك .

قال الرازي: في الآية إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره:ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم فلا يكون منعاً من الدخول في غير وقت الطعام بغير إذن ، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه : ولا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام فيكون الإذن مشروطاً بكونه إلى طعام ، فإن لم يؤذن إلى طعام فلا يجوز الدخول ، فلو أذن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام فلا يجوز. فنقول:المراد هو الثاني ليعم النهي عن الدخول ، وأما كونه لا يجوز إلا بإذن إلى الطعام فلما هو مذكور في سبب النزول أن الخطاب مع قوم كانوا يتحينون حين الطعام ، ويدخلون من غير إذن فمنعوا من الدخول في وقتهم

بغير إذن وقال ابن عادل:الأولى أن يقال المراد هو الثاني ، لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل ، وقوله:إلى طعام من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفي ما عداه لا سيما إذا علم أن غيره مثله فان من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه جاز دخوله بإذنه إلى غير الطعام انتهى والأولى في التعبير عن هذا المعنى الذي أراده أن يقال قد دلت الأدلة على جواز دخول بيوته (ﷺ) بإذنه لغير الطعام ، وذلك معلوم لا شك فيه فقد كان الصحابة وغيرهم يستأذنون عليه لغير الطعام فيأذن لهم ، وذلك يوجب قصر هذه الآية على السبب الذي نزل فيه، وهو القوم الذين كانوا يتحينون طعام النبي (ﷺ) فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه وأمثالهم ، فلاتدل على المنع من الدخول مع الإذن لغير ذلك ، والا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بإذنه لغير الطعام ، واللازم باطل فالملزوم مثله .

قال ابن عطية : وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه ، وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك ، فنهى الله المؤمنين عن ذلك في بيت النبي (ﷺ) ودخل في النهي سائر المؤمنين ، والتزم الناس أدب الله لهم في ذلك فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل ، لا قبله لانتظار نضج الطعام ، ثم بين سبحانه ما ينبغي في ذلك فقال :

﴿ ولكن إذا دعيتم ﴾ وأذن لكم فادخلوا ، وفيه تأكيد بليغ للمنع ، وبيان الوقت الذي يكون فيه الدخول ، وهو عند الإذن ، وقال ابن العربي: وتقدير الكلام ولكن إذا دعيتم وأذن لكم .

﴿ فادخلوا ﴾ وإلا فنفس الدعوة لا يكون إذناً كافياً في الدخول ، وقيل إن فيه دلالة بينة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه ، قال الرازي: فيه لطيفة وهي أنه في العادة إذا قيل لمن يعتاد دخول دار من غير إذن لا تدخلها إلا بإذن ، يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلاً ، ولا بالدعاء ،فقال: لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون ، بل كونوا طائعين إذا قيل لكم لا تدخلوا

فلا تدخلوا ، وإذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا وقوله : إلا أن يؤذن لكم يفيد الجواز ، وقوله : ولكن إذا دعيتم فادخلوا يفيد الوجوب ، فليس تأكيداً بل هو مفيد فائدة جديدة .

﴿ فإذا طعمتم ﴾ أي أكلتم الطعام يقال: طعم بكسر العين يطعم بفتحها طعماً كفهم ، وطعماً كقفل ، وفي الخطيب إذا أكلتم طعاماً أو شربتم شراباً ﴿ فانتشروا ﴾ أي اذهبوا حيث شئتم في الحال ، ولا تمكثوا بعد الأكل والشرب والمراد الإلزام بالخروج من المنزل الذي وقعت الدعوة إليه عند انقضاء المقصود من الأكل ، ولا تدخلوا هاجمين .

﴿ ولا ﴾ تمكثوا ﴿مستأنسين لحديث ﴾ يستأنس بعضكم ببعض لأجل حديث يحدث به ، يقال: أنست به أنساً من باب علم ، وفي لغة من باب ضرب ، والأنس بالضم اسم منه واستأنست به وتأنست به إذا سكن القلب ولم ينفر ﴿ إن ذلكم ﴾ أي الانتظار أو المكث والاستئناس للحديث وأشير إليهما بما يشار به إلى الواحد بتأويلهما بالمذكور كما في قوله تعالى : ﴿عوان بين ذلك﴾ ، أي إن ذلك المذكور من الأمرين .

﴿ كان ﴾ في علم الله ﴿ يؤذي النبي ﴾ لأنهم كانوا يضيقون عليه المنزل وعلى أهله ، ويتحدثون بما لا يريده ، قال الزجاج : كان النبي ﷺ يحتمل إطالتهم كرماً منه فيصبر على الأذى في ذلك فعلم الله من يحضره الأدب فصار أدباً لهم ولمن بعدهم .

﴿ فيستحي منكم ﴾ أي يستحيي أن يقول لكم : قوموا أو أخرجوا ﴿ والله لا يستحي من الحق ﴾ أي لا يترك أن يبين لكم ما هو الحق ولا يمتنع من بيانه وإظهاره والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة .

قرأ الجمهور : يستحيي بيائين وروي عن ابن كثير أنه قرأ بياء واحدة ، وهي لغة تميم يقولون استحى يستحي مثل استقى يستقي وهذا أدبٌ أدَّب الله به الثقلاء وعن عائشة قالت: حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم، وقال: إذا طعمتم فانتشروا ؛ ثم ذكر سبحانه أدباً آخر متعلقاً بنساء النبي ﷺ

فقال :

﴿ وإذا سألتموهن ﴾ أي أزواج النبي (ﷺ) ﴿ متاعاً ﴾ أي شيئاً يتمتع به من الماعون وغيره والمتاع يطلق على كل ما يتمتع به فلا وجه لما قيل من أن المراد به العارية أو الفتوى أو المصحف .

﴿ فاسألوهن ﴾ المتاع ﴿ من وراء حجاب ﴾ أي من وراء ستر بينكم وبينهن فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله (ﷺ) ، متنقبة كانت أو غير متنقبة .

﴿ ذلكم ﴾ أي سؤال المتاع من وراء الحجاب ، وقيل الإشارة إلى جميع ما ذكر من عدم الدخول بغير اذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع ، والأول أولى ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره قوله :

﴿ أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ أي أكثر تطهيراً لها من الريبة وخواطر السوء التي تعرض للرجال في أمر النساء ، وللنساء في أمر الرجال وأبعد للتهمة وأقوى في الحماية وفي هذا أدب لكل مؤمن وتحذير له من أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له ، والمكالمة من دون حجاب لمن تحرم عليه فإن مجانبة ذلك أحسن بحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته .

﴿ وما كان ﴾ أي ما صح ولا استقام ﴿ لكم ان تؤذوا رسول الله ﴾ بشيء من الأشياء كائناً ما كان ومن جملة ذلك دخول بيوته بغير إذن منه ، واللبث فيها على غير الوجه الذي يريده ، وتكليم نسائه من دون حجاب .

﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ أي ولا كان لكم ذلك بعد وفاته أو فراقه لأنهن أمهات المؤمنين ، ولا يحل للأولاد نكاح الأمهات قال ابن عباس في الآية: نزلت في رجل هَمَّ أن يتزوج بعض نساء النبي (ﷺ) بعد موته . قال سفيان : وذكروا أنها عائشة .

وعن السدي قال : بلغنا أن طلحة بن عبيدالله قال : أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ؟ ويتزوج نساءنا من بعدنا لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده ، فنزلت هذه الآية. وعن قتادة قال: قال طلحة بن عبيد الله : لو قبض

النبي (ﷺ) لتزوجت عائشة ، فنزلت . وعن أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم قال: نزلت في طلحة لأنه قال إذا توفي النبي (ﷺ) تزوجت عائشة. قال ابن عطية: وهذا عندي لا يصح على طلحة .

قال القرطبي : قال شيخنا الإمام أبو العباس وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله ، وإنما الكذب في نقله ، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال .

وعن ابن عباس قال : قال رجل من أصحاب النبي (ﷺ) لو قد مات رسول الله (ﷺ) تزوجت عائشة وأم سلمة فأنزل الله :﴿**وما** كان لكم أن تؤذوا رسول **الله**﴾ الآية وعنه أن رجلاً أتى بعض أزواج رسول الله (ﷺ) فكلمها وهو ابن عمها فقال النبي (ﷺ): **[لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا]** فقال : يا رسول الله إنها ابنة عمي والله ما قلت لها منكراً ، ولا قالت لي . قال النبي (ﷺ): **[قد عرفت ذلك إنه ليس أحد أغير من الله وأنه ليس أحد أغير مني]** فمضى ثم قال: يمنعني من كلام ابنة عمي لأتزوجنها من بعده . فأنزل الله هذه الآية فأعتق ذلك الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله وحج ماشياً توبة من كلمته .

وعن أسماء بنت عميس قالت : خطبني علي فبلغ ذلك فاطمة فأتت النبي (ﷺ)فقالت:إن أسماء متزوجة علياً فقال لها النبي (ﷺ) ، ما كان لها أن تؤذي الله ورسوله ، والذي جرى عليه الرملي في شرح المنهاج أن من عقد عليها النبي (ﷺ) تحرم على غيره سواء دخل بها صلى الله عليه وسلم أو لا ، وأما حكم إمائه فمن دخل بها منهن حرمت على غيره وإلا فلا .

﴿ إن ذلكم ﴾ أي نكاح أزواجه من بعده ﴿ كان عند الله عظيماً ﴾ أي ذنباً عظيماً ، وخطباً هائلاً شديداً وهذا من إعلام تعظيم الله لرسوله ﷺ وإيجاب حرمته حياً وميتاً ، وإعلامه بذلك مما طيب نفسه ، وسر قلبه ، واستفرغ شكره فإن من الناس من تفرط غيرته على حرمته حتى يتمنى لها الموت قبله لئلا تنكح بعده .

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

﴿ إن تبدوا شيئاً ﴾ أي تظهروه على ألسنتكم ﴿ أو تخفوه ﴾ في صدوركم ﴿ فإن الله كان بكل شيء عليماً ﴾ يعلم كل شيء من الأشياء ومن جملة ذلك ما تظهرونه في شأن أزواج رسوله ، وما تكتمونه في صدوركم ، وفي هذا وعيد شديد لأن إحاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة على خيرها وشرها ، قال أبو أمامة بن سهل في الآية : إن تكلموا به فتقولون نتزوج فلانة لبعض أزواج النبي ﷺ أو تخفوا ذلك في أنفسكم فلا تنطقوا به يعلمه الله ، ثم بين سبحانه من لا يلزم الحجاب منه فقال :

﴿ لا جناح عليهن في آبائهن ولا إخوانهن ولا أخواتهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ﴾ فهؤلاء لا يجب على نساء رسول الله ﷺ ولا على غيرهن من النساء الاحتجاب منهم في رؤية وكلام ، ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين ، وقال الزجاج : العم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما فان المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لهما الرؤية وهذا ضعيف جداً ، فإن تجويز وصف المرأة لمن تحل له ممكن من غيرهما ممن يجوز له النظر إليها لا سيما أبناء الإخوة وأبناء الأخوات ، واللازم باطل فالملزوم مثله وهكذا يستلزم أن لا يجوز للنساء الأجنبيات أن ينظرن إليها لأنهن يصفنها ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، وهكذا لا وجه لما قاله الشعبي وعكرمة : من أنه يكره للمرأة أن تضع خمارها عند عمها أو خالها ، والأولى أن يقال : إنه سبحانه اقتصر ههنا على بعض من

ذكره من المحارم في سورة النور اكتفاء بما تقدم .

﴿ ولا نسائهن ﴾ هذه الاضافة تقتضي أن يكون بالنساء المؤمنات لأن الكافرات غير مأمونات على العورات ، والنساء كلهن عورة ، فيجب على أزواج النبي ﷺ الاحتجاب عنهن كما يجب على سائر المسلمات أي ما عدا ما يبدو عند المهنة أما هو فلا يجب على المسلمات حجبه وستره عن الكافرات ولهذا قيل : هو خاص ، أي لا يجوز للكتابيات الدخول على أزواج رسول الله (ﷺ) وقيل عام في المسلمات والكتابيات .

﴿ ولا ما ملكت أيمانهن ﴾ من العبيد والإماء أن يروهن ويكلموهن من غير حجاب وقيل : الإماء خاصة ، ومن لم يبلغ من العبيد والخلاف في ذلك معروف ، وقد تقدم في سورة النور ما فيه كفاية ، ثم أمر سبحانه بالتقوى التي هي ملاك الأمر ونقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب ، وفي هذا النقل فضل تشديد كأنه قيل :

﴿ واتقين الله ﴾ في كل الأمور التي من جملتها ما هو مذكور هنا من الاحتجاب أي أن يراكن أحد غير هؤلاء .قال ابن عباس :في الآية أنزلت هذه في نساء النبي ﷺ خاصة .

﴿ إن الله كان على كل شيء ﴾ من أعمال العباد ﴿ شهيداً ﴾ لم يغب عنه شيء من الأشياء كائناً ما كان فهو مجاز للمحسن بإحسانه وللمسيء بإساءته ، والشهيد الذي يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح .

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ هذه الآية شرف الله بها رسوله ﷺ في حياته وموته ، وأظهر بها منزلته عنده تعالى ، والضمير في : يصلون راجع إلى الله وإلى الملائكة ، وفيه تشريف للملائكة عظيم حيث جعل الضمير لهم ولله سبحانه واحداً ، فلا يرد الاعتراض بما ثبت عنه ﷺ لما سمع الخطيب يقول : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، فقال : بئس خطيب القوم أنت ، قل : ومن يعص الله ورسوله ، ووجه ذلك أنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله سبحانه مع غيره في ضمير واحد وهذا الحديث ثابت في الصحيح ، وثبت أيضاً في الصحيح أن رسول الله ﷺ أم منادياً ينادي يوم خيبر : إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية ولأهل العلم أبحاث في الجمع بين الحديثين ليس هذا موضع ذكرها ، والآية مؤيدة للجواز لجعل الضمير فيها لله والملائكة واحداً ، والتعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله في رسول الله ﷺ ، ويحمل الذم لذلك الخطيب الجامع بينهما على أنه (ﷺ) فهم منه إرادة التسوية بين الله سبحانه وبين رسوله ، فيختص المنع بمثل ذلك ، وهذا أحسن ما قيل في الجمع .

وقالت طائفة في هذه الآية حذف ، والتقدير : إن الله يصلي وملائكته يصلون ، وعلى هذا القول فلا تكون الآية مما جمع فيه بين ذكر الله وذكر غيره

في ضمير واحد ، ولا يرد أيضاً ما قيل إن الصلاة من الله الرحمة ، ومن ملائكته الدعاء ، فكيف يجمع بين هذين المعنيين المختلفين في لفظ يصلون ، ويقال على القول الأول : إنه أريد بيصلون معنى مجازي يعم المعنيين ، وذلك بأن يراد بقوله يصلون : يهتمون بإظهار شرفه ، أو يعظمون شأنه ، أو يعتنون بأمره وحكى البخاري عن أبي العالية: أن صلاة الله سبحانه ثناؤه عليه عند ملائكته وصلاة الملائكة الدعاء ، وروى الترمذي في سننه: عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم أنهم قالوا: صلاة الرب الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار .

وقال عطاء بن أبي رباح: صلاته تبارك وتعالى: سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي . والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند ملائكته ، وأن الملائكة تصلي عليه ، وأمر عباده بأن يقتدوا بذلك ويصلوا عليه ، وقد اختلف أهل العلم في الصلاة على النبي (ﷺ) هل هي واجبة ؟ أو مستحبة ؟ بعد اتفاقهم على أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة . وقد حكى هذا الإجماع القرطبي في تفسيره فقال قوم من أهل العلم : إنها واجبة عند ذكره ، وقال قوم : تجب في كل مجلس مرة ، وقد وردت أحاديث مصرحة بذم من سمع ذكر النبي (ﷺ) فلم يصل عليه .

واختلف العلماء في الصلاة على النبي (ﷺ) في تشهد الصلاة المفروضة هل هي واجبة أم لا ؟ فذهب الجمهور إلى أنها فيها سنة مؤكدة غير واجبة. قال ابن المنذر : يستحب أن لا يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزئة في مذهب مالك وأهل المدينة ، وسفيان الثوري ، وأهل الكوفة من أصحاب الرأي وغيرهم ،

وهو قول جمهور أهل العلم ، قال : وشذ الشافعي فأوجب على تاركها الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان ، وهذا القول عن الشافعي لم يروه عنه إلا حرملة ابن يحيى ، ولا يوجد عن الشافعي إلا من روايته ، قال الطحاوي : لم يقل به أحد من أهل العلم غير الشافعي ، وقال الخطابي ؛ وهو من الشافعية : إنها ليست بواجبة في الصلاة ، قال: وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعي ، ولا أعلم له في ذلك قدوة، انتهى .

وقد قال بقول الشافعي جماعة من أهل العلم منهم الشعبي والباقر ومقاتل ابن حيان وإليه ذهب أحمد بن حنبل أخيراً ، كما حكاه أبو زرعة الدمشقي ، وبه قال ابن راهويه وابن المواز من المالكية وقد جمع الشوكاني رحمه الله في هذه المسألة رسالة مستقلة ذكر فيها ما احتج به الموجبون لها وما أجاب به الجمهور ، وفي شرحه على المنتقى ، ورسالتي : هداية السائل إلى أدلة المسائل ، ما يشفي ويكفي وأشف ما يستدل به على الوجوب الحديث الثابت بلفظ : إن الله أمرنا أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك في صلاتنا ؟ قال قولوا : الحديث ، فإن هذا الأمر يصلح للاستدلال به على الوجوب ، وأما على بطلان الصلاة بالترك ووجوب الإعادة لها فلا ، لأن الواجبات لا يستلزم عدمها العدم كما يستلزم ذلك الشروط والأركان .

واعلم أنه قد ورد في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة لو جمعت لجاءت في مصنف مستقل ، ولو لم يكن منها إلا الأحاديث الثابتة في الصحيح من قوله ﷺ : **[من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشراً]** فناهيك بهذه الفضيلة الجليلة ، والمكرمة النبيلة ، وأما صفة الصلاة عليه ﷺ فقد وردت فيها صفات كثيرة بأحاديث ثابتة في الصحيحين وغيرهما منها: ما هو مقيد بصفة الصلاة عليه في الصلاة ، ومنها ما هو مطلق ، وهي معروفة في كتب الحديث فلا نطيل بذكرها ، والذي يحصل به الامتثال لمطلق الأمر في هذه الآية هو أن يقول القائل : اللهم صل وسلم على رسولك أو على محمد أو على النبي ، أو اللهم صل على محمد وسلم ومن أراد أن يصلي ويسلم عليه بصفة من

الصفات التي ورد التعليم بها والإرشاد إليها فذلك أكمل وهي صفات كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة المطهرة ، وسيأتي بعضها ، وسيأتي الكلام في الصلاة على الآل .

وكان ظاهر هذا الأمر بالصلاة والتسليم في الآية أن يقول القائل : صليت عليه وسلمت عليه أو الصلاة عليه والسلام عليه ، أو عليه الصلاة والتسليم ، لأن الله سبحانه أمرنا بإيقاع الصلاة عليه والتسليم منا ، فالامتثال هو ان يكون ذلك على ما ذكرنا فكيف كان الامتثال لأمر الله لنا بذلك أن نقول : اللهم صلّ عليه وسلم بمقابلة أمر الله لنا بأمرنا له بأن نصلي عليه ونسلم عليه ، وقد أجيب عن هذا بأن هذه الصلاة والتسليم لما كانتا شعاراً عظيماً للنبي ﷺ وتشريفاً كريماً، وكّلنا ذلكْ إلى الله عز وجل وأرجعناه إليه وهذا الجواب ضعيف جداً .

وأحسن ما يجاب به أن يقال : إن الصلاة والتسليم المأمور بهما في الآية هما أن نقول:اللهم صلّ عليه وسلم أو نحو ذلك مما يؤدي معناه كما بينه رسول الله ﷺ فاقتضى ذلك البيان في الأحاديث الكثيرة أن هذه هي الصلاة الشرعية .

واعلم أن هذه الصلاة من الله على رسوله وإن كان معناها الرحمة فقد صارت شعاراً له يختص به دون غيره فلا يجوز لنا أن نصلي على غيره من أمته ، كما يجوز لنا أن نقول اللهم ارحم فلاناً أو رحم الله فلاناً ، وبهذا قال الجمهور من العلماء مع اختلافهم ؛ هل هو محرم ؟ أو مكروه كراهة شديدة ؟ أو مكروه كراهة تنزيه؟ على ثلاثة أقوال. وقد قال ابن عباس: كما رواه عنه ابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب : لا تصلح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار .

وقال في المواهب: لم ينقل أن الأمم المتقدمة كان يجب عليهم أن يصلوا على أنبيائهم انتهى وقال في الأنموذج ومن خواصه ﷺ أنه ليس في القرآن ولا

غيره صلاة من الله تعالى على غيره ﷺ فهي خصيصة اختصه الله بها دون سائر الأنبياء انتهى . وقال قوم: إن ذلك جائز لقوله تعالى :﴿وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾، ولقوله :﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾، ولقوله :﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾.

و لحديث عبد الله بن أبي أوفى الثابت في الصحيحين وغيرهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : اللهم صلّ عليهم فأتاه أبيّ بصدقته فقال: اللهم صلّ على آل أبي أوفى ، ويجاب عن هذا بأن هذا الشعار الثابت لرسول الله (ﷺ) له أن يخص به من شاء ، وليس لنا أن نطلقه على غيره ، وأما قوله تعالى : (هو الذي يصلي) إلخ وقوله: (أولئك عليهم صلوات) فهذا ليس فيه إلا إن الله سبحانه يصلي على طوائف من عباده كما يصلي على من صلى على رسوله (ﷺ) مرة واحدة عشر صلوات وليس في ذلك أمر لنا ولا شرعة الله في حقنا . بل لم يشرع لنا إلا الصلاة والتسليم على رسوله ، وكما أن لفظ الصلاة على رسول الله (ﷺ) شعار له فكذا لفظ السلام عليه .

وقد جرت عادة جمهور هذه الأمة والسواد الأعظم من سلفها وخلفها على الترضي عن الصحابة والترحم على من بعدهم ، والدعاء لهم بمغفرة الله وعفوه كما أرشدنا إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم﴾.عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا لموسى : هل يصلي ربك؟ فناداه ربه يا موسى: سألوك هل يصلي ربك ؟ فقال : نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي ، فأنزل الله على نبيه : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ الآية أي يبركون ، وعنه أن صلاة الله على النبي هي المغفرة إن الله لا يصلي ، ولكن يغفر ، وأما صلاة الناس على النبي فهي الاستغفار له .

﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ﴾ أي ادعوا له بالرحمة وقولوا: اللهم

صلّ على محمد أو صلى الله على محمد فإنكم أولى بذلك ، وعن ابن عباس أنه قرأ:صلوا عليه كما صلى الله عليه ﴿ وسلموا تسليماً ﴾ أي حيوه بتحية السلام ، وقولوا اللهم سلم على محمد ، أو انقادوا لأمره انقياداً والأول أولى ، ثم هي واجبة مرة عند الطحاوي ، وكلما ذكر اسمه عند الكرخي ، وهو الاحتياط وعليه الجمهور .

قال أبو السعود : وهذه الآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقاً أي من غير تعرض لوجوب التكرار ، وقال القسطلاني قيل: هي مستحبة وقيل:واجبة في التشهد الأخير من كل صلاة وعليه الشافعي وهو رواية عن أحمد وقيل: تجب في الصلاة من غير تعيين لمحل منها . وقيل:تجب في خارج الصلاة وقيل:كلما ذكر وقيل:في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره فيه وقيل:تجب في العمر مرة واحدة وقيل:تجب في الجملة من غير حصر وقيل:يجب الإكثار منها من غير تقييد . وتسليماً مصدر مؤكد قال الإمام ولم تؤكد الصلاة لأنها مؤكدة بقوله : إن الله وملائكته الخ وقيل:إنه من الاحتباك فحذف عليه من أحدهما والمصدر من الآخر وقال بعض الفضلاء: إنه سئل في منامه لم خص السلام بالمؤمنين دون الله والملائكة ؟ ولم يذكر له جواباً ؟ .

قلت:وقد لاح لي فيه نكتة سرية أي شريفة ، وهي أن السلام تسليمه عما يؤذيه ، فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر ما يؤذي النبي والأذية إنما هي من البشر فناسب التخصيص بهم ، والتأكيد ، وإليه الإشارة بما ذكر بعده قاله الشهاب .

وأقول : هذه الآية من باب الاكتفاء على حد قوله : سرابيل تقيكم الحر والمعنى : إن الله وملائكته يصلون على النبي ويسلمون ، وقد ثبت بالأدلة الصحيحة القرآنية وغيرها تسليم الله تعالى على غيره ﷺ من الأنبياء والصلحاء ، والنكتة التي ذكرها الشهاب لا تخلو عن تكلف وبعد تأمل . وعن كعب بن عجرة قال : لما نزلت : (إن الله وملائكته) الآية قلنا : يا رسول الله

قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم ، وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد ، أخرجه سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم وابن مردويه .

وأخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديثه بلفظ : قال رجل : يا رسول الله أما السلام عليك فقد علمناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قل : اللهم صلّ على محمد ، وعلى آل محمد كما صليت على إبـراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم انك حميد مجيد .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأحمد ، والنسائي من حديث طلحة بن عبيد الله قال : قلت : يا رسول الله كيف الصلاة عليك ؟ قال : قل : اللهم صلّ على محمد ، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد .

وفي الأحاديث اختلاف ، ففي بعضها على إبراهيم فقط ، وفي بعضها على آل ابراهيم فقط ، وفي بعضها بالجمع بينهما ، كحديث طلحة هذا . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلي عليك : فقال رسول الله ﷺ قولوا : اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل ابراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل ابراهيم إنك حميد مجيد ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً ، وفي بعضها التقييد بالصلاة كما في حديث ابن مسعود عند ابن خزيمة والحاكم وصححه ، والبيهقي في سننه أن رجلاً قال : يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا الحديث .

وأخرج الشافعي في مسنده من حديث أبي هريرة مثله وجميع التعليمات

الواردة عنه ﷺ في الصلاة عليه مشتملة على الصلاة على آله معه إلا النادر اليسير من الأحاديث ، فينبغي للمصلي عليه أن يضم آله إليه في صلاته عليه ، وقد قال بذلك جماعة ، ونقله إمام الحرمين والغزالي قولاً عن الشافعي ، كما رواه عنهما ابن كثير في تفسيره ، ولا حاجة إلى التمسك بقول قائل في مثل هذا مع تصريح الأحاديث الصحيحة به ، ولا وجه لقول من قال : إن هذه التعليمات الواردة عنه (ﷺ) في صفة الصلاة عليه مقيدة بالصلاة في الصلاة حملاً لمطلق الأحاديث على المقيد منها بذلك القيد لما في حديث كعب بن عجرة وغيره أن ذلك السؤال لرسول الله (ﷺ) كان عند نزول الآية ، وأخرج عبد الرزاق وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) وآله وسلم قال : صلوا على أنبياء الله ورسله فإن الله بعثهم كما بعثني ، ثم لما ذكر سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه فقال :

﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله ﴾ قيل المراد بالأذى هنا هو فعل ما يكرهانه من المعاصي ليعم هذا القدر الإيذاء الحقيقي في حق الرسول ، والمجازي في حقه تعالى ، لاستحالة حقيقة التأذي عليه سبحانه ، قال الواحدي قال المفسرون : هم المشركون واليهود والنصارى وصفوا الله بالولد ، فقالوا عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ، والملائكة بنات الله ، وكذبوا رسول الله وشجوا وجهه ، وكسروا رباعيته ، وقالوا : مجنون، شاعر، كذاب، ساحر وبه قال ابن عباس.

قال القرطبي : وبهذا قال جمهور العلماء ، وقال عكرمة الأذية لله سبحانه بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها ، وقال جماعة: ان الآية على حذف مضاف والتقدير : إن الذين يؤذون أولياء الله ، وقيل : معنى الأذية الإلحاد في أسمائه وصفاته وأما أذية رسوله فهي كل ما يؤذيه من الأقوال والأفعال ، ومنه ترك الاتباع ، وفعل التقليد لآراء الرجال

وإيثاره عليه .

﴿ لعنهم الله ﴾ معنى اللعنة الطرد والابعاد من رحمته ، وجعل ذلك ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ لتشملهم اللعنة فيهما بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم ومماتهم إلا واللعنة واقعة عليهم مصاحبة لهم.

﴿ وأعد لهم ﴾ مع ذلك اللعن ﴿ عذاباً مهيناً ﴾ يصيرون به في الاهانة في الدار الآخرة ، لما يفيده معنى الاعداد من كونه في الدار الآخرة ، عن ابن عباس في الآية قال : نزلت في الذين طعنوا على النبي (ﷺ) حين اتخذ صفية بنت حيي ، وروي عنه : أنها نزلت في الذين قذفوا عائشة ، ثم لما فرغ من الذم لمن آذى الله ورسوله ذكر الأذية لصالحي عباده فقال:

﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ﴾ بوجه من وجوه الأذى من قول ، أو فعل ومعنى قوله : ﴿ بغير ما اكتسبوا ﴾ إنه لم يكن ذلك بسبب فعلوه يوجب عليهم الأذية ويستحقونها به وقيل: يقعون فيه ويرمونهم بغير جرم ، فأما الأذية للمؤمن والمؤمنة بما كسبوه مما يوجب عليه حداً أو تعزيراً أو نحوهما فذلك حق أثبته الشرع ، وأمر أمرنا الله به وندبنا إليه وهكذا إذا وقع من المؤمنين والمؤمنات الابتداء بشتم لمؤمن أو مؤمنة أو ضرب فإن القصاص من الفاعل ليس من الأذية المحرمة على أي وجه كان ما لم يجاوز ما شرعه الله ثم أخبر عما لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقال:

﴿ فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ أي ظاهراً واضحاً لا شك في كونه من البهتان والإثم ، وقد تقدم بيان حقيقة البهتان وحقيقة الإثم .قيل :إنها نزلت في علي بن أبي طالب كانوا يؤذونه . وقيل نزلت في شأن عائشة وقيل نزلت في الزناة كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء وهن كارهات ،وعن الفضيل: لا يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات ولما فرغ سبحانه من الزجر لمن يؤذي رسوله والمؤمنين والمؤمنات من عباده ، أمر رسول الله (ﷺ) أن يأمر بعض من ناله الأذى ببعض ما يدفع ما يقع عليه منه فقال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ جمع جلباب وهو ثوب أكبر من الخمار ، وهو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار ، قال الجوهري : الجلباب الملحفة ، وقال الشهاب إزار واسع يلتحف به ، وقيل : القناع وقيل : هو كل ثوب يستر جميع بدن المرأة من كساء وغيره كما ثبت في الصحيح من حديث أم عطية أنها قالت يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ فقال : (لتلبسها أختها من جلبابها) قال الواحدي قال المفسرون : يغطين وجوههن ورؤوسهن إلا عيناً واحدة فيعلم أنهن حرائر فلا يعرض لهن بأذى ، وبه قال ابن عباس ، وقال الحسن : تغطي نصف وجهها ، وقال قتادة : تلويه فوق الجبين وتشده ، ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه ، وقال المبرد : يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن ، و(من) للتبعيض أي ترخي بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز عن الأمة .

﴿ ذلك ﴾ أي إدناء الجلابيب وهو مبتدأ وخبره ﴿ أدنى ﴾ أقرب ﴿ أن يعرفن ﴾ فيتميزن عن الإماء ويظهر للناس أنهن حرائر ﴿ فلا يؤذين ﴾ من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن مراقبة لهن ولأهلهن ، وليس المراد بقوله ذلك الخ أن تعرف الواحدة منهن من هي ، بل المراد أن يعرفن أنهن حرائر لا إماء لأنهن لبسن لبسة تختص بالحرائر .

قال السبكي : في الطبقات الكبرى إن من أئمة الشافعية أحمد بن عيسى

شارح التنبيه استنبط من هذه الآية أن ما يفعله علماء هذا الزمان في ملابسهم من سعة الأكمام والعمة ولبس الطيلسان حسن ، وإن لم يفعله السلف ، لأن فيه تمييزاً لهم ، وبذلك يعرفون فيلتفت إلى فتاواهم وأقوالهم انتهى . ومنه يعلم أن تمييز الأشراف بعلامة أمر مشروع أيضاً انتهى .

أقول ما أبرد هذا الاستنباط وما أقل نفعه ، لا سيما بعد ما ورد في السنة المطهرة من النهي عن الإسراف في اللباس وإطالته ، وقد منع عن ذلك سلف الأمة وأئمتها فأين هذا من ذاك؟ وإنما هو بدعة أحدثها علماء السوء ومشايخ الدنيا ولذا قال علي القاري في معرض الذم : « لهم عمائم كالأبراج ، وكمائم كالأخراج » وأنكر عليهم ذلك أشد الإنكار ، وما ذكره من أن زي العلماء والأشراف سنة رده ابن الحاج في المدخل بأنه مخالف لزيهم في زمن النبي (ﷺ) وزمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من خير القرون ، فإن قيل إنهم به يعرفون ، قيل إنهم لو بقوا على الزي الأول عرفوا به أيضاً لمخالفته لما عليه غيرهم الآن وأطال في إنكار ما قالوه ، وقد بسطنا القول على ذلك في حجج الكرامة بالفارسية أيضاً فراجعه .

﴿ وكان الله غفوراً ﴾ لما سلف من ترك إدناء الجلابيب ﴿ رحيماً ﴾ بهن أو غفوراً لذنوب المذنبين رحيماً بهم ، فيدخل في ذلك دخولاً أولياً .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها ، فرآها عمر فقال : يا سودة أما والله ما يخفين علينا فانظري كيف تخرجين . قالت : فانكفأت راجعة ورسول الله (ﷺ) في بيتي ، وإنه ليتعشى ، وفي يده عرق ، فدخلت وقالت : يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال عمر : كذا وكذا فأوحي إليه ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن .

وعن أبي مالك قال : كان نساء النبي (ﷺ) يخرجن لحاجتهن بالليل وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن فَيُؤْذَيْن فقيل ذلك للمنافقين فقالوا : إنما

نفعله بالإماء فنزلت هذه الآيـة: ﴿يـاأيها النبي قل لأزواجـك﴾الآية.

وعن محمـد بن كعب القرظي قـال:كـان رجـل من المنـافقـين يتعـرض لنسـاء المؤمنين يؤذيهن فإذا قيل له قال كنت أحسبها أمة ، فأمرهن الله أن يخالفن زي الإماء ويدنين عليهن من جلابيبهن ، تخمر وجهها إلا إحدى عينيها ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، يقول ذلك أحرى أن يعرفن .

وعن ابن عباس في هذه الآية قال:أمـر الله نساء المؤمنـين إذا خرجن من بيـوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجـلابيب ، ويبدين عيناً واحدة ، وعن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية يدنين عليهن من جلابيبهن خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سود يلبسنها هكذا في الرواية بلفظ : من السكينة ، وليس لها معنى فإن المراد تشبيه الأكسية السود الغربان لا أن المراد وصفهن بالسكينة كما يقال : كأن على رؤوسهن الطير .

وعن عائشة قالت : رحم الله نساء الأنصار لمانزلت: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾الآية شققن مروطهن فاعتجرن بها فصلين خلف رسول الله ﷺ كأن على رؤوسهن الغربان .

وعن ابن عباس في الآية قال:كانت الحرة تلبس لباس الأمة فأمر الله نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيهن وإدناء الجلباب أن تقنع وتشده على جبينها .

قال أنس: مرت بعمر بن الخطاب جارية متنقبة فعلاها بالدرة وقال يا لكاع تتشبهين بالحرائر ألقي القناع ، قلت:ولكاع كلمة تقال لمن يستحقر به مثل العبد ، والأمة ، والخامل ، والقليل العقل ، مثل قولك: يا خسيس ، وذلك أن النساء في أول الإسلام على هاجراتهن في الجاهلية متبذلات ، تبرز المرأة في درع وخمار لا فصل بين الحرة والأمة .

وكان الفتيان يتعرضون إذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهن في النخيل والغيمان ـللإمـاء، وربما تعرضوا للحرة لحسبان الأمة فأُمـرن أن يخالفن بزيهن

عن زي الإماء بلبس الملاحف وستر الرؤوس والوجوه ، فلا يطمع فيهن طامع ، ثم توعد سبحانه أهل النفاق والإرجاف فقال :

﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ عما هم عليه من النفاق ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وريبة عما هم عليه من الاضطراب ﴿والمرجفون في المدينة﴾ عما يصدر منهم من الارجاف بذكر الأخبار الكاذبة المتضمنة لتوهين جانب المسلمين وظهور المشركين عليهم .

قال القرطبي :أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد ، والمعنى أن المنافقين قد جمعوا بين النفاق ومرض القلوب والإرجاف على المسلمين فهو على هذا من باب قوله :

إلى الملك القرم وابن الهما م وليث الكتيبة في المزدحم

والواو مقحمة. وقيل الموصوف متغاير ومتعدد، فكان من المنافقين قوم يرجفون وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقال عكرمة وشهر بن حوشب : الذين في قلوبهم مرض هم الزناة . من قوله :﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾، والمرض هو الزنا والإرجاف في اللغة إشاعة الكذب والباطل ، يقال:أرجف بكذا إذا أخبر به على غير حقيقته لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابت من الرجفة ، وهي الزلزلة ، يقال: رجفت الأرض أي تحركت وتزلزلت ترجف رجفاً ، والرجفان الاضطراب الشديد ، وسمي البحر رجافاً لاضطرابه ، والإرجاف واحد الأراجيف ، وأرجفوا في الشيء خاضوا فيه ، وذلك بأن هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سرايا المسلمين بأنهم هزموا ، وتارة بأنهم قتلوا ، وتارة بأنهم غلبوا ، ونحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الأخبار فتوعدهم الله سبحانه بقوله:

﴿ لنغرينك بهم ﴾ أي لنحرشنك ولنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل والتشريد بأمرنا لك بذلك ، قال المبرد : قد أغراه الله بهم في قوله الآتي: (ملعونين أينما ثقفوا)إلخ فهذا فيه معنى الأمر بقتلهم وأخذهم أي هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والارجاف ؛ قال النحاس : وهذا من أحسن ما

قيل في الآية ، وأقول ليس هذا بحسن ولا أحسن ، فإن قوله ملعونين إلخ ، إنما هو لمجرد الدعاء عليهم لا أنه أمر لرسوله (ﷺ) بقتالهم ولا تسليط له عليهم ، وقد قيل :إنهم انتهوا بعد نزول هذه الآية عن الإرجاف فلم يغره الله بهم ، وجملة لنغرينك بهم ، جواب القسم .

﴿ ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾ وإنما عطف بثم لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم من جميع ما أصيبوا به فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه يعني أنها للتفاوت الرتبي والدلالة على أن ما بعدها أبعد مما قبلها ، وأعظم وأشد عندهم ، والمعنى لا يساكنونك في المدينة إلا جواراً قليلاً حتى يخرجوا أو يهلكوا .

﴿ ملعونين أينما ثقفوا ﴾ أي مطرودين أينما وجدوا وأدركوا ﴿ أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ دعاء عليهم بأن يؤخذوا ويقتلوا ، والتشديد يدل على التكثير وقيل:إن هذا هو الحكم فيهم وليس بدعاء عليهم ، والأول أولى ، وقيل معنى الآية:أنهم إن أصروا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرودون ملعونون .

وقد فعل بهم ﷺ هذا فإنه لما نزلت سورة براءة جمعوا ، فقال : النبي (ﷺ): « يا فلان قم فاخرج فإنك منافق ويا فلان قم فقام إخوانهم من المسلمين وتولوا إخراجهم من المسجد » .

﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أي سن الله ذلك في الأمم الماضية وهو لعن المنافقين وأخذهم وتقتيلهم ، وكذا حكم المرجفين وهو منتصب على المصدر قال الزجاج: سن الله في الذين ينافقون الأنبياء ويرجفون بهم أن يقتلوا حيثما ثقفوا .

﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي تحويلاً وتغييراً ، بل هي ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء في الخلف والسلف ، يجريها الله مجرى واحداً في الأمم لإثباتها على أساس الحكمة التي عليها يدور فلك التشريع ، وقال الخطيب: أي ليست هذه السنة مثل الحكم الذي يتبدل وينسخ ، فإن النسخ يكون في الأقوال أما الأفعال إذا وقعت والأخبار فلا تنسخ .

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾

﴿يسألك الناس عن الساعة﴾ أي عن وقت حصولها ووجودها وقيامها، قيل السائلون عنها هم أولئك المنافقون والمرجفون والمشركون واليهود لما توعدوا بالعذاب سألوا عن الساعة استبعاداً وتكذيباً، أو امتحاناً، لأن الله تعالى عمى وقتها في التوارة وسائر الكتب ﴿قل إنما علمها عندالله﴾ يعني أنه سبحانه قد استأثر به ولم يطلع عليه نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرباً.

﴿وما يدريك﴾ أي ما يعلمك ويخبرك يا محمد ﴿لعل الساعة تكون قريباً﴾ أي في زمان قريب وانتصاب قريباً على الظرفية والتذكير لكون الساعة في معنى اليوم، أو الوقت مع كون التأنيث ليس بحقيقي، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لبيان أنها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها ـ وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فكيف بغيره من الناس وفي هذا تهديد عظيم للمستعجلين وإسكات للممتحنين والمشركين؛ ولمن يثبت علم المغيبات للأنبياء والصلحاء وغيرهم من الخلق.

﴿إن الله لعن الكافرين﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿وأعد

لهم ﴾ في الآخرة مع ذلك اللعن منه لهم في الدنيا ﴿ سعيراً ﴾ أي ناراً شديدة التسعّر ﴿ خالدين فيها ﴾ أي في السعير لأنها مؤنثة أو لأنه في معنى جهنم ﴿ أبداً ﴾ بلا انقطاع وهذا تأكيد لما استفيد من خالدين ﴿ لا يجدون ولياً ﴾ يواليهم ويحفظهم من عذابها ﴿ ولا نصيراً ﴾ ينصرهم ويخلصهم منها .

﴿ يوم تقلب وجوههم في النار ﴾ أي اذكر قرىء تقلب بضم التاء وفتح اللام على البناء للمفعول وقرىء بالنون وكسر اللام على البناء للفاعل ، وهو الله سبحانه وبضم التاء وكسر اللام على معنى تقلب السعير وجوههم وقرىء بفتح التاء واللام على معنى تتقلّب ، ومعنى هذا التقلب المذكور في الآية هو تقلبها تارة على جهة منها وتارة على جهة أخرى ظهراً لبطن أو تغير ألوانهم بلفح النار فتسود تارة وتخضر أخرى أو تبديل جلودهم بجلود أخرى وخصت الوجوه لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده أو يكون الوجه عبارة عن الجملة فحينئذ .

﴿ يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ الجملة مستأنفة كأنه قيل فما حالهم ؟ فقيل يقولون : متحسرين على ما فاتهم أو حال من ضمير وجوههم أو من نفس الوجوه تمنوا أنهم أطاعوا الله والرسول وآمنوا بما جاء به لينجوا مما هم فيه من العذاب كما نجا المؤمنون وهذه الألف في(الرسولا)والتي تأتي في (السبيلا)هي الألف التي تقع في الفواصل ، وتسميها النحاة ألف الإطلاق ، لإطلاق الصوت كقوافي الشعر ، وفائدتها الوقوف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف ، وقد سبق بيان هذا في أول هذه السورة .

﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ﴾ وقرىء ساداتنا بكسر التاء جمع سادة فهو جمع الجمع وسادة جمع على غير قياس سواء جعل جمعاً لسيد أو سائد والجملة معطوفة على الجملة الأولى ، والعدول إلى الماضي للإشعار بأن قولهم هذا ليس مستمراً كقولهم السابق ، بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضرباً من التشفي بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم في تلك الورطة ، والمراد بالسادة

والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم في الدنيا ، ويقتدون بهم . وقال مقاتل: هم المطعمون في غزوة بدر والأول أولى . ولا وجه للتخصيص بطائفة معينة ، والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار ، وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة .

وفي هذا زجر عن التقليد شديد ، وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا والتحذير منه والتنفير عنه ولكن لمن يفهم معنى كلام الله ويقتدي به وينصف من نفسه لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم ، ومزيد البلادة ، وشدة التعصب .

﴿ فأضلونا السبيلا ﴾ أي عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر بالله وبرسله والسبيل هو التوحيد ، ثم دعوا عليهم في ذلك الموقف فقالوا :

﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ أي مثل عذابنا مرتين للضلال والإضلال وقال قتادة عذاب الدنيا والآخرة ، وقيل : عذاب الكفر وعذاب الإضلال ﴿ والعنهم لعناً كبيراً ﴾ أي كبيراً في نفسه شديداً عليهم وقرىء بالمثلثة أي كثيراً لعدد عظيم القدر شديد الموقع .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ﴾ بقولهم إن به أدرة أو برصا أو عيبا ، وسيأتي بيان ذلك ، وفيه تأديب للمؤمنين وزجر لهم من أن يدخلوا في شيء من الأمور التي تؤذي رسول الله ﷺ. قال مقاتل: وعظ الله المؤمنين أن لا يؤذوا محمداً ﷺ كما آذى بنو إسرائيل موسى ، وقد وقع الخلاف فيما أوذي به نبينا ﷺ حتى نزلت هذه الآية فحكى النقاش: أن أذيتهم محمداً صلى الله عليه وسلم قولهم: زيد بن محمد ، وقال أبو وائل : إنه صلى الله عليه وسلم قسم قسماً فقال رجل من الأنصار : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله .

وعن ابن مسعود مثله ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فاحمر وجهه ، ثم قال: [رحم الله موسى فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر]. أخرجه

البخاري ومسلم وغيرهما ، وقيل : نزلت في زيد بن ثابت ، وزينب بنت جحش وما سمع فيها من قالة الناس .

﴿ فبرأه ﴾ أي طهره ﴿ الله مما قالوا ﴾ وأظهر براءته لهم وما مصدرية أو موصولة وأيهما كان ، فالمراد البراءة عن مضمون القول ومؤداه ، وهو الأمر المعيب وأذى موسى هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها .

وقد أخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أُدْرَةٌ، وإما آفة وإن الله عز وجل أراد أن يبرىء موسى مما قالوا فخلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه فطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً].

وأخرج نحوه البزار وابن الأنباري وابن مردويه من حديث أنس وقال ابن عباس : قال له قومه إنه آدر فخرج ذات يوم يغتسل فوضع ثيابه على حجر فخرجت الصخرة تشتد بثيابه فخرج موسى يتبعها عرياناً حتى انتهت به إلى مجالس بني إسرائيل فرأوه وليس بآدر فذلك قوله: (فبرأه الله مما قالوا) الآية.

وأخرج الحاكم وصححه ، عن ابن مسعود وناس من الصحابة أن الله أوحى إلى موسى أني متوف هارون فأت به جبل كذا وكذا فانطلقا نحو الجبل فإذا هم بشجرة وبيت فيه سرير عليه فرش وريح طيب، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه ، قال موسى: إني أحب أن أنام على هذا السرير ، قال : نم عليه ، قال نم معي فلما ناما أخذ هارون الموت فلما قبض

رفع ذلك البيت وذهبت الشجرة ورفع السرير إلى السماء .

فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: قتل هارون وحسده حب بني إسرائيل ، وكان هارون أألف بهم وألين لهم ، وكان في موسى بعض الغلظة عليهم ، فلما بلغه ذلك قال: ويحكم إنه كان أخي أفترونني أقتله ؟ فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله فنزل بالسرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ أي عظيماً ذا وجاهة ، والوجيه العظيم القدر الرفيع المنزلة ، يقال : وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه ، وقيل: مستجاب الدعوة ، وقيل: الوجاهة أنه كلمه تكليماً ، وقرأ عبدالله بالموحدة من العبودية ، وهي حسنة ، قاله الكرخي .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ في كل أمر من الأمور ﴿ وقولوا قولاً سديداً ﴾ أي صواباً وحقاً قال قتادة ومقاتل: يعني في شأن زيد وزينب ، ولا تنسبوا النبي ﷺ إلى ما لا يحل ، وقال عكرمة : إن القول السديد : لا إله إلا الله ، وقيل : هو الذي يوافق ظاهره باطنه ، وقيل : هو ما أريد به وجه الله دون غيره ، وقيل : هو الإصلاح بين الناس ، والسديد مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض ، والظاهر من الآية أنه أمرهم بأن يقولوا قولاً سديداً في جميع ما يأتونه ويذرونه فلا يخص ذلك نوعاً دون نوع ، وإن لم يكن في اللفظ ما يقتضي العموم ، فالمقام يفيد هذا المعنى لأنه أرشد سبحانه عباده إلى أن يقولوا قولاً يخالف قول أهل الأذى .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال : [صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ثم قال : على مكانكم اثبتوا ثم أتى الرجال فقال : إن الله أمرني أن آمركم أن تتقوا الله وأن تقولوا قولاً سديداً ، ثم أتى النساء فقال : إن الله أمرني أن آمركن أن تتقين الله ، وأن تقلن قولاً سديداً]، ثم ذكر الله سبحانه ما لهؤلاء الذين امتثلوا الأمر بالتقوى والقول السديد من الأجر فقال :

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

﴿ يصلح لكم أعمالكم ﴾ أي يجعلها صالحة لا فاسدة بما يهديكم إليه ، ويوفقكم فيه ، أو يتقبلها ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ أي يجعلها مكفرة مغفورة ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ في فعل ما هو طاعة واجتناب ما هو معصية .

﴿ فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ أي ظفر بالخير ظفراً عظيماً ونال خير الدنيا والآخرة وهذه الجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ، ثم لما فرغ سبحانه من بيان ما هو لأهل الطاعة من الخير بعد بيانٍ ما لأهل المعصية من العذاب بين عظم شأن التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها فقال :

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾ أي خفن من الأمانة أن يؤدينها فيلحقهن العقاب ، أو خفن من الخيانة فيها ، واختلف في تفسير الأمانة المذكورة هنا ، فقال الواحدي :معنى الأمانة ههنا في قول جميع المفسرين : الطاعة والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب وبتضييعها العقاب ، قال القرطبي : الأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور ، وقد اختلف في تفاصيل بعضها فقال ابن مسعود : هي في أمانة الأموال كالودائع وغيرها ، وروي عنه أنها في كل الفرائض وأشدها أمانة المال .

وقال أبيّ ابن كعب: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها ، وقال أبو الدرداء: غسل الجنابة أمانة ، وإن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها ، وقال ابن عمر: أول ما خلق الله من الإنسان فرجة ، وقال هذه أمانة أستودعكها فلا تلبسها إلا بحق فإن حفظتها حفظتك فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له .

وقال السدي : هي ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده هابيل وخيانته إياه في قتله وما أبعد هذا القول ، وليت شعري ما هو الذي سوغ للسدي تفسير هذه الآية بهذا ؟ فإن كان ذلك لدليل دله على ذلك فلا دليل ، وليست هذه الآية حكاية عن الماضين من العباد حتى يكون له في ذلك متمسك أبعد من كل بعيد ، وأوهن من بيت العنكبوت ، وإن كان تفسير هذا عملاً بما تقتضيه اللغة العربية فليس في لغة العرب ما يقتضي هذا ويوجب حمل هذه الأمانة المطلقة على شيء كان في أول هذا العالم .

وإن كان هذا تفسيراً منه بمحض الرأى فليس الكتاب العزيز عرضة لتلاعب آراء الرجال به ، ولهذا ورد الوعيد على من فسر القرآن برأيه فاحذر أيها الطالب للحق عن قبول مثل هذه التفاسير ، واشدد يديك في تفسير كتاب الله على ما تقتضيه اللغة العربية فهو قرآن عربي كما وصفه الله ، فإن جاءك تفسير عن رسول الله ﷺ فلا تلتفت إلى غيره . وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، وكذلك ما جاء عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم فإنهم من جملة العرب ومن أهل اللغة وممن جمع إلى اللغة العربية العلم بالاصطلاحات الشرعية ، ولكن إذا كان معنى اللفظ أوسع مما فسروه به في لغة العرب ، فعليك أن تضم إلى ما ذكره الصحابي ما تقتضيه لغة العرب وأسرارها ، فخذ هذه كلية تنتفع بها ، وقد ذكرنا في خطبة هذا التفسير ما يرشدك إلى هذا .

قال الحسن: إن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال فقالت:

وما فيها ؟ فقال لها إن أحسنت آجرتك ، وإن أسأت عذبتك ، فقالت لا . قال مجاهد فلما خلق الله آدم عرضها عليه ، وقيل له ذلك ، فقال قد تحملتها . وروي نحو هذا عن غير الحسن ومجاهد قال النحاس :وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير .

وقيل :هذه الأمانة هي ما أودعه الله في السموات والأرض والجبال وسائر المخلوقات من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها كذا قال بعض المتكلمين مفسراً للقرآن برأيه الزائف ، فيكون على هذا معنى عرضنا أظهرنا ، قال جماعة من العلماء :ومن المعلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب فلا بد من تقدير الحياة فيها ، وهذا العرض في الآية هو عرض تخيير لا عرض إلزام ، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها ، والجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة لأمره ساجدة له ، وقيل : المراد بالعرض هو العرض على أهلها من الملائكة دون أعيانها ، وقال القفال وغيره : العرض في هذه الآية ضرب مثل أي أن السموات والأرض والجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب أي أن التكليف أمر عظيم حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل وهذا كقوله ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾ .

وقيل : إنا عرضنا بمعنى عارضنا أي عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة ورجحت الأمانة بثقلها عليها ، وقيل : إن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال ، إنما كان من آدم عليه السلام وإن أمره أن يعرض ذلك عليها وهذا أيضا تحريف لا تفسير ، وقد قيل : إن المراد بالأمانة العقل ، والراجح ما قدمناه عن الجمهور وما عداه فلا يخلو عن ضعف لعدم وروده على المعنى العربي ، ولا انطباقه على ما يقتضيه الشرع ، ولا موافقته لما تقتضيه التعريف بالأمانة .

عن ابن عباس في الآية قال: لأمانة الفرائض عرضها الله على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم ، وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيماً لدين الله أن لا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها .

وعنه في الآية قال : عرضت على آدم فقيل خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك ، قال: قبلتها بما فيها فما كان إلا ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الذنب ، وعنه: هي أمانات الناس ، والوفاء بالعهود ، فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمناً ، ولا معاهداً في شيء لا في قليل ولا في كثير ، فعرض الله هذه الأمانة على أعيان السموات والأرض والجبال ، وهذا قول جماعة من التابعين وأكثر السلف .

وإنما أتى في قوله فأبين إلخ بضمير كضمير الإناث لأن جمع تكسير غير العاقل يجوز فيه ذلك ، وإن كان مذكراً وإنما ذكرنا ذلك لئلا يتوهم أنه قد غلب المؤنث وهو السموات على المذكر وهو الجبال .

﴿ وحملها الإنسان ﴾ أي التزم بحقها وهو آدم بعد عرضها عليه ؛ قيل إن ما كلف الإنسان حمله بلغ من عظمه وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله تعالى من الأجرام وأقواه وأشده أن يحتمله ويشتغل به فأبى حمله وأشفق منه ، وحمله الإنسان على ضعفه وضعف قوته .

قال الزجاج: معنى حملها خان فيها وجعل الآية في الكفار والفساق والعصاة .وقيل : معنى حملها كُلِّفْهاوأُلْزِمْها أو صار مستعداً لها بالفطرة أو حملها عند عرضها عليه في عالم الذر ، عند خروج ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق عليهم .

﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ أي وهو في ذلك الحمل ظلوم لنفسه جهول لما يلزمه ، أو جهول لقدر ما دخل فيه كما قال سعيد بن جبير أو جهول بأمر ربه كما قال الحسن ، وقيل ظلوماً حين عصى ربه ، جهولاً لا يدري ما العقاب

في ترك الأمانة . وقيل: ظلوماً جهولاً حيث حمل الأمانة ولم يف بها ، وضمنها ولم يف بضمانها ، ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب ، وما جاء القرآن إلا على أساليبهم وفي تفسير الآية أقوال أخر والأول أولى وهو قول السلف .

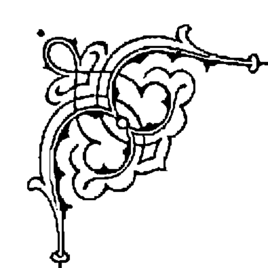
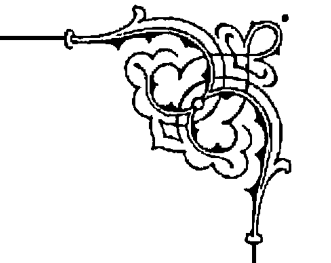
﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ متعلق بحملها أي حملها الإنسان ليعذب الله العاصي ويثيب المطيع وعلى هذا فجملة ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ معترضة بين الجملة ، وغايتها الإيذان بعدم وفائه بما تحمله ، قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : ليعذبهم بما خانوا من الأمانة وكذبوا من الرسل ونقضوا من الميثاق الذي أقروا به حين أخرجوا من ظهور آدم وقال الحسن وقتادة: هؤلاء المعذبون هم الذين خانوها ، وهؤلاء الذين يتوب الله عليهم هم الذين أدوها والالتفات الى الاسم الجليل أولاً لتهويل الخطب وتربية المهابة والإظهار في موضع الاضمار ثانياً في قوله:

﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكلٍ من مقامي الوعيد والوعد حقه والله أعلم. أي يهديهم ويرحمهم بما أدوا من الأمانة . قال ابن قتيبة: أي عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك . فيعذبهما الله ويظهر إيمان المؤمن فيعود عليه بالمغفرة والرحمة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات ، ولذلك ذكر بلفظ التوبة فدل على أن المؤمن العاصي خارج من العذاب .

﴿ وكان الله غفوراً ﴾ أي كثير المغفرة للمؤمنين التائبين من عباده إذا قصروا في شيء مما يجب عليهم من الأمانة وغيرها حيث عفا عن فرطانهم .

﴿ رحيماً ﴾ بهم حيث أثابهم بالعفو على طاعتهم ، مكرماً لهم بأنواع الكرم وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على الأمانة وذكر رفعها عن القلوب عند قرب الساعة فلا نطول بذكرها .



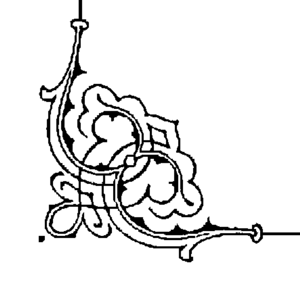



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة سبأ

﴿ هي أربع أو خمس وخمسون آية ، وهي مكية ﴾

قال القرطبي : في قول الجميع إلا آية واحدة اختلف فيها وهي قوله : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك ﴾ . فقالت فرقة: هي مكيّة . وقالت فرقة : هي مدنية ، وسيأتي الخلاف في معنى هذه الآية ان شاء اللّه تعالى ، وفيمن نزلت. وعن ابن عباس قال : نزلت سورة سبأ بمكة .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾

﴿ الحمد لله ﴾ التعريف إن أجري على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود ، وإن أجري على الاستغراق فالتعريف مشعر باستحقاق جميع أفراد الحمد لله سبحانه على ما تقدم تحقيقه في فاتحة الكتاب . وقيل : معناه أن كل نعمة من الله فهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه واللام لام التمليك لأنه خالق ناطق الحمد أصلاً فكان بملكه مالك الحمد للتحميد أهلاً ، وقيل هي لام التخصيص والمعنى متقارب أي وله بكل المحامد الاختصاص .

﴿ الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ معناه أن جميع ما هو فيهما في ملكه وتحت تصرفه يفعل به ما يشاء ويحكم فيه بما يريد ، فكل نعمة واصلة إلى العبد فهي مما خلقه له ومَنّ به عليه ، فحمده على ما في السموات والأرض هو حمد له على النعم التي أنعم بها على خلقه مما خلقه لهم ، ولما بين أن الحمد الدنيوي من عباده الحامدين له مختص به ، بين أن الحمد الأخروي مختص به كذلك أيضاً فقال :

﴿ وله الحمد في الآخرة ﴾ كما له في الدنيا لأن النعم في الدارين كلها منه ، وقيل المعنى أن له على الاختصاص حمد عباده الذي يحمدونه في الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة كما في قوله ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ وقوله (الحمد لله الذي هدانا لهذا) وقوله ﴿الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن﴾ وقوله ﴿الحمد لله الذي أحلنا دار المقامة من فضله﴾ وقوله ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ فهو سبحانه المحمود في الآخرة كما أنه المحمود في الدنيا ، وهو المالك للآخرة كما أنه المالك للدنيا ، غير أن الحمد هنا واجب لأن الدنيا دار تكليف وثم لا ، لعدم التكليف وإنما يحمد أهل الجنة سروراً بالنعيم وتلذذاً بما نالوا من الأجر العظيم ، كما ورد : يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس .

﴿ وهو الحكيم ﴾ الذي أحكم أمر الدارين ﴿ الخبير ﴾ بأمر خلقه فيهما ، وبضمير من يحمده ليوم الجزاء والعرض ، ثم ذكر سبحانه بعض ما يحيط به علمه من أمور السموات والأرض التي نيطت بها مصالحهم الدينية والدنيوية فقال :

﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ أي ما يدخل ويوضع فيها من مطر أو كنز أو دفين أو أموات ﴿وما يخرج منها﴾ من زرع ونبات وحيوان وشجر وعيون ومعادن وأموات إذا بعثوا ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ من الأمطار والسروج والثلوج والبرد والصواعق وأنواع البركات ومن ذلك ما ينزل منها من ملائكته وكتبه إلى أنبيائه قُرىء : ينزِل مسنداً إلى ما وينزّل مشدداً مسنداً إلى الله سبحانه .

﴿وما يعرج فيها﴾ أي في السماء من الملائكة ، وأعمال العباد والدعوات وضمن العروج معنى الاستقرار فعداه بفي دون إلى ، والسماء جهة العلو مطلقاً ﴿ وهو الرحيم ﴾ بعباده ﴿ الغفور ﴾ لذنوبهم وتفريطهم في أداء ما وجب عليهم من شكر نعمه .

﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ﴾ المراد بهؤلاء القائلين جنس الكفرة على الإطلاق أو كفار مكة على الخصوص والأول أولى ، والمعنى لا تأتي بحال من الأحوال إنكار منهم لوجودها بالكلية لا بمجرد إتيانها في حال تكلمهم ، أو في حال حياتهم مع تحقق وجودها فيما بعد ، وإنما عبروا عنها بذلك لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها فرد الله عليهم كلامهم وأثبت ما نفوه وأمر رسوله أن يقول لهم :

﴿ قل : بلى ﴾ على معنى ليس الأمر الا إتيانها ﴿ وربي لتأتينكم ﴾ وهذا القسم لتأكيد الإتيان على أتم الوجوه وأكملها . قرىء : لتأتينكم بالفوقية أي الساعة ، وبالتحتية على تأويل الساعة باليوم أو الوقت ، كأنه قال : ليأتينكم البعث أو أمره كما قال ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ .

﴿ عالم الغيب ﴾ تقوية للتأكيد لأن تعقيب القسم بحلائل نعوت المقسم به يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة إثباته وصحته ، لما أن ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر ﴿ لا يعزب ﴾ أي لا يغيب ﴿ عنه ﴾ ولا يستر عليه ولا يبعد عنه من عزب يعزب ـ بكسر الزاي ـ إذا غاب وبعد وخفي وقرىء بضم الزاي ، قال الفراء : والكسر أحب إليّ وهما لغتان ﴿ مثقال ذرة ﴾ أي مقدار أصغر نملة ووزن ذرة .

﴿ في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ﴾ أي من مثقال ذرة وفيه إشارة إلى أن مثقال لم يذكر للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب أيضاً ، ولو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان ، وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته فقال ﴿ ولا أكبر ﴾ منه ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ أي إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ الذي اشتمل على معلومات الله سبحانه ومكتوب فيه فهو مؤكد لنفي العزوب .

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨)﴾

﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ اللام للتعليل لقوله لتأتينكم أي إتيان الساعة فائدته جزاء المؤمنين بالثواب ﴿ أولئك ﴾ أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم ﴿ ورزق كريم ﴾ أي حسن وهو الجنة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح مع التفضل عليهم من الله سبحانه ، ثم ذكر فريق الكافرين الذين يعاقبون عند إتيان الساعة فقال:

﴿والذين سعوا في﴾ إبطال ﴿آياتنا﴾ المنزلة على الرسل وقدحوا فيها وصدّوا الناس عنها وجاهدوا في ردها بالطعن فيها ونسبتها إلى السحر والشعر وغير ذلك لأن المكذب آت بإخفاء آيات بينات؛ فيحتاج إلى السعي العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به.

﴿ معاجزين ﴾ مقدرين عجزنا أو مسابقين لنا يحسبون أنهم يفوتوننا ولا يدركون ، وذلك باعتقادهم أنهم لا يبعثون ، يقال: أعجزه وعاجزه إذا غالبه وسبقه. قرىء: معاجزين ومعجزين أي مثبطين للناس عن الايمان بالآيات ﴿ أولئك ﴾ الذين سعوا ﴿ لهم عذاب من رجز ﴾ الرجز هو العذاب فمن للبيان وقيل الرِّجز هو أسوأ العذاب وأشده والأول أولى .

ومن ذلك قوله فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء ﴿ أليم ﴾ أي الشديد الألم ، ولما ذكر الذين سعوا في إبطال آيات الله ذكر الذين يؤمنون بها فقال:﴿ ويرى ﴾ أي يعلم ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ وهم الصحابة قاله قتادة وقال مقاتل:هم مؤمنو أهل الكتاب .

وقيل : جميع المسلمين ، والأولى أنه كلام مستأنف لدفع ما يقوله الذين سعوا في الآيات، أي أن ذلك السعي منهم يدل على جهلهم ، لأنهم مخالفون لما يعلمه أهل العلم في شأن الكتاب .

﴿ الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ أي الصدق يعني أنه من عند الله ﴿ ويهدي إلى صراط ﴾ معطوف على الحق عطف فعل على اسم لأنه في تأويله كما في قوله:﴿صافات ويقبضن﴾ أي: وقابضات كأنه قيل وهادياً وقيل إنه مستأنف وفاعله ضمير يرجع إلى فاعل أنزل ، وهو القرآن ، والصراط : الطريق أي:ويهدي إلى طريق .

﴿ العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الحميد ﴾ عند خلقه والمراد أن يهدي إلى دين الله الاسلام وهو التوحيد ، ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من كلام منكري البعث فقال:

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ بعضهم لبعض : ﴿ هل ندلكم على رجل ؟ ﴾ أي هل نرشدكم إلى رجل يعنون محمداً ﷺ ، والتعبير برجل المنكر من باب التجاهل ، كأنهم لم يعرفوا منه إلا أنه رجل وهو عندهم أشهر من الشمس قاله الشهاب ، وقال القرطبي : كانوا يقصدون بذلك السخرية والهزأة .

﴿ ينبئكم ﴾ يخبركم بأمر عجيب ونبأ غريب هو أنكم ﴿ إذا مزقتم كل ممزق ﴾ أي فرقتم كل تفريق وقطعتم كل تقطيع وصرتم بعد موتكم رفاتاً وتراباً ، وقال الكرخي : أي كل مكان تمزيق من القبور ، وبطون الوحش والطير .

﴿ إنكم لفي خلق جديد ﴾ أي تخلقون وتنشأون خلقاً جديداً ، وتبعثون

من قبوركم أحياء ، وتعودون إلى الصور التي كنتم عليها بعد أن تمزقت أجسادكم كل تمزيق ، قال هذا القول بعضهم لبعض استهزاء بما وعدهم الله على لسان رسوله من البعث ، وأخرجوا الكلام مخرج التلهي به والتضاحك مما يقوله من ذلك ، قال الزجاج: التقدير إذا مزقتم كل ممزق بعثتم أو ينبئكم بأنكم تبعثون إذا مزقتم ، وأصل المزق: خرق الأشياء يقال ثوب مزيق وممزق ومتمزق وممزوق .

وعن قتادة في الآية قال : قال ذلك مشركو قريش ، إذا أكلتكم الأرض وصرتم رفاتاً وعظاماً وتقطعتكم السباع والطير ، أنكم ستحيون وتبعثون ، قالوا ذلك تكذيباً له ، وجديد عند البصريين بمعنى فاعل ، يقال جد الشيء فهو جاد ، وعند الكوفيين بمعنى مفعول من جددته أي قطعته ، ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار أنهم رددوا ما وعدهم به رسول الله ﷺ من البعث بين أمرين فقالوا :

﴿أفترى على الله كذباً أم به جنة ؟﴾ أي أهو كاذب فيما قاله ، أم به جنون بحيث لا يعقل ما يقوله. قال قتادة: إما أن يكون يكذب على الله وإما أن يكون مجنوناً والهمزة في أفترى همزة الاستفهام وحذفت لأجلها همزة الوصل كما تقدم في قوله﴿أطّلع الغيب﴾ثم رد عليهم سبحانه ما قالوه في رسوله فقال :

﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا بل هم الذين ضلوا عن الفهم وإدراك الحقائق فكفروا بالآخرة ، ولم يؤمنوا بما جاءهم به فصاروا بسبب ذلك ﴿ في العذاب ﴾ الدائم في الآخرة وهم اليوم .

﴿ والضلال البعيد ﴾ عن الحق غاية البعد ، ثم وبخهم سبحانه بما اجترأوا عليه من التكذيب مبيناً لهم أن ذلك لم يصدر منهم إلا لعدم التفكر والتدبر في خلق السماء والأرض ، وأن من قدر على هذا الخلق العظيم لا يعجزه أن يبعث من مخلوقاته ما هو دون ذلك ويعيده إلى ما كان عليه من الذات والصفات فقال :

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم ، وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والمعنى أَعَموا فلم يروا ومن المعلوم أن ما بين يدي الإنسان هو كل ما يقع نظره عليه من غير أن يحول وجهه إليه وخلفه هو كل ما لا يقع نظره عليه حتى يحول نظره إليه فيعم الجهات كلها أي أنهم إذا نظروا رأوا السماء قدامهم وخلفهم ، وكذلك إذا نظروا إلى الأرض رأوها خلفهم وقدامهم ، فالسماء والأرض محيطتان بهم فهو القادر على أن ينزل بهم ما شاء من العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسوله . وإنكارهم للبعث .

فهذه الآية اشتملت على أمرين :

أحدهما : أن هذا الخلق الذي خلقه الله من السماء والأرض يدل على كمال القدرة على ما هو دونه من البعث كما في قوله ﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾.

والأمر الآخر : التهديد لهم بأن من خلق السموات والأرض على هذه الهيئة التي قد أحاطت بجميع المخلوقات فيهما قادر على تعجيل العذاب لهم كما قال :

﴿ إن نشأ نخسف بهمُ الأرض ﴾ كما خسفنا بمن كان قبلهم كقارون ﴿ أو نسقط عليهم كسفاً ﴾ أي قطعاً ﴿ من السماء ﴾ كما أسقطها على أصحاب الأيكة فكيف يأمنون ذلك ، وقال قتادة : إن يشأ أن يعذب بسمائه فعل ،

وإن يشأ أن يعذب بأرضه فعل ، وكل خلقه له جند ، قرىء بالنون وبالتحتية في الأفعال الثلاثة .

﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور المرئي من خلق السماء والأرض من حيث إحاطتهما بالناظرين من جميع الجوانب ﴿ لآية ﴾ واضحة ودلالة بينة .

﴿ لكل عبد منيب ﴾ أي راجع إلى ربه بالتوبة والإخلاص ، وخص المنيب لأنه المنتفع بالتفكر ، وقال قتادة : منيب أي تائب مقبل إلى الله ، وقال هنا : لآية بالتوحيد ، وفيما بعد ذلك لآيات يجمعهاالأن ـ ما ـ هناإشارة إلى إحياء الموتى فناسب التوحيد . وما بعد إشارة إلى سبأ قبيلة تفرقت في البلاد فصاروا فرقاً فناسب الجمع ، ثم ذكر سبحانه من عباده المنيبين إليه داود وسليمان كما قال في داود:﴿فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب﴾. وقال في سليمان: ﴿وألقيناعلى كرسيه جسداً ثم أناب﴾ فقال :

﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً ﴾ أي آتيناه بسبب إنابته فضلاً منا على سائر الأنبياء ، واختلف في هذا الفضل على أقوال فقيل النبوة وقيل الزبور وقيل العلم ، وقيل القوة كما في قوله﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾وقيل تسخير الجبال كما في قوله ﴿يا جبال أوّبي معه﴾، وقيل التوبة ، وقيل الحكم بالعدل ، كما في قوله ﴿ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾، وقيل هو إلانة الحديد كما في قوله: ﴿وألنّاله الحديد﴾، وقيل حسن الصوت والأولى أن يقال: إن هذا الفضل المذكور هو ما ذكره الله بعده من قوله .

﴿ يا جبال ﴾ إلى آخر الآية أي قلنا له يا جبال ﴿ أوبي معه ﴾ التأويب التسبيح كما في قوله: (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن)،قال أبو ميسرة: هو التسبيح بلسان الحبشة ، وقال ابن عباس: أوّبي سبحي .

وروي مثله عن مجاهد وعكرمة وابن زيد وكان إذا سبح داود سبحت

الجبال معه ، ومعنى تسبيحها أن الله يجعلها قادرة على ذلك أو يخلق فيها التسبيح معجزة لداود ، وقيل معنى أوبي سيري معه من التأويب الذي هو سير النهار ، أجمع قراء العامة أوبي على صيغة الأمر من التأويب وهو الترجيع والتسبيح أو السير أو النوح ، وقرىء أوبي بضم الهمزة أمراً من آب يؤوب إذا رجع أي ارجعي معه .

﴿ والطير ﴾ بالنصب عطفاً على(فضلاً)على معنى وسخرنا له الطير ، لأن إيتاءه إياها تسخيرها له أو نادينا الجبال والطير ، وقال سيبويه وأبو عمرو ابن العلاء :انتصابه بفعل مضمر على معنى ،وسخرنا له الطير وقال الزجاج والنحاس : يجوز أن يكون مفعولاً معه، كما تقول :استوى الماء والخشبة ، وقال الكسائي أي آتيناه فضلا وتسبيح الطير ، وفي هذا النظم من الفخامة ما لا يخفى .

﴿ وألنا له الحديد ﴾ أي جعلناه ليناً له ليعمل به ما شاء .

قال ابن عباس: كالعجين وقال الحسن :كالشمع يعمله من غير نار ، وقال السدي :كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجين والشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة ، وكذا قال مقاتل ، وكان يفرغ من عمل الدرع في بعض يوم .

﴿ أن اعمل سابغات ﴾ أي بأن اعمل أو لأن اعمل أو ﴿ أن ﴾ مفسرة لقوله ألنا قاله الحوفي وفيه نظر ، لأنها لا تكون إلا بعد القول أو ما هو في معناه، وقيل: التقدير أمرناه أن اعمل ولا ضرورة تدعو إلى ذلك ، والمعنى دروعاً سابغات والسوابغ الكوامل الواسعات ، يقال: سبغ الدرع والثوب وغيرهما إذا غطى كل ما هو عليه ، وفضل منه فضلة ، وقرىء صابغات بالصاد لأجل الغين .

﴿ وقدر في السرد ﴾ السرد نسج الدروع ، ويقال: السرد والزرد كما يقال: السراد والزراد لصانع الدروع والسرد أيضاً الخرز ، يقال :سرد يسرد إذا خرز

ومنه سرد الكلام إذا جاء به متوالياً ، ومنه حديث عائشة : [لم يكن النبي ﷺ يسرد الحديث كسردكم] قال سيبويه : ومنه سريد أي جرى ، ومعنى سرْد الدروع إحكامها وأن يكون نظام حلقها ولاء غير مختلف .

قال قتادة : كانت الدروع قبل داود ثقالاً .فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع الخفة والحصانة ، أي قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه ، فلا تقصد الحصانة فتثقل ، ولا الخفة فتزيل المنعة . وقال ابن زيد: التقدير الذي أمر به في قدر الحلقة أي لا تعملها صغيرة فتضعف ، ولا يقوى الدرع على الدفاع ، ولا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها .

وقيل : إن التقدير في المسمار أي لا تجعل مسمار الدرع دقيقاً فيقلق ولا غليظاً فيفصم الحلق ، وقال ابن عباس : قدر في السرد أي في حلق الحديد وعنه لا تدق المسامير وتوسع الحلق فتسلس ، ولا تغلظ المسامير وتضيق الحلق فتفصم ، واجعله قدراً .

وقال البقاعي : إنه لم تكن في حلقها مسامير لعدم الحاجة إليها بسبب إلانة الحديد ، وإلا لم يكن بينه وبين غيره فرق ، ولا كان للإلانة كبير فائدة وقد أخبر بعض من رأى ما نسب إليه بغير مسامير .

وقال الرازي: معناه إنك غير مأمور به أمر إيجاب وإنما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة . وباقي الأيام والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل فيه القوت فحسب ، ثم خاطب داود وأهله فقال :

﴿ واعملوا ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ كما في قوله ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ ثم علل الأمر بالعمل الصالح بقوله ﴿ إني بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفى على شيء من ذلك فأجازيكم به .

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

﴿ ولسليمان الريح ﴾ أي سخرنا له الريح كما قال الزجاج قرأ عاصم بالرفع على الابتداء والخبر أي ولسليمان الريح ثابتة أو مسخرة وقرىء :الريح والرياح بالإفراد والجمع .

﴿ غدوها ﴾ أي سيرها من الغدوة بمعنى الصباح إلى الزوال أي جريها من أول النهار إلى الزوال ﴿ شهر ورواحها ﴾ أي سيرها من الزوال إلى الغروب ﴿ شهر ﴾ والجملة مستأنفة لبيان تسخير الريح أو حالية من الريح والمعنى :أنها كانت تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين قال الحسن: كان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر وبينهما مسيرة شهر للمسرع ثم يروح من اصطخر فيبيت بكابل أو ببابل وبينهما مسيرة شهر . وقيل: إنه كان يتغدى بالري ويتعشى بسمرقند .

﴿ وأسلنا ﴾ أي أذبنا ﴿ له عين القطر ﴾ أي النحاس الذائب قال الواحدي قال المفسرون:أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء وكان بأرض اليمن ، وإنما يعمل الناس اليوم بما أعطى سليمان ولولاها ما لان النحاس أصلاً ، لأنه قبل سليمان لم يكن يلين أصلاً لا بنار ولا بغيرها والمعنى أسلنا له عين النحاس كما ألنا الحديد لداود .

وقال قتادة أسال الله له عيناً يستعملها فيما يريد . قال ابن عباس :

القطر النحاس لم يقدر عليها أحد بعد سليمان ، وإنما يعمل الناس بعده فيما كان أعطي :سليمان ، وقال مجاهد القطر الصفر والمعنى : جعلنا النحاس لسليمان في معدنه عيناً تسيل كعيون المياه دلالة على نبوته أي كالعين النابعة من الأرض .

﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ الإذن مصدر مضاف إلى فاعله أي مسخراً أو ميسراً بأمر ربه ﴿ ومن يزغ منهم ﴾ أي ومن يعدل من الجن ﴿ عن أمرنا ﴾ الذي أمرناه به وهو طاعة سليمان .

﴿ نذقه من عذاب السعير ﴾ قال أكثر المفسرين : وذلك في الآخرة ، وقيل في الدنيا قال السدي ، وكل الله بالجن ملكاً بيده سوط من نار فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة فتحرقه ، ثم ذكر سبحانه ما يعمله الجن لسليمان فقال :

﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب ﴾ من للبيان والمحاريب كل موضع مرتفع وهي الأبنية الرفيعة، والقصور العالية، والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال والمساكن .

قال المبرد : لا يكون المحراب إلا ان يرتقي اليه بدرج ومنه قيل للذي يصلي فيه محراب لأنه يرفع ويعظم ، وقال مجاهد: المحاريب دون القصور ، وقال أبو عبيدة: المحراب أشرف بيوت الدار وقال الضحاك وقتادة: المراد بالمحاريب هنا المساجد وكان مما عملوا له بيت المقدس .

﴿ وتماثيل ﴾ جمع تمثال وهو كل شيء مثلته بشيء أي صورته بصورته من نحاس أو زجاج أو رخام أو غير ذلك قيل : كانت هذه التماثيل صور الأنبياء والملائكة والعلماء والصلحاء كانوا يصورونها في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهاداً ، وفي الحديث «إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصورة ليذكروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة» وقيل : هي تماثيل أشياء ليست من الحيوان ، وقيل : صور السباع والطيور .

وقد استدل بهذا على ان التصوير كان مباحاً في شرع سليمان ونسخ ذلك بشرع نبينا محمد ﷺ ، وعن ابن عباس قال :اتخذ سليمان تماثيل من نحاس فقال : يا رب انفخ فيها الروح فإنها أقوى على الخدمة فنفخ الله فيها الروح فكانت تخدمه ؛ وكان أسفنديار من بقاياهم فقيل لداود وسليمان﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾!!

﴿ وجفان ﴾ جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة ﴿ كالجواب ﴾ جمع جابية وهي حفيرة كالحوض ، وقيل : هي الحوض الكبير يجبي الماء أي يجمعه. قال الواحدي : قال المفسرون يعني قصاعاً في العظم كحياض الإبل يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها .

قال النحاس : الأولى إثبات الياء في الجوابي ومن حذف الياء قال : سبيل الألف واللام أن يدخل على النكرة فلا يغيرها عن حالها فلما كان يقال : جواب ،ودخلت الألف واللام أقر على حاله فحذف الياء ، قال الكسائي يقال جبوت الماء وجبيته في الحوض أي جمعته ، والجابية الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل وقال النحاس : والجابية القدر العظيمة ، والحوض العظيم الكبير الذي يجبى فيه الشيء أي يجمع ، ومنه جبيت الخراج وجبيت الجراد جمعته في الكساء ، وقال ابن عباس كالجوبة من الأرض .

﴿ وقدور راسيات ﴾ قال ابن عباس : اثافيها منها ، وقال قتادة :هي قدور النحاس تكون بفارس ، وقال النحاس : هي قدور تنحت من الجبال الصم عملتها له الشياطين ، ومعنى راسيات ثابتات لا تحمل ولا تحرك لعظمها ، وكان يصعد إليها بالسلالم ، وكانت باليمن قيل:إنها باقية بها إلى الآن ثم أمرهم سبحانه بالعمل الصالح على العموم سليمان وأهله فقال .

﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ أي : وقلنا لهم : اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما آتاكم واعملوا عملاً شكراً على أنه صفة مصدر

محذوف ، او اعملوا للشكر على أنه مفعول له أو حال أي شاكرين أو مفعول به وسميت الطاعة شكراً لأنها من جملة أنواعه، أو منصوب على المصدرية بفعل مقدر من جنسه ، أي اشكروا شكراً قيل: المراد بآل داود نفسه، وقيل :داود وسليمان وأهل بيته ، وقيل المعنى ارحموا أهل البلاء واسألوا ربكم العافية وسئل الجنيد عن الشكر فقال: بذل المجهود بين يدي المعبود ، ثم بين بعد أمرهم بالشكر أن الشاكرين له من عباده ليسوا بكثير فقال:

﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ أي العامل بطاعتي الشاكر لنعمتي قليل وقال ابن عباس : يقول قليل من عبادي الموحدين توحيدهم والشكور المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه ، قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقاداً واعترافاً وكدحاً .

وعن ابن عباس : من يشكر على أحواله كلها ، وقيل من يشكر على الشكر ومن يرى عجزه عن الشكر وعن داود عليه السلام أنه جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات الا وإنسان من آل داود قائم يصلي .

﴿ فلما قضينا عليه الموت ﴾ أي حكمنا على سليمان به وألزمناه إياه ﴿ ما دلهم ﴾ أي الجن ﴿ على موته إلا دابة الأرض ﴾ يعني حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتاً، وهي دويبة يقال لها:سرفة وقرىء: الأرض بفتح الراء أي الأكل يقال : أرضة الخشبة أرضاً إذا أكلتها الأرض .

﴿ تأكل منسأته ﴾ قال البخاري : يعني عصاه أي عصاته التي كان متكأ عليها والمنسأة العصا بلغة الحبشة أو هي مأخوذة من نسأت الغنم أي زجرتها .

قال الزجاج : المنسأة التي ينسأ بها أي يطرد ، قرأ الجمهور منسأته بهمزة مفتوحة وقرىء بهمزة ساكنة وبألف محضة قال المبرد: بعض العرب تبدل من همزتها ألفاً فلما أكلتها الآرضة شكرتها الجن وأحبوها فهم يأتونها بالماء

والطين في خروق الخشب وزاد السدي، وقالوا لها: لو كنت تأكلين الطعام والشراب لأتيناك بهما .

﴿ فلما خر ﴾ أي سقط سليمان ﴿ تبينت الجن ﴾ أي ظهر لهم وانكشف من تبينت الشيء اذا علمته أي علمت الجن ﴿ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ أي لو صح ما يزعمونه من أنهم يعلمون الغيب

لعلموا بموته ولم يلبثوا بعد موته مدة طويلة في العذاب ، أي العمل الذي أمرهم به والطاعة له ، وهو إذ ذاك ميت .

قال مقاتل العذاب المهين : الشقاء والنصب في العمل. قال الواحدي قال المفسرون : كانت الناس في زمان سليمان يقولون: ان الجن تعلم الغيب فلما مكث سليمان قائماً على عصاه حولاً ميتاً والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة التي كانت تعمل في حياة سليمان لا يشعرون بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتاً ، فعلموا بموته علم الناس أن الجن لا تعلم الغيب. ويجوز أن يكون تبينت من تبين الشيء لا من تبينت الشيء أي ظهر وتجلى وان وما في حيزها بدل اشتمال مع تقدير محذوف أي ظهر أمر الجن للناس أنهم لو كانوا يعلمون الغيب. ما لبثوا في العذاب المهين قرأ الجمهور: تبينت على البناء للفاعل مسنداً إلى الجن وقرأ ابن عباس وغيره: على البناء للمفعول ومعنى القراءتين يعرف مما قدمنا .

قال ابن عباس: لبث سليمان على عصاه حولاً بعدما مات ، ثم خر على رأس الحول فأخذت الجن عصى مثل عصاه ودابة مثل دابته . فأرسلوها عليها فأكلتها في سنة، وكان ابن عباس يقرأ: فلما خر تبينت الإنس، قال سفيان: وفي قراءة ابن مسعود : وهم يدأبون له حولاً ، وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن السني وغيرهم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «كان سليمان إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فتقول: لها ما اسمك فتقول كذا وكذا فيقول لم أنت ؟ فتقول لكذا وكذا ، فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء

كتبت فصلى ذات يـوم فاذا شجـرة نابتـة بين يديـه فقال لهـا مـا اسمك؟ قالت: الخروب. قال: لأي شيء انت ؟ قالت لخراب هذا البيت. قال لها سليمان: ما كان الله ليخربه ، وأنا حي ، أنت التي على وجهك هـلاكي وخراب بيت المقـدس ثم نـزعها وغـرسها في حـائط له ، ثم قـال سليمان اللهم عمِّ عن الجن مـوتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فهيأ عصى فتوكأ عليها وقبضه الله وهـو متكىء عليها ، فمكث حـولاً ميتاً والجن تعمـل فأكلتهـا الأرضة فسقـطت فعلموا عند ذلك بموته فتبينت الانس ان الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

وكان ابن عباس يقرأها كذلك فشكرت الجن للأرضة فأينما كانت يأتونها بالماء ، وأخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس موقوفاً .

وأخرج الديلمي عن زيد بن أرقم مرفـوعاً يقـول الله : اني تفضلت على عبادي بثلاث: القيت الدابة على الحبة ، ولولا ذلك لكنزها الملوك كما يكنزون الذهب والفضة ، وألقيت النتن على الجسد ولولا ذلـك لم يدفن حبيب حبيبـه واستلبت الحزن ولولا ذلك لذهب النسل .

ذكر اهل التاريخ ان سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنـة ، وبقي في الملك مـدة اربعين سنة وشـرع في بناء بيت المقـدس لأربـع سنين مضين من ملكه وتوفي وهو ابن ثلاث وخمسين سنة وقيل: ان داود أسس بناء بيت المقدس في موضـع فسـطاط موسى فمـات قبل أن يتمـه فوصّى بـه الى سليمـان فـأمر الشياطين بإتمامه فلما بقي من عمره سنـة سأل ربـه أن يعمّيَ عليهم موتـه حتى يفرغوا عنه ولتبطل دعواهم على الغيب ، روي أن افريدون جاء ليصعد كرسيـه فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها ، فلم يجسر أحد بعده أن يدنو منه .

ولما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقّبه بحال بعض الجاحدين لها ، والمقصود من ذكر هذه القصة ان النبيﷺ يذكرها لقـومه لعلهم يتعـظون وينزجرون ويعتبرون بها فقال:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦)﴾

﴿ لقد كان لسبأ ﴾ المراد بهـا القبيلة التي هي من أولاد سبأ هو سبأ ابن يشجب بضم الجيم بن يعرب بن قحطان بن هود ، قرأ الجمهور: لسبأ بـالتنوين على أنه اسم حي أي الحي الذين هم أولاد سبـأوقرىء: لسبـأ ممنوع الصـرف بتأويل القبيلة ويقوي القراءة الأولى قوله في مسكنهم ولو كان على تأويل القبيلة لقال في مسكنها ، وقرأ الجمهور على الجمـع واختار هـذه القراءة أبـو عبيد ، وأبـو حاتم ، ووجـه الاختيار أنهـا كانت لهم منـازل كثيـرة ومسـاكن متعـددة ، وقرىء بالإفراد ووجه الافراد أنه مصـدر يشمل القليـل والكثير ، أو اسم مكـان وأريد به معنى الجمع ، وهذه المساكن التي كانت لهم هي التي يقال لها الآن مأرب وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ، وكانت أخصب البلاد .

وقد أخرج احمد والبخاري والترمذي وحسنه والحاكم وصححـه وغيرهم عن فـروة بن مسيك المـرادي قـال : أتيت النبيﷺ فقلت: يـا رسـول الله ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم ، فأذن لي في قتالهم ، وأمرني ، فلمـا خـرجت من عنده أرسـل في إثري فـردني فقـال : ادع القـوم فمن أسلم منهم فاقبل منه ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك ، وأنزل في سبـأ ما انـزل فقال رجل : يا رسول الله وما سبأ أرض أم امرأة ؟ قال : ليس بـأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة . وتشاءم منهم أربعة ، فأما الـذين تشـاءموا: فلخم وجـذام وغسـان وعـاملة ، وأمـا الـذين تيـامنـوا فـالأزد

والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار، فقال رجل : يا رسول الله وما أنمار؟ قال : الذي منهم خثعم وبجيلة.

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والطبراني وابن عدي والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه بأخصر منه .

﴿ آية ﴾ أي علامة دالة على كمال قدرة الله وبديع صنعه بملاحظة أحوالها السابقة وهي نضارتها وخصبها وثمارها، واللاحقة كتبديلها وعدم ثمرها ثم بين هذه الآية فقال : ﴿ جنتان ﴾ أي جماعتان من البساتين .

﴿ عن يمين وشمال ﴾ أي وهاتان الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله قد أحاطتا به من جهتيه وقيل:عن يمين من أتاهما وشماله ، وكانت مساكنهم في الوادي ، وكل طائفة من تلك الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة ، والآية هي الجنتان كانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها المكتل فيمتلىء من أنواع الفواكه التي يتساقط من غير أن تمسها بيدها .

وقال عبد الرحمن بن زيد : إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة ولا ذباباً ولا برغوثاً ولا قملة ولا عقرباً ولا حية ولا غير ذلك من الهوام ، واذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم لبيوتهم ، قال القشيري : ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة في كل جهة بساتين كثيرة وأشجار وثمار تستر الناس بظلالها .

﴿ كلوا من رزق ربكم ﴾ أي قيل لهم ذلك وهذا الأمر للإذن والإباحة، وقيل : لم يكن ثم أمر ولكن المراد تمكينهم من تلك النعم والأول أظهر ، وقيل : إنها قالت لهم الملائكة ، وقيل : إنهم خوطبوا بذلك على لسان نبيهم ، والمراد بالرزق هو ثمار الجنتين .

﴿ واشكروا له ﴾ على ما رزقكم من هذه النعم واعملوا بطاعته واجتنبوا معاصيه .

﴿ بلدة طيبة ﴾ مستأنفة لبيان موجب الشكر والمعنى: هذه بلدة طيبة فكثيرة أشجارها وطيبة ثمارها وقيل:معنى كونها طيبة أنها غير سبخة وقيل : ليس فيها هوام لطيب هوائها ، قال مجاهد : هي صنعاء ، وقيل:كانت على ثلاثة فراسخ من صنعاء وفي المصباح:يطلق البلد والبلدة على كل موضع من الأرض عامراً كان أو خلاء .

﴿ ورب غفور ﴾ أي المنعم بها عليهم رب غفور لذنوبهم ، فجمع لهم بين المغفرة وطيب البلدة ، ولم يجمع ذلك لجميع خلقه ، وقال مقاتل : المعنى: وربكم ان شكرتم فيما رزقكم رب غفور للذنوب ، وقيل:إنما جمع لهم بين طيب البلدة والمغفرة للإشارة الى أن الرزق قد يكون فيه حرام ، قرىء بنصب بلدة ورباً على تقدير اسكنوا بلدة واشكروا رباً ، ثم ذكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التي أنعم بها عليهم فقال :

﴿فأعرضوا﴾ عن الشكر وكفروا بالله وكذبوا أنبياءهم قال السدي: بعث الله الى أهل سبأ ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم وكذا قال وهب وزادوقالوا:ما نعرف لله علينا نعمة فقولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا إن استطاع فذلك إعراضهم ؛ ثم لما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة أرسل الله عليهم نقمة سلب بها ما أنعم به عليهم كما قال:

﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبأ من أودية اليمن فردموا ردماً بين جبلين وحبسوا الماء وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض وكانوا يسقون من الباب الأعلى ، ثم من الثاني ، ثم من الثالث فأخصبوا وكثرت أموالهم فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذاً ففتقت ذلك الردم حتى انتقض ، فدخل الماء جنتهم فغرقها ودفن السيل بيوتهم ،

فهذا هو سيل العرم ، وهو جمع عـرمة وهي السكـر التي تحبس الماء ، وكـذا قال قتادة وغيره .

وقـال السـدي : العـرم اسم للسـد والمعنى أرسلنـا عليهم سيـل السـد العرم ، وقال عـطاء : العرم اسم الـوادي ، وقال الـزجاج : العـرم اسم الجرذ الـذي نقب السد عليهم ، وهـو الذي يقـال له:الخلد فنسب السيـل اليه لكـونه سبب جريانه .قال ابن الاعرابي:العرم من اسماء الفار ، وقال مجاهد وابن نجيح العرم: ماء أحمرأرسله الله في السد فشقه وهدمـه ،وقيل: إن العرم اسم المطر الشـديد ، وقيـل : اسم للسيل الشـديد والعـرامة في الأصـل الشدة والشـراسة والصعوبة ، ويقـال : عرم فـلان اذا تشدد وتصعب ، وروي عن ابن الاعـرابي انه قال : العرم السيل الذي لا يطاق . وقـال المبرد : العـرم كل شيء حـاجز بين شيئين وعن ابن عباس قال : العرم الشديـد ، وعنه قـال : وادٍ كان بـاليمن كان يسيل الى مكة .

﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ﴾ أي أهلكنـا جنتيهم اللتين كانتـا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة ، والأنواع الحسنة ، وأعطيناهم بدلهما جنتين لا خيـر فيهما ، ولا فائـدة لهم فيما هـو نابت فيهمـا ،وتسميتهما جنتين تهكم بهم على طريق المشاكلة ، ولهذا قال :

﴿ ذواتي ﴾ تثنيـة ذوات مفرد على الأصـل لأن أصله ذويه قـالوا : وعين الكلمـة والياء لامهـا لأنه مؤنث ذو ، وذو أصله ذوي فتحـركت الياء وانفتـح ما قبلها فقلبت الياء فصار ذوات ثم حذفت الواو تخفيفاً وفي تثنيته وجهان تارة ينـظر للفظه الآن ، فيقـال : ذاتان ، وتـارة ينظر لـه قبل حـذف الواو فيقـال : ذواتان وقـال السمين في تثنية ذات لغتان:أحدهما الرد الى الأصل فـإن اصله ذوية فالعين واو واللام ياء لأنها مؤنثة ذو ، والثانية تثنيته على اللفظ فيقال ذاتان .

﴿ أكـل خمط ﴾ قرىء: بتنـوين أكـل وعـدم إضافته إلى خمط وقـرىء:

بالاضافة والأولى أولى ، قال الخليل : الخمط ضرب من الأراك ولـه حمل يؤكل، وبه قال ابن عباس وكذا قال كثير من المفسرين وقال أبو عبيدة : الخمط كل شجرة مرة ذات شوك ، وقيل هو ثمر شجر يقـال له : فسـوة الضبع على صورة الخشخاش يتفرك ولا ينتفع به ، وقال الزجاج : كل نبت فيـه مـرارة لا يمكن أكله، وقال المبـرد: كل شيء يغير الى ما لا يشتهى يقال له : خمط ،

ومنه اللبن إذا تغير والخمط:اسم للمر والحامض من كل شيء والخمط:نعت لأكل أو بدل منه ، لأن الأكل هو الخمط بعينه ، وقال الأخفش :الإضافة أحسن في كلام العرب مثل ثوب خز ودار آجر والأولى تفسير الخمط بما ذكره الخليل ، ومن معه . قال الجوهـري : الخمط ضـرب من الأراك لـه حمل يؤكل .

﴿ وأثل ﴾ هو الشجر المعروف الشبيـه بالطرفاء كـذا قال الفـراء وغيره ، قال : إلا انه أعظم من الطرفاء طولاً وورقـه كورق الـطرفاء ، ومنـه اتخذ منبـر رسـول اللهﷺ ، الـواحـدة أثلة ، والجمـع أثـلاث، وقـال الحسن : الأثـل الخشب ، وقال أبوعبيدة: هو شجر النظار والأول أولى ولا ثمر للأثل .

﴿ وشيء من سدر قليل ﴾ السدر شجر معروف ، قال الفـراء هو السمر وقال الأزهري السدر من الشجر سدران:بري لا ينتفع به ولا يصلح للغسول وله ثمر عفص لا يؤكل ، وهو الذي يسمى الضال ، والثاني سـدر ينبت على الماء وثمرة النبق وورقه غسول يشبه شجـر العناب ، قيـل ووُصف السدر بـالقلة لأن منه نوعاً يطيب أكله وهو النوع الثـاني الذي ذكـره الأزهري ، ولـذا يغرس في البساتين ، قال قتادة بينما شجـرهم من خير شجـر إذ صيره الله من شـرّ الشجر بـأعمالهم فـأهلك أشجـارهم المثمـرة وأنبت بـدلهـا الأراك والـطرفـاء والسـدر ويحتمل أن يرجع قوله (قليل) الى جميـع ما ذكـر من الخمط والأثل والسـدر والاشارة بقوله ﴿ ذلك ﴾ الى ما تقدم من التبديل أو الى المصدر .

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿ جزيناهم بما كفروا ﴾ أي ذلك التبديل أو ذلك الجزاء بسبب كفرهم للنعمة بإعراضهم عن شكرها .

﴿ وهل نجازي إلا الكفور ﴾ أي وما نجازي هذا الجزاء بسلب النعمة ونزول النقمة الا الشديد الكفر المتبالغ ، قرأ الجمهور: بضم التحتية وفتح الزاي على البناء للمفعول وقرىء: بالنون وكسر الزاي مبنياً للفاعل ، وهو الله سبحانه ، والكفور على الأولى مرفوع وعلى الثانية منصوب وظاهر الآية أنه لا يجازي الا الكفور ، مع كون أهل المعاصي يجازون ، وقد قال قوم إن معنى الآية أنها لا يجازي هذا الجزاء وهو الاصطلام والإهلاك الا من كفر وقال مجاهد:ان المؤمن تكفَّر عنه سيآته والكافر يجازى بكل عمل عمله ، وقال طاووس: هو المناقشة في الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش. وقال الحسن: إن المعنى أنه يجازي الكافر مثلاً بمثل ورجح هذا الجواب النحاس .

﴿ وجعلنا بينهم ﴾ أي وكان من قصتهم أنا جعلنا بين مساكنهم قبل ارسال السيل عليهم ﴿ وبين القرى التي باركنا فيها ﴾ بالماء والشجر وهي قرى الشام يعني الأرض المقدسة قاله ابن عباس .

﴿ قرى ظاهرة ﴾ أي متواصلة عامرة مخصبة وكان مُتَّجرهم من أرضهم التي هي مأرب الى الشام وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا ، وكانوا لا يحتاجون الى زاد يحملونه من أرضهم الى الشام فهذا من جملة الحكاية لما أنعم الله به عليهم، قال الحسن: إن هذه القرى هي بين اليمن

والشامقيل :إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ الى الشام وقيل هي بين المدينة والشام قال المبرد القرى الظاهرة هي المعروفة وإنما قيل لها ظاهرة لظهورها إذا خرجت من هذه ظهرت لك الأخرى فكانت قرى ظاهرة ، أي معروفة يقال: هذا امر ظاهر أي معروف وقيل ظاهرة لأعين الناظرين أو ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم .

﴿ وقدرنا فيها السير ﴾ أي جعلنا السير من القرية الى القرية ومن المنزل الى المنزل مقدراً معيناً واحداً ، وذلك نصف يوم في الغدو والرواح ، فإذا صاروا نصف يوم وصلوا الى قرية ذات مياه وأشجار فكان ما بين اليمن والشام كذلك كما قال المفسرون ، قال الفراء: أي جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في أخرى الى أن يصل الى الشام وانما يبالغ الانسان في السير لعدم الزاد والماء ، ولخوف الطريق فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل نفسه المشقة ، بل ينزل أينما أراد ، والحاصل أن الله سبحانه عدد عليهم النعم ثم ذكر ما نزل بهم من النقم ، ثم عاد لتعديد بقية ما أنعم به عليهم مما هو خارج عن بلدهم من اتصال القرى بينهم وبين ما يريدون السفر إليه ، ثم ذكر بعد ذلك تبديله بالمفاوز والبراري كما سيأتي .

﴿ سيروا فيها ﴾ أي قلنا لهم سيروا في تلك القرى المتصلة فهو أمر تمكين أي ومكناهم من السير فيها متى شاءوا وفي لفظ:(في) إشعار بشدة القرب حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى قال ابن عباس: أي اذا ظعنوا من منازلهم الى ارض الشام المقدسة .

﴿ ليالي وأياماً آمنين ﴾ مما تخافونه ، وقال قتادة:كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظماء كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان لا يحرك بعضهم بعضاً ولو لقي الرجل قاتل أبيه لم يحركه ،قيل: وأتى بلفظ النكرة تنبيهاً على قصر أسفارهم أي كانوا لا يحتاجون الى طول السفر لوجود ما يحتاجون اليه . ثم ذكر سبحانه أنهم لم يشكروا النعمة بل طلبوا التعب والكد .

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾

﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا﴾ وكان هذا القول منهم بطراً وطغياناً لما سئموا النعمة ولم يصبروا على العاقبة فتمنوا طول الأسفار والتباعد بين الديار، وسألوا الله تعالى أن يجعل بينهم وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء والشجر والأمن من المفاوز والقفار، والبراري المتباعدة الأقطار، فأجابهم الله إلى ذلك وخرب تلك القرى المتواصلة، وذهب بما فيها من الخير والماء والشجر.

فكانت دعوتهم هذه كدعوة بني اسرائيل حيث قالوا: ﴿ ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها ﴾ الآية مكان المن والسلوى وكقول النضر ابن الحرث: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ الآية قرأ الجمهور: ربنا بالنصب على أنه منادى مضاف وقرأوا أيضاً باعد وقرىء: بعد بتشديد العين ، وقرأ ابن السميفع بضم العين فعلاً ماضياً فيكون معنى هذه القراءة الشكوى من بعد الأسفار ،وقرىء: ربنا بالرفع وباعد بفتح العين على أنه فعل ماض على الابتداء والخبر ، والمعنى: لقد باعد ربنا بين أسفارنا ، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس ، واختارها أبو حاتم ،وقال: لأنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب الذي كان بينهم وبين الشام بالقرى المتواصلة بطراً وأشراً ، وكفراً للنعمة ، وقرىء: ربنا بالرفع وبعد بفتح العين مشدّدة والمعنى على هذه القراءة الشكوى بأن ربهم بعّد بين أسفارهم مع كونها قريبة متصلة بالقرى والشجر والماء .

فيكون هذا من جملة بطرهم وقرأ أخو الحسن البصري كقراءة ابن السميفع السابقة مع رفع بين على أنه الفاعل كما قيل في قوله: لقد تقطع بينكم

وروى الفراء والزجاج قراءة مثل هذه القراءة لكن مع نصب بين على أنه ظرف ، والتقدير بعد سيرنا بين أسفارنا ، قال النحاس : وهذه القراءات اذا اختلفت معانيها لم يجز ان يقال إحداهما أجود من الأخرى كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد اذا اختلفت معانيها ، ولكن أخبر عنهم بأنهم : دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم فلما فعل ذلك شكوا وتضرروا ولهذا قال سبحانه :

﴿ وظلموا أنفسهم ﴾ حيث كفروا بالله وطغوا وبطروا نعمته وتعرضوا لنقمته ﴿ فجعلناهم أحاديث ﴾ يتحدث الناس بأخبارهم وعبرة لمن بعدهم ، والأحاديث جمع حديث بمعنى الخبر كما في القاموس . والمعنى جعلناهم ذوي أحاديث يتحدث بها من بعدهم تعجباً من فعلهم ، وأمرهم وشأنهم واعتباراً بحالهم وعاقبتهم .

﴿ ومزقناهم كل ممزق ﴾ أي فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق بحيث لا يتوقع بعده عود اتصال ، وهذه الجملة مبينة لجعلهم أحاديث وذلك ان الله سبحانه لما أغرق مكانهم وأذهب جنتهم تفرقوا في البلاد فصارت العرب تضرب بهم الأمثال فتقول: تفرقوا أيدي سبأ ، وذهبوا أيادي سبأ ، والأيدي ههنا بمعنى الأولاد لأنهم يعتضد بهم ، وفي المفصل الأيدي الأنفس كناية أو مجاز ، قال في الكشف:وهو أحسن.قال الشعبي :فلحقت الأنصار يعني الأوس والخزرج بيثرب ، وغسان بالشام ، والأزد بعمان ، وخراعة بتهامة ، وكان الذي قدم منهم المدينة عمر بن عامر وهو جد الأنصار ، ولحق آل خزيمة بالعراق .

﴿ إن في ذلك ﴾ أي فيما ذكر من قصتهم وما فعل الله بهم ﴿ لآيات ﴾ بينات وعبراً ظاهرات ودلالات واضحات ﴿ لكل صبار شكور ﴾ أي لكل من هو كثير الصبر عن المعاصي ، والشكر لله على نعمه وخص الصبار والشكور لأنهما المنتفعان بالمواعظ والآيات .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه ﴾ قرىء بتخفيف صدق ونصب ظنه.قال الزجاج: وهو على المصدر أي صدق وظن ظنه أو صدق في ظنه أو على الظرفية ، والمعنى أنه ظن بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه فوجدهم كذلك ، وقرىء: صدّق بالتشديد وظنه بالنصب على أنه مفعول به ، وقال أبو علي الفارسي :أي صدق الظن الذي ظنه قال مجاهد:ظن ظناً فصدق ظنه فكان كما ظن وقرىء صدق بالتخفيف ، وإبليس بالنصب وظنه بالرفع وقد أجاز هذه القراءة الفراء ، وذكرها الزجاج وجعل الظن فاعل صدق وإبليس مفعوله ، والمعنى أن إبليس سوّل له ظنه شيئاً فيهم فصدق ظنه فكأنه قال:ولقد صدق عليهم ظن إبليس ، قيل:وهذه الآية خاصة بأهل سبأ والمعنى أنهم غيروا وبدلوا بعد أن كانوا قد آمنوا بما جاءت به رسلهم .

وقيل هي عامة أي صدق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله قاله مجاهد والحسن. قال الكلبي : إنه ظن انه إن أغواهم أجابوه ، وإن أضلهم أطاعوه فصدق ظنه فاتبعوه. قال الحسن: ما ضربهم بسوط ولا بعصى وإنما ظن ظناً فكان كمن ظن بوسوسته ، وعن ابن عباس في الآية قال : قال إبليس : إن آدم خلق من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون خلقاً ضعيفاً وإني خلقت من

نار ، والنار تحرق كل شيء لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ، قال : فصدق ظنه عليهم .

وانتصاب ﴿ إلا فريقاً من المؤمنين ﴾ على الاستثناء ، وفيه وجهان أحدهما أن يراد به بعض المؤمنين لأن كثيراً من المؤمنين يذنب وينقاد لابليس في بعض المعاصي ولم يسلم منه إلا فريق وهم الذين قال الله فيهم :﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾،وقيل : المراد به المؤمنون كلهم لأنهم لم يتبعوه في أصل الدين على أن تكون من بيانية .

﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ أي من تسلط عليهم أي لم يكرههم على الكفر وإنما كان منه الدعاء والوسوسة والتزيين ، وقيل : الضمير في عليهم يعود على من صدق عليهم ظن إبليس وعلى الفريق المؤمنين ، وقيل السلطان القوة ، وقيل الحجة ، والاستثناء في قوله :

﴿ إلا لنعلم ﴾ منقطع والمعنى لا سلطان له عليهم ، ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم ، وقال الفراء : المعنى الا لنعلم ذلك عندكم ، وقيل : إلا لتعلموا أنتم ، وقيل: ليعلم أولياؤنا والملائكة وقرىء، ليعلم على البناء للمفعول والأولى حمل العلم هنا على التمييز والاظهار كما ذكرنا ، وقيل: إلا لنعلم موجوداً ما علمناه معدوماً ، والتغير على المعلوم لا على العلم ، وقيل: هو متصل مفرغ من أعم الأحوال أي ما كان له تسلط عليهم بحال من الأحوال ولا لعلة من العلل إلا ليتميز .

﴿ من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك ﴾ لأنه سبحانه قد علم ذلك علماً أزلياً ﴿ وربك على كل شيء حفيظ ﴾ أي محافظ عليه فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه حفظه ولا العاجز ، قال مقاتل : علم كل شيء من الايمان والشك .

﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾قرىء: قلِ بكسر اللام على أصل التخلص من التقاء الساكنين وبضمها اتباعاً لضمة العين ، والدال بينهما

حاجز غير حصين لسكونها ، وهما قراءتان سبعيتان وهذا أمر للنبيﷺ بأن يقول لكفار قريش أو للكفار على الاطلاق هذا القول ، ومفعولا زعمتم محذوفان. أي : زعمتوهم آلهة لدلالة السياق عليهما ، قال مقاتل يقول : ادعوهم ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سِني الجوع ، ثم أجاب سبحانه عنهم فقال : ﴿ لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ أي ليس لهم قدرة على خير ولا شر ، ولا على جلب نفع ولا دفع ضر في أمر من الأمور ، وذكر السموات والأرض لقصد التعميم لكونهما ظرف الموجودات الخارجية .

﴿ وما لهم فيهما من شرك ﴾ أي ليس للآلهة في السموات والأرض مشاركة لا بالخلق ولا بالملك ولا بالتصرف ﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ أي وما لله سبحانه من تلك الآلهة من معين يعينه على شيء من أمور السموات والأرض ومن فيهما ، بل هو المتفرد بالإيجاد فهو الذي يعبد ، وعبادة غيره محال .

﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أن يشفع من الملائكة والنبيين ونحوهم من أهل العلم والعمل ومعلوم أن هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة لا للكافرين ، ويجوز أن يكون المعنى : لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المتأهلين لها في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أي لأجله وفي شأنه من المستحقين للشفاعة لهم لا من عداهم من غير المستحقين لها .

قيل : والمراد بقوله لا تنفع الشفاعة أنها لا توجد أصلاً إلا لمن أذن له ، وإنما علق النفي بنفعها لا بوقوعها تصريحاً بنفي ما هو غرضهم من وقوعها ، قرأ الجمهور: أذن بفتح الهمزة أي اذن له الله سبحانه لأن اسمه سبحانه مذكور قبل هذا ، وقرىء على البناء للمفعول ، والآذن هو الله سبحانه ، ومثل هذه الآية قوله تعالى﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾وقوله تعالى﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾، وهذا تكذيب لقولهم﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾، ثم أخبر الله سبحانه عن خوف هؤلاء الشفعاء والمشفوع لهم فقال :

﴿ حتى اذا فزّع عن قلوبهم ﴾ قرىء مبنياً للمفعول ، والفاعل هو الله سبحانه ، وقرىء مبنياً للفاعل وفاعله ضمير يرجع إلى الله سبحانه ، وكلتا القراءتين بتشديد ، الزاي ، وفعل معناه السلب ، فالتفريغ إزالة الفزع وقرىء مخففاً وقرىء : فرغ بالراء المهملة والغين المعجمة من الفراغ ، والمعنى فزغ الله قلوبكم أي كشف عنها الخوف ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه افر نقع من الأفر نقاع وهو التفرق قال قطرب معنى فزع أخرج ما فيها من الفزع وهو الخوف وقال مجاهد كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة وقال ابن عباس فزع جلى وهو التفرق والمعنى أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام كائناً من كان إلا أن يأذن الله سبحانه للملائكة والأنبياء ونحوهم في الشفاعة لمن يستحقها وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى : وهم من خشيته مشفقون ، فإذا أذن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل والخوف الشديد من أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصيراً ويحدث شيء من أقدار الله فإذا سرى عنهم .

﴿ قالوا ﴾ للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن ﴿ ماذا قال ربكم ﴾ أي ماذا أمر الله به ﴿ قالوا ﴾ أي ليقولون لهم قال القول ﴿ الحق ﴾ وهو قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم ﴿ وهو العلي الكبير ﴾ فله أن يحكم في عباده بما يشاء ، ويفعل ما يريد ، ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه ، وأن يشفع إلا لمن ارتضى ، وقيل : هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يأمر به الرب والمعنى لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم فزعون اليوم مطيعون لله دون الجمادات والشياطين ، وقيل إن الذين يقولون ماذا قال ربكم هم المشفوع لهم والذين أجابوهم هم الشفعاء من الملائكة والأنبياء وقال الحسن وابن زيد ومجاهد معنى الآية حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين في الآخرة قالت لهم الملائكة : ماذا قال ربكم في الدنيا ؟ قالوا الحق فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار ؛ وقيل إنما يفزعون حذراً من قيام الساعة ، وقيل : كشف الفزع عن قلوبهم عند نزول الموت ، أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه

عن ابن عباس قال : لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله ، فقالوا الحق ، وقد علموا أن الله لا يقول إلا حقاً . قال ابن عباس : وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا ، فلما سمعوا خروا سجداً ، فلما رفعوا رؤوسهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم أيضاً عنه قال: ينزل الأمر الى السماء الدنيا له وقعه كوقعة السلسلة على الصخرة فيفزع له جميع أهل السموات ، فيقولون : ماذا قال ربكم ؟ ثم يرجعون الى أنفسهم ، فيقولون : الحق وهو العلي الكبير .

وأخرج البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجة وغيرهم من حديث أبي هريرة أن النبيﷺ قال: [إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحق ، وهو العلي الكبير ، الحديث]، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وعن ابن مسعود قال: [إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كجرس السلسلة على الصفاة فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فاذا جاء فزع عن قلوبهم فيقولون : يا جبريل ماذا قال ربك ؟ فيقول : الحق] أخرجه أبو داود ، والصلصلة صوت الأجراس الصلبة بعضها على بعض وفي معناه أحاديث ، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يبكت المشركين ويوبخهم فقال :

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

﴿ قل : من يرزقكم من السموات والأرض ﴾ أي من ينعم عليكم بهذه الأرزاق التي تتمتعون بها فان آلهتكم لا يملكون مثقال ذرة ، والرزق من السماء هو المطر وما ينتفع به من الشمس والقمر والنجوم ، والرزق من الأرض هو النبات والمعادن ونحو ذلك ، ولما كان الكفار لا يقدرون على جواب هذا الاستفهام ، ولا تقبل عقولهم نسبة هذا الرزق الى آلهتهم وربما يتوقفون في نسبته الى الله مخافة أن تقوم عليهم الحجة أمر الله رسوله بأن يجيب عن ذلك فقال :

﴿ قل الله ﴾ أي هو الذي يرزقكم من السموات والأرض ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأنهم على ضلالة لكن على وجه الانصاف في الحجة بعد ما سبق تقرير من هو على الهدى ومن هو على الضلالة فقال :

﴿ وإنا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ والمعنى أن أحد الفريقين من الذين يوحدون الله الخالق الرازق ويخصونه بالعبادة والذين يعبدون الجمادات التي لا تقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضرر لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلالة، ومعلوم لكل عاقل أن من عبد الذي يخلق ويرزق وينفع ويضر هو الذي على الهدى ، ومن عبد الذي لا يقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر هو الذي على الضلالة ، فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى وهم المسلمون وفريق الضلالة وهم المشركون على وجه أبلغ من التصريح وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب

به: قد أنصفك صاحبك .

قال المبرد : ومعنى هذا الكلام معنى قول المتبصر في الحجة لصاحبه : أحدنا كاذب وقد عرف أنه الصادق المصيب ، وصاحبه الكاذب المخطىء انتهى . وخولف بين حرفي الجر الداخلين على الهدى والضلال لأن صاحب الهدى كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء ، والضال كأنه ينغمس في ظلام لا يرى أين يتوجه .

قال المبرد : ﴿أو﴾ عند البصريين على بابها وليست للشك لكنها على ما تستعمله العرب في مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى وقال أبو عبيدة والفراء: هي بمعنى الواو ، وتقديره وإنا على هدى وإياكم لفى ضلال مبين. قيل: أو إياكم معطوف على اسم إن وخبرها هو المذكور وحذف خبر الثاني للدلالة عليه أي إنا لعلى هدى أو في ضلال مبين ، أو أنكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ، ويجوز العكس ، وهو كون المذكور خبر الثاني ، وخبر الأول محذوفاً كما في قوله :﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾، ثم أردف سبحانه هذا الكلام المنصف بكلام أبلغ منه في الإنصاف وأدخل فيه وأبعد من الجدل والمشاغبة فقال :

﴿ قل : لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ أي : إنما أدعوكم إلى ما فيه خير لكم ونفع ، ولا ينالني من كفركم وترككم لإجابتي ضرر ، وهذا كقوله سبحه:﴿لكم دينكم ولي دين﴾، وفي إسناد الجرم إلى المسلمين ونسبة مطلق العمل إلى المخاطبين مع كون أعمال المسلمين من البر الخالص والطاعة المحضة وأعمال الكفار من المعصية البينة والإثم الواضح ، من الإنصاف ما لا يقادر قدره ، والمقصود المهادنة والمتاركة ، وقد قيل : نسخت هذه الآية وأمثالها بآية السيف ، ثم أمره سبحانه بأن يهددهم بعذاب الآخرة لكن على وجه لا تصريح فيه فقال :

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨)

﴿ قل : يجمع بيننا ربنا ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثم يفتح بيننا بالحق ﴾ أي يحكم ويقضي بيننا فيثيب المطيع ويعاقب العاصي ﴿ وهو الفتاح ﴾ أي الحاكم بالحق القاضي بالصواب ﴿ العليم ﴾ بما يتعلق بحكمه وقضائه من المصالح . قيل وهذه أيضاً منسوخة بآية السيف ، ثم أمره الله سبحانه أن يورد عليهم حجة أخرى ليظهر بها ما هم عليه من الخطأ فقال :

﴿ قل : أروني الذين ألحقتم به شركاء ﴾ أي ألحقتموهم بالله شركاء له ، وهذه الرؤية هي القلبية فيكون شركاء هو المفعول الثالث ، ويجوز أن تكون هي البصرية ويكون شركاء منتصباً على الحال ، وأريد بأمرهم بإراءته الأصنام مع كونها بمرأى منه ﷺ إظهار خطأهم وإطلاعهم على بطلان رأيهم ، أي أرونيها لأنظر أي صفة فيها اقتضت إلحاقها بالله تعالى في استحقاق العبادة ، وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزامهم الحجة ، ثم رد عليهم ما يدعونه من الشركاء وأبطل ذلك فقال :

﴿ كلا بل ﴾ أي ارتدعوا عن دعوى المشاركة بل المنفرد بالإلهية ﴿ هو الله العزيز ﴾ بالقهر والغلبة ﴿ الحكيم ﴾ بالحكمة الباهرة .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ في انتصاب كافة وجوه : فقيل : إنه منتصب على الحال من الكاف في أرسلناك قال الزجاج : أي وما أرسلناك إلا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ والكافة بمعنى الجامع ، والهاء فيه للمبالغة ،

كعلامة. قال أبو حيـان: إن اللغة لا تساعد عليه لأن كف ليس معناه جمع بل معناه منع ، يقال كف يكف أي منع يمنع والمعنى إلا مانعاً لهم من الكفر ، ومنه الكف لأنه يمنع من خروج ما فيه ، وقيل إنه منتصب على المصدرية ، والهاء للمبالغة كالعاقبة والعافية ، والمراد أنها صفة مصدر محذوف أي إلا رسالة كافة ، وقيل إنه حال من الناس ، والتقديـر: ﴿وما أرسلناك إلا للناس كـافة﴾ ، ورد بأنه لا يتقدم الحال من المجرور عليه كما هو مقرر في علم الإعراب ، ويجاب عنه بأنه قد جوز ذلك أبو علي الفارسي وابن كيسان وابن برهان وابن ملكون ، وممن رجح كونها حالاً من المجرور بعدها ابن عطية وقـال: قدمت لـلاهتمام والتقوى ورده الزمخشري وقال خطأ ، وقال المحلي: بل هو الصحيح ، وقيل المعنى إلا ذا كافة أي ذا منع فحذف المضاف، قيل: اللام في للناس بمعنى الى أي ما أرسلناك إلى الناس إلا جامعاً لهم بالإنذار والإبلاغ أو مانعاً لهم من الكفر والمعاصي.

عن قتادة قال: أرسل الله محمداً إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله أطوعهم له وعن جابر بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخاري ومسلم . وفيه اختصاصه بالرسالة العامة لكافة الخلق الإنس والجن وهذه درجة خص بها دون سائر الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام .

﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ حال أي مبشراً لهم بالجنة أو بالفضل لمن أقر ومنذراً لهم من النار أو بالعدل لمن أصر ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ما عند الله وما لهم من النفع في إرسال الرسل فيحملهم جهلهم على مخالفتك .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢﴾

﴿ويقولون متى﴾ يكون ﴿هذا الوعد﴾ الذي تعدوننا به وهو قيام الساعة اخبرونا به ﴿إن كنتم صادقين﴾ قالوا: هذا على طريقة الاستهزاء برسول الله ﷺ، ومن معه من المؤمنين فأمر الله رسوله ﷺ أن يجيب عنهم فقال:

﴿قل لكم ميعاد يوم﴾ أي ميقات يوم، وهو يوم البعث، وقيل وقت حضور الموت وقيل: أراد يوم بدر لأنه كان يوم عذابهم في الدنيا وعلى كل تقدير فهذه الإضافة للبيان، وميعاد مصدر بمعنى الوعد، أو اسم زمان قال أبو عبيدة: الوعد والوعيد والميعاد بمعنى.

﴿لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ أي هذا الميعاد المضروب لكم لا تتأخرون عنه بالاستمهال ولا تتقدمون عليه بالاستعجال، بل يكون لا محالة في الوقت الذي قد قدر الله وقوعه فيه، وهذا جواب تهديد جاء مطابقاً لما قصدوا بسؤالهم من التعنت والإنكار، ثم ذكر سبحانه طرفاً من قبائح الكفار ونوعاً من أنواع كفرهم فقال:

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يعني مشركي العرب ﴿ لن نؤمن بهذا القرآن ، ولا بالذي بين يديه ﴾ أي بما أنزل قبل القرآن من كتب الله تعالى كالتوراة والإنجيل أو القيامة أو الجنة والنار ، يعني أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله، وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ، ثم أخبر سبحانه عن حالهم في الآخرة فقال :

﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ أو لكل من يصلح له ، والمعنى محبوسون في موقف الحساب ، وجواب لو محذوف أي لرأيت أمراً عجيباً وحالاً فظيعاً ﴿ يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ أي فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا متعاضدين متناصرين متحابين ، ثم بين سبحانه تلك المراجعة فقال :

﴿ يقول الذين استضعفوا ﴾ وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم الرؤساء المتبوعون ﴿ لولا أنتم ﴾ صددتمونا عن الإيمان بالله والاتباع لرسوله ﴿ لكنا مؤمنين ﴾ بالله مصدقين لرسوله وكتابه .

﴿ وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا ﴾ مجيبين عليهم مستنكرين لما قالوه ﴿ أنحن صددناكم عن الهدى ؟ ﴾ أي أمنعناكم عن الإيمان ﴿ بعد إذ جاءكم ﴾ الهدى قالوا: هذا منكرين لما ادعوه عليهم من الصدّ لهم ، وجاحدين لما نسبوه إليهم من ذلك ، ثم بينوا لهم أنهم الصادون لأنفسهم الممتنعون من الهدى بعد إذ جاءهم فقالوا :

﴿ بل كنتم مجرمين ﴾ أي مصرين على الكفر كثيري الإجرام عظيمي الآثام .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا ﴾ رداً لما أجابوا به عليهم ، ودفعاً لما نسبوه إليهم من صدهم لأنفسهم ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ أي أبطلوا إضرابهم بإضرابهم كأنهم قالوا : بل من جهة مكركم بنا ليلاً ونهاراً ، وأصل المكر في كلام العرب الخديعة والحيلة ، يقال : مكر به إذا خدعه واحتال عليه. قيل: هو طول السلامة في الدنيا وطول الأمل فيها ، وقال الأخفش: هذا مكر الليل والنهار .

قال النحاس : والمعنى والله أعلم : بل مكركم في الليل والنهار ودعاؤكم لنا إلى الكفر هو الذي حملنا على هذا ، وقال سفيان الثوري : بل عملكم في الليل والنهار ويجوز أن يجعل الليل والنهار ماكرين على الإسناد المجازي كما تقرر في علم المعاني ، قال المبرد : كما تقول العرب: نهاره صائم وليله قائم .

وفي السمين : وإضافة المكر إلى الليل والنهار إما على الإسناد المجازي كقولهم : ليل ماكر فيكون مصدراً مضافاً لمرفوعه . وإما على الاتساع في الظرف فجعل كالمفعول به فيكون مضافاً لمنصوبه ، وهذان أحسن من قول من قال: إن الإضافة بمعنى في أي في الليل ؛ لأن ذلك لم يثبت في غير محل النزاع وقرىء: برفع مكر ونصب الليل ، والتقدير : بل مكر كائن في الليل والنهار ، وقرىء: مكر بفتح الكاف وتشديد الراء مضافاً بمعنى الكرور من كَرَّيكرُّ إذا جاء وذهب أي مكر الليل والنهار صدنا أو صدنا مكرهما ، وقرىء: مكر بفتح

الكاف وتشديد الراء لكنه ينصب على المصدرية أي بل يكون الإغواء مكراً دائماً لا يفترون عنه .

﴿ إذ تأمروننا ﴾ أي بل مكركم بنا وقت أمركم لنا ﴿ أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾ أي أشباهاً وأمثالاً ، قال المبرد يقال : ند فلان فلان أي مثله ، وهذا قول القادة للأتباع :إن ديننا الحق ، وإن محمداً كذاب ساحر ، وهذا تنبيه للكفار أن تصير طاعة بعضهم لبعض في الدنيا سبب عداوتهم في الآخرة .

﴿ وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ الضمير راجع إلى الفريقين أي أضمر الفريقان الندامة على ما فعلوا من الكفر وأخفوها عن غيرهم ، وأخفاها كل منهم عن الآخر مخافة الشماتة ، وقيل . المراد بأسـرّوا هنا أظهروا لأنه من الأضداد يكون تارة بمعنى الإخفاء وتارة بمعنى الإظهار ، وقيل: المعنى تبينت الندامة في أسرة وجوههم ، والجملة مستأنفة أو حال من الذين استضعفوا والذين استكبروا .

﴿ وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ﴾ الأغلال جمع غل يقال في رقبته غل من حديد أي جعلت الأغلال من الحديد في أعناق هؤلاء في النار والمراد بالذين كفروا هم المذكورون سابقاً ، والإظهار لمزيد الذم ، أو للكفار على العموم فيدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولياً .

﴿ هل ﴾ أي ما ﴿ يجزون إلا ﴾ جزاء ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ في الدنيا من الشرك والكفر بـالله والمعاصي ، أو إلا بمـا كانـوا يعملون على حـذف الخافض ، ولما قصّ سبحانه حال من تقدم من الكفار أتبعه بما فيه التسلية لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وبيان أن كفر الأمم السابقة بمن أرسل إليهم من الرسل هو كائن مستمر في الأعصر الأول فقال :

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿ وما أرسلنا في قرية ﴾ من القرى ﴿ من نذير ﴾ ينذرهم ويحذرهم عقاب الله ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ حال من قرية وإن كانت نكرة لوقوعها في سياق النفي ، والمعنى: قال متنعموها ورؤساؤها وأغنياؤها وجبابرتها وقادة الشر لرسلهم .

﴿ إنا بما ﴾ إي بالذي ﴿ أرسلتم به ﴾ من الإيمان والتوحيد ﴿ كافرون ﴾ .

عن أبي رزين قال: كان رجلان شريكين خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر فلما بعث الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل،فكتب إليه إنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم فترك تجارته ثم أتى صاحبه ، فقال : دلني عليه وكان يقرأ الكتب فأتى النبي ﷺ فقال: إلام تدعو؟ قال إلى كذا وكذا قال: أشهد أنك رسول الله . قال: وما علمك بذلك ؟ قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم فنزلت هذه الآية فأرسل إليه النبي ﷺ . أن الله قد أنزل تصديق ما قلت ، ثم ذكر سبحانه ما افتخروا به من الأموال والأولاد وما قاسوا حالهم في الدار الآخرة على حالهم في هذه الدار على تقدير صحة ما أنذرهم به الرسل ، فقال :

﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ » والمعنى أن الله فضلنا عليكم

بالأموال والأولاد في الدنيا وذلك يدل على أنه قد رضي ما نحن عليه من الدين ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ في الآخرة بعد إحسانه إلينا في الدنيا ورضاه عنا أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظراً إلى أحوالهم في الدنيا، وظنوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله ، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم ، فأبطل الله ظنهم وأمر نبيه ﷺ بأن يجيب عنهم رداً عليهم ، وحسماً لمادة طمعهم وتحقيقاً للحق الذي عليه يدور أمر التكوين ، وقال :

﴿ قل : إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ أن يبسطه له ﴿ ويقدر ﴾ أي يضيق على من يشاء أن يضيقه عليه ، فهو سبحانه قد يرزق الكافر والعاصي استدراجاً له ، وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير توفيراً لأجره ، وليس مجرد بسط الرزق لمن يبسط له يدل على أنه قد رضي عنه ورضي عمله ، ولا قبضه عمن قبضه عنه يدل على أنه لم يرضه ، ولا رضي عمله ، بل كل ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مثل هذا من الغلط البين أو المغالطة الواضحة .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك ومن جملة هذا الأكثر من قاس أمر الآخرة على الأولى .

﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ﴾ كلام مستأنف من جهته تعالى خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة في تحقيق الحق وتقرير ما سبق، والمعنى: ليسوا بالخصلة التي تقربكم عندنا قربى قال مجاهد : الزلفى : القربى ، والزلفة القربة ، قال الأخفش: زلفى اسم مصدر كأنه قال : بالتي تقربكم عندنا تقريباً ، قال الفراء : إن التي تكون للأموال والأولاد جميعاً وهو الصحيح ، وقيل : المعنى وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي الخ وذلك أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث ، وقال الزجاج : إن المعنى وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ، ثم حذف الخبر الأول لدلالة الثاني عليه ، ويجوز في غير

القرآن باللتين وباللاتي وباللواتي وبالذي للأولاد خاصة أي لا تزيدكم الأموال والأولاد عندنا درجة ورفعة ، ولا تقربكم تقريباً .

﴿ إلا من آمن ﴾ هو استثناء منقطع أي لكن من آمن ﴿ وعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ وقيل : إنه متصل على أن يجعل الخطاب عاما للكفرة والمؤمنين على أنه ابتداء كلام لا مقول لهم .

﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد في الفعلين باعتبار لفظها ﴿ لهم جزاء الضعف ﴾ أي جزاء الزيادة وهي المرادة بقوله: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ ،وهو من إضافة المصدر إلى المفعول أي جزاء التضعيف للحسنات ، وقيل: لهم جزاء الأضعاف لأن الضعف في معنى الجمع أو من إضافة الموصوف إلى صفته . أي لهم الجزاء المضاعف قال مجاهد : أي تضعيف الحسنة ، وعن محمد بن كعب قال: إذا كان الرجل غنياً تقياً آتاه الله أجره مرتين وتلا هذه الآية إلى قوله ﴿**فأولئك** لهم جزاء الضعف﴾، وقال تضعيف الحسنة .

﴿ بما عملوا ﴾ الباء للسببية ﴿ وهم في الغرفات ﴾ أي غرفات الجنة ، قرىء: بالجمع لقوله: ﴿لنبوئنهم من الجنة غرفاً﴾ وفي قراءة سبعية بالإفراد، بمعنى الجمع حملاً لأل على أنها جنسية لقوله : ﴿أولئك يجزون الغرفة﴾ .

﴿ آمنون ﴾ من كل هائل وشاغل وسائر المكاره ، ومن جميع ما يكرهون ، ثم لما ذكر سبحانه حال المؤمنين ذكر حال الكافرين فقال :

﴿ والذين يسعون في آياتنا ﴾ بالرد لها وإبطالها والطعن فيها حال كونهم ﴿ معاجزين ﴾ مسابقين لنا زاعمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم أو معاندين لنا بكفرهم .

﴿ أولئك في العذاب ﴾ أي عذاب جهنم ﴿ محضرون ﴾ تحضرهم الزبانية إليها لا يجدون عنها محيصاً ، ثم كرر سبحانه ما تقدم لقصد التأكيد للحجة والدفع لما قاله الكفرة فقال :

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿قل : إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ أي يوسعه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء ليس في ذلك دلالة على سعادة ولا شقاوة ، وفي القاري: هذا في شخص واحد باعتبار وقتين أو في المؤمن ، وما سبق في شخصين أو في الكافر فلا تكرار ونحوه في البيضاوي ، قال الشهاب : بل فيه تقرير لأن التوسيع والتقتير ليسا لكرامة ولا هوان فإنه لو كان كذلك لم يتصف بهما شخص واحد .

﴿وما أنفقتم من شيء﴾ على أنفسكم وعيالكم وقيل : ما تصدقتم ﴿فهو يخلفه﴾ عليكم أي يعطي خلفه إذا كان في غير إسراف. يقال: أخلف له وأخلف عليه إذا أعطاه عوضه وبدله ، وذلك البدل إما في الدنيا وإما في الآخرة أو فيهما معاً إما عاجلاً بالمال أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد ، وإما آجلاً بالثواب في الآخرة الذي كل خلف دونه ، وقال مجاهد : هذا في الآخرة .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»، أخرجه مسلم ، وقال ابن عباس في الآية: يعني في غير إسراف ولا تقتير .

وعن مجاهد والحسن مثله ، وعن جابر عن النبي ﷺ قال : « كلما أنفق العبد من نفقة فعلى الله خلفها ضامناً إلا نفقة في بنيان أو معصية » أخرجه الدارقطني والبيهقي . وأخرج نحوه ابن عدي في الكامل والبيهقي من وجه آخر عنه مرفوعاً بأطول منه .

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: قال الله عز وجل: «أنفق يا ابن آدم أنفق عليك»، وثبت في الصحيح من حديثه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً » .

وعن على ابن أبي طالب سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل يوم نحساً فادفعوا نحس«ذلك اليوم بالصدقة»، ثم قال:اقرأوا مواضع الخلف فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، إذا لم ينفقوا كيف يخلف». أخرجه ابن مردويه .

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن المعونة تنزل من السماء على قدر المؤنة».

﴿ وهو خير الرازقين ﴾ فإن رزق العباد لبعضهم البعض إنما هو بتيسير الله وتقديره وليسوا برازقين على الحقيقة ، بل على طريق المجاز كما يقال في الرجل :انه يرزق عياله وفي الأمير إنه يرزق جنده والرازق للأمير والمأمور والكبير والصغير هو الخالق لهم ، ومن أخرج من العباد إلى غيره شيئاً فهو مما رزقه الله وأجراه على يده ، قال بعضهم: الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي ، فكم من مشته لا يجد ، وكم من واجد لا يشتهي .

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم يحشرهم جميعاً ﴾ هو متصل بقوله:﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون﴾أي ولو تراهم أيضاً يوم يحشرهم الله جميعاً للحساب العابد والمعبود والمستكبر والمستضعف .

﴿ ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ أي يقول تقريعاً للمشركين وتوبيخاً لمن عبد غير الله عز وجل كما في قوله لعيسى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلّهين من دون الله؟﴾ وإنما خصص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين والأصنام لأنهم أشرف معبودات المشركين ، قال النحاس: والمعنى .أن الملائكة إذا كذبتهم كان في ذلك تبكيت للمشركين وتقريع للكافرين وارداً على المثل السائر إياك أعني فاسمعي يا جارة .

﴿ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾ مستأنفة أي تنزيهاً لك أنت الذي نتولاه ونطيعه ونعبده من دونهم ما اتخذناهم عابدين ، ولا توليناهم ، وليس لنا غيرك ولياً ، ثم صرحوا بما كان المشركون يعبدونه فقالوا: ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ أي الشياطين وهم إبليس وجنوده ويزعمون أنهم يرونهم وأنهم ملائكة وأنهم بنات الله. وقيل: كانوا يدخلون أجواف الأصنام ويخاطبونهم منها .

﴿ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ أي أكثر المشركين بالجن مؤمنون مصدقون لهم فيما يقولون لهم ، قيل: والأكثر في معنى الكل .

﴿ فاليوم لا يملك بعضكم ﴾ وهم المعبودون ﴿ لبعض ﴾ وهم العابدون ﴿ نفعاً ﴾ أي شفاعة ونجاة ﴿ ولا ضراً ﴾ أي عذاباً وهلاكاً وإنما قيل لهم هذا القول إظهاراً لعجزهم وقصورهم وتبكيتاً لعابديهم ، وقوله: ولا ضراً هو على حذف مضاف أي لا يملكون لهم دفع ضر والفاء ليست لترتيب ما بعدها من الحكم على جواب الملائكة فإنه محقق أجابوا بذلك أم لا ، بل لترتيب الإخبار به عليه .

﴿ ونقول للذين ظلموا ﴾ أنفسهم بعبادة غير الله ﴿ ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ في الدنيا ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من أنواع كفرهم فقال :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ القرآنية حال كونها ﴿ بينات ﴾ واضحات الدلالات ظاهرات المعاني على التوحيد ﴿ قالوا : ما هذا ﴾ يعنون التالي لها وهو النبي ﷺ ﴿ إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ أى أسلافكم من الأصنام التي كانوا يعبدونها.

﴿ وقالوا ﴾ ثانياً : ﴿ ما هذا ﴾ يعنون القرآن الكريم ﴿ إلا إفك مفترى ﴾ أى كذب في حد ذاته غير مطابق للواقع مختلق على الله من حيث نسبته إليه فمفترى تأسيس لا تأكيد .

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ ثالثاً : ﴿ للحق لما جاءهم ﴾ أى لأمر الدين الذى جاءهم به رسول الله ﷺ ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ وفي تكرير الفعل والتصريح بالفاعل إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه ، وهذا الإنكار منهم خاص بالتوحيد ، وأما إنكار القرآن والمعجزة فكان متفقاً عليه بين أهل الكتاب والمشركين ، وقيل : أريد بالأول وهو قولهم ﴿إلا إفك مفترى﴾ معناه وبالثاني وهو قولهم ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ نظمه المعجز . وقيل : إن طائفة منهم قالوا: إنه

إفك وطائفة قالوا إنه سحر، وقيل: إنهم جميعاً قالوا: تارة إنه إفك وتارة إنه سحر والأول أولى.

﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ﴾ أي ما أنزلنا على العرب كتباً سماويه[2] نة على صحة الإشراك يدرسون فيها ويقرأونها .

﴿ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ يدعوهم إلى الإشراك أو إلى الحق وينذرهم بالعذاب فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه ولا شبهة يتشبثون بها ، قال قتادة : ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال الفراء: أى من أين كذبوك؟ ولم يأتهم كتاب ولا نذير بهذا الذي فعلوه ، ثم خوفهم سبحانه وأخبر عن عاقبتهم وعاقبة من كان قبلهم ، فقال :

﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ أي من كفار القرون الخالية ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ أي ما بلغ أهل مكة من مشركي قريش وغيرهم من العرب عشر ما آتينا من قبلهم من القوة والنعمة وكثرة المال والأولاد وطول الأعمار فأهلكهم الله كعاد وثمود وأمثالهم ، ولم تنفعهم قوتهم شيئاً في دفع الهلاك عنهم حين كذّبوا رسلهم فهؤلاء أولى بأن يحل بهم العذاب لتكذيبهم رسولهم والمعشار لغة في العشر قال الجوهري :معشار الشيء عشره وفي البحر المعشار:مفعال من العشر ولم يبن على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المرباع .

ومعناهما العشر والربع وقيل : المعشار عشر العشر والأول أولى . وقيل : إن المعنى:ما بلغ من قبلهم معشار ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى .

وقيل : ما بلغ من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم ، وقيل : ما أعطى الله من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان ، والأول أولى ، وقيل : المعشار عشر العشير ، والعشير هو عشر العشر ، فيكون جزءاً من ألف جزء ، قال الماوردي: وهو الأظهر لأن المراد به المبالغة في التقليل . قلت : مراعاة المبالغة في التقليل لا يسوغ لأجلها الخروج عن المعنى العربي

وقال ابن عباس في الآية : يقول من القوة في الدنيا ، وعن ابن جريج نحوه .

﴿ فكذبوا رسلي ﴾ عطف على : ﴿كذب الذين من قبلهم﴾على طريقة التفسير كقوله:﴿كذبت قوم نوح فكذبوا عبدنا﴾الآية والأولى أن يكون من عطف الخاص على العام لأن التكذيب الأول لما حذف منه المتعلق للتكذيب أفاد العموم فمعناه: كذبوا الكتب المنزلة والرسل المرسلة والمعجزات الواضحة وتكذيب الرسل أخص منه وإن كان مستلزماً له فقد روعيت الدلالة اللفظية لا الدلالة الالتزامية ، وما بينهما حال أو اعتراض ، وقال البيضاوي : لا تكرير لأن الأول للتكثير ، والثاني للتكذيب ، ونحوه في الكشاف ، وبمثله قال الكرخي .

﴿ فكيف كان نكير ؟ ﴾ أي فكيف كان إنكاري لهم بالعذاب والعقوبة ؟ فليحذر هؤلاء من مثل ذلك ، قيل والتقدير فأهلكناهم فكيف نكيري ، والنكير اسم بمعنى الإنكار ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقيم عليهم حجة ينقطعون عندها فقال :

﴿ قل : إنما أعظكم بواحدة ﴾ أي أحذركم وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه وأوصيكم بخصلة واحدة وهي :

﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ﴾ فهذا تفسير للخصلة الواحدة أو بدل منها أي هي قيامكم وتشميركم في طلب الحق بالفكرة الصادقة ، متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً لأن الاجتماع يشوش الفكر ويعمي البصر ، ويمنع من الرؤية ويقل الإنصاف فيه ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، ولا يسمع إلا نصرة المذهب ، وليس المراد القيام على الرجلين والنهوض والانتصاب على القدمين ، بل المراد القيام بطلب الحق والاعتناء والاشتغال بالتدبر ، وإصداق الفكر فيه كما يقال : قام فلان بأمر كذا ، وقيل : المراد بواحدة هي لا إله إلا الله ، كذا قال مجاهد ، والسدي . وقيل : القرآن لأنه يجمع المواعظ كلها والأولى ما ذكرناه ، وقال الزجاج: المعنى لأن تقوموا ، وقال السدي : معنى مثنى وفرادى منفرداً برأيه ومشاوراً لغيره .

وقال القتيبي : مناظراً مع عشيرته ، ومتفكراً في نفسه ، وقيل : المثنى عمل النهار ، والفرادى عمل الليل ، قاله الماوردي . وما أبرد هذا القول ، واقل جداوه ونصبهما على الحال ، وقدم المثنى لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدة ، فإن انقدح الحق بين الاثنين فكر كل واحد منهما بعد ذلك فيزداد بصيرة قال الشاعر :

إذا اجتمعوا جاءوا بكل غريبة ... فيزداد بعض القوم من بعضهم علماً

﴿ ثم تتفكروا ﴾ في أمر النبي ﷺ وما جاء به من الكتاب فإنكم عند ذلك تعلمون أن ﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ وذلك لأنهم كانوا يقولون : إن محمداً مجنون فقال الله سبحانه : قل لهم : اعتبروا أمري بواحدة وهي أن تقوموا لله ، وفي ذاته مجتمعين ، فيقول الرجل لصاحبه : هلم فلنصادق هل رأينا بهذا الرجل من جنة ؟ أي جنون وجربنا عليه كذباً ، ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيتفكر ، وينظر فإن في ذلك ما يدل على أن محمداً ﷺ صادق وأنه رسول من عند الله ، وأنه ليس بكاذب ولا ساحر ولا مجنون .

قال محمد بن كعب في الآية : يقوم الرجل مع الرجل أو وحده فيفكر ما بصاحبه من جنة ، وقال قتادة : يقول : إنه ليس مجنون ، وقيل مستأنفة من جهة الله سبحانه مسوقة على طريقة النظر والتأمل بأن هذا الأمر عظيم والدعوى الكبيرة لا يعرض نفسه له إلا مجنون لا يبالي بما يقال فيه وما ينسب إليه من الكذب ، وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً ، وأوزنهم حلماً وأحدَّهم ذهناً ، وأرضاهم رأياً وأصدقهم قولاً ، وأزكاهم نفساً ، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ، ويمدحون به فوجب أن يصدقوه في دعواه ، لا سيما مع انضمام المعجزة الواضحة ، وإجماعهم على أنه لم يكن ممن يفتري الكذب ، ولا قد جربوا عليه كذباً مدة عمره ، وعمرهم . وقيل : ثم تتفكروا أي شيء به من آثار الجنون واختار أبو حاتم وابن الأنباري الوقف على قوله (ثم تتفكروا) وعلى هذا تكون جملة ما بصاحبكم من جنة مستأنفة كما قدمنا . وقيل ليس بوقف لأن المعنى ثم تتفكروا

هل جربتم عليه كذباً ؟ أو رأيتم منه جنة ؟ أو في أحواله من فساد .

﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ أي ما هو إلا نذير لكم بين يدي الساعة أي قدامها وهو عذاب الآخرة وهو كقوله ﷺ بعثت بين يدي الساعة ثم أمره سبحانه أن يخبرهم أنه لم يكن له غرض في الدنيا ولا رغبة فيها ، حتى تنقطع عندهم الشكوك ويرتفع الريب فقال .

﴿ قل ما سألتكم من أجر ﴾ أي من جعل ﴿ فهو لكم ﴾ يقول لم أسألكم على الإسلام جعلاً أي ما طلبت منكم من جعل تجعلونه لي إلى مقابل الرسالة فهو لكم إن سألتكموه ، والمراد نفي السؤال بالكلية كما يقول القائل ما أملكه في هذا فقد وهبته لك يريد أنه لا ملك له فيه أصلاً ، ومثل هذه الآية قوله قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ، وقوله ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ثم بين لهم أن أجره عند الله سبحانه فقال ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ لا على غيره ﴿ وهو على كل شيء شهيد ﴾ أي مطلع لا يغيب عنه منه شيء فيعلم أني لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه .

﴿ قل إن ربي يقذف ﴾ القذف في الأصل الرمي بالسهم والحصى والكلام .

قال الكلبي : يرمي على معنى يأتي به ، وقال مقاتل : يتكلم ﴿ بالحق ﴾ وهو القرآن والوحي أي يلقيه إلى أنبيائه ، وقال قتادة : بالحق أي بالوحي والمعنى أنه يبين الحجة ويظهرها للناس على ألسن رسله وقيل : يرمي الباطل بالحق فيدمغه

﴿ علام الغيوب ﴾ قرىء برفع علام وبنصبه قال الفراء : والرفع في مثل هذا أكثر كقوله : ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ ، وقرىء : الغيوب بالحركات الثلاث في الغين وهو جمع غيب ، والغيب هو الأمر الذي غاب وخفي جداً

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤)﴾

﴿ قل جاء الحق ﴾ أي الإسلام والتوحيد ، وقال قتادة القرآن وقال النحاس التقدير صاحب الحق أي الكتاب الذي فيه البراهين والحجج ،وأقول لا وجه لتقدير المضاف فإن القرآن قد جاء كما جاء صاحبه.

﴿ وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ أي ذهب الباطل ذهاباً لم يبق له إقبال ولا إدبار ولا إبداء ولا إعادة فجعل مثلاً في الهلاك بالمرة والإبداء فعل الشيء ابتداء والإعادة فعله على طريق الإعادة ، ولما كان الإنسان ما دام حياً لا يخلو عن ذلك كنى به عن حياته وبنفيه عن هلاكه ، ثم شاع ذلك في كل مذهب، ولم يبق له أثر ، وإن لم يكن ذا روح فهو كناية أيضاً أو مجاز متفرع على الكناية ، وقيل: يجوز أن تكون ما استفهامية أي: أيُّ شيء يبدئه وأي شيء يعيده ، وعن قتادة قال : الشيطان لا يبدىء ولا يعيد إذا هلك ، وعنه قال: ما يخلق إبليس شيئاً ابتداء ولا يبعثه وبه قال مقاتل والكلبي . وقيل: الباطل الأصنام والأول أولى .

﴿ قل إن ضللت ﴾ عن الطريق الحقة الواضحة وقرىء بفتح اللام وهذه لغة نجد ، وهي الفصيحة وبكسرها وهي لغة أهل العالية ﴿ فإنما أضل ﴾ أي إثم ضلالتي يكون ﴿ على نفسي ﴾ وقال عمر بن سعد: أى إنما أوخذ بجنايتي وذلك أن الكفار قالوا له: تركت دين آبائك فضللت ، فأمره الله أن يقول لهم

هذا القول.

﴿ وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي ﴾ من الحكمة والموعظة والبيان بالقرآن و﴿ ما ﴾ مصدرية أو موصولة والتقابل هنا من جهة المعنى دون اللفظ ﴿ إنه سميع قريب ﴾ مني ومنكم يعلم الهدى والضلالة وإن بولغ في إخفائها ، وهذا حكم عام لكل مكلف وإنما أمر رسوله أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول اذا دخل تحته مع جلالة محله وسدادطريقته كان غيره أولى به ، ثم ذكر سبحانه حالاً من أحوال الكفار فقال :

﴿ ولو ترى إذ فزعوا ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له ، قيل : المراد فزعهم عند نزول الموت بهم أو غيره من بأس الله تعالى وقال الحسن : هو فزعهم في القبور من الصيحة ، وقال قتادة: هو فزعهم إذا خرجوا من قبورهم .

وقال السدي : هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة ، وقال ابن معقل:هو فزعهم إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة ، وقال سعيد بن جبير: هو الخسف الذي يخسف بهم في البيداء فيبقى رجل منهم فيخبر الناس بما لقي أصحابه فيفزعون ، وجواب لو محذوف أي لرأيت أمراً عظيماً وحالاً هائلة ﴿ فلا فوت ﴾ أي فلا يفوتني أحد منهم ولا ينجو منهم ناج ، قال مجاهد: فلا مهرب وقال ابن عباس: فلا نجاة .

﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ من ظهر الأرض أو من القبور وهي قريبة من مساكنهم في الدنيا كما قاله أبو حيان ، أو قريب من موقف الحساب ،وقيل: أي قبضت أرواحهم في أماكنها فلم يمكنهم الفرار من الموت ، وهذا على قول من يقول:هذا الفزع عند النزع ، وقيل: أخذوا من جهنم فألقوا فيها .وقيل: من حيث كانوا فهم من الله قريب لا يبعدون عنه ولا يفوتونه .

وقال ابن عباس من تحت أقدامهم، وعنه قال: نزلت في ثمانين ألفاً

يغزون في آخر الزمان الكعبة ليخربوها فلما يدخلون البيداء يخسف بهم ، فهو الأخذ من مكان قريب ، ذكره القرطبي .

وقد ثبت في الصحيح أنه يخسف بجيش في البيداء من حديث حفصة وعائشة ، وخارج الصحيح من حديث أم سلمة وصفية وأبي هريرة وابن مسعود ، وليس في شيء منها أن ذلك سبب نزول هذه الآية ، ولكنه أخرج ابن جرير من حديث حذيفة بن اليمان قصة الخسف هذه مرفوعة ، وقال في آخرها: فذلك قوله عز وجل في سورة سبأ: ﴿ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت﴾ الآية ، وقيل: يجوز أن يكون هذا الفزع هو الفرع الذي بمعنى الإجابة. يقال فزع الرجل: إذا أجاب الصارخ الذي يستغيث به كفزعهم إلى الحرب يوم بدر .

﴿ وقالوا ﴾ وقت النزع وهو وقت نزول العذاب بهم عند الموت كقوله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده ﴾ ، أو عند البعث فان الكفار كلهم يؤمنون حينئذ ﴿ آمنا به ﴾ أي بمحمد ﷺ قاله قتادة أو بالقرآن، وقال مجاهد : بالله عز وجل، وقال الحسن : بالبعث ثم نفى الله عنهم نفع الايمان بقوله :

﴿وأنى﴾ أي من أين ﴿ لهم التناوش ﴾ أي التناول ، وهو تقابل من النوش الذي هو التناول ، والمعنى : كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بعد يعني في الآخرة ، وقد تركوه في الدنيا وهو معنى قوله :

﴿ من مكان بعيد ﴾ وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بعد ما فات عنهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة تناوله من ذراع في الاستحالة، قال ابن السكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه أو بلحيته ناشه ينوشه نوشاً ، ومنه المناوشة في القتال ، وذلك إذا تدانى الفريقان . وقيل التناوش: الرجعة أي وأنى لهم الرجعة الى الدنيا ليؤمنوا ، وقال ابن عباس : قال يسألون الرد إلى الدنيا وليس بحين رد ، وقال التناوش: تناول الشيء وليس بحين ذلك وقال السدي : هو التوبة أي طلبوها ، وقد بعدت لأنها إنما تقبل

في الدنيا وقرى: التناوش بالواو وبالهمز واستبعد الثانية أبو عبيد والنحاس ولا وجه للاستبعاد فقد ثبت ذلك في لغة العرب وأشعارها، قال الفراء:الهمزة وتركها متقارب .

﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ أي والحال أن قد كفروا بما آمنوا به من قبل هذا الوقت وذلك حال كونهم في الدنيا . قيل : بالقرآن ، وقيل : بمحمد ﷺ من قبل أن يعاينوا العذاب وأهوال القيامة .

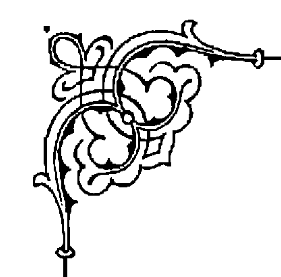
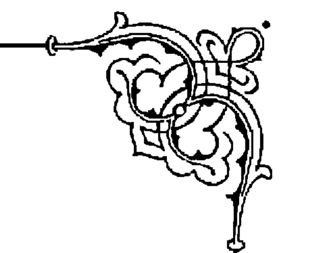
﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ أي يؤمنون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم في الرسول من المطاعن أو في العذاب من البت على نفيه، فيقولون:لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ﴿ من مكان بعيد ﴾ أي من جهة بعيدة ليس فيها مستند لظنهم الباطل ، وهو الشبه التي تمحلوها في أمر الآخرة كما حكاه من قبل . وقيل: المعنى يقولون في القرآن أقوالاً باطلة : إنه سحر وشعر وأساطير الأولين ، وقيل : يقولون في محمد ﷺ : إنه ساحر شاعر كاهن مجنون ، قرىء : يقذفون مبنياً للمفعول أي يرجمون بما يسوؤهم من جزاء أعمالهم من حيث لا يحتسبون ، وفيه تمثيل لحالهم بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم في لحوقه وهذا استعارة تمثيلية والجملة إما معطوفة على ﴿وقد كفروا به﴾ على أنها حكاية للحال الماضية ، واستحضار لصورتها ، أو مستأنفة لبيان تمثيل حالهم .

﴿ وحيل بينهم ﴾ فعل مبني للمفعول وإذا بني للفاعل يقال فيه:حال وهو فعل لا يتعدى ونائب الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل كأنه قيل : وحيل هو أي الحول ، وجعل بعضهم نائب الفاعل الظرف ، وهو بينهم ، واعترض بأنه ينبغي حينئذ أن يرفع .

﴿ وبين ما يشتهون ﴾ من النجاة من العذاب ومنعوا من ذلك ، وقيل : حيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم ، أو حيل بينهم وبين ما يشتهون من الرجوع إلى الدنيا .

﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ أي بأمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية الذين كانوا قبلهم في الدنيا سابقين عليهم في الزمان ، والأشياع جمع شيع ، وشيع : جمع شيعة ، وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره ، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض ، فهم شيع فالأشياع جمع الجمع .

﴿ إنهم كانوا في شك مريب ﴾ تعليل لما قبله أي في شك موقع في الريبة أو ذي ريبة من أمر الرسل والبعث والجنة والنار ، أو في التوحيد وما جاءتهم به الرسل من الدين ، يقال : أراب الرجل إذا صار ذا ريبة فهو مريب ، وقيل هو من الريب الذي هو الشك والتهمة ، فهو كما يقال:عجب عجيب وشعر شاعر وهذا رد على من زعم أن الله لا يعذب على الشك والله أعلم .

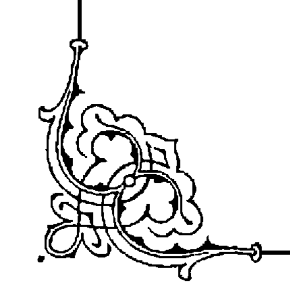
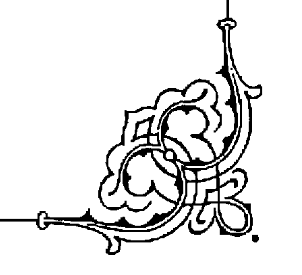



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاطر

﴿ وتسمى سورة الملائكة . وهي خمس أو ست وأربعون آية وهي مكية ﴾ .

قال القرطبي : في قول الجميع، وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس: أنزلت سورة فاطر بمكة، وهذه السورة ختام السور المفتتحة بالحمد التي فصلت فيها النعم الأربع التي هي أمهات النعم المجموعة في الفاتحة . وهي الإيجاد الأول، ثم الابقاء الاول، ثم الايجاد الثاني المشار اليه بسورة سبأ، ثم الإبقاء الثاني الذي هو أنهاها وأحكمها . وهو الختام المشار اليه بهذه السورة المفتتحة بالابتداء . قاله الخطيب .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ، وعلى غير مادة كذا قال المفسرون ، والظاهر أن هذا ليس من معنى الفطر لغة ، وإنما أخذوه من المعنى وسياق الكلام ، وأصل الفطر في اللغة الشق عن الشيء مطلقاً ، يقال : فطرته فانفطر ومنه فطر ناب البعير إذا طلع فهو بعير فاطر ، وتفطر الشيء تشقق ، وقيل : الشق طولاً فكأنه شق العدم بإخراجهما منه ، وبابه نصر كما في المختار ، والفطر أيضاً الابتداء والاختراع ، وهو المراد هنا .

عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها ، يقول ابتدأتها وعنه الفاطر البديع ، والمعنى : الحمد لله مبدع السموات والأرض ومخترعهما ، والمقصود من هذا إن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم فهو قادر على الإعادة وإنما حمد سبحانه وتعالى نفسه بذلك تعظيماً له وتعليماً لعباده كيفية الثناء عليه تعالى ، قرىء فاطر على صيغة اسم الفاعل ، وفطر على صيغة الفعل الماضي .

﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ إلى عبادة يجوز فيه الوجهان كما تقدم والرسل من الملائكة هم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل[1] فالمراد

(١) سبق الاشارة انه لم يرو في الأحاديث تسمية عزرائيل .

بالملائكة بعضهم إذ ليس كلهم رسلاً كما هو معلوم ، صرح الطيبي بأن جاعل هنا للاستمرار فباعتبار أنه يدل على المضي يصلح كونه صفة للمعرفة ، وباعتبار أنه يدل على الحال والاستقبال يصلح للعمل . وقرىء : رسْلاً بسكون السين ، هي لغة تميم ، قال يحيى بن سلام : يرسلهم الله إلى الأنبياء يبلغون إليهم رسالاته بالوحي والالهام والرؤيا الصادقة ، وقال السدي : إلى العباد بنعمة أو نقمة أو يوصلون إليهم آثار صنعته .

﴿ أولي ﴾ أي ذوي اسم جمع لذو ﴿ أجنحة ﴾ جمع جناح نعت لرسلاً وهو جيد لفظاً لتوافقهما تنكيراً ، أو للملائكة وهو جيد معنى إذ كل الملائكة لها أجنحة ، فهي صفة كاشفة ، والمسوغ للتخلف في التعريف جعل أل جنسية .

﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ صفات لأجنحة والقصد بها التكثير واختلافهم في عدد الأجنحة لا الحصر ، وإلا فبعضهم له ستمائة وغير ذلك ، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها ، وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أُخر كما عدل عمر عن عامر وعن تكرير الى غير تكرير ، وقيل للعدل والوصف والتعويل عليه ، وقد تقدم الكلام عليها في النساء. قال قتادة: بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة ، ولعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة وبعضهم له أربعة ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء . أقول: الأصل جناحان لأنهما بمنزلة اليدين ، ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل ، وذلك أقوى للطيران وأعون عليه[1] .

﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة والمعنى أنه يزيد في خلق الملائكة والأجنحة ما يشاء ، وهو قول أكثر المفسرين ، واختاره الفراء والزجاج قال ابن مسعود : رأى النبي ﷺ جبريل في صورته له ستمائة جناح ، وقيل إن هذه الزيادة في الخلق غير خاصة بالملائكة ، فقال الزهري وابن جريج : إنها حسن الصوت ، وقال قتادة :

(١) لا نملك إلا الوقوف عند وصف القرآن الكريم للملائكة دون تصور معين له، فكل تصور قد يخطىء، والاجتهاد في هذا نوع من الرجم بالغيب بدون دليل.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ ليتأسّى بمن قبله من الأنبياء ويتسلى عن تكذيب كفار العرب له ، ولهذا نكّر «رسلاً» أي : رسل ذوو عدد كثير ، وأولو آيات ونذر ، وأهل أعمار طوال ، وأصحاب صبر وعزم ، لأنه أسلى له ، وجواب الشرط محذوف أي فاصبر كما صبر وأدل عليه قوله : فقد كذبت الخ .

﴿ وإلى الله ﴾ لا إلى غيره ﴿ ترجع الأمور ﴾ فيجازي كُلًّا بما يستحقه قرىء : ترجع بفتح التاء على البناء للفاعل وبضمها على البناء للمفعول .

﴿ يا أيها الناس إن وعد الله ﴾ بالبعث والنشور والحساب والعقاب والجنة والنار ﴿ حق ﴾ كما أشير إليه بقوله : وإلى الله ترجع الأمور ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ بزخرفها ونعيمها ، والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإن توجه النهي صورة اليها كما في قولهم : بعين ما لا أرينك ههنا . قال سعيد بن جبير : غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يقول : يا ليتني قدمت لحياتي والمعنى لا تخدعنكم الدنيا ، ولا يذهلنكم التمتع بها ، والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة ، وطلب ما عند الله تعالى .

﴿ ولا يغـرنكم بالله ﴾ في حلمـه وإمهـالـه ﴿ الغـرور ﴾ بفتـح الغين أي المبالغ في الغرور وهو الشيطان قاله ابن السكيت وأبو حاتم .

ويجـوز أن يكون مصـدراً واستبعده الـزجـاج لأن غـررتـه متعـد ومصـدر المتعدي إنما هو على فعل نحو ضربته ضرباً ، إلا في أشياء يسيـرة معروفـة لا يقاس عليها ، ومعنى الآيـة : لا يغرنكم الشيـطان بالله فيقـول لكم إن الله يتجاوز عنكم ويغفـر لكم بفضله عليكم ، أو لسعة رحمتـه لكم ، وقـرىء بضم الغين وهـو الباطـل ، قال ابن السكيت :والغـروربالضم مـا يغر من متـاع الدنيـا وقال الزجاج:يجوز أن يكون الغرور بالضم جمع غار مثل قاعـد وقعود ، قيل : ويجوز أن يكـون مصـدر غـره كـاللزوم والنهـوك ، وفيـه مـا تقـدم عن الـزجـاج من الاستبعاد ، ثم حذر سبحانه عباده من الشيطان فقال :

﴿ إن الشيـطان لكم عدو ﴾ ظـاهر العـداوة فعل بـأبيكم ما فعـل ، وأنتم تعـاملونه معـاملة من لا علم له بـأحوالـه والتنكير للتعـظيم أي عدو عـظيم لأن عداوته عامة قديمة ، والعمـوم يفهم من قوله : لكم حيث لم يخص ببعض دون بعض ، والقدم من الجملة الاسمية الدالة على الاستمرار .

﴿ فاتخذوه عدواً ﴾ أي فعادوه بـطاعة الله ولا تـطيعوه في معـاصي الله ، وكـونوا على حـذر منـه في جميـع أحـوالكم وأفعـالكم وعقـائـدكم عن صميم قلوبكم وإذا فعلتم فعلاً فتفطنوا له فإنه ربما يدخل عليكم فيه الرياء ويزين لكم القبائح قال القشيري : ولا يتعزى على عداوته إلا بدوام الاستعانة بـالرب ، فـإنه لا يغفـل عن عداوتكم فـلا تغفلوا أنتم عن مولاكم لحظة . ذكره الخـطيب ، ثم بين الله سبحانه لعباده كيفية عداوة الشيطان لهم وحذرهم عن طاعته فقال :

﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ أي إنما يـدعو أشيـاعه وأتباعه والمطيعين له إلى معـاصي الله سبحانـه لأجل أن يكـونوا من أهـل النار

الملاحة في العينين ، والحسن في الأنف والحلاوة في الفم ، وقيل الوجه الحسن وقيل الخط الحسن ، وقيل الشعر الجعد ، وقيل العقل والتمييز ، وقيل العلوم والصنائع ، وقيل الصوت الحسن وجودة العقل ومتانته .

ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص ، بل يتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام في الأعضاء ، وقوة في البطش ، وحصافة في العقل ، وجزالة في الرأي ، وجراءة في القلب ، وسماحة في النفس ، ولباقة في التكلم وحسن تأن في مزاولة الأمور ، وذلاقة في اللسان ، ومحبة في قلوب المؤمنين وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف ، وبه قال الزمخشري ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ تعليل لما قبله من أنه يزيد في الخلق ما يشاء .

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ أي ليس لك من الأمر شيء فما يأتيهم الله به من مطر ورزق ونعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة إلى غير ذلك مما لا يحاط به لا يقدر أحد أن يمسكه .

قال ابن عباس : ما يفتح الله للناس من باب توبة فلا ممسك لها ، هم يتوبون إن شاءوا وإن أبوا ، وما أمسك من باب توبة فلا مرسل له من بعده ، وهم لا يتوبون ، واستعير الفتح للإطلاق والإرسال إيذاناً بأنها أنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون ، وأعزها منالاً ، وتنكير الرحمة للإشاعة والإبهام كأنه قيل : أي رحمة كانت سماوية أو أرضية والعموم مفهوم من اسم الشرط ومن رحمة بيان لذلك العام من أي صنف هو وهو مما اجتزي فيه بالنكرة المفردة عن الجمع المعرف المطابق في العموم لاسم الشرط وتقديره من الرحمات ، ومن في موضع الحال ، وقيل : المعنى إن الرسل بعثوا رحمة للناس ، فلا يقدر على إرسالهم غير الله ، وقيل : هو الدعاء وقيل التوبة وقيل التوفيق والهداية ولا وجه لهذا التخصيص بل المعنى كل ما يفتحه الله للناس من خزائن رحمته فيشمل كل نعمة ينعم الله بها على خلقه .

﴿ وما يمسك ﴾ من ذلك ﴿ فلا مرسل له من بعده ﴾ أي لا يقدر أحد

أن يرسله من بعد إمساكه والإمساك يتناول كل شيء يمنعه الله من نعمه فهو سبحانه المعطي المانع القابض الباسط لا معطي سواه ، ولا منعم غيره ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ فيما أمسك وفيما أرسل على مقتضى حكمته ، ثم أمر الله سبحانه عباده أن يتذكروا نعمه الفائضة عليهم التي لا تعد ولا تحصى ، كما قال: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فقال:

﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ﴾قيل:الخطاب لأهل مكة ونعمة الله عليهم إسكانهم الحرم ومنع الغارات عنهم ، وقيل:لجميع الناس ، ونعمة الله عليهم هي التي تقدمت من بسط الأرض كالمهاد ، ورفع السماء بلا عماد ، وإرسال الرسل لبيان السبيل دعوة إليه ، وزلفة لديه ، والزيادة في الخلق ، وفتح أبواب الرزق ، ومعنى هذا الذكر هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها وطلب المزيد منها ، ليس المراد ذكرها باللسان فقط ، ولكن المراد ذكرها به وبالقلب ، أي لا تنسوها ، والنعمة هنا بمعنى الإنعام، وعليه درج الجلال . وقيل : إنها بمعنى المنعم به ، ثم نبه على رأس النعم وهو اتحاد المنعم بقوله :

﴿ هل من خالق غير الله ﴾ من زائدة مؤكدة أي لا خالق إلا الله سبحانه وهو استفهام تقرير وإنكار وتوبيخ ﴿ يرزقكم من السماء والأرض ﴾ خبر المبتدأ أو جملة مستأنفة أو صفة أخرى لخالق وخبره محذوف ، والرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات وغير ذلك .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير النفي المستفاد من الاستفهام ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تصرفون وهو مأخوذ من الإفك بالفتح وهو الصرف يقال : ما أفكك عن كذا أي ما صرفك عنه .

وقيل : هو مأخوذ من الإفك بالكسر وهو الكذب ، لأنه مصروف عن الصدق ، قال الزجاج: أي من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله والبعث وأنتم مقرون بأن الله خلقكم ورزقكم ؟ ثم عزى الله نبيه ﷺ فقال :

واللام للتعليل ومحل الموصول في قوله ﴿ الذين كفروا ﴾ الرفع على الابتداء وقوله :

﴿ لهم عذاب شديد ﴾ خبره أو الرفع على البدل من فاعل يكونوا أو النصب على البدل من حزبه أو الجر على البدل من أصحاب ، والرفع على الابتداء أقوى الوجوه لأنه سبحانه بعد ذكر عداوة الشيطان ودعائه لحزبه ذكر حال الفريقين من المطيعين له والعاصين عليه ، فالفريق الأول قال: لهم عذاب شديد ، والفريق الثاني قال فيه :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ أي يغفر الله لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ويعطيهم أجراً كبيراً وهو الجنة ، قال ابن جريج :كل شيء في القرآن لهم مغفرة وأجر كبير ورزق كريم فهو الجنة .

﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ هذه الجملة مستأنفة لتقرير ما سبق من ذكر التفاوت بين عاقبتي الفريقين ومن في موضع رفع بالابتداء وخبره محذوف. قال الكسائي : والتقدير ذهبت نفسك عليهم حسرات. قال: ويدل عليه قوله فلا تذهب الخ . قال: وهذا كلام عربي ظريف لا يعرفه إلا القليل وقال الزجاج: تقديره كمن هداه ، وقدره غيرهما كمن لم يزين له ، وهذا أولى لموافقته لفظاً ومعنى ، وقد وهم صاحب الكشاف فحكى عن الزجاج ما قاله الكسائي . قال النحاس: والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية لما ذكره من الدلالة على المحذوف ، والمعنى أن الله عز وجل نهى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم كما قال : فلعلك باخع نفسك قبل التقدير : أفمن زين الخ تريد أن تهديه إنما ذلك إلى الله لا إليك والذي إليك هو التبليغ .

وقال قتادة والحسن : الشيطان زين لهم هي والله الضلالات وقيل نفسه الأمارة وهواه القبيح ، وهو من إضافة الصفة للموصوف أي عمله السيء قال

ابن عباس: نزلت في أبي جهل ومشركي مكة ، وقيل : نزلت في أصحاب الأهواء والبدع ومنهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم ، وليس أصحاب الكبائر من الذنوب منهم لأنهم يعتقدون تحريمها مع ارتكابهم إياها.

﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ مقررة لما قبلها ومحققة للحق ببيان أن الكل بمشيئته أي يضل من يشاء أن يضله ويهدي من يشاء أن يهديه وهذه الآية ترد على القدرية قولهم .

﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ أي لا تحزن عليهم. قرىء: بفتح الفوقية والهاء مسنداً إلى النفس فيكون من باب لا أرينك ههنا أي لا تتعاط أسباب ذلك ، وقرىء بضم التاء وكسر الهاء ونصب نفسك أي فلا تهلكها عليهم أي على عدم إيمانهم .

وقوله حسرات مفعول لأجله والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه على كثرة قبائحهم الموجبة للتأسف والتحسر عليهم ، ويجوز أن ينتصب حسرات على الحال كأنها صارت كلها حسرات لفرط التحسر ، كما روي عن سيبويه ، وقال المبرد : إنها تمييز ، وعليهم صلة لتذهب كما يقال : هلك عليه حباً ، ومات عليه حزناً والحسرة شدة الحزن وهمّ النفس على ما فات مّن الأمر وأشد التلهف على الشيء الفائت ، تقول : حسر على الشيء من باب طرب وحسره أيضاً فهو حسير .

﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ لا تخفى عليه من أفعالهم وأقوالهم خافية ؛ والجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنته من الوعيد الشديد ، ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه وعظيم قدرته ليتفكروا في ذلك وليعتبروا به فقال:

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

﴿والله الذي أرسل الرياح ﴾ قرأ الجمهور بالجمع وقرىء: الريح بالأفراد وهي سبعية عن ابن مسعود قال : يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض فينفخ فيه فلا يبقى خلق الله في السموات والأرض إلا من شاء الله إلا مات ثم يرسل الله من تحت العرش منياً كمني الرجال فتنبت أجسامهم ولحومهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى ، ثم قرأ هذه الآية :

﴿ فتثير سحاباً[1] ﴾ جاء بالمضارع بعد الماضي استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة لأن ذلك أدخل في اعتبار المعتبرين. والمعنى: أنها تزعجه وتحركه من حيث هو.

﴿ فسقناه ﴾ فيه التفات عن الغيبة ، وقال أبوعبيدة: سبيله فتسوقه لأنه قال: فتثيرسحاباً. قيل: النكتة في التعبير بالماضيين بعد المضارع الدلالة على التحقق

(١) هذه الآية قطعية في أن المطر من السحاب وأن الرياح هي التي تسوقه بأمره تعالى إلى إحياء الموات من الأرض والآية معجزة كونية لأن ما ثبت بها في عصر كان أهله يظنون المطر ينزل من سقف السماء من غرابيل إلى غير ذلك من خرافات وأساطير أدخلها وهب بن منبه وكعب الأحبار ومن إليهما فبيانها الواضح يرد خبث المغترين . المطيعي .

﴿ إلى بلد ﴾ هو يذكر ويؤنث والبلدة البلد ﴿ ميت ﴾ أي أرض ليس بها نبات ولا مرعى.قال المبرد : ميت وميت واحد ، وقال : هذا قول البصريين .

﴿ فأحيينا به الأرض ﴾ أي أحيينا بالمطر النازل منه الأرض بإنبات النبات فيها ، وإن لم يتقدم ذكر المطر فالسحاب يدل عليه ، أو أحيينا بالسحاب لأنه سبب المطر ﴿ بعد موتها ﴾ أي بعد يبسها استعار الاحياء للنبات والموت لليبس

﴿ كذلك النشور ﴾ أي كذلك يحيي الله العباد بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها والنشور والبعث من نشر الانسان نشوراً أي مثل إحياء موات الأرض في صحة المقدور به وسهولة التأتي إحياء الأموات إذ ليس بينهما إلا احتمال اختلاف المادة في المقيس عليه ، وذلك لا مدخل له فيها فكيف تنكرونه؟ ، وقد شاهدتم غير مرة ما هو مثله وشبيه به .

عن أبي رزين العقيلي قال : قلت : «يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ قال أما مررت بأرض مجدبة ثم مررت بها مخصبة تهتز خضراء ؟ قلت : بلى ، قال : كذلك يحيي الله الموتى ، وكذلك النشور». أخرجه أحمد والبيهقي والطيالسي وغيرهم .

﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ فليطلبها منه لا من غيره قال الفراء: معناه من كان يريد أن يعلم لمن العزة فإنها لله جميعاً ، وقال قتادة : من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله ، فجعل معنى لله العزة الدعاء الى طاعة من له العزة كما يقال: من أراد المال فالمال لفلان ، أي فليطلبه من عنده ، وقال الزجاج: تقديره من كان يريد بعبادة الله العزة فالعزة له سبحانه ، فإن الله عز وجل يعزه في الدنيا والآخرة .

وقيل . المراد به المشركون فانهم كانوا يتعززون بعبادة الأصنام كقوله: «واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً»، وقيل: المراد الذين كانوا

يتعززون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة ؟ والظاهر في معنى الآية: أن من كان يريد العزة ويطلبها فليطلبها من الله عز وجل فلله العزة جميعاً ليس لغيره منها شيء ، فتشمل الآية كل من طلب العزة ، ويكون المقصود بها التنبيه لذوي الأقدار والهمم من أين تنال العزة وتستحق ، ومن أي جهة تطلب فتكون الألف واللام للاستغراق ، وهو المفهوم من آيات هذه السورة .

﴿ إليه ﴾ تعالى لا الى غيره ﴿ يصعد الكلم الطيب ﴾ الصعود هو الحركة الى فوق وهو العروج أيضاً وموضع الثواب فوق ، وموضع العذاب أسفل ، ومعنى صعوده إليه قبوله له ، أو صعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف ، وخص الكلم الطيب بالذكر لبناء الثواب عليه ، وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيباً من ذكر الله وأمر بمعروف ونهي عن منكر وتلاوة وغير ذلك ، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد أو بالتحميد والتمجيد ، وقيل : المراد بصعوده صعوده الى سماء الدنيا ، وقيل : يصعد الى سمائه والمحل الذي لا يجري فيه لأحد غيره حكم ، وفيه دليل على علوّه تعالى فوق الخلق وكونه بائناً عنه بذاته الكريمة ، كما تدل له الآيات الأخرى الصريحة والأحاديث المستفيضة الصحيحة ، وقيل : المراد بصعوده علم الله به والأولى ما ذكرناه آنفاً .

﴿والعمل الصالح يرفعه ﴾ أي يرفع الكلم الطيب كما قال الحسن وشهر ابن حوشب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأبو العالية والضحاك ، ووجهه: أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح . وقيل : ان فاعل يرفعه هو الكلم الطيب ، ومفعوله العمل الصالح ، ووجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والايمان ، وقيل : إن فاعل يرفعه ضمير يعود الى الله عز وجل ، والمعنى أن الله يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب ، لأن العمل

يحقق الكلام ، وقيل : العمل الصالح يرفع صاحبه وهو الذي أراد العزة ، وقال قتادة : المعنى أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه أي يقبله فيكون قوله والعمل الصالح مبتدأ وخبره يرفع ، وكذا على قول من قال يرفع صاحبه ، قرأ الجمهور يصعد من صعد الثلاثي ، والكلم بالرفع على الفاعلية ، وقرأ علي وابن مسعود يصعد بضم حرف المضارعة من أصعد ، والكلم بالنصب على المفعولية ، وقرأ الضحاك على البناء للمفعول وقرأ الجمهور الكلم وقرأ أبو عبد الرحمن الكلام وقرأوا العمل بالرفع على العطف أو على الابتداء وقرأ ابن أبي عبلة وعيسى بن عمر بالنصب على الاشتغال .

وعن ابن مسعود في الآية قال : «إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله سبحانه ان العبد المسلم اذا قال: سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر وتبارك الله قبض عليهن ملك فضمهن تحت جناحه ، ثم يصعد بهن الى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفر لقائلهن حتى يحيي بهن وجه الرحمن ، ثم قرأ: إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، قال : أداء الفرائض فمن ذكر الله في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله فصعد به الى الله ، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله، وكان عمله أولى به». أخرجه الطبراني والبيهقي والحاكم وصححه وغيرهم.

﴿ والذين يمكرون السيئآت ﴾ليس مفعولاً به لأن مكر لازم فانتصابه على أنه صفة لمصدر محذوف أي يمكرون المكرات السيئآت ويجوز أن يضمن يمكرون معنى يكسبون فيكون السيئآت مفعولاً به. قال مجاهد وقتادة : هم أهل الربا .

وقال أبو العالية : هم الذين مكروا بالنبيﷺ لما اجتمعوا في دار الندوة. وقال الكلبي : هم الذين يعملون السيئات في الدنيا . وقال مقاتل : هم المشركون ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ أي بالغ الغاية في الشدة .

﴿ ومكر اولئك هو يبور ﴾ أي يهلك ويفسد ويبطل ومنه : وكنتم قوماً بوراً، وقد أبارهم الله إبارة بسبب مكرانهم ، حيث أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب ، فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقه بواحدة منها ، والمكر في الأصل الخديعة والاحتيال والإشارة بقوله «اولئك» الى الذين مكروا السيآت على اختلاف الأقوال في تفسير مكرهم وجملة هو يبور خبر مكر اولئك ووضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للإيذان بكمال تميزهم بما هم عليه من الشر والفساد عن سائر المفسدين . واشتهارهم بذلك ، ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على صحة البعث والنشور فقال :

﴿ والله خلقكم ﴾ ابتداء في ضمن خلق أبيكم آدم ﴿ من تراب ﴾ وقال قتادة: يعني آدم والتقدير على هذا خلق أباكم الأول وأصلكم الذي ترجعون اليه من تراب .

﴿ ثم من نطفة ﴾ أخرجها من ظهر أبيكم ﴿ ثم جعلكم أزواجاً ﴾ أي زوج بعضكم ببعض فالذكر زوج الأنثى أو جعلكم أصنافاً ذكراناً وإناثاً ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ أي لا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به فلا يخرج شيء من علمه وتدبيره، ومن زائدة .

﴿ وما يعمّر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ قرئ ينقص مبنياً للمفعول وللفاعل ومن عمره بضم الميم وبسكونها والمعى ما يطول عمر أحد ولا ينقص من عمره إلا في اللوح المحفوظ ، قال الفراء : يريد آخر غير الأول فكنى عنه بالضمير ، كأنه الأول لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول كأنه قال : ولا ينقص من عمر معمر فالكناية في عمره ترجع الى آخر غير الأول ، ومثله قولك : عندي درهم ونصفه ، أي نصف آخر ، قيل : إنما سمى معمراً باعتبار مصيره اليه والمعنى ما يمد في عمر أحد ولا ينقص من عمر أحد لكن لا على معنى: ولا ينقص من عمره بعد كونه زائداً ، بل على معنى أنه لا يجعل من الابتداء ناقصاً إلا وهو في كتاب. قال سعيد بن

جبير وما يعمر من معمر إلا كتب عمره كم هو سنة؟ كم هو شهراً؟ كم هو يوماً ؟ كم هو ساعة ؟ ثم يكتب في كتاب آخر نقص من عمره ساعة ، نقص من عمره يوم ، نقص من عمره شهر ، نقص من عمره سنة ، حتى يستوفي أجله فما مضى من أجله فهو النقصان ، وما يستقبل فهو الذي يعمره .

قال النسفي : هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالاً على تسديدهم معناه بعقولهم ، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد ، وعليه كلام الناس يقولون : لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق،أو تأويل الآية أنه يكتب في الصحيفة عمره كذا كذا سنة ، ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتي على آخره ، فذلك نقصان عمره انتهى.وقال قتادة : المعمر من بلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين ، وقيل المعنى:أن الله كتب عمر الانسان كذا ان أطاع ودونه إن عصى ، فأيهما بلغ فهو في كتاب ، والضمير على هذا يرجع الى معمر ، وقيل المعنى:وما يعمر من معمر الى الهرم ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا في كتاب الله ، أي بقضاء الله قاله الضحاك ، واختاره النحاس قال وهو أشبهها بظاهر التنزل ، والأولى أن يقال: ظاهر النظم القرآني ان تطويل العمر وتقصيره هما بقضاء الله وقدره لأسباب تقتضي التطويل ، وأسباب تقتضي التقصير فمن أسباب التطويل ما ورد في صلة الرحم عن النبي ﷺ مثل قوله «من أحب أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره ، أي يؤخر في عمره فليصل رحمه». ونحو ذلك .

ومن أسباب التقصير: الاستكثار من معاصي الله سبحانه فاذا كان العمر المضروب للرجل مثلاً سبعين سنة فقد يزيد الله له عليها اذا فعل أسباب الزيادة وقد ينقصه منها اذا فعل أسباب النقصان والكل في كتاب مبين ، فلا تخالف بين هذه الآية وبين قوله سبحانه : ﴿فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون

ساعة ولا يستقدمون﴾ ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ ،وقد قدمنا في تفسيرها ما يزيد ما ذكرنا هنا وضوحاً وبياناً .

قال ابن عباس في الآية يقول: ليس أحد قضيت له طول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت له ذلك فإنما ينتهي الى الكتاب الذي قدرت له لا يزاد عليه ، وليس أحد قضيت عليه أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهي الى الكتاب الذي كتب له فذلك قوله: ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ،يقول: كل ذلك في كتاب عنده .

وأخرج احمد ومسلم وأبو عوانة وابن حبان والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: «قال رسول الله ﷺ يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلة ،فيقول: أي رب أشقي أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان ، ثم يكتب عمله ورزقه وأجله وأثره ومصيبته ، ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص منها» .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي, وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال قالت أم حبيبة: اللهم امتعني بزوجي النبي ، وبأبي سفيان ، وبأخي معاوية ، فقال النبي ﷺ «إنك سألت الله لآجال مضروبة ، وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة ، ولن يعجل الله شيئاً قبل حله أو يؤخر شيئاً ولو كنت سألت الله ان يعيذك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل» . وهذه الأحاديث مخصصة بما ورد من قبول الدعاء ، وانه يعتلج هو والقضاء ، وبما ورد في صلة الرحم أنها تزيد في العمر فلا معارضة بين الأدلة كما قدمنا .

﴿ إن ذلك ﴾ أي ما سبق من الخلق وما بعده ﴿ على الله يسير ﴾ لا يصعب عليه منه شيء ، ولا يعزب عنه كثير ولا قليل ، ولا كبير ولا صغير ، ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من بديع صنعه ، وعجيب قدرته ، فقال :

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

﴿ وما يستوي البحران هذا ﴾ أي أحدهما ﴿ عذب فرات ﴾ شديد العذوبة ﴿ سائغ شرابه ﴾ مريء يسهل انحداره في الحلق لعذوبته ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ شديد الملوحة ، وقيل هو الذي يحرق الحلق بملوحته فالمراد بالبحرين : العذب والمالح ، فالعذب الفرات : الحلو ، والأجاج : المر ، وقرىء سيغ مشدداً وقرىء ملح بفتح الميم ، وقيل : المقصود من الآية ضرب مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر .

﴿ومن كل ﴾ منهما ﴿ تأكلون لحماً طرياً ﴾ وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل ، وهذا وما بعد ذلك إما استطراداً في صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع ، وإما تكملة للتمثيل ، والمعنى كما أنهما وان اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث إنهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات من الماء ، لما خالط أحدهما ما أفسده ، وغيره عن كمال فطرته ، كذلك لا يساوي الكافر المؤمن ، وإن شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الأصيلة وحيازته لكماله اللائق دون الآخر ، أو تفضيل للأجاج على الكافر من حيث إنه يشارك العذب في منافع كثيرة ، والكافر

خلو من المنافع بالكلية على طريقة قوله تعالى :(ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة)الخ . قاله أبو السعود .

﴿ وتستخرجون حلية ﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان ، وهو صغار اللؤلؤ ، وقال الطرطوشي : هو عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكف وهكذا شاهدناه بمغارب الأرض كثيراً انتهى . والظاهر أن المعنى وتستخرجون منهما حلية ، وقال المبرد : إنما تستخرج الحلية من المالح ، وروي عن الزجاج أنه قال : إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا لا من كل واحد منهما على انفراده ورجح النحاس قول المبرد ، ومعنى .

﴿ تلبسونها ﴾ تلبسون كل شيء منها بحسبه، كالخاتم في الأصبع ، والسوار في الذراع ، والقلادة في العنق والخلخال في الرجل ، ومما يلبس حلية السلاح الذي يحمل كالسيف والدرع ونحوهما .

﴿ وترى الفلك فيه ﴾ أي في كل واحد من البحرين ، وقال النحاس : الضمير يعود الى المالح خاصة ولولا ذلك لقال : فيهما ﴿مواخر﴾ يقال : مخرت السفينة تمخر إذا شقت الماء بجريها فيه فالمعنى: وترى السفن في البحرين شواق للماء . بعضها مقبلة وبعضها مدبرة ، بريح واحدة ، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة النحل ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ أي فعل ذلك لتبتغوا ، قال مجاهد ابتغاء الفضل هو التجارة في البحر الى البلدان البعيدة في المدة القريبة كما تقدم في البقرة .

﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ الله على ما أنعم به عليكم من ذلك .

﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي يضيف بعض أجزائهما الى الآخر فيزيد في أحدهما بالنقص في الآخر وقد تقدم تفسيره في آل عمران وفي مواضع من الكتاب العزيز .

﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ عطف على يولج واختلاف الصيغة لما أن إيلاج احد الملوين في الأخر متجدد حيناً فحيناً وأما تسخير النيرين فأمر لا تجدد ولا تعدد فيه ، وإنما المتعدد المتجدد آثاره .

﴿كل﴾منهما ﴿ يجري ﴾ في فلكه ﴿ لأجل مسمى ﴾ قدره الله لجريانهما وهو يوم القيامة ، وقيل : هو المدة التي يقطعان في مثلها الفلك وهو سنة للشمس وشهر للقمر ، وقيل : المراد به جري الشمس في اليوم والقمر في الليلة ، وقد تقدم تفسير هذا مستوفى في سورة لقمان .

﴿ ذلكم ﴾ أي الفاعل لهذه الأفعال المتقدمة من أول السورة الى هنا وهو مبتدأ وخبره .

﴿ الله ربكم له الملك ﴾ أي هذا الذي من صنعته ما تقدم هو الخالق المقدر والقادر والمقتدر المالك للعالم والمتصرف فيه ، ويجوز ان يكون قوله : له الملك جملة مستقلة في مقابلة قوله :

﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ أي لا يقدرون عليه ولا على خلقه ، والقطمير : القشرة الرقيقة التي تكون بين التمرة والنواة ، وتصير على النواة كاللفافة لها ، وقال المبرد : هو شق النواة ، وقال قتادة هو القمع الذي على رأس النواة . قال الجوهري : ويقال هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة ، وقال ابن عباس : القطمير القشر . وفي لفظ الجلد الذي يكون على ظهر النواة ومعلوم أن في النواة أربعة أشياء يضرب بها المثل في القلة :الفتيل وهو ما في شق النواة ، والقطمير:وهو اللفافة ،والثفروق: وهو ما بين القمع والنواة ، والنقير:وهو ما في ظهرها . ثم بين سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله بأنهم لا ينفعون ولا يضرون فقال:

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

﴿ إن تدعوهم ﴾ أي إن تستغيثوا بهم في النوائب ﴿ لا يسمعوا دعاءكم ﴾ لكونها جمادات لا تدرك شيئاً من المدركات .

﴿ ولو سمعوا ﴾ فرضاً وتقديراً ﴿ ما استجابوا لكم ﴾ لعجزهم عن ذلك. قال قتادة: المعنى ولو سمعوا لم ينفعوكم ، وقيل المعنى لو جعلنا لهم سماعاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ولم يستجيبوا لكم إلى ما دعوتهم إليه من الكفر .

﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ أي يتبرأون من عبادتكم لهم ، ويقولون : ما كنتم إيانا تعبدون ، ويجوز أن يرجع : والذين تدعون من دونه وما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم الكفار ، وهم الملائكة والجن والشياطين والمعنى: أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم كما أخبر الله عن عيسى بقوله: (ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق)، قال القرطبي: ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضاً أي: يحييها الله حتى تخبر بأنها ليست أهلاً للعبادة .

﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ أي لا يخبرك أيها المفتون بأسباب الغرور مثل

من هو خبير بالأشياء ، عالم بخبايا الأمور ، وهو الله سبحانه فإنه لا أحد أخبر بخلقه وأقوالهم وأفعالهم منه سبحانه ، وهو الخبير بكنه الأمور وحقائقها ثم ذكر سبحانه افتقار خلقه إليه ومزيد حاجتهم إلى فضله فقال :

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء ﴾ المحتاجون ﴿إلى الله ﴾ في جميع أمور الدين والدنيا فهم الفقراء اليه على الاطلاق في أنفسهم وفيما يعرض لهم من سائر الأمور وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم ، كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء ، وأن افتقار سائر الخلائق بالاضافة الى فقرهم غير معتدّ به ولذلك قال : (وخلق الانسان ضعيفاً)، ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل للتعريض على الاستغناء ، ولهذا وصف نفسه بالغنى الذي هو مطمع الأغنياء فقال :

﴿ والله هو الغني ﴾ على الإطلاق ﴿ الحميد ﴾ المستحق للحمد من عباده بإحسانه اليهم ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من الأنواع التي يتحقق عندها افتقارهم إليه واستغناؤهم عنهم فقال :

﴿إن يشأ يذهبكم ﴾ كلكم الى العدم ويفنيكم وفيه بلاغة كاملة أي ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته ثم زاد على بيان الاستغناء بقوله : ﴿ ويأت ﴾ بدلكم ﴿ بخلق جديد﴾ يطيعونه ولا يعصونه أو يأت بنوع من أنواع الخلق، وعالم من العوالم غير ما تعرفون .

﴿ وما ذلك ﴾ الإذهاب بكم والإتيان بآخرين ﴿ على الله بعزيز ﴾ أي بممتنع ولا متعسر ، وقد مضى تفسير هذا في سورة إبراهيم .

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿ ولا تزر ﴾ أي ولا تحمل نفس ﴿ وازرة ﴾ آثمة ﴿ وزر ﴾ إثم نفس ﴿ أخرى ﴾ فحذف الموصوف للعلم به بل كل نفس تحمل وزرها ولا تخالف هذه الآية قوله : ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾، لأنهم إنما حملوا أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم، والكل من أوزارهم لا من أوزار غيرهم ، ومثل هذا : حديث «من سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»، فإن الذي سن السنة السيئة إنما حمل وزر سنته السيئة ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفى وقد أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في حجة الوداع : «ألا لا يجني جان إلا على نفسه ، لا يجني والد على ولده ، ولا مولود على والده».

وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي وغيرهم عن أبي رمثة قال : «انطلقت مع أبي نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما رأيته قال لأبي : ابنك هذا؟ قال أي ورب الكعبة. قال :أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه». ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية. قال ابن عباس : يلقى الأب والأم الابن فيقولان له : يا بني احمل عنا بعض ذنوبنا فيقول : لا أستطيع حسبي ما علي.

﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ قال الفراء : أي نفس مثقلة بالذنوب

قال : وهذا يقع للمذكر والمؤنث. قال الأخفش : أي وإن تدع مثقلة إنساناً الى حملها وهو ذنوبها . والحمل بالكسر ما يحمل على الظهر ونحوه ، والجمع أحمال وحمول وحملت المتاع حملاً من باب ضرب فأنا حامل والأنثى حاملة بالتاء لأنها صفة مشتركة. قال ابن السكيت: الحمل بالفتح ما كان في البطن أو على رأس شجرة ، والحمل بالكسر ما كان على ظهر أو رأس ، قال الأزهري : وهذا هو الصواب وهو قول الأصمعي . وقال : امرأة حامل وحاملة اذا كانت حبلى .

﴿ لا يحمل منه ﴾ أي من حملها ﴿ شيء ﴾ قال ابن عباس: لكونه عليه وزر لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئاً ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ أي، ولو كان الذي تدعوه ذا قرابة لها لم يحمل من حملها شيئاً ، ومعنى الآية وان تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى الى حمل شيء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئاً ، ولو كانت قريبة لها من النسب كالأب والأم والابن والأخ فكيف بغيرها ممن لا قرابة بينها وبين الداعية لها .

وقرىء:ذو قربى على أن كان تامة. كقوله: (وإن كان ذو عسرة)، قال الزمخشري : ونظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لأن المعنى على أن المثقلة إذا دعت أحداً الى حملها لا يحمل منه ولو كان مدعوها ذا قربى ، وهو ملتئم. ولو قلت : ولو وجد ذو قربى لخرج عن التئامه اهـ.

﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ مستأنفة مسوقة لبيان من يتعظ بالإنذار، أي أنهم يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه ، أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم ، ويخشونه في الخلوات عن الناس . قال الزجاج : تأويله أن إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الإنذار كقوله: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾،وقوله :﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾.

﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أي احتفلوا بأمرها ، ولم يشتغلوا عنها بشيء مما

يلهيهم وأداموها ﴿ ومن تـزكى فإنمـا يتزكى لنفسـه ﴾ وقرىء من أزكى فـإنمـا يـزكى لنفسه ، والتزكي : التطهـر من أدناس الشـرك والفواحش والمعنى أن من تطهر بترك المعاصي واستكثـر من العمل الصـالح فـإنما يتـطهر لنفسـه لأن نفع ذلك مختص به كما أن وزر من تدنس لا يكون إلا عليه لا على غيره .

﴿ وإلى الله المصيـر ﴾ لا إلى غيره ، ذكـر سبحـانـه أولاً : أنه لا يحمـل أحـد ذنب أحد ، ثم ذكـر ثانياً : أن المذنب إن دعـا غيره وإن كـان من قـرابتـه الى حمـل شيء من ذنوبـه لا يحمله ، ثم ذكر ثالثاً : أن ثـواب الطاعـة مختص بفاعلها ليس لغيره منه شيء ، ثم ضـرب مثلاً للمؤمن والكـافر وقـد قرر ببيـان التنامي أولاً بين ذاتيهما ، وثانياً بين وصفيهمـا ، وثالثـاً بين مستقريهمـا ، ودار بهما في الآخرة فقال :

﴿ ومـا يستـوي الأعمى ﴾ أي المسلوب حـاسـة البصـر واستـوى من الأفعـال التي لا يكفي فيها واحـد ، فلو قلت استوى زيـد لم يصـح ، فمن ثم لزم العطف على الفاعل ، أو تعدده ﴿ والبصير ﴾ الـذي له ملكـة البصر فشبـه الكافر بالأعمى وشبه المؤمن بالبصير ، وقيل : مثل للجاهل والعالم .

﴿ولا ﴾ تستوي ﴿ الظلمات ولا النور ﴾ فشبـه الباطـل بالـظلمات وشبـه الحق بالنور ، وقيل : إنما جمـع الظلمـات وأفرد النـور لتعدد فنـون الباطـل ، واتحاد الحق .

﴿ ولا الـظل ولا الحرور ﴾ بـالفتح شـدة حر الشمس وهـو خلاف البـرد يقال : حر اليوم والطعام يحر من باب تعب وحر حـراً وحروراً من بـابي ضرب وقعد لغة ، والاسم : الحرارة ، فهو حـار وحرت النـار تحر من بـاب تعب توقّـدت واستعرت ، والحرة بالفتح : أرض ذات حجـارة سود والجمـع حرار مثـل كلبة وكـلاب ، والحـرور على وزن رسـول : الـريح الحـارة . قـال الأخفش : لا يكـون الحـرور إلا مع شمس النهـار ، والسموم يكـون بالليـل ، وقيـل : عكسـه . وقال رؤبة بن العجاج : الحـرور يكون بـالليل خـاصة والسمـوم يكون بـالنهار خـاصة

وقال الفراء: السموم لا يكون إلا بالنهار والحرور يكون فيهما . قال النحاس ؛ وهذا أصح ، وقال قطرب : الحرور: الحر ، والظل : البرد ، والمعنى أنه لا يستوي الظل الذي لا حر فيه ولا أذى ، والحر الذي يؤذي قيل :أراد الثواب والعقاب ، وسمي الحر حروراً مبالغة في شدة الحر ، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى . وقال الكلبي: أراد بالظل الجنة ، وبالحرور النار. وقال عطاء: يعني ظل الليل وشمس النهار ثم ذكر سبحانه تمثيلاً آخر للمؤمن والكافر ، وهو أبلغ من الأول فقال :

﴿ وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ فشبه المؤمنين بالأحياء وشبه الكافرين بالأموات وهو أبلغ من الأول لكمال التنافي بين الحي والميت ، ولذلك أعيد الفعل ، وأما التنافي بين الأعمى والبصير فليس تاماً لإمكان اشتراكهما في كثير من الإدراكات.

وقال ابن قتيبة : الأحياء العقلاء والأموات الجهال . قال قتادة هذه كلها أمثال أي:كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ، وقد زيدت (لا) في المواضع الثلاثة خمس مرات اثنتين في الأولى واثنتين في الثانية وواحدة في الثالثة . والكل لتأكيد نفي الاستواء فالزيادة شاملة لأصل زيادتهما كالأولى من الجملة الأولى ولتكريرها كالثانية منها .

﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ أن يسمعه من أوليائه الذين خلقهم لجنته ، ووفقهم لطاعته ، وهذا شروع في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم. وتنتهي بقوله : فكيف كان نكير . والمراد من قوله:يسمع بها ويوصل من شاء وصوله وهدايته فيحييه بالإيمان.

﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ يعني الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ، أي كما لا يسمع من مات كذلك لا يسمع من مات قلبه. قرىء: بتنوين مسمع وقطعه عن الإضافة وبإضافته.

إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ أي ما أنت إلا رسول منذر ليس عليك الا الإنذار والتبليغ وليس لك من الهدى شيء إنما الهدى والضلالة بيد الله عز وجل .

﴿ إنا أرسلناك بالحق ﴾ أي محقين أو محقاً أو إرسالاً متلبساً بالحق أي بالهدى ﴿ بشيراً ﴾ بالوعد الحق ﴿ ونذيراً ﴾ بالوعيد الحق أو بشيراً لأهل الطاعة ونذيراً لأهل المعصية .

﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ أي ما من أمة من الأمم الماضية إلا مضى فيها نذير من الأنبياء ينذرها ، والأمة الجماعة الكثيرة ، وتقال لكل أهل عصر ، والمراد هنا أهل العصر ، واقتصر على ذكر النذير دون البشير لأنه ألصق بالمقام .

فإن قلت : كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ لم يخل فيها نذير ؟ قلت : اذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير الا أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث الله محمداً ﷺ ، وآثار نذارته باقية الى يوم القيامة لأنه لا نبي بعده ، فهل من مدّكر ، وهذا يقتضي أن أهل الفترة مكلفون لبقاء آثار الرسل المتقدمة فيهم ، وهو خلاف ما في شرح ابن حجر على الهمزية أن أهل الفترة من أهل الجنة وان غيروا وبدلوا وعبدوا غير الله ، لأنه لم يرسل إليهم رسولاً لأن من قبلهم من الرسل انتهت رسالته بموته اذ لم يعلم لأحد من الرسل استمرار رسالته بعد الموت إلا نبينا ﷺ ، فهم غير مكلفين بما يفعلونه ولو كان صورة معصية .

لكن ورد النص بتعذيب بعض أهل الفترة كعمرو ابن لحي فيتلقى ، ويعتقد فيمن ورد فيهم بخصوصهم ، لا لأن ما فعلوه كفر بل لحكمة يعلمها الله تعالى لم نطلع عليها. انتهى ملخصاً. وحينئذ فالظاهر أنه لا يحصل الاتصال بين الآية وبين ما تقرر إلا بأن يلزم أن جملة العرب أمة ويصدق تقدم النذير فيها بتقدم اسماعيل وان بني إسرائيل أمة ، ويصدق تقدم النذير فيهم بتقدم عيسى ومن قبله فتأمل ثم سلى سبحانه نبيه ﷺ وعزاه فقال :

﴿ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ﴾ من الأمم الماضية أنبياءهم ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالمعجزات الواضحة والدلالات الظاهرة ﴿وبالزبر﴾ أي الكتب المكتوبة كصحف ابراهيم وهي ثلاثون ، وكصحف موسى قبل التوراة وهي عشرة . وكصحف شيت وهي ستون فجملة الصحف مائة تضم لها الكتب الأربعة فجملة الكتب المنزلة على الأنبياء مائة وأربعة.قاله الحفناوي .

﴿ وبالكتاب المنير ﴾ كالتوراة والانجيل ، قيل : الكتاب المنير داخل تحت الزبر ، وتحت البينات ، والعطف لتغاير المفهومات وإن كانت متحدة في الصدق ، والأولى تخصيص البينات بالمعجزات ، والزبر بالكتب التي فيها مواعظ ، والكتاب بما فيه شرائع وأحكام ، وجواب الشرط محذوف ، أي فاصبر كما صبروا ، وأن المذكور دليل له .

﴿ ثم أخذت الذين كفروا ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر يفيد التصريح بذمهم بما في حيز الصلة ويشعر بعلة الأخذ ﴿ فكيف كان نكير ﴾ الاستفهام تقريري كما قاله الكرخي ، وينبغي ان يتأمل فيه ، أي فكيف كان نكيري عليهم ؟ وعقوبتي لهم ؟ والنكير بمعنى الإنكار، وهو تغيير المنكر وقد مضى بيان هذا قريباً ، ثم ذكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته الباهرة وخلقاً من مخلوقاته البديعة فقال ·

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ الم تر ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له ، وهذه الرؤية هي القلبية أي : ألم تعلم ﴿ أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ﴾ أي بالماء يعني المطر ، والنكتة في هذا الالتفات إظهار كمال العناية بالفعل ، لما فيه من الصنع البديع ، ولأن المنة بالاخراج أبلغ من إنزال الماء .

﴿ ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ المراد بالألوان الأجناس والأصناف من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر ، أو هيئاتها أي بعضها أبيض ، وبعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أخضر وبعضها أسود ، قال ابن عباس : أي الأبيض والأحمر والأسود .

﴿ ومن الجبال جدد ﴾ الجدد جمع جدة بالضم وهي الطريق. قال: الأخفش ولو كان جمع جديد لقال : جدد بضم الجيم والدال نحو : سرير وسرر ، وقرأ الزهري : جدد بضم الجيم والدال: جمع جديدة يقال جديدة وجدد وجدائد ، وقال أبو الفضل : معناها آثار جديدة واضحة الألوان ، وقرىء بفتحهما .

وقد رد أبو حاتم هذه القراءة من حيث النقل والمعنى وقد صححها غيره وقال الجدد: الطريق الواضح البين ، وقيل الجدد: القطع مأخود من جددت الشيء إذا قطعته ، حكاه ابن بحر . قال الجوهري : الجدة الخطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه ، والجدة الطريق ، والجمع جدد وجدائد . قال

المبرد : جدد طرائق وخطوط ، قال الواحدي : ونحو هذا قال المفسرون في تفسير الجدد . وقال الفراء : هي الطرق تكون في الجبال كالعروق بيض وسود وحمر واحدها جدة .

﴿ بيض وحمر ﴾ وصفر ﴿ مختلف ألوانها ﴾ بالشدة والضعف ، والمعنى أن الله سبحانه أخبر عن جدد الجبال وهي طرائقها أو الخطوط التي فيها بأن لون بعضها البياض ولون بعضها الحمرة .

﴿ وغرابيب سود ﴾ الغربيب الشديد السواد الذي يشبه لونه لون الغراب . قال الجوهري : تقول هذا أسود غربيب ، أي شديد السواد ، وإذا قلت : غرابيب سود جعلت السود بدلاً من غرابيب ، قال الفراء : في الكلام تقديم وتأخير، تقديره : وسود غرابيب لأنه يقال أسود غربيب، وقلما يقال : غربيب أسود ، وقيل الغربيب تأكيد للأسود كالقاني للأحمر ، ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد وانما قدم للمبالغة والمعنى من الجبال جدد بيض وحمر ومن الجبال غرابيب على لون واحد وهو السواد ، أو من الجبال جدد بيض وحمر وسود وقيل التقدير : ومن الجبال ذو جدد لأن الجدد إنما هي في ألوان بعضها .

﴿ ومن الناس والدواب ﴾ وقرىء بتخفيف الباء ﴿ والأنعام ﴾ أي ومنهم صنف أو نوع أو بعض .

﴿ مختلف ألوانه ﴾ بالحمرة والسواد والبياض والخضرة والصفرة قال الفراء أي : خلق مختلف ألوانه كاختلاف الثمرات والجبال ، وإنما ذكر سبحانه اختلاف الألوان في هذه الأشياء لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله وبديع صنعه .

﴿ كذلك ﴾ أي مختلفاً مثل ذلك الاختلاف ، والتقدير مختلف ألوانه اختلافاً كائناً كذلك أي كاختلاف الجبال والثمار ، وقال ابن عطية : متعلق بما بعده أي مثل ذلك النظر والاعتبار في مخلوقات الله ، واختلاف ألوانها ﴿ إنما يخشى

الله من عباده العلماء﴾، وهو مردود بأن ما بعد إنما لا يعمل فيما قبلها ، والراجح الوجه الأول والوقف على كذلك تام ، ثم استأنف الكلام واخبر سبحانه بقوله :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وهو من تتمة قوله : ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾على معنى إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به ، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة ، وعلى كل تقدير فهو سبحانه قد عين في هذه الآية أهل خشيته ، وهم العلماء به ، وبعظيم قدرته قال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل ، ومثله عن الشعبي .

وقال مسروق : كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار جهلاً ، وعن ابن مسعود نحوه فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له. قال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم ، ووجه تقديم المفعول أن المقام مقام حصر الفاعلية ولو أخر لانعكس الأمر ، وقرىء: برفع الاسم الشريف ونصب العلماء ورويت هذه القراءة عن أبي حنيفة. قال في الكشاف: الخشية في هذه القراءة استعارة ، والمعنى أنه يجلهم ويعظهم كما يجل المهيب المخشي من الرجال بين الناس .

قال ابن عباس : العلماء بالله الذين يخافونه ، وعنه قال : الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير ، وعن ابن مسعود قال : ليس العلم من كثرة الحديث ، لكن العلم من الخشية ، وفي لفظ بكثرة الرواية وعن حذيفة بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله .

وعن عائشة قالت : صنع رسول الله ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ، ثم قال : « ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » أخرجه البخاري ومسلم .

﴿ إن الله عزيز غفور ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب على معصيته غافر لمن تاب من عباده .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾

﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾ أي يستمرون على تلاوته ويداومونها ، والكتاب هو القرآن العظيم ولا وجه لما قيل : ان المراد به جنس كتب الله .

﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أي فعلوها في أوقاتها مع كمال أركانها ، وأذكارها ، عن ابن عباس قال : نزلت في حصين بن الحرث بن عبد المطلب بن عبد مناف .

﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾ فيه حث على الإنفاق كيفما تهيأ فان تهيأ سراً فهو أفضل ، وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء ، فإن ترك الخير مخافة ذلك هو عين الرياء ويمكن أن يكون المراد بالسر الصدقة المطلقة . وبالعلانية الزكاة ، واليه أشار في التقرير قاله الكرخي . وقيل : السر في المسنونة والعلانية في المفروضة .

﴿ يرجون تجارة ﴾ أي ثواب الطاعة ﴿ لن تبور ﴾ أي لن تكسد ولن تهلك والأخبار برجائهم لثواب ما عملوا بمنزلة الوعد بحصول مرجوهم واللام في قوله :

﴿ليوفيهم أجورهم ﴾ متعلقة بلن تبور على معنى أنها لن تكسد لأجل أن نوفيهم أجور أعمالهم الصالحة ومثل هذه الآية قوله سبحانه :﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ وقيل إن اللام متعلقة بمحذوف دل عليه السياق أي فعلوا ذلك ليوفيهم ومعنى :

﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أنه يتفضل عليهم بزيادة على أجورهم التي هي جزاء أعمالهم ، قيل بتفسيح القبور أو بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم ، أو بتضعيف حسناتهم ، أو بتحقيق وعد لقائه ﴿ إنه غفور شكور ﴾ تعليل لما ذكر من التوفية والزيادة ، أي غفور لذنوبهم شكور لطاعاتهم .

وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب ﴾ يعني القرآن وقيل اللوح المحفوظ على أن من تبعيضية أو ابتدائية ﴿ هو الحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي موافقاً لما تقدمه من الكتب ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ أي محيط بجميع أمورهم الباطنة والظاهرة .

﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ إنما قدم المفعول الثاني لقصد التشريف والتعظيم للكتاب والمعنى ثم أورثنا الذين اصطفيناهم من عبادنا الكتاب ، وهو القرآن ، أي قضينا وقدرنا أن نورث العلماء من أمتك يا محمد هذا الكتاب الذي نزلناه عليك ، فأورثنا استعارة تبعية سمى إعطاء الكتاب إياهم من غير كد وتعب في وصوله إليهم بتوريث الوارث .

و﴿ من ﴾ للبيان أو للتبعيض ، والمراد بعبادنا أمة الإجابة سواء حفظوه أو لا فهو عطية لجميعهم حتى من لم يحفظه لأنه قدوته، وفيه هدايته وبركته ، ومعنى اصطفائهم: اختيارهم واستخلاصهم . ولا شك أن علماء هذه الأمة من الصحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة قد شرفهم الله على سائر العباد ، وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ، وأكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء وسيد ولد آدم عليه وعليهم الصلاة والسلام ، وخصهم بحمل أفضل الكتب ، قال مقاتل : يعني قرآن محمد جعلناه ينتهي إلى الذين اصطفيناهم من عبادنا ، وقيل : إن المعنى أورثناه من الأمم السالفة أي أخرناه عنهم ، وأعطيناه الذين اصطفينا ، والأول أولى .

ثم قسم سبحانه هؤلاء الذين أورثهم كتابه واصطفاهم من عباده إلى ثلاثة أقسام فقال :

﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ وفي قوله : ﴿ بإذن الله ﴾ تنبيه على عزة منال هذه الرتبة ، وصعوبة مأخذها أي بأمره أو بعلمه ، أو بتوفيقه ﴿ ذلك ﴾ أي توريث الكتاب والاصطفاء وقيل السبق إلى الخيرات ، والأول أولى ، وهو مبتدأ وخبره .

﴿ هو الفضل الكبير ﴾ أي الفضل الذي لا يقادر قدره ، وقد استشكل كثير من أهل العلم معنى هذه الآية لأنه سبحانه جعل هذا القسم الظالم لنفسه من ذلك المقسم ، وهو من اصطفاهم من العباد فكيف يكون من اصطفاه الله ظالماً لنفسه ، فقيل : إن التقسيم هو راجع إلى العباد أي فمن عبادنا ظالم لنفسه ، وهو الكافر ويكون ضمير يدخلونها عائداً إلى المقتصد والسابق ، وقيل : المراد بالظالم لنفسه هو المقصر في العمل به ، وهو المرجى لأمر الله ، وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله : فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب وهذا فيه نظر ، لأن ظلم النفس لا يناسب الاصطفاء .

وقيل الظالم لنفسه هو الذي عمل الصغائر ، وقد روي هذا القول عن عمر وعثمان وابن مسعود وأبي الدرداء وعائشة ، وهذا هو الراجح لأن عمل الصغائر لا ينافي الاصطفاء ، ولا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة ووجه كونه ظالماً لنفسه أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له فإنه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات لكان لنفسه فيها من الثواب حظ عظيم وقيل الظالم هو صاحب الكبائر ، قلت : ومنشأ الإشكال هو من جعل الوارثين هم العلماء من أمة محمد ﷺ ، إذ لو جعلت الوراثة لجميع الأمة زال الإشكال للقطع بأن منهم ظالماً لنفسه ، ولا ينافي الاصطفاء لكونهم فضلوا الأمم الآخرة ، وقد ورد في ذلك شيء كثير كما لا يخفى ويؤيده ما سيأتي آخر البحث والله أعلم .

وقد اختلف السلف في تفسير السابق والمقتصد فقال عكرمة وقتادة والضحاك : إن المقتصد المؤمن العاصي ، والسابق التقي على الإطلاق وبه قال الفراء . وقال مجاهد في تفسير الآية : فمنهم ظالم لنفسه أصحاب المشأمة ومنهم مقتصد أصحاب الميمنة ومنهم سابق بالخيرات السابقون من الناس كلهم ، وقال المبرد : إن المقتصد هو الذي يعطي الدنيا حقها والآخرة حقها .

وقال الحسن الظالم الذي ترجح سيئآته على حسناته ، والمقتصد الذي استوت حسناته وسيئآته والسابق من رجحت حسناته على سيئآته ، وقال مقاتل: الظالم لنفسه أصحاب الكبائر من أهل التوحيد، والمقتصد الذي لم يصب كبيرة والسابق الذي سبق إلى الأعمال الصالحة. وحكى النحاس: أن الظالم صاحب الكبائر ، والمقتصد لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئآته فيكون قوله الآتي: ﴿جنات عدن يدخلونها﴾ للذين سبقوا بالخيرات لا غير . قال : وهذا قول جماعة من أهل النظر لأن الضمير في حقيقة النظر لما يليه أولى .

وقال الضحاك: فمنهم ظالم لنفسه أي من ذريتهم ظالم لنفسه وقال سهل بن عبد الله: السابق العالم والمقتصد المتعلم ، والظالم لنفسه الجاهل،وقال ذو النون المصري: الظالم لنفسه الذاكر لله بلسانه فقط ، والمقتصد الذاكر بقلبه والسابق الذي لا ينساه. وقال الأنطاكي : الظالم صاحب الأقوال والمقتصد صاحب الأفعال والسابق صاحب الأحوال. وقال ابن عطاء: الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا والمقتصد الذي يحب الله من أجل العقبى والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق .

وقيل: الظالم الذي يعبد الله خوفاً من النار والمقتصد الذي يعبده طمعاً في الجنة والسابق الذي يعبده لا لسبب . وقيل: الظالم الذي يحب نفسه ، والمقتصد الذي يحب دينه ، والسابق: الذي يحب ربه ، وقيل: الظالم الذي ينتصف ولا ينصف ، والمقتصد: الذي ينصف وينتصف ، والسابق: الذي ينصف ولا ينتصف وقيل: الظالم هو المرجىء لأمر الله ، والمقتصد هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر

سيئاً .

قال النسفي : وهنا التأويل يوافق التنزيل فإنه تعالى قال:﴿والسابقون لأولون من المهاجرين﴾ الآية،وقال بعده : ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ الآية وقال بعده: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ انتهى .

وقال الربيع بن أنس: الظالم صاحب الكبائر ، والمقتصد صاحب الصغائر ، والسابق المجتنب لهما ، وسئل أبو يوسف عن هذه الآية فقال كلهم مؤمنون وأما صفة الكفار فبعد هذا.وهو قوله : (والذين كفروا لهم نار جهنم)، وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده وهم أهل الإيمان وعليه الجمهور ، وقيل الظالم من كان ظاهره خيراً من باطنه والمقتصد الذي استوى ظاهره وباطنه ، والسابق الذي باطنه خير من ظاهره . وقيل:الظالم التالي للقرآن ولم يعمل به ، والمقتصد:التالي له العالم به والسابق القارىء له العالم به العامل بما فيه .

وقد ذكر الثعلبي وغيره أقوالاً كثيرة ولا شك أن المعاني اللغوية للظالم والمقتصد والسابق معروفة ، وهو يصدق الظلم للنفس بمجرد إحرامها للحظ وتفويت ما هو خير لها ، فتارك الاستكثار من الطاعات قد ظلم نفسه باعتبار ما فوقها من الثواب وإن كان قائماً بما أوجب الله عليه تاركاً لما نهاه عنه .

فهو من هذه الحيثية ممن اصطفاه الله ومن أهل الجنة فلا إشكال في الآية ، ومن هذا قول آدم عليه السلام ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ وقول يونس ﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ ومعنى المقتصد:هو من يتوسط في أمر الدين ، ولا يميل إلى جانب الإفراط ولا إلى جانب التفريط ، وهذا من أهل الجنة ، وأما السابق:فهو الذي سبق غيره في أمور الدين وهو خير الثلاثة ، وقد استشكل تقديم الظالم على المقتصد وتقديمهما على السابق مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه ، والسابق أفضل منهما فقيل : إن التقديم لا يقتضي التشريف كما في قوله:(لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة)، ونحوها من الآيات القرآنية التي فيها تقديم أهل الشر على أهل الخير وتقديم المفضولين على الفاضلين .

وقيل : وجه التقديم هنا أن الظالمين كثير وأن المقتصدين بالنسبة إلى أهل المعاصي قليل والسابقين بالنسبة الى الفريقين أقل قليل ، فقدم الأكثر على الأقل والأول أولى ، فإن الكثرة بمجردها لا تقتضي تقديم الذكر .

وقال ابن عطاء : إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله ، وقيل : إنما قدمه ليعرفه أن ذنبه لا يبعده من ربه ، وقيل : إن أول الأحوال معصية ثم توبة ثم استقامة . وقال جعفر الصادق : بدأ بالظالمين إخبار بأنه لا يتقرب إليه إلا بكرمه ، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفاء ، ثم ثنى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء ، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره وكلهم في الجنة ، وقد قيل في وجه التقديم غير ما ذكرناه مما لا حاجة إلى التطويل به .

وعن ابن عباس في الآية قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورثهم الله كل كتاب أنزل ، فظالمهم مغفور له ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية : « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم يدخلون الجنة »، وفي إسناده رجلان مجهولان .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وغيرهم عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله :﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ الآية فأما الذين سبقوا وأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته ، فهم الذين يقولون :﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾. الآية . قال البيهقي : إذا كثرت روايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً انتهى. وفي إسناد أحمد : محمد بن

اسحق وفي إسناد ابن أبي حاتم رجل مجهول .

وأخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ «قال: أمتي ثلاثة أثلاث فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، ثم يدخلون الجنة ، وثلث يمحصون ويكشفون ، ثم تأتي الملائكة فيقولون : وجدناهم يقولون : لا إله إلا الله وحده فيقول الله : أدخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلا الله وحده ، واحملوا خطاياهم على أهل التكذيب وهي التي قال الله :﴿وليحملن أثقالهم ،وأثقالاً مع أثقالهم﴾وتصديقها في التي ذكر في الملائكة قال الله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) فجعلهم ثلاثة أفواج فمنهم ظالم لنفسه فهذا الذي يكشف ويمحص ومنهم مقتصد وهو الذي يحاسب حساباً يسيراً ومنهم سابق بالخيرات فهو الذي يلج الجنة بغير حساب ولا عذاب بإذن الله يدخلون الجنة جميعاً». قال ابن كثير بعد ذكر هذا الحديث: غريب جداً انتهى .

وهذه الأحاديث يقوي بعضها بعضاً ، ويجب المصير إليها ويدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر .

ويؤيدها ما أخرجه الطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث ، عن أسامة بن زيد: فمنهم ظالم لنفسه الآية قال : قال رسول الله ﷺ : «كلهم من هذه الأمة وكلهم في الجنة». وما أخرجه الطيالسي وعبد ابن حميد والطبراني وغيرهم عن عقبة بن صهبان قال: قلت لعائشة أرأيت قول الله : ثم أورثنا الكتاب الآية ؟ قالت : أما السابق فمن مضى في حياة رسول الله ﷺ فشهد له بالجنة ، أما المقتصد فمن تبع آثارهم ، فعمل بمثل عملهم حتى لحق بهم ، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك ، ومن اتبعنا ، وكل في الجنة. وعن ابن مسعود قال : هذه ثلاثة أثلاث يوم القيامة . ثلث يدخلون الجنة جميعاً بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلث يجيئون بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا فيقول الرب: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي. ثم قرأ: ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ الآية .

وأخرج سعيد ابن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي في البعث عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا مر بهذه الآية ﴿ثم اورثنا الكتاب﴾ قال : ألا . إن سابقنا سابق . ومقتصدنا ، ناج وظالمنا مغفور له ، وأخرجه البيهقي وغيره عنه من وجه آخر مرفوعاً ، وأخرجه ابن النجار من حديث أنس مرفوعاً .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله . والظالم لنفسه أصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ .

وأخرج سعيد بن منصور وغيره عن عثمان بن عفان أنه نزع بهذه الآية ثم قال : ألا إن سابقنا أهل جهادنا . ألا وإن مقتصدنا أهل حضرنا . ألا وإن ظالمنا أهل بدونا .

وأخرج البيهقي في البعث عن البراء بن عازب قال : أشهد على الله أنه يدخلهم الجنة جميعاً ، وأخرج الفريابي وابن جرير وابن مردويه عنه قال قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية قال : [كلهم ناج وهي هذه الأمة] .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال هي مثل التي في الواقعة أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة والسابقون ، صنفان ناجيان ، وصنف هالك ، وعنه قال : هو الكافر ، والمقتصد أصحاب اليمين ، وهذا المروى عنه رضي الله عنه لا يطابق ما هو الظاهر من النظم القرآني ، ولا يوافق ما قدمنا من الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وعن جماعة من الصحابة ، وعن عبدالله بن الحارث أن ابن عباس سأل كعباً عن هذه الآية فقال : نجوا كلهم ، ثم قال تحاكت مناكبهم ورب الكعبة ، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم . أخرجه ابن أبي شيبة وغيره وقد قدمنا عن ابن عباس ما يفيد أن الظالم لنفسه من الناجين فتعارضت الأقوال عنه .

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾

وقوله ﴿ جنات عدن ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ يدخلونها ﴾ والضمير يعود إلى الأصناف الثلاثة فلا وجه لقصره على الصنف الأخير وقرىء: جنة بالإفراد وقرىء: جنات بالنصب على الاشتغال، وقرىء: يدخلونها على البناء للمفعول ﴿ يحلون فيها ﴾ هو من حليت المرأة فهي حال، وفيه إشارة إلى سرعة الدخول فإن في تحليتهم خارج الجنة تأخيراً للدخول، فلما قال: يحلون فيها أشار إلى أن دخولهم على وجه السرعة.

﴿ من أساور من ذهب ﴾ من الأولى تبعيضية، والثانية بيانية أي يحلون بعض أساور كائنة من ذهب. والأساور جمع أسورة جمع سوار ﴿ ولؤلؤاً ﴾ منصوب بالعطف على محل من أساور، وقرىء: بالجر عطفاً على ذهب أي مرصعاً بلؤلؤ أو يحلون أساوراً ولؤلؤاً وهو الأولى.

أخرج الترمذي والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلا قول الله: (جنات عدن يدخلونها) الآية فقال: «إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة لتضيء ما بين المشرق والمغرب».
﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ لما فيه من اللذة والزينة، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الحج.

﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ بفتحتين وقرىء بضم الحاء وسكون الزاي والمعنى أنهم يقولون هذه المقالة إذا دخلوا الجنة ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق . قال قتادة : حزن الموت ، وقال عكرمة : حزن السيئآت والذنوب وخوف رد الطاعات ، وقال ابن عباس: حزن النار وقال القاسم حزن زوال النعم وخوف العاقبة . وقيل: حزن أهوال يوم القيامة . وقال الكلبي : ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة ، وقال سعيد بن جبير: همّ الخبز في الدنيا ، وقيل: همّ المعيشة . وقال الزجاج: أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش أو لمعاد وهذا أرجح الأقوال فإن الدنيا وإن بلغ نعيمها أي مبلغ لا يخلو من شوائب ونوائب تكثر لأجلها الأحزان وخصوصاً أهل الإيمان فإنهم لا يزالون وجلين من عذاب الله خائفين من عقابه مضطربين القلوب في كل حين ، هل تقبل أعمالهم ؟ أو ترد ؟ حذرين من عاقبة السوء وخاتمة الشر ، ثم لا تزال همومهم وأحزانهم حتى يدخلوا الجنة ، وأما أهل العصيان فهم وإن نفس عن خناقهم قليلاً في الحياة الدنيا التي هي دار الغرور ، وتناسوا دار القرار يوماً من دهرهم ، فلا بد أن يشتد وجلهم وتعظم مصيبتهم ، وتغلي مراجل أحزانهم إذا شارفوا الموت ، وقربوا من منازل الآخرة ، ثم إذا قبضت أرواحهم ولاح لهم ما يسوؤهم من جزاء أعمالهم ازدادوا غماً وحزناً . فإن تفضل الله عليهم بالمغفرة وأدخلهم الجنة فقد أذهب عنهم أحزانهم وأزال غمومهم وهمومهم .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : هم قوم في الدنيا يخافون الله ويجتهدون له في العبادة سراً وعلانية وفي قلوبهم حزن من ذنوب قد سلفت منهم فهم خائفون أن لا يتقبل منهم هذا الاجتهاد من الذنوب التي سلفت فعندها قالوا: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾

وروى البغوي بسنده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة في قبورهم ، ولا في نشورهم ، وكأني بأهل لا إلّه إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون(الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن).

﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ غفر لنا العظيم وشكر لنا القليل من أعمالنا أو يغفر الجنايات ويقبل الطاعات ، وقيل:غفور لمن عصاه شكور لمن أطاعه ﴿ الذي أحلنا ﴾ أي أنزلنا ﴿ دار المقامة ﴾ أي التي يقام فيها أبداً ولا ينتقل عنها ﴿ من فضله ﴾ أي تفضلاً منه ورحمة .

﴿ لا يمسنا فيها نصب ﴾ أي لا يصيبنا في الجنة عناء ولا تعب ولا مشقة ﴿ ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ أي إعياء من التعب ، وكلال من النصب ، ثم لما فرغ سبحانه من ذكر جزاء عباده الصالحين ذكر جزاء عباده الظالمين فقال :

﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم ﴾ بالموت ﴿ فيموتوا ﴾ ويستريحوا من العذاب. قرىء: فيموتوا بالنصب جوابا للنفي وقرىء: بإثبات النون . قال ابن عطية: هي ضعيفة ولا وجه لهذا التضعيف ، بل هي كقوله: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾.

﴿ ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ بل كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب وكلما خبت النار زيد إسعارها وهذه الآية هي مثل قوله سبحانه: ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾.

﴿ كذلك نجزي كل كفور ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي كل من هو مبالغ في الكفر لا جزاء أخف وأدنى منه ، وقرىء: يجزي على البناء للمفعول .

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾

﴿ وهم يصطرخون فيها ﴾ من الصراخ وهو الصياح ، أي وهم يستغيثون في النار رافعين أصواتهم والصارخ المستغيث : ﴿ ربنا ﴾ أي يقولون ربنا ، أو قائلين ربنا وقال مقاتل: إنهم ينادون ربنا .

﴿ أخرجنا نعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً غير الذي كنا نعمل ﴾ من الشرك والمعاصي فنجعل الإيمان منا بدل ما كنا عليه من الكفر ، والطاعة بدل المعصية ، قيل وزيادة قوله غير الذي كنا نعمل للتحسر على ما عملوه من غير الأعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأن أعمالهم في الدنيا كانت غير صالحة فأجاب الله عليهم بقوله:

﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره وما نكرة موصوفه أي أو لم نعمركم عمراً يتمكن من التذكر فيه من تذكر ، فقيل : هو ستون سنة وقيل : أربعون وقيل : ثماني عشرة سنة ، قال بالأول: جماعة من الصحابة . ومنهم ابن عباس وبالثاني :الحسن ومسروق وغيرهما ، وبالثالث: عطاء وقتادة .

أخرج ابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذي قال الله : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر)، وفي إسناده إبراهيم بن الفضل المخزومي . وفيه مقال .

وأخرج أحمد والبخاري والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أعذر الله إلى امرىء أَخّر عمره حتى بلغ ستين سنة»، وعن سهل بن سعيد مرفوعاً نحوه أخرجه عبد بن حميد والطبراني والحاكم ، وعن علي بن أبي طالب قال : العمر الذي غيرهم الله به ستون سنة .

وأخرج الترمذي وابن ماجة والحاكم وابن المنذر والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوزذلك».قال الترمذي بعد إخراجه : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وعن ابن عباس في هذه الآية : هو ست وأربعون سنة ، وعنه قال : العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم فيه بقوله: أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ؟ أربعون سنة .

﴿وجاءكم النذير﴾ قال الواحدي قال جمهور المفسرين: هو النبي ﷺ، وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع والحسن بن الفضل والفراء وابن جرير: هو الشيب ويكون معناه على هذا القول: أو لم نعمركم حتى شبتم وقيل هو القرآن ، وقيل الحمى قال الأزهري معناه أن الحمى رسول الموت أي كأنها تشعر بقدومه وتنذر بمجيئه والشيب نذير أيضاً ، لأنه يأتي في سن الاكتهال ، وهو علامة لمفارقة سن الصبا الذي هو سن اللهو واللعب ، وقيل: هو موت الأهل والاقارب ، وقيل: هو كمال العقل ، وقيل: البلوغ.

﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ الفاء لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ، ومجيء النذير ، وفي «فما» للتعليل أي فذوقوا عذاب جهنم لأنكم لم تعتبروا ولم تتعظوا فما لكم ناصر يمنعكم من عذاب الله ، ويحول بينكم وبينه قال مقاتل: فذوقوا فما للمشركين من مانع يمنعهم.

﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض ﴾ قرأ الجمهور بالإضافة وقرىء بالتنوين ونصب غيب والمعنى: أنه عالم بكل شيء . ومن ذلك أعمالكم لا تخفى عليه منها خافية لو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً كما قال:﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ تعليل لما قبله لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى من كل شيء علم ما فوقها بالأولى ، وقيل: هذه الجملة مفسرة للجملة الأولى ،(وذات) تأنيث(ذو) بمعنى صاحب أي بالأمور صاحبة الصدور ، ومصاحبتها لها من حيث اختباؤها فيها .

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ جمع خليفة، ويقال للمستخلف: خليفة وخليف، ويجمع الأول على خلائف والثاني على خلفاء أي جعلكم أمة خالفة لمن قبلها. قال قتادة: خلفاً بعد خلف وقرناً بعد قرن، والخلف هو التالي للمتقدم، وقيل: جعلكم خلفاء في أرضه.

﴿فمن كفر﴾ منكم هذه النعمة ﴿فعليه كفره﴾ أي عليه ضرر كفره لا يتعداه إلى غيره ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً﴾ أي غضباً وبغضاً.

﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ أي نقصاً وهلاكاً، والمعنى أن الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيدهم إلا المقت ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يزيدهم إلا خساراً والتكرير لزيادة التكرير، والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والأصالة. ثم أمره سبحانه أن يوبخهم ويبكتهم فقال:

﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون﴾ أي أخبروني عن الشركاء الذين اتخذتموهم آلهة وعبدتموهم ﴿من دون الله﴾ أي غيره وهم الأصنام وغيرها

﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ بدل اشتمال من أرأيتم والمعنى:أخبروني عن شركائكم أروني أي شيء خلقوا من الأرض ، وقيل : إن الفعلين وهما أرأيتم وأروني من باب التنازع ، وقد أعمل الثاني على ما هو اختيار البصريين

﴿ أم لهم شرك في السموات ﴾ أي أم لهم شركة مع الله في خلقها أو ملكها أو التصرف فيها ؟ حتى يستحقوا بذلك الشركة في الإلهية .

﴿ أم آتيناهم ﴾ الضمير فيه وفي قوله لهم : الأحسن أن يعود إلى الشركاء لتناسق الضمائر ، وقيل : يعود على المشركين فيكون التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة أي:أم أنزلنا عليهم

﴿ كتاباً ﴾ بالشركة وأم في الموضعين منقطعة بمعنى : بل والهمزة فيكون قد أضرب عن الاستفهام الأول ، وشرع في استفهام آخر ، والاستفهام إنكاري .

﴿ فهم على بينة منه ﴾ أي على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب قرىء: بينة بالتوحيد وبالجمع ، قال مقاتل : يقول هل أعطينا كفار مكة كتاباً فهم على بيان بأن مع الله شريكاً ، ثم أضرب سبحانه عن هذا إلى غيره فقال :

﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾ أي ما يعد الظالمون بعضهم بعضاً ـ كما يفعله الرؤساء والقادة من المواعيد لأتباعهم ـ إلا غروراً يغرونهم به ، ويزينونه لهم ، وهو الأباطيل التي تغر ولا حقيقة لها ، وذلك قولهم : إن هذه الآلهة تنفعهم وتقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده ، وقيل : إن الشياطين تعد المشركين بذلك : وقيل : المراد بالوعد الذي يعد بعضهم بعضاً هو أنهم ينصرون على المسلمين ويغلبونهم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ أي يمنعهما من الزوال قاله الزجاج أو كراهة أن تزولا وقيل لئلا تزولا ، والجملة مستأنفة لبيان قدرة الله سبحانه وبديع صنعه بعد بيان ضعف الأصنام وعدم قدرتها على شيء ، وقيل : المعنى أن شركهم يقتضي زوال السموات والأرض كقوله :﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً أن دعوا للرحمن ولداً﴾.

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «قال وقع في قلب موسى هل ينام الله عز وجل ؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرّقه ثلاثاً وأعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما فجعل ينام وتكاد يداه تلقيان ، ثم يستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه وانكسرت القارورتان. قال ضرب الله له مثلاً: إن الله تبارك وتعالى لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض» أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والدارقطني والبيهقي في الأسماء والصفات وغيرهم وروي من طرق عن ابن سلام وابن أبي بردة .

﴿ ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ أي ما أمسكهما أحد من

بعد إمساكه أو من بعد زوالهما ، والجملة سادة مسد جواب القسم والشرط ومن الأولى زائدة والثانية ابتدائية. قال الفراء أي ولو زالتا ما أمسكهما من أحد ، قال وهو مثل قوله:﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون﴾،وقيل : المراد زوالهما يوم القيامة ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ تعليل لما قبله من إمساكه تعالى السموات والأرض .

﴿ وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ المراد قريش أقسموا قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ بهذا القسم حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، قالوا:لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم وأقسموا بالله لو جاءنا نذير لنكونن أهدى ديناً منهم فلما بعث محمد ﷺ كذبوه فأنزل الله هذه الآية والمعنى من إحدى الأمم المكذبة للرسل ، والنذير: النبي . والهدى: الاستقامة ، وكانت تتمنى أن يكون منهم رسول كما كان الرسل في بني إسرائيل ، وأنث إحدى لكون أمة مؤنثة كما قال الأخفش ، وقيل:المعنى من إحدى الأمم على العموم ، وقيل: من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلاً لها .

﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ أي ما تمنوه وهو رسول الله ﷺ الذي هو أشرف نذير وأكرم رسول وكان من أنفسهم ﴿ ما زادهم ﴾ مجيئه ﴿ إلا نفوراً ﴾ منهم عنه وتباعداً عن إجابته.

﴿ استكباراً في الأرض ﴾ أي لأجل الاستكبار والعتو ، أو بدل من نفور أو حال ، قاله الأخفش ، وهذا جواب لما ، وفيه دليل على أنها حرف لا ظرف ، إذ لا يعمل ما بعد ﴿ ما ﴾ النافية فيما قبلها وتقدمت له نظائر ، وإسناد الزيادة إلى النذير مجاز لأنه سبب في ذلك كقوله:﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾.

﴿ ومكر السيء ﴾ أي ولأجل مكر العمل السيء ، أومنكروا المكر السيىء والمكرُ هو الحيلة والخداع والعمل القبيح ، وأضيف إلى صفته كقولهم : مسجد الجامع وصلاة الأولى قرأ الجمهور: ومكر السيء بخفض همزة السيء ،وقرأ الأعمش وحمزة:بسكونها وصلاً ، وقد غلط كثير من النحاة هذه القراءة ونزهوا الأعمش على جلالته أن يقرأ بها. قالوا : وإنما كان يقف بالسكون فغلط من روى عنه أنه كان يقرأ بالسكون وصلاً ، وتوجيه هذه القراءة ممكن بأن من قرأ بها أجرى الوصل مجرى الوقف ، ومثله قراءة من قرأ :(ما يشعرْكم) بسكون الراء ومثل ذلك قراءة أبي عمر: (وإلى بارئْكم) بسكون الهمزة. وغير ذلك كثير قال أبو علي الفارسي : هذا على إجراء الوصل مجرى الوقف وقرأ ابن مسعود ومكراً سيئاً .

﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ أي لا تنزل عاقبة السوء إلا بمن أساء. قال الكلبي : يحيق بمعنى يحيط ، والحوق الإحاطة. يقال: حاق به كذا أي أحاط به ، وهذا هو الظاهر من معنى يحيق في لغة العرب ولكن قطرب فسره هنا بينزل.

﴿ فهل ينظرون ﴾ أي ما ينتظرون ﴿ إلا سنة الأولين ﴾ أي سنة الله فيهم بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي لا يقدر أحد أن يبدل سنة الله التي سنها بالأمم المكذبة من إنزال عذابه بهم ، بأن يضع موضعه غيره بدلاً عنه ، والفاء لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب .

﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ بأن يحول أحد ما جرت به سنة الله من العذاب فيدفعه عنهم ويضعه على غيرهم ونفي وجدان التبديل والتحويل كناية عن نفي وجودهما بالطريق البرهاني ، وتخصيص كل منهما بنفي مستقل لتأكيد انتفائهما .

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥)﴾

﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ هذه الجملة مسوقة لتقرير ما قبلها وتأكيده أي : ألم يسيروا في أرض الشام واليمن والعراق فينظروا ما أنزلنا بعاد وثمود ومدين وأمثالهم من العذاب لما كذبوا الرسل فإن ذلك هو من سنة الله في المكذبين التي لا تبدل ولا تحول وآثار عذابهم وما أنزل الله بهم موجودة في مساكنهم ظاهرة في منازلهم ، والهمزة للإنكار أو النفي ، والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام.

﴿ وكانوا ﴾ أي والحال أنهم كانوا ﴿ أشد منهم قوة ﴾ وأطول أعماراً وأكثر أموالاً وأقوى أبداناً فما نفعهم طول المدى ، وما أغنت عنهم شدة القوة .

﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض ﴾ أي ما كان ليسبقه ويفوته شيء من الأشياء كائناً ما كان فيهما ، وهذا تقرير لما يفهم مما قبله من استئصال الأمم السابقة.

﴿ إنه كان عليماً قديراً ﴾ أي كثير العلم كثير القدرة لا يخفى عليه شيء ولا يصعب عليه أمر ، وهذا تعليل لذلك التقرير .

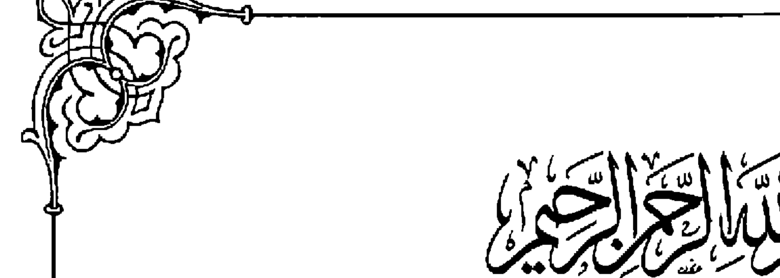
﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ﴾ من الذنوب وعملوا من الخطايا ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ أي الأرض ﴿ من دابة ﴾ من الدواب التي تدب كائنة ما كانت ، أما بنو آدم فلذنوبهم ، وأما غيرهم فلشؤم معاصي بني آدم وقيل المراد: ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب من بني آدم ، والجن . وقال

بالأول ابن مسعود وقتادة ، وقال بالثاني الكلبي ، وقال ابن جريج والأخفش والحسين بن الفضل : أراد بالدابة هنا:الناس وحدهم دون غيرهم .

أخرج الفريابي وغيره عن ابن مسعود قال : إنه كاد الجعل ليعذب في حجره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ هذه الآية قيل : وجه الملاءمة بين الشرط والجزاء أنه تعالى إذا كان يؤاخذ الناس بما كسبوا كان ينقطع عنهم النعم التي من جملتها المطر،فإذا انقطع عنهم المطر انقطع النبات فيموت جميع الحيوانات فهذا كناية أريد بها الملزوم وقوله:على ظهرها فيه استعارة مكنية قال قتادة:وقد فعل ذلك في زمن نوح ، وقال يحيى بن سلام . يحبس الله المطر فيهلك كل شيء ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ وهو يوم القيامة .

﴿ فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ أي بمن يستحق منهم الثواب ومن يستحق منهم العقاب وفي هذا تسلية للمؤمنين ووعيد للكافرين والعامل في (إذا) هو : جاء لا (بصيراً) .





سورة يس

﴿هي ثلاث أو ثنتان وثمانون آية﴾

والأول أولى :

وهي مكيّة . قال القرطبي بالإجماع إلا أن فرقة قالت : ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا الى جوار مسجد رسول الله ﷺ وسيأتي بيان ذلك[1] .

وعن ابن عباس قال : نزلت بمكة وعن عائشة مثله .

وأخرج الدارمي والترمذي ومحمد بن نصر والبيهقي في الشعب عن أنس قال: «قال رسول اللّه ﷺ ، ان لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس ، من قرأ يس كتب له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات »[2] قال

---

(١) قد ذكر ابو سليمان الدمشقي انها مدنية وقال : ليس بالمشهور.

(٢) اتفق المحدثون على أن من علامات وضع الحديث أن يكون فيه أجر كبير جداً على عمل قليل ، فكيف يصح أن من قرأ يس كان له أجر من قرأ القرآن عشر مرات . وهو حديث موضوع اخرجه الترمذي ٤٦/٤ والدارمي ٤٥٦/٢ وابن كثير في تفسير ٥٦٣/٣ .

الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن ، وفي إسناده هرون أبو محمد ، وهو شيخ مجهول .

وفي الباب عن أبي بكر ، ولا يصح لضعف إسناده . وأخرج الدارمي وأبو يعلى والطبراني والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له في تلك الليلة »[1] قال ابن كثير اسناده جيد .

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة والطبراني وابن حبان والحاكم والبيهقي عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القران لا يقرؤها عبد يريد الله والدار الآخرة الا غفر له ما تقدم من ذنبه . فاقرؤوها على موتاكم »[2]. وقد ذكر له أحمد اسنادين أحدهما فيه مجهول والآخر ذكر فيه عن أبي عثمان، وقال ليس بالنهدي عن أبيه عن معقل .

وأخرج الطبراني وابن مردويه قال السيوطي : بسند ضعيف عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من داوم على قراءة يس كل ليلة ثم مات مات شهيداً » .

---

(١) ضعيف الجامع ٥٧٩٧ و٥٧٩٨و٥٧٦٦ و٥٨٠٠ و٥٨٠١ .

(٢) قال العلماء : معنى (على موتاكم) أي من حضره الموت ، وذلك لكي يسمع ما فيها من آيات التوحيد والبعث والجزاء - عند مفارقته للدنيا .
أما من مات فعلاً فلا يقرأ عليه يس ولا غيرها .
وفي النية أن ننشر في آخر تفسير هذه السورة ملحق به أبحاث طويلة للمنار وغيره يظهر به الحق في هذه المسألة وموقف ابن تيمية وابن القيم منها فليراجع . وقد نقل عن أحمد قوله : « كانت المشيخة يقولون : اذا قرئت عند الميت خفف الله عنه بها .

بسم الله الرحمن الرحيم

يس ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾

﴿ يس ﴾ قرأ الجمهور بسكون النون وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وخفص وقالون وورش بإدغام النون في الواو التي بعدها ، وقرىء بفتح النون وبكسرها ، فالفتح على البناء أو على أنه مفعول فعل مقدر تقديره : اتل يس والكسر على البناء أيضاً كجير ، وقيل الفتح والكسر للفرار من التقاء الساكنين ، وأما وجه قراءة الجمهور فلكونها مسرودة على نمط التعديد فلا حظ لها من الإعراب ، وقرىء بضم النون على البناء كمذ وحيث ، وقط .

وقيل على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هذه يس ، ومنعت من الصرف للعلمية والتأنيث ، واختلف في معنى هذه اللفظة فقيل : معناها يا رجل ، أو يا إنسان. قال ابن الأنباري : الوقف على يس حسن لمن قال: هو افتتاح السورة .

ومن قال: معناه يا رجل لم يقف عليه ، وقال سعيد بن جبير وغيره: هو اسم من أسماء محمد صلى الله عليه وسلم دليله إنك لمن المرسلين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ أي آل محمد ومنه قول الشاعر:

يا نفس لا تمحضي بالنصح جاحدة ... على المودة إلا آل ياسينا

وسيأتي في الصافات ما المراد بآل ياسين ، قال الواحدي قال ابن عباس والمفسرون : يريد يا إنسان يعني: محمداً صلى الله عليه وسلم ، وقال أبو بكر الوراق : معناه يا سيد البشر ، وقال مالك: هو اسم من أسماء الله تعالى. روي ذلك عنه أشهب ، وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق أن معناه يا سيد وقال كعب: هو قسم أقسم الله به ورجح الزجاج أن معناه يا محمد .

واختلفوا هل هو عربي أو غير عربي ؟ فقال سعيد بن جبير وعكرمة حبشي ، وقال الكلبي: سرياني ، تكلمت به العرب فصار من لغتهم ، وقال الشعبي :هو بلغة طي ، وقال الحسن:هو بلغة كلب وقد تقدم في طه وفي مفتتح سورة البقرة ما يغني عن التطويل ههنا ، والأولى أن يقال:الله أعلم بمراده به .

﴿ والقرآن الحكيم ﴾ بالجر على أنه مقسم به ابتداء ، وقيل هو معطوف على يس على تقدير كونه مجروراً بإضمار القسم ، قال النقاش لم يقسم الله لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم تعظيماً له وتمجيداً. والحكيم المحكم الذي لا يتناقض ولا يتخالف، أو الحكيم قائله أو ذي الحكمة ، أو لأنه دليل ناطق بالحكمة بطريق الاستعارة أو متصف بها ، والمتصف على الإسناد المجازي ، وجواب القسم .

﴿إنك لمن المرسلين﴾ الذين أرسلوا على طريقه مستقيمة، وهذا رد على من أنكر رسالته من الكفار بقولهم: (لست مرسلاً)، وقوله:

﴿ على صراط مستقيم ﴾ خبر آخر لإن، أي: إنك على الطريق القيم الموصل إلى المطلوب. قال الزجاج: على طريقة الأنبياء الذين تقدموك ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال .

﴿تنزيل العزيز الرحيم ﴾ قرأ نافع وغيره برفع تنزيل على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هو تنزيل ، ويجوز أن يكون خبراً لقوله«يس» إن جعل اسماً للسورة ، وقرىء بالنصب على المصدرية أي نزل الله ذلك تنزيل العزيز ، والمعنى: أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم ، وقيل:المعنى إنك يا محمد تنزيل العزيز والأول أولى ، وقيل : هو منصوب على المدح على قراءة النصب ، وعبر سبحانه عن المنزل بالمصدر مبالغة ، حتى كأنه نفس التنزيل ، وقرىء بالجر على النعت للقرآن أو البدل منه واللام في قوله :

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿ لتنذر ﴾ يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفعل مضمر يدل عليه لمن المرسلين أي أرسلناك لتنذر ﴿ قوماً ﴾ أي العرب وغيرهم .

﴿ ما أنذر ﴾ ما:هي النافية أي لم تنذر ﴿ آباؤهم ﴾ ويجوز أن تكون ما موصولة أو موصوفة أي :لتنذر قوماً الذي أنذر آباؤهم ، أو لتنذرهم عذاباً أنذره آباؤهم ، أو مصدرية أي إنذار آبائهم ، وعلى القول بأنها نافية المعنى ما أنذر آباؤهم برسول من أنفسهم ، ويجوز أن يراد ما أنذر آباؤهم الأقربون لتطاول مدة الفترة ، وإلا فآباؤهم الأبعدون قد أنذروا بإسماعيل وبعيسى ومن قبلهما .

﴿ فهم غافلون ﴾ أي فهم بسبب ذلك غافلون أو فهم غافلون عما أنذرنا به آباءهم، قال أبو السعود : الضمير للفريقين أي فهم جميعاً غافلون وقد ذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المعنى على النفي ، وهو الظاهر من النظم القرآني لترتيب فهم غافلون على ما قبله .

﴿لقد حق القول﴾ اللام هي الموطئة للقسم، أي والله لقد ثبت وتحقق ووجب القول أي: الحكم والقضاء الأزلي أو العذاب ﴿على أكثرهم﴾ أي أكثر أهل مكة أو أكثر الكفار على الإطلاق أو أكثر كفار العرب، وهم من مات على الكفر وأصر عليه طول حياته، فيتفرع قوله:

﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ على ما قبله بهذا الاعتبار ، أي لأن الله سبحانه قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر والموت عليه ، وقيل : المراد

بالقول المذكور هنا قوله سبحانه : ﴿فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك﴾ ، وقيل نزلت هذه الآية في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين وجملة ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ تقرير لما قبلها مثلت حالهم بحال الذين غلت أعناقهم .

﴿ فهي ﴾ أي الأغلال منتهية ﴿ إلى الأذقان ﴾ جمع ذقن . وهو أسفل اللحيين لأن الغل يجمع اليد إلى العنق فلا يقدرون عند ذلك على الالتفات ، ولا يتمكنون من عطفها لأن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن ، حلقة فيها رأس العمود ، خارجاً من الحلقة إلى الذقن ، فلا يخليه يطأطىء رأسه فلا يزال مقمحاً وهو معنى قوله :

﴿ فهم مقمحون ﴾ أي رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم ، قال الفراء والزجاج :المقمح الغاض بصره بعد رفع رأسه ومعنى الإقماح :رفع الرأس وغض البصر ، يقال : أقمح البعير رأسه وقمح : إذا رفع رأسه ولم يشرب الماء .

قال الأزهري : أراد الله أن أيديهم لما غلت عند أعناقهم رفعت الأغلال إلى أذقانهم ورؤوسهم صعداء فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال إياها ، وقال قتادة : معنى مقمحون مغلولون والأول أولى .

وقال أبو عبيدة :قمح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب ، وعنه أيضاً: هو مثل ضربه الله لهم في امتناعهم عن الهدى كامتناع المغلول ، كما يقال : فلان حمار أي لا يبصر الهدى ، قال الفراء : هذا ضرب مثل أي حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله ، وهو كقوله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ وبه قال الضحاك .

وقيل : الآية إشارة إلى ما يفعل بقوم في النار من وضع الأغلال في أعناقهم كما قال تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم ﴾ وقرأ ابن عباس: ﴿ إنا جعلنا في أيمانهم أغلالاً ﴾ قال الزجاج أي في أيديهم ، قال النحاس : وهذه القراءة تفسير ، ولا يقرأ بما خالف المصحف ، قال : وفي الكلام حذف على

قراءة الجماعة أي: إنا جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغلالاً فهي إلى الأذقان .

فلفظ ﴿ هي ﴾ كناية عن الأيدي لا عن الأعناق والعرب تحذف مثل هـذا ونظير ﴿ سـرابيـل تقيكم الحـر ﴾ أي وسـرابيـل تقيكم البـرد لأن مـا وقى من الحر وقى من البرد لأن الغل إذا كان في العنق فلا بد أن يكون في اليد ، ولا سيما وقد قال الله: ﴿فهي إلى الأذقان﴾ فقد علم أنه يراد به الأيدي فهم مقمحون ، أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق لأن من غلت يداه إلى ذقنه ارتفع رأسه .

وروي عن ابن عباس أنه قرأ ﴿ إنا جعلنا في أيديهم أغلالاً ﴾ وعن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ إنا جعلنا في أيمانهم أغلالاً ﴾ كما روي سـابقاً عن ابن عباس ، وعنه قال : الأغلال ما بين الصدر إلى الذقن فهم مقمحون كما تقمح الدابة باللجام[1].

﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ﴾ أي منعناهم عن الإيمان بموانع فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان كالمضروب أمامه وخلفه بالأسداد ، والسد: بضم السين وفتحها لغتان. قال الضحاك : سداً أي الدنيا وسداً أي الآخرة ، قيل : بالعكس ﴿ فأغشيناهم ﴾ بالغين المعجمة أي غطينا أبصارهم على حذف مضاف ، وقرىء: بالعين المهملة من العشا ، وهو ضعف البصر ، ومنه : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن ﴾ فهم بسبب ذلك .

﴿ لا يبصرون ﴾ أي لا يقدرون على إبصار شيء ، قال الفراء: فألبسنا أبصارهم غشاوة أي عمى ، فهم لا يبصرون سبيل الهدى ، وكذا قال قتادة إن المعنى لا يبصرون الهدى ، وقال السدي : لا يبصرون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم حين ائتمروا على قتله .

وعن ابن عباس قال : في السد كانوا يمرون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا يرونه ، وعنه أيضاً قال : « اجتمعت قريش بباب النبي صلى

(١) زاد المسير ٦/٧ .

الله عليه وسلم ينتظرون خروجه ليؤذوه فشق ذلك عليه ، فأتاه جبريل بسورة يس وأمره بالخروج عليهم ، فأخذ كفاً من تراب وخرج وهو يقرؤها ويذر التراب على رؤوسهم ، فما رأوه حتى جاز فجعل أحدهم يلمس رأسه فيجد التراب ، وجاء بعضهم فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا ننتظر محمداً فقال : لقد رأيته داخل المسجد ، قال : قوموا فقد سحركم »[1] .

قال الضحاك في الآية أي عموا عن البعث ، وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ ، قال البيضاوي ، هذا تمثيل آخر بمن أحاط بهم سدان فغطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في مطمورة الجهالة ، ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل .

﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ أي إنذارك إياهم وعدمه سواء ، وهذا بيان لشأنهم بطريق التوبيخ بعد بيانه بطريق التمثيل ، وجملة : ﴿لا يؤمنون ﴾ مستأنفة مبينة لما قبلها من الاستواء أو حال مؤكدة أو بدل منه .

وروي أن عمر بن عبد العزيز قرأ هذه الآية على غيلان القدري . فقال : كأني لم أقرأها أشهدك أني تائب عن قولي في القدر. فقال عمر : « اللهم إن صدق فتب عليه ، وإن كذب فسلط عليه من لا يرحمه » ، فأخذه هشام ابن عبد الملك من عنده فقطع يديه ورجليه وصلبه على باب دمشق .

وعن ابن عباس في الآية قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المسجد فجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه وإذا أيديهم مجموعة بأعناقهم ، وإذا هم عمي لا يبصرون ، فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ننشدك الله والرحم يا محمد ، قال :ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم حتى ذهب ذلك عنهم ، فنزلت: «يس إلى قوله : لا يؤمنون » ، قال : فلم يؤمن من ذلك النفر أحد وفي الباب روايات في سبب نزول ذلك هذه الرواية أحسنها وأقربها إلى الصحة .

(١) وتمام القصة في سيرة ابن هشام ١/٤٨٤

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾

وقال الزجاج في الآية : أي من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار ، وإنما ينفع الإنذار من ذكر في قوله : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ أي القرآن ﴿وخشي الرحمن بالغيب ﴾ أي في الدنيا .

﴿ فبشره ﴾ الفاء لترتيب البشارة أو الأمر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية أي بشر هذا الذي اتبع الذكر ﴿ بمغفرة ﴾ عظيمة ﴿ وأجر كريم﴾ أي حسن ، وهو الجنة ، ثم أخبر سبحانه بإحيائه الموتى فقال :

﴿ إنا نحن نحيي الموتى ﴾ أي نبعثهم بعد الموت ، وقال الحسن والضحاك : أي نحييهم بالإيمان بعد الجهل، والأول أولى ، وهو بيان لشأن عظيم ، ينطوي على الإنذار والتبشير انطواء إجمالياً ثم توعدهم بكتب آثارهم فقال : ﴿ ونكتب ﴾ في صحف الملائكة .

﴿ ما قدموا ﴾ أي أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿ وآثارهم ﴾ أي ما أبقوه من الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت كمن سن سنة حسنة كعلم علموه أو كتاب صنفوه ، أو حبس حبسوه ، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط ، أو قنطرة ، أو نحو ذلك ، أو السيئات التي تبقى بعد موت فاعلها ، كمن سن سُنة سيئة كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين وسكة أحدثها فيها تخسيرهم ، وشيء أحدث فيه صد عن ذكر الله من ألحان وملاهٍ ونحو ذلك[1] . قال مجاهد وابن

(١) من قال معنى آثارهم «خطاهم بأرجلهم استدلوا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليكم منازلكم فانما تكتب اثاركم» رواه الترمذي ٢ / ١٥٥ ومن قال انه الخطا الى الجمعة ومن قال:انه من سنه سنة حسنة أو سيئة .

زيد : نظيره قوله :﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾، وقوله﴿ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾،وقيل: المراد بالآية آثار المشائين إلى المساجد ، وبه قال جماعة من الصحابة والتابعين ، قال النحاس: وهو أولى ما قيل في الآية لأنها نزلت في ذلك ، ويجاب عنه بأن الاعتبار بعموم الآية لا بخصوص سببها ، وعمومها يقتضي كتب جميع آثار الخير والشر ، والإحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لأمره ، فلهذا قدم الإحياء .

وقرى: نكتب على البناء للفاعل وللمفعول .

عن أبي سعيد الخدري قال : « كان بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إنه يكتب آثارهم ثم قرأ عليهم الآية فتركوا » أخرجه الترمذي وحسنه ، والبزار والحاكم وصححه ، وغيرهم .

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث جابر قال : «إن بني سلمة أرادوا أن يبيعوا ديارهم ويتحولوا قريباً من المسجد فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم »[1] .

﴿ وكل شيء ﴾ من أعمال العباد وغيرها كائناً ما كان ، وقرأ الجمهور بنصب كل على الاشتغال ، وقرىء بالرفع على الابتداء ﴿أحصيناه في إمام ﴾ أي كتاب مقتدى به ﴿ مبين ﴾ موضح لكل شيء ، قال مجاهد وقتادة وابن زيد:أراد اللوح المحفوظ ، وقالت فرقه: أراد صحائف الأعمال .

﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ﴾ قد تقدم الكلام على نظير هذا في البقرة والنمل ، والمعنى اضرب لأجلهم مثلاً أو اضرب لأجل نفسك أصحاب القرية مثلاً ، أي مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية ؛ فعلى الأول: لما قال

---

(١) رواه الطبري ٢٢/١٥٤ والحاكم ٢/٤٢٨ والواحدي/ ٢٠٩ ومسلم ١/٤٦٢ .

تعالى : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ وقال : ﴿ لتنذر قوماً ﴾ قال قل لهم : ما أنا بدعاً من الرسل ، فإن قبلي بقليل جاء أصحاب القرية المرسلون وأنـذروهم بما أنذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار المقامة ، وعلى الثاني لما قال : إن الإنذار لا ينفع من أضله الله : وكتب عليه أنه لا يؤمن قال للنبي صلى الله عليه وسلم : اضرب لنفسك ولقومك مثلاً ، أي مثل لهم عند نفسك مثلاً بأصحاب القرية ، حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على الإيذاء وأنت جئت إليهم واحداً ، وقومك أكثر من قوم الثلاثة فإنهم جاؤوا إلى أهل قرية وأنت بعثتك إلى الناس كافة :

والمعنى : واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية ، أي اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية فترك المثل وأقيم أصحاب القـرية مقـامه في الإعراب . وقيل لا حاجة إلى الإضمار ، بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلاً على أن يكون مثلاً .

وأصحاب القرية مفعولين لـ (اضرب) أو يكون أصحاب القرية بدلاً من ﴿مثلاً ﴾ وقد قدمنا الكلام على المفعول الأول من هذين المفعولين ؛ هل هو ﴿مثلاً ﴾ و ﴿ أصحاب القرية ﴾ وقد قيل : إن ضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها ، كما في قوله : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ ويستعمل أخرى في ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها كما في قوله : ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾ أي بينا لكم أحوالاً بديعة غريبة هي في الغرابة كالأمثال .

فقوله سبحانه هنا ﴿ واضرب لهم مثلاً ﴾ يصح اعتبار الأمرين فيه . قال القرطبي : هذه القرية هي انطاكية في قول جميع المفسرين ، وبه قال ابن عباس وبريدة ، وهي ذات أعين وسور عظيم من صخر داخله خمسـة أجبل ، دورها اثني عشر ميلاً ، والعواصم بلاد قصبتها انطاكية ، وهي بأرض الروم .

﴿ إذ جاءها المرسلون ﴾ بدل اشتمال من أصحاب القرية ، والمرسلون

هم أصحاب عيسى بعثهم إلى أهل انطاكية للدعاء إلى الله وكانوا عبدة أوثان ، وإنما أضاف سبحانه الإرسال إلى نفسه في قوله :

﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ لأن عيسى أرسلهم بأمر الله سبحانه ويجوز أن يكون أرسلهم الله بعد رفع عيسى إلى السماء من غير واسطة ﴿ فكذبوهما ﴾ في الرسالة ، وقيل ضربوهما وسجنوهما ، وقيل : واسم الاثنين : يوحنا وشمعون ، وقيل : اسماء الثلاثة صادق ومصدوق وشلوم ، قاله ابن جرير وغيره . وقيل : شمعان ويوحنا وبولس ، وقال وهب : اسمهما يحيى وبولس ، وقال كعب : صادق وصدوق .

﴿ فعززنا بثالث ﴾ قرىء بتشديد الزاي وتخفيفها . قال الجوهري : فعززنا يخفف ويشدد أي قوينا وشددنا فالقراءتان على هذا بمعنى ، وقيل : التخفيف بمعنى غلبنا وقهرنا ، ومنه ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ ، والتشديد بمعنى قوّينا وكثرنا ، قيل : وهذا الثالث هو شمعون ، وقيل غيره - وعن ابن عباس قال : « كان بين موسى بن عمران وبين عيسى بن مريم ألف سنة وتسعمائة سنة ، ولم تكن بينهما فترة وإنه أرسل بينهما ألف نبي من بني إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم ، وكان بين ميلاد عيسى والنبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، بعث في أولها ثلاثة أنبياء .

وهو قوله : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ والذي عزز به شمعون ، وكان من الحواريين وكانت الفترة التي لم يبعث الله فيها رسولاً أربعمائة سنة وأربعاً وثلاثين سنة[1] أخرجه ابن سعد وابن عساكر .

﴿ فقالوا : إنا إليكم مرسلون ﴾ أي قال الثلاثة جميعاً ؛ وجاؤوا بكلامهم هذا مؤكداً لسبق التكذيب للاثنين والتكذيب بهما تكذيب للثالث لأنهم أرسلوا جميعاً بشيء واحد وهو الدعاء إلى الله عز وجل ، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : ما قال هؤلاء الرسل بعد التعزيز لهم بثالث ؟ وكذلك جملة :

(١) زاد المسير ٧/١١ .

قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ فإنها مستأنفة ، كأنه قيل : فما قال لهم أهل أنطاكية ؟ فقيل : ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أي مشاركون لنا في البشرية فليس لكم مزية علينا تختصون بها ، والخطاب للثلاثة ، ثم صرحوا بجحود إنزال الكتب السماوية فقالوا : ﴿ وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ مما تدعونه أنتم ويدعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل وأتباعهم ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾ في دعوى ما تدعون من ذلك .

﴿ قالوا ﴾ أي فأجابوهم بإثبات رسالتهم بكلام مؤكد تأكيداً بليغاً لتكرر الإنكار من أهل أنطاكية ، وهو قولهم : ﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ فأكدوا الجواب بالقسم الذي يفهم من قولهم ربنا يعلم وبإن وباللام .

قال الزمخشري : ووجه التكرار أن الأول ابتداء إخبار ، والثاني جواب عن إنكار انتهى ، وهذا مخالف لما في المفتاح من أنهم أكدوا في المرة الأولى لأن تكذيب الاثنين تكذيب للثالث لاتحاد المقالة ، فلما بالغوا في تكذيبهم زادوا التأكيد ، وما ذهب إليه الزمخشري نظراً إلى أن مجموع الثلاثة لم يسبق منهم إخبار ولا تكذيب لهم في المرة الأولى ، فالتأكيد فيها للاعتناء والاهتمام بالخبر . انتهى ، قاله الشهاب .

﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ أي ما يجب علينا من جهة ربنا إلا تبليغ رسالته على وجه الظهور والوضوح بالأدلة الواضحة . وهي إبراء الأكمه والأبرص والمريض ، وإحياء الميت ، وليس علينا غير ذلك ، وهذه جملة

مستأنفة كالتي قبلها ، وكذلك جملة :

﴿ قالوا : إنا تطيرنا بكم ﴾ فإنها مستأنفة جواباً عن سؤال مقدر ، أي إنا تشاءمنا بكم لانقطاع المطر عنا بسببكم . لم يجدوا جواباً يجيبون به على الرسل إلا هذا الجواب ، المبني على الجهل ، المنبىء عن الغباوة العظيمة وعدم وجود حجة يدفعون الرسل بها ، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم بلاء أو نعمة قالوا بشؤم هذا وبركة هذا .

قال مقاتل : حبس عنهم المطر ثلاث سنين فقالوا : هذا بشؤمكم. قيل : إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين ، وقيل : إنما تطيروا لما بلغهم من أن كل نبي إذا دعا قومه فلم يجيبوه كان عاقبتهم الهلاك ، وأصل التطير التفاؤل بالطير ، فإنهم كانوا يزعمون أن الطائر السانح سبب للخير ، والبارح سبب للشر ، ثم استعمل في كل ما يتشاءم به .

وفي المختار : وطائر الإنسان عمله الذي قلده ، والطير أيضاً الاسم من التطير ومنه قولهم : لا طير إلا طير الله وتطير من الشيء وبالشيء والاسم الطيرة بوزن عنبة ، وهو ما يتشاءم به من الفأل الرديء .

وفي الحديث: « أنه كان يحب الفأل ويكره الطيرة » ، وقوله تعالى : ﴿ قالوا : اطيرنا بك ﴾ أصله تطيرنا فأدغم ، ثم رجعوا إلى التجبر والتكبر لما ضاقت صدورهم ، وأعيتهم العلل فقالوا :

﴿ لئن لم تنتهوا ﴾ اللام للقسم ، أي والله لئن لم تتركوا هذه الدعوى وتعرضوا عن هذه المقالة : ﴿ لنرجمنكم ﴾ بالحجارة ، قال الفراء : عامة ما في القرآن من الرجم المراد به القتل ، وقال قتادة: هو على بابه من الرجم بالحجارة .

﴿وليمسّنكم منا عذاب أليم ﴾ أي شديد فظيع ، وقيل : معناه التحريق بالنار أو القتل ، وقيل : الشتم ، وقيل : هو التعذيب المؤلم من غير تقييد بنوع

خاص ، وهذا هو الظاهر لكنهم حنثوا في هذا القسم لأنهم لم يتمكنوا من بره لإهلاك الله لهم .

ثم أجاب عليهم الرسل دفعاً لما زعموه من التطير بهم و﴿ قالوا : طائركم معكم ﴾ أي شؤمكم معكم من جهة أنفسكم لازم في أعناقكم ، وليس هو من شؤمنا. قال الفراء :طائركم أي رزقكم وقدركم وعملكم ، وبه قال قتادة ، وقرأ الجمهور : طائركم اسم فاعل . أي ما طار لكم من الخير والشر ، وقرأ الحسن : اطيركم أي تطيركم .

﴿ أئن ذكرتم ﴾ قرىء بهمزة استفهام بعدها إن الشرطية على الخلاف بينهم في التسهيل والتخفيف وإدخال ألف بين الهمزتين وعدمه ، وقرىء بهمزتين مفتوحتين وقرىء أين على صيغة الظرف .

واختلف سيبويه ويونس إذا اجتمع استفهام وشرط أيهما يجاب ؟ فذهب سيبويه إلى أنه يجاب بالاستفهام ، وذهب يونس إلى أنه يجاب بالشرط ، وعلى القولين فالجواب هنا محذوف ، أي أئن ذكرتم ووعظتم وخوفتم فتطيرتم لدلالة ما تقدم عليه وقرىء :أن ذكرتم بهمزة مفتوحة أي لأن ذكرتم ، والقراآت كلها سبعية ، ثم أضربوا عما يقتضيه الاستفهام والشرط من كون التذكير سبباً للشؤم أو مصححاً للتوعد فقالوا :

﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ أي ليس الأمر كذلك ، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في المعصية ، فمن ثم أتاكم الشؤم من قبلكم . لا من قبل رسل الله وتذكيرهم ، أو بل أنتم مسرفون في تطيركم ، قاله قتادة . وقال يحيى بن سلام مسرفون في كفركم ، وقال ابن بحر : السرف هنا الفساد ، والإسراف في الأصل مجاوزة الحد في مخالفة الحق ، أي متجاوزون الحد بشرككم ، وهذا لا ينافي كون أهل أنطاكية أول المؤمنين برسل عيسى ، فإن الملك وقومه آمنوا وهلاك قاتلي حبيب لا يستلزم هلاك أهل أنطاكية .

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿ وجاء من أقصى المدينة ﴾ وهي القرية السابق ذكرها وعبر عنها هنا بالمدينة إشارة لكبرها واتساعها ﴿ رجل يسعى ﴾ هو حبيب بن مري وكان نجاراً ، وقيل : إسكافاً ، وقيل قصاراً ، وقال مجاهد ومقاتل : هو حبيب بن اسرائيل النجار ، وكان ينحت الأصنام ، وقال وهب : كان يعمل الحرير .

وقال قتادة : كان يعبد الله في غار فلما سمع بخبر الرسل جاء يسعى ، أي يشتد عدواً .

وقال ابن عباس : اسم صاحب يس حبيب وكان الجذام قد أسرع فيه قال القرطبي :وهو ممن آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ، ولم يؤمن أحد بنبي غير نبينا ، صلى الله عليه وسلم إلا بعد ظهوره وأما نبينا فآمن به قبل ظهوره كثير ، انتهى .وفيه من البعد والضعف ما لا يخفى ويدفعه قوله سبحانه :

﴿ قال : يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ أي رسل عيسى عليه السلام ، ولم يذكر نبينا صلى الله عليه وسلم ولا دلت الآية عليه. والجملة مستأنفة كأنه قيل فماذا قال لهم عند مجيئه ؟ فقيل: قال إلخ ، أي اتبعوا هؤلاء الذين أرسلوا إليكم فإنهم جاؤوا بحق ، ثم أكد ذلك وكرره فقال :

﴿ اتبعوا من لا يسألكم ﴾ بدل من المرسلين بإعادة العامل أو تابع له ﴿ أجراً ﴾ على ما جاؤوكم به من الهدى ﴿ وهم ﴾ أي الرسل ﴿ مهتدون ﴾ ولو

كانوا متهمين بعدم الصدق لسألوكم المال ، فاهتدوا أنتم أيضاً تبعاً لهم ، ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه ، وهو يريد مناصحة قومه فقال :

﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني ﴾ أي أيُّ مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقني ، ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه بل أرادهم بكلامه فقال :

﴿ وإليه ترجعون ﴾ أضاف الفطرة إلى نفسه ، والرجوع إليهم لأن الفطرة أثر النعمة وكانت عليه أظهر والرجوع فيه معنى الزجر ، فكان بهم أليق ، ولذلك لم يقل : إليه أرجع ، وفيه مبالغة في التهديد وهذه الطريقة أحسن من ادعاء الالتفات ثم عاد إلى المساق الأول وهو التلطف في الإرشاد والنصيحة لقصد التأكيد ومزيد الإيضاح فقال :

﴿ أأتخذ من دونه ﴾ أي غيره ﴿ آلهة ﴾ فجعل الإنكار متوجهاً إلى نفسه ، وهم المرادون به أي لا أتخذ من دون الله آلهة وأعبدها ، وأترك عبادة من يستحقها وهو الذي فطرني . ثم بين حال هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله سبحانه إنكاراً عليهم وبياناً لضلال عقولهم وقصور إدراكهم فقال :

﴿ إن يردن الرحمن بضر ﴾ أي بسوء ومكروه شرط وجوابه ﴿ لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ﴾ من النفع كائناً ما كان أي لا شفاعة لها فتغني عني ﴿ ولا ينقذون ﴾ من ذلك الضر الذي أرادني الرحمن به وهذه الجملة صفة لآلهة أو مستأنفة لبيان حالها في عدم النفع والدفع .

﴿ إني إذاً ﴾ أي إني إذاً اتخذت من دونه آلهة وعبدت غير الله ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ ظاهر واضح لأن إيثار ما لا ينفع ولا يدفع ضراً بوجه ما على الخالق المقتدر على النفع والضر وإشراكه به ضلال بيِّن لا يخفى على عاقل ، وهذا تعريض بهم كما سبق ، والضلال الخسران .

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ثم صرح بإيمانه تصريحاً لا يبقى بعده شك فقال : ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ بكسر النون ، وهي نون الوقاية ، وهي اللغة العالية وقرىء بفتحها ، وهي غلط . قال المفسرون: أراد القوم قتله فأقبل هو على المرسلين فقال: إني آمنت بربكم أيها الرسل فاسمعوا إيماني ، واشهدوا لي به .

وقيل:إنه خاطب بهذا الكلام قومه لما أرادوا قتله تصلباً في الدين ، وتشدداً في الحق وعدم المبالاة بالقتل ، فلما قال هذا القول وصرح بالإيمان وثبوا عليه فقتلوه ، وقيل وطؤوه بأرجلهم

وقال الحسن : حرقوه حرقاً وعلقوه في سور المدينة ، وقبره في سور أنطاكية حكاه الثعلبي . وقيل: حفروا له حفيرة وألقوه فيها ، وقيل: إنهم لم يقتلوه بل رفعه الله إلى السماء وهو في الجنة ، وبه قال الحسن . وقال السدي: رموه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي ، حتى قتلوه . وقيل نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه ، فوالله ما خرجت روحه إلا في الجنة فدخلها فذلك قوله تعالى:

﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ أي قيل له ذلك عند موته تكريماً له بدخولها بعد قتله كما هي سنة الله في شهداء عباده ولم يذكر لفظ ﴿ له ﴾ في نظم الآية لأن الغرض بيان القول دون المقول له فإنه معلوم ، وعلى قول من قال إنه رفع إلى السماء ولم يقتل يكون المعنى: إنهم أرادوا قتله فنجاه الله من القتل وقيل له: ادخل الجنة وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن ، وعليه فالأمر أمر تكوين لا أمر امتثال على حد قوله: أن يقول له كن فيكون ، فالمعنى أدخله الله الجنة سريعاً

فلما دخلها ورأى نعيمها وشاهدها .

﴿ قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أي فماذا قال بعد أن قيل له : ادخل الجنة فدخلها ؟ فقال ياليت قومي . .الخ .وهم الذين قتلوه فنصحهم حياً وميتاً .

قال ابن أبي ليلى : سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين علي بن أبي طالب ، وهو أفضلهم ، ومؤمن آل فرعون ، وصاحب يس وهم الصديقون . ذكره الزمخشري و﴿ما﴾ في ﴿ بما ﴾ هي المصدرية ، وقيل موصولة أي بالذي غفر لي ربي ، والباء صلة يعلمون ، والعائد محذوف ، أي غفره لي ربي ، واستضعف هذا لأنه لا معنى لتمنيه أن يعلم قومه بذنوبه المغفورة وليس المراد إلا التمني منه بأن يعلم قومه بغفران ربه له ، وإليه أشار في التقرير ، وقال الفراء : إنها استفهامية جاءت على الأصل بمعنى التعجب .

والباء صلة غفر كأنه قال بأي شيء غفر لي ربي يريد به المهاجرة عن دينهم ، والمصابرة على أذيتهم ، قال الكسائي : لو صح هذا لقال : بم من غير ألف ، ويجاب عنه بأنه قد ورد في لغة العرب إثباتها وإن كان مكثوراً بالنسبة إلى حذفها وفي معنى تمنيه قولان : أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته إرغاماً لهم ، وقيل : إنه تمنى أن يعلموا بذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله ، ولما وقع ما وقع منهم مع حبيب النجار غضب الله له وعجل لهم النقمة ، وأهلكهم بالصيحة فقال :

﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده ﴾ أي على قوم حبيب النجار من بعد قتلهم له أو من بعد رفع الله له إلى السموات على الاختلاف السابق .

﴿ من جند من السماء ﴾ لإهلاكهم وللانتقام منهم ، أي لم نحتج إلى إرسال جنود من السماء لإهلاكهم كما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم : « يوم بدر من إرسال الملائكة لنصرته وحرب أعدائه »[1] ، وذلك لأن الله

(١) راجع ما ذكرناه في سورة الأنفال حول نزول الملائكة .

أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض لحكمة اقتضت ذلك ، وعن ابن مسعود في الآية قال : يقول ما كابدناهم بالجموع ، أي الأمر أيسر علينا من ذلك .

﴿ وما كنا منزلين ﴾ أي وما صح في قضائنا وحكمتنا أن ننزل لإهلاكهم جنداً لسبق قضائنا وقدرنا بأن إهلاكهم بالصيحة لا بإنزال الجند ، وقال قتادة ومجاهد والحسن: أي ما أنزلنا عليهم من رسالة من السماء ولا نبي بعد قتله ، وروي عن الحسن أنه قال: هم الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء والظاهر أن معنى النظم القرآني تحقير شأنهم ، وتصغير أمرهم ، أي ليسوا بأحقاء بأن ننزل لإهلاكهم جنداً من السماء ، بل أهلكناهم بصيحة واحدة كما يفيده قوله : ﴿ إن كانت ﴾ أي العقوبة أو النقمة أو الأخذة .

﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ صاح بها جبريل فأهلكهم قرىء: صيحة بالنصب على أن كان ناقصة ، واسمها ضمير يعود إلى ما يفهم من السياق كما قدمنا ، وقرىء برفعها على أن كان تامة ، أي وقع وحدث ، وأنكرها أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث في قوله: إن كانت ، وقيل: غيرذلك.

وقرأ ابن مسعود إن كانت إلا زقية واحدة والزقية الصيحة ، قال النحاس: وهذا مخالف للمصحف ، وأيضاً فإن اللغة المعروفة زقا يزقو إذا صاح ومنه المثل: أثقل من الزواقي فكان يجب على هذا أن يكون زقوة ، ويجاب عنه بما ذكره الجوهري. قال: الزقو والزقى مصدر ، وقد زقا الصدى يزق زقاً أي صاح ، وكل صائح زاق ، والزقية الصيحة .

قال المفسرون: أخذ جبريل بعضادتي باب المدينة ثم صاح بهم صيحة فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حس كالنار إذا طفئت ، وهو معنى قوله : ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ ميتون شبههم بالنار إذا طفئت لأن الحياة كالنار الساطعة في الحركة ، والالتهاب . والموت: كخمودها .

يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٣٠) أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ (٣٢) وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبًّا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ (٣٤)

﴿ يا حسرة على العباد ﴾ النصب على أنها منادى منكر ، كأنه نادى الحسرة وقال لها: هذا أوانك فاحضري ، وقيل : إنها منصوبة على المصدرية ، والمنادى محذوف والتقدير : يا هؤلاء تحسروا حسرة ، وقرىء: بالضم على النداء ، قال الفراء في توجيه هذه القراءة : إن الاختيار النصب ، وأنها لو رفعت النكرة لكان صواباً . واستشهد بأشياء نقلها عن العرب منها أنه سمع منهم : يا مهتم ، بأمرنا لا تهتم .

قال النحاس : وفي هذا إبطال باب النداء أو أكثره ، قال : وتقدير ما ذكره: ياأيها المهتم لا تهتم بأمرنا وحقيقة الحسرة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيراً ، قال ابن جرير : المعنى يا حسرة من العباد على أنفسهم وتندماً وتلهفاً في استهزائهم برسل الله ، وقرىء: يا حسرة العباد على الإضافة ، ورويت هذه القراءة عن أبيّ . وقال الضحاك : إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل ، وقيل : هي من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة .

وقيل : إن القائل يا ﴿ حسرة على العباد ﴾ هم الكفار المكذبون ، والعباد الرسل ، وذلك أنهم لما رأوا العذاب تحسروا على قتلهم وتمنوا الإيمان قاله أبو العالية ومجاهد . وقيل : إن التحسر عليهم هو من الله عز وجل بطريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه ، وقرىء: يا حسره بسكون الهاء إجراء للوصل مجرى الوقف ، وقرىء يا حسرتا كما قرىء بذلك في سورة الزمر ، قال

ابن عباس: أي يا ويلاً للعباد ، وعنه قال : الندامة على العباد يوم القيامة وأل في العباد للجنس .

﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما كانوا عليه من تكذيب الرسل والاستهزاء بهم ، وأن ذلك هو سبب التحسر عليهم ، ثم عجب سبحانه من حالهم حيث لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخالية فقال : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا ﴾ أي ألم يعلموا كثرة من **أهلكنا ﴿قبلهم من القرون﴾** التي أهلكناها من الأمم الخالية ، والاستفهام للتقرير على حد قوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ .

﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ بدل من أهلكنا على المعنى ، قال سيبويه : إنه بدل من كم وهي الخبرية فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام ، والمعنى: ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون .

وقال الفراء : كم في موضع نصب من وجهين أحدهما بـ ﴿يروا ﴾ والوجه الآخر ﴿ بأهلكنا ﴾ قال النحاس : القول الأول محال لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها لأنها استفهام ومحال أن يدخل الاستفهام في حيز ما قبله ، وكذا حكمها إذا كانت خبراً وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا فجعل أنهم بدلاً من كم ، وقد رد ذلك المبرّد أشد رد ، ثم بين سبحانه رجوع الكل إلى الحشر بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا فقال :

﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ قرىء لما مشدداً ومخففاً ، قال : الفراء من شدد جعل لما بمعنى إلا وإن بمعنى ما أي ما كل إلا جميع ، ومعنى جميع مجموعون ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، ولدينا ظرف له وأما على قراءة التخفيف فإن هي المخففة من الثقيلة ، وما بعدها مرفوع بالابتداء ، واللام هي الفارقة بين المخففة والنافية .

قال أبو عبيدة : وما على هذه القراءة زائدة ، والتقدير عنده: وإن كل لجميع ، والحاصل أن (كل) أشير بها لاستغراق الأفراد وشمولهم ، (وجميع) أشير

بها لاجتماع الكل في مكان واحد وهو المحشر[١] ، وقيل : معنى محضرون معذبون ، والأولى أنه على معناه الحقيقي من الإحضار للحساب والجزاء ثم ذكر سبحانه البرهان على التوحيد والحشر مع تعداد النعم وتذكيرها فقال .

﴿ وآية لهم ﴾ على البعث والتوحيد ﴿ الأرض الميتة ﴾ فآية خبر مقدم وتنكيرها للتفخيم ، ولهم صفتها أو متعلقة بآية ، لأنها بمعنى علامة ، والأرض مبتدأ ويجوز أن يكون آية مبتدأ لكونها قد تخصصت بالصفة ، وما بعدها الخبر . قرىء ميتة بالتشديد والتخفيف .

﴿ أحييناها ﴾ مستأنفة مبينة لكيفية كونها آية ، وقيل: هي صفة للأرض فنبههم الله بهذا على إحياء الموتى ، وذكرهم نعمه ، وكمال قدرته فإنه سبحانه أحيى الأرض بالنبات ، وأخرج منها الحبوب التي يأكلونها ويتغذون بها ، وهو معنى قوله :

﴿ وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ وهو ما يقتاتونه من الحبوب وتقديم منه للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل وأكثر ما يقوم به المعاش .

﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ﴾ أي جعلنا في الأرض جنات من أنواع النخل والعنب وخصهما بالذكر لأنهما أعلى الثمار وأنفعها للعباد والنخل والنخيل بمعنى ، والواحدة نخلة ، وفي المصباح: النخل اسم جمع ، والواحدة نخلة وكل جمع يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، فأهل الحجاز يؤنثونه وأهل نجد وتميم يذكرونه ، وأما النخيل بالياء فمؤنثة . قال ابن أبي حاتم: لا اختلاف في ذلك ، والأعناب جمع عنب . والعنبة الواحدة من العنب .

﴿ وفجرنا فيها من العيون ﴾ أي فجرنا في الأرض بعضاً من العيون فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، أو المفعول العيون ، ومن مزيدة على رأي من جوز زيادتها في الإثبات والمراد بالعيون عيون الماء وقرأ الجمهور بالتشديد ، وقرىء: بالتخفيف ، والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى واللام في قوله :

---

(١) قال ابن كثير : وان جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله عز وجل فيجازيهم باعمالهم كلها خيرها وشرها .

لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾

﴿ ليأكلوا من ثمره ﴾ متعلقة بجعلنا والضمير المجرور يعود إلى المذكور من الجنات والنخيل ، وقيل هو راجع إلى ماء العيون لأن الثمر منه ، قاله الجرجاني ، وقرىء ثمره بضمتين وبفتحتين وهما سبعيتان وقرأ الأعمش بضم الثاء وإسكان الميم ، وقد تقدم الكلام على هذا في الأنعام .

﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أي ليأكلوا من ثمره ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير والدبس ونحوهما وكذلك ما غرسوه وحفروه وعالجوه على أن (ما) موصولة . وفيه تجوز على هذا . وقيل : هي نافية ، والمعنى لم يعملوه بل العامل له هو الله عز وجل أي وجدوها معمولة ولا صنع لهم فيها وهو قول الضحاك ومقاتل . وقيل : إنها نكرة موصوفة والكلام فيها كالذي في الموصولة ، وقيل إنها مصدرية أي ومن عمل أيديهم والمصدر واقع موقع المفعول به فيعود المعنى إلى معنى الموصولة أو الموصوفة .

وعن ابن عباس في الآية قال : « وجدوها معمولة لم تعملها أيديهم » يعني الفرات ودجلة ونهر بلخ وأشباهها ﴿ أفلا يشكرون ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ لهم بعدم شكرهم للنعم المعدودة والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي : أيرون هذه النعم ؟ أو أيتنعمون بها فلا يشكرونها ؟ .

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها ﴾ مستأنفة مسوقة لتنزيه سبحانه عما وقع منهم من ترك الشكر لنعمه المذكورة والتعجب من إخلالهم بذلك وقد تقدم الكلام مستوفى في معنى سبحان ؛ وهو في تقدير الأمر للعباد بأن ينزهوه عما لا يليق به ؛ والأزواج الأنواع والأصناف فكل زوج صنف لأنه مختلف في

الألوان والطعوم والاشكال والصغر والكبر فاختلافها هو ازدواجها قال قتادة يعني الذكر والأنثى ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ بيان للأزواج والمراد كل ما نبت فيها من الأشياء المذكورة وغيرها لأنه أصناف .

﴿ ومن أنفسهم ﴾ أي خلق الأزواج من أنفسهم وهم الذكور والإناث ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ من أصناف خلقه في البر والبحر والسماء والأرض ففي الأودية والبحار أشياء لا يعلمها الناس ؛ ولم يطلعهم الله عليها ، ولا توصلوا إلى معرفتها ووجه الاستدلال في هذه الآية أنه إذا انفرد بالخلق فلا ينبغي أن يشرك به .

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ الكلام في هذا كما قدمنا في قوله ﴿ وآية لهم الأرض ﴾ الخ والمعنى أن ذلك علامة دالة على توحيد الله وقدرته ، ووجوب إلهيته. والسلخ الكشط والنزع ، يقال : سلخه الله من بدنه ، ثم يستعمل بمعنى الإخراج فجعل سبحانه ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء وهو استعارة بليغة .

﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ أي داخلون في الظلام مفاجأة وبغتة . يقال: أظلمنا أي دخلنا في ظلام الليل ، وأظهرنا دخلنا في وقت الظهر ، وكذلك أصبحنا وأمسينا ، وقيل منه بمعنى عنه . والمعنى نسلخ عنه ضوء النهار فإذا هم في ظلمة لأن ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء ، فإذا خرج منه أظلم .

قال الفراء : يرمي بالنهار على الليل فيأتي بالظلمة ، وذلك أن الأصل هي الظلمة والنهار داخل عليه ، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل أي كشط وأزيل فتظهر الظلمة ، وظاهره يشعر بأن النهار طارىء على الليل ،قال المرزوقي في الآية: دلت على أن الليل قبل النهار لأن المسلوخ منه يكون قبل المسلوخ كما أن المغطى قبل الغطاء ، لكن كلامه في سورة الرعد مؤذن بأن بين الليل والنهار توالجاً وتداخلاً ، قال تعالى : ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ .

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ يحتمل أن تكون الواو للعطف على الليل والتقدير: وآية لهم الشمس ، ويجوز أن تكون ابتدائية ، والشمس مبتدأ وما بعدها الخبر ، ويكون الكلام مستأنفاً مشتملاً على ذكر آية مستقلة. قيل: وفي الكلام حذف ، والتقدير تجري لمجرى مستقرٍ لها أي تنتهي في سيرها لأجل مستقر لها .

وقيل : اللام بمعنى إلى ، قيل : والمراد بالمستقر يوم القيامة فعنده تستقر فلا تبقى لها حركة ، وقيل : مستقرها هو أبعد ما تنتهي إليه ولا تجاوزه ، وقيل : نهاية ارتفاعها في الصيف ، ونهاية هبوطها في الشتاء ، وقيل : مستقرها تحت العرش لأنها تذهب إلى هنالك فتسجد فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها ، وهذا هو الراجح .

وقال الحسن : إن للشمس في السنة ثلثمائة وستين مطلعاً تنزل في كل يوم مطلعاً ، ثم لا تنزل إلى الحول ، فهي تجري في تلك المنازل وهو مستقرها .

وقيل : إن الشمس في الليل تسير وتشرق على عالم آخر من أهل الأرض ، وإن كنا لا نعرفه[1] ، ويؤيد هذا القول ما قاله الفقهاء في باب المواقيت . كالشمس الرملي من أن الأوقات الخمسة تختلف باختلاف الجهات والنواحي فقد يكون المغرب عندنا عصراً عند آخرين ، ويكون الظهر صبحاً عند آخرين ، وهكذا ، وقيل غير ذلك ، وقرىء لا مستقر لها بلا التي لنفي الجنس ، وبناء مستقر على الفتح وقرىء لا مستقر ، بلا التي بمعنى ليس ،

(١) ينبغي التعليق على قوله : وقيل : إن الشمس في الليل تسير وتشرق على عالم آخر من أهل الأرض وان كنا لا نعرفه . . الخ . . بالقول : إن الشمس تشرق على عالم آخر حينما تغيب عنا ، ولكن لا تسير الشمس بل بسير ودوران الأرض نفسها ، كما أثبت العلم حديثاً .

ومستقر اسمها ولها خبرها .

﴿ ذلك ﴾ أي ذلك الجري على ذلك الحساب الذي يكلّ النظر عن استخراجه وتتحير الأفهام عن استنباطه ﴿ تقدير العزيز ﴾ أي الغالب القاهر بقدرته على كل مقدور ﴿ العليم ﴾ أي المحيط علمه بكل شيء ، ويحتمل أن تكون الإشارة راجعة إلى المستقر أي ذلك المستقر تقدير الله .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ قال : مستقرها تحت العرش[1] .

وفي لفظ للبخاري وغيره من حديثه قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عند غروب الشمس فقال : يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس ؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال : إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله : والشمس تجري لمستقر لها .

وفي لفظ من حديثه أيضاً عند أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم ، قال : «يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال : فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها فتستأذن في الرجوع فيأذن لها ، وكأنها قد قيل لها : اطلعي من حيث جئت فتطلع من مغربها ، ثم قرأ ذلك مستقرها، وذلك قراءة عبد الله وأخرج الترمذي والنسائي وغيرهما من قول ابن عمر نحوه .

قال النووي : اختلف المفسرون فيه ، فقال جماعة بظاهر الحديث ، قال الواحدي : فعلى هذا القول إذا غربت الشمس كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع ، وقيل : تجري إلى مستقر لها وأصل لا تتعداه وعلى هذا فمستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا ، وأما سجود الشمس فهو تمييز

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٦/٢١٤ و٨/٤١٦ و١٣/٣٥٠ ومسلم ١/١٣٩ والترمذي ٢/١٥٥ وقال : هذا حديث حسن صحيح والسيوطي في الدر ٥/٢٦٣ وللنووي في شرح مسلم ٢/١٩٥ كلام فليراجع هناك .

وإدراك يخلقه الله تعالى فيها والله أعلم[١].

﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو برفع القمر على الابتداء ، وقرأ الباقون بالنصب على الاشتغال ، وانتصاب منازل على أنه مفعول لأن قدرنا بمعنى صيرنا ، ويجوز أن يكون منتصباً على الحال . أي قدرنا سيره حال كونه ذا منازل ، ويجوز أن يكون منتصباً على الظرفية أي في منازل ، واختار أبو عبيد النصب في القمر ، قال : لأن قبله فعلاً وهو ، نسلخ وبعده فعلاً وهو : قدرنا .

قال النحاس : أهل العربية جميعاً فيها علمت على خلاف ما قال ، منهم الفراء قال الرفع أعجب إليّ.قال: وإنما كان الرفع عندهم أولى لأنه معطوف على ما قبله ، ومعناه: وآية لهم القمر ، قال أبوحاتم: الرفع أولى لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء .

والمنازل هي الثمانية والعشرون التي ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين ، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر وهي معروفة ، وسيأتي ذكرها ، فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين ثم يطلع هلالاً فيعود في قطع تلك المنازل في الفلك كالعرجون .

أخرج الخطيب عن ابن عباس في الآية قال : «هي ثمانية وعشرون منزلاً ينزلها القمر في كل شهر ، أربعة عشر منها شامية وأربعة عشر منها يمانية ، فأولها الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك . وهو آخر الشامية ،

(١) زاد المسير ١٨/٧ .

والغفر والزباني والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية ومقدم الدلو ومؤخر الدلو والحوت وهو آخر اليمانية » .

سئل الرملي: هل القمر الموجود في كل شهر هو الموجود في الآخر أو غيره ؟ فأجاب بأن في كل شهر قمراً جديداً[١] انتهى ، وهذا يدل على صحة تجدد الأمثال إن ثبت بالنص من الشارع . ويمكن بمثله القول في الشمس لكن لا دليل على ذلك كله .

﴿ حتى عاد ﴾ في آخر منازله في رأى العين ﴿ كالعرجون القديم ﴾ هو عود الشمراخ بالضم إذا يبس واعوج والقديم الذي أتى عليه الحول فإذا قدم عتق ويبس وتقوس واصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه . فإذا سار هذه الثمانية وعشرين منزلاً عاد كالعرجون القديم كما كان في أول الشهر ، وهذا يدفع ما ذكره الرملي فليتأمل .

وقال ابن عباس : العرجون القديم أصل العذق العتيق ، قال الزجاج العرجون هو عود العذق الذي فيه الشماريخ ، وهو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف ، أي سار في منازله حتى إذا كان في آخرها دق واستقوس وصغر حتى صار كالعرجون القديم ، وعلى هذا فالنون زائدة .

قال قتادة : هو العذق اليابس المنحني من النخلة ، قال ثعلب : العرجون الذي يبقى في النخلة إذا قطعت ، والقديم البالي . وقال الخليل : العرجون أصل العذق ، وهو أصفر عريض يشبه به الهلال إذا انحنى ، وكذا قال الجوهري : إنه أصل العذق الذي يعوج ويقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً ، وعرجنه ضربه بالعرجون وعلى هذا فالنون أصلية قرأ الجمهور: بضم العين والجيم وقرىء: بكسر العين وفتح الجيم وهما لغتان .

---

(١) لا صحة لما قاله الرملي. فقد ثبت بالدليل العلمي أن القمر واحد.

لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾

﴿ لا الشمس ينبغي لها ﴾ مرفوعة بالابتداء أي لا يصح ولا يمكن للشمس ولا يستقيم ولا يتسهل ﴿ ان تدرك القمر ﴾ في سرعة السير وتنزل في المنزل الذي فيه القمر وتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره لأن ذلك يخل بتكوين النبات وتعييش الحيوان ، ولأن لكل واحد منهما سلطاناً على انفراده فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر فيذهب سلطانه إلى أن يأذن الله بالقيامة فتطلع الشمس من مغربها ، ويفهم من الآية أن حركتها بالتسخير لا بإرادتها .

ونفى الله تعالى الإدراك عن الشمس دون عكسه ، لأن مسير القمر أسرع ، لأنه يقطع فلكه في شهر ، والشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة ، فكانت جديرة بأن توصف بنفي الإدراك لبطء سيرها ، وكان القمر خليقاً بأن يوصف بنفي السبق لسرعة سيره كما سيأتي(١)، وقال الضحاك : معناه إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء ، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء ، وقال مجاهد :أي لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر ، وقال الحسن إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة ، وكذا قال يحيى بن سلام .

وقيل :معناه إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منزل لا يشتركان فيه ، وقيل : القمر في سماء الدنيا والشمس في السماء الرابعة ذكره النحاس والمهدوي ، قال النحاس وأحسن ما قيل في معناه وأبينه أن سير القمر سريع والشمس لا تدركه في السير(١)، وأما قوله تعالى : وجمع الشمس والقمر

(١) (٢) للقمر مداره، كما أن للأرض مدارها، والقمر كما هو معروف يدور حول الأرض والأرض تدور حول الشمس، والقمر يتبع الأرض بدورانها أيضاً، كما ثبت علمياً. فالكلام المذكور غير صحيح.

فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدم بيانه في الأنعام ، ويأتي في سورة القيامة أيضاً ، وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا وقيام الساعة .

﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أي لا يسبقه فيفوته ، ولكن يعاقبه ويجيء كل واحد منهما في وقته ، ولا يسبق صاحبه . وقيل : المراد من الليل والنهار آيتاهما وهما الشمس والقمر ، فيكون عكس قوله : لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر أي ولا القمر سابق الشمس ، وإيراد السبق مكان الإدراك لسرعة سير القمر وهما نيران لا يزال أمرهما على هذا الترتيب إلى أن تقوم الساعة ، فيجمع الله بين الشمس والقمر ، وتطلع الشمس من مغربها . وهذا لا ينافي أن الليل برمته سابق في الوجود على النهار برمته ، وهو أحد قولين .

واستدل بعضهم بهذه الآية على أن النهار مخلوق قبل الليل وأن الليل لم يسبقه بالخلق ووجه الاستدلال : أن المعنى ليس الليل سابق النهار ، يعني بل النهار هو السابق وهذا ينظر إلى مقابلة جملة الليل بجملة النهار ، والآية محتملة لكل من القولين .

﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ التنوين في كل عوض من المضاف إليه أي وكل واحد منهما والفلك هو الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة ، قال العماد بن كثير في البداية والنهاية : حكى ابن حزم وابن الجوزي وغير واحد الإجماع على أن السموات كرية مستديرة واستدل عليه بهذه الآية . قال الحسن : يدورون .

وقال ابن عباس في فلكة مثل فلكة المغزل قالوا : ويدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب ثم تطلع في آخرها من المشرق . قال : ابن حجر حكي الإجماع على أن السموات مستديرة جمع وأقاموا عليه الأدلة وخالف في ذلك فرق يسيرة من أهل الجدل وقال ابن العربي : السموات

ساكنة لا حركة فيها جعلها الله ثابتة مستقرة هي لنا كالسقف للبيت ، ولهذا سماها السقف المرفوع .

واستخرج أهل البديع من لفظ كل في فلك صنعة القلب ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ وربك فكبر ﴾ والسبح السير بانبساط وسهولة ، والجمع باعتبار اختلاف مطالعهما فكأنهما متعددان بتعددهما أو المراد الشمس والقمر والكواكب ، ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعاً آخر مما امتن به على عباده من النعم فقال :

﴿ وآية لهم ﴾ ارتفاع آية على أنها خبر مقدم والمبتدأ أنا حملنا أو العكس ، أي علامة ودلالة، وقيل: معنى آية هنا العبرة ، وقيل: النعمة ، وقيل: النذارة ، وقد اختلف في معنى .

﴿ أنا حملنا ذريتهم ﴾ وإلى من يرجع الضمير لأن الضمير الأول وهو قوله:وآية لهم لأهل مكة أو لكفار العرب أو للكفار على الإطلاق الكائنين في عصر محمد صلى الله عليه وسلم ، فقيل: الضمير يرجع إلى القرون الماضية ، والمعنى:أن الله حمل ذرية القرون الماضية .

﴿ في الفلك المشحون ﴾ فالضميران مختلفان ، وهذا حكاه النحاس عن الأخفش ، وقيل:الضميران لكفار مكة ونحوهم ، والمعنى: أن الله حمل ذرياتهم من أولادهم وضعفائهم على الفلك فامتن الله عليهم بذلك ، أي أنهم يحملونهم معهم في السفن إذا سافروا أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها ، وإنما ذكر ذريتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليه ، وأبلغ في التعجب من قدرته ، وقيل:الذرية الآباء والأجداد ، والفلك: هو سفينة نوح أي أن الله حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح .

قال الواحدي: والذرية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد ، قال أبو

عثمان: وسمى الآباء ذرية لأن منهم ذرء الأبناء وقيل الذرية النطف الكائنة في بطون النساء ، وشبه البطون بالفلك المشحون. قاله علي بن أبي طالب ذكره الماوردي والراجح القول الثاني ثم الأول ثم الثالث ، وأما الرابع : ففي غاية البعد والنكارة وقد تقدم الكلام في الذرية واشتقاقها في سورة البقرة مستوفى .

وقيل: إن الضمير في قوله(لهم)يرجع إلى العباد المذكورين في قوله يا حسرة على العباد، لأنه قال بعد ذلك : (وآية لهم الأرض الميتة) ، وقال : (وآية لهم الليل) ، ثم قال : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم)، فكأنه قال: وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد ، ولا يلزم أن يكون المراد بأحد الضميرين البعض منهم ، وبالضمير الآخر البعض الآخر وهذا قول حسن . والمشحون: المملوء الموقر ، والفلك يطلق على الواحد والجمع كما تقدم في يونس .

عن أبي مالك في الآية قال في سفينة نوح: حمل فيها من كل زوجين اثنين ، وعن أبي صالح نحوه ، وعنه في الآية قال: يعني الإبل خلقها الله كما رأيت فهي سفن البر يحملون عليها ويركبونها ، ومثله عن الحسن وعكرمة وعبد الله بن شداد ومجاهد .

﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ أي وخلقنا لهم مما يماثل الفلك ما يركبونه على أن ﴿ ما ﴾ هي الموصولة ومن زائدة وقال مجاهد وقتادة وجماعة من أهل العلم من المفسرين وهي الإبل خلقها لهم للركوب في البر مثل السفن المركوبة في البحر ، والعرب تسمي الإبل سفائن البر ، وقيل: المعنى وخلقنا لهم سفناً أمثال تلك السفن يركبونها ، قاله الحسن والضحاك وأبو مالك ، وقال النحاس: وهذا أصح لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس، وقيل: هي السفن المتخذة بعد سفينة نوح . قلت: والعموم أولى ولا وجه للتخصيص ، فيشمل كل ما يركب حيواناً كان أو جماداً دخاناً كان أو ريحاً ، كالعجلات الحادثة في هذا الزمان ، وما سيحدث في المستقبل بتلاحق الأفكار وتعامل الأيدي والأنظار .

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ هذا من تمام الآية التي امتن الله بها عليهم ووجه الامتنان أنه لم يغرقهم في لجج البحار مع قدرته على ذلك ، أو لم يحرقهم بنار العجلات الدخانية الحادثة الآن ، والضمير يرجع إلى أصحاب الذرية أو إلى الذرية أو إلى الجميع على اختلاف الأقوال .

﴿ فلا صريخ لهم ﴾ الصريخ : بمعنى المصرخ والمصرخ هو المغيث أي فلا مغيث لهم يغيثهم إن شئنا إغراقهم أو إحراقهم ، وقيل هو المنعة وكما يطلق الصريخ على المغيث يطلق على الصارخ وهو المستغيث ، فهو من الأضداد كما صرح به أهل اللغة ، ويكون مصدراً بمعنى الإغاثة لأنه في الأصل بمعنى الصراخ ، وهو صوت مخصوص وكل منهما صحيح هنا قاله الشهاب .

﴿ ولا هم ينقذون ﴾ أي لا يخلصون ولا ينجون . يقال : أنقذه واستنقذه إذا خلصه من مكروه ﴿ إلا رحمة منا ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل ، أي لا صريخ لهم ولا ينقذون لشيء من الأشياء إلا لرحمة منا ، كذا قال الكسائي والزجاج وغيرهما ، وقيل : هو استثناء منقطع أي لكن لرحمة منا .

﴿ ومتاعاً ﴾ أي نمتعهم بالحياة الدنيا ﴿ إلى حين ﴾ وهو الموت ، قاله قتادة ، وقال يحيى بن سلام إلى القيامة .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ بيان لإعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقية التي كانوا يشاهدونها وعدم تأملهم فيها ﴿ اتقوا ما بين أيديكم ﴾ من الآفات والنوازل فإنها محيطة بكم .

﴿ وما خلفكم ﴾ منها قال قتادة: أي اتقوا ما بين أيديكم من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم ، وما خلفكم في الآخرة . وقال سعيد بن جبير ومجاهد:ما بين أيديكم ما مضى من الذنوب وما خلفكم ما بقي منها ، وقيل : ما بين أيديكم الدنيا وما خلفكم الآخرة ، قاله سفيان وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ابن عباس ، وقيل:ما بين ايديكم ما ظهر لكم وما خلفكم ما خفي عنكم وجواب إذا محذوف ، والتقدير إذا قيل لهم ذلك أعرضوا كما يدل عليه إلا كانوا عنها معرضين .

﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي رجاء أن ترحموا أو كي ترحموا أو راجين أن ترحموا .

﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم ﴾ ما هي النافية وصيغة المضارع للدلالة على التجدد ومن الأولى مزيدة للتوكيد والثانية للتبعيض والمعنى: ما تأتيهم من آية دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صحة ما دعا إليه من التوحيد في حال من الأحوال .

﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ وظاهره يشمل الآيات التنزيلية والتكوينية ، والمراد بالإعراض عدم الالتفات إليها وترك النظر الصحيح فيها ، وهذه الآية متعلقة بقوله : يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون إذا جاءتهم الرسل كذبوا ، وإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ إشارة إلى أنهم أخلوا بجميع التكاليف لأن جملتها ترجع إلى أمرين:التعظيم لجانب الله والشفقة على خلق الله .

﴿ انفقوا مما رزقكم الله ﴾ أي تصدقوا على الفقراء مما أعطاكم الله وأنعم به عليكم من الأموال ، قال الحسن : يعني اليهود أمروا بإطعام الفقراء ، وقال مقاتل : إن المؤمنين قالوا لكفار قريش : أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه لله من أموالكم من الحرث والأنعام كما في قوله سبحانه : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ فكان جوابهم ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿ قال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ استهزاء بهم وتهكماً بقولهم .

﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ ﴾ أي من لو يشاء الله رزقه ؟ وقد كانوا سمعوا المسلمين يقولون : إن الرازق هو الله ، وإنه يغني من يشاء ويفقر من يشاء ، فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمسلمين ، وقالوا: نحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله وهذا غلط منهم ومكابرة ومجادلة بالباطل فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه وأفقر بعضاً ابتلاء ، فمنع الدنيا من الفقير لا بخلاً ، وأعطى الدنيا للغني لا استحقاقاً وأمر الغني أن يطعم الفقير وابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة ولا اعتراض لأحد في مشيئة الله وحكمته في خلقه . والمؤمن يوافق أمر الله .

وقولهم : من لو يشاء الله أطعمه هو وإن كان كلاماً صحيحاً في نفسه ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله وإنكار جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة الله كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلاً .

﴿ إن أنتم ﴾ في قولكم لنا ذلك مع معتقدكم هذا ﴿ إلا في ضلال مبين ﴾ أي بين وهذا من تمام كلام الكفار ، والمعنى أنكم أيها المسلمون في سؤال المال وأمرنا بإطعام الفقراء لفي ضلال في غاية الوضوح والظهور ، وقيل: هو من كلام الله سبحانه جواباً على هذه المقالة التي قالها الكفار ، وقيل: هو من قول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لهم :

وقال القشيري والماوردي : إن الآية نزلت في قوم من الزنادقة وقد كان في كفار قريش وغيرهم من سائر العرب قوم يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع فقالوا هذه المقالة استهزاء بالمسلمين ومناقضة لهم ، وحكى نحو هذا القرطبي عن ابن عباس ولهذا أظهر في مقام الإضمار قيل : كان العاص بن وائل السهمي إذا سأله المسكين قال له: اذهب إلى ربك فهو أولى مني بك ، ويقول : قد منعه الله أفأطعمه أنا[1] .

---

(١) ذكر هذا المعنى الخازن في تفسيره .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٤٨ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ الذي تعدوننا بـه من البعث والعذاب والقيامة والمصير إلى الجنة والنار ، وهذا رجوع للكلام مع الكفار من قريش المعترفين بوجود الله تعالى .

﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تقولونه وتعدوننا به . قالوا ذلك استهزاء منهم ، وسخرية بالمؤمنين ، ومقصودهم إنكار ذلك بالمرة ونفي تحققه وجحد وقوعه ، فأجاب الله سبحانه عنهم بقوله : ﴿ما ينظرون ﴾ أي ما ينتظرون .

﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ وهي نفخة إسرافيل في الصور ، وهذه النفخة هي الأولى وهي نفخة الصعق التي يموت بها من كان مـوجوداً عـلى وجه الأرض ، وجعلوا منتظرين نظراً إلى قولهم متى تقع لأن من قال: متى يقع الشيء الفلاني يفهم من كلامه أنه ينتظر وقوعه .

﴿ تأخذهم وهم يخصمـون ﴾ أي يختصمون في ذات بينهم في البيـع والشراء ونحوهما من أمور الـدنيا ، ويتكلمـون في الأسواق والمجـالس وفي متصرفاتهم فتأتيهم الساعة أغفل ما كانوا عنها ، وقد صح هذا في الأحاديث الصحيحة وهي معروفة في كتب السنة[1] ، وقرىء يخصمون بسكـون الخاء وتخفيـف الصاد من خصم يخصم والمعنى يخصم بعضهم بعضاً وقرىء بإخفاء فتحة

(١) مسلم/ ٢٩٥٤ .

الخاء وتشديد الصاد وبإظهار فتحة الخاء وتشديد الصاد وبكسر الخاء وتشديد الصاد والأصل في القرآت الثلاث يختصمون وقرأ أبي على الأصل والقرآت كلها سبعية .

﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أي لا يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بما له وما عليه ، أو لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة والإقلاع عن المعاصي ، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم . قال أبو هريرة : « تقوم الساعة والناس في أسواقهم يتبايعون ويذرعون الثياب ويحلبون اللقاح ، وفي حوائجهم فلا يستطيعون توصية » الآية .

وعن الزبير بن العوام قال : «إن الساعة تقوم والرجل يذرع الثوب ، والرجل يحلب الناقة » ثم قرأ الآية .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبها فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ولا يطعمه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » .

﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ أي إلى منازلهم التي ماتوا خارجين عنها بل يموتون حيث يسمعون الصيحة لأن الساعة لا تمهلهم بشيء ، وقيل : المعنى لا يرجعون إلى أهلهم قولاً ، وهذا إخبار عما ينزل بهم عند النفخة الأولى ثم أخبر سبحانه عما ينزل بهم عند النفخة الثانية فقال :

﴿ ونفخ في الصور ﴾ وهي النفخة التي يبعثون بها من قبورهم وما بين النفختين أربعون سنة .

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بين النفختين أربعون . قالوا : يا أبا هريرة أربعين يوماً قال أبيت قالوا : أربعين شهراً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعين سنة . قال : أبيت ، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء لا يبلى إلا

عظماً واحداً وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة »[1] . وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي حيث قال :

﴿ ونفخ ﴾ تنبيهاً على تحقق وقوعه كما ذكره أهل البيان ، وجعلوا هذه الآية مثالاً له ، والصور بإسكان الواو: هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل كما وردت بذلك السنة وإطلاق هذه الاسم على القرن معروف في لغة العرب وقد مضى هذا مستوفى في سورة الأنعام ، وقال قتادة: الصور جمع صورة أي نفخ في الصور الأرواح .

﴿ فإذا هم من الأجداث ﴾ أي القبور جمع جدث وهو القبر وقرىء الأجداف بالفاء وهي لغة واللغة الفصيحة بالثاء المثلثة .

﴿ إلى ربهم ينسلونْ ﴾ أي يسرعون ويعدون ويخرجون منها أحياء بسرعة بطريق الجبر والقهر ، لا بطريق الاختيار ، فالنسل والنسلان الإسراع في السير يقال: نسل الذئب ينسل كضرب يضرب ، ويقال: ينسل بالضم أيضاً وهو الإسراع في المشي .

﴿ قالوا ﴾ عند بعثهم من القبور بالنفخة .

﴿يا ويلنا ﴾ نادوا ويلهم كأنهم قالوا له: احضر فهذا أوان حضورك ، وهو مصدر لا فعل له من لفظه ، بل من معناه وهو هلك ، وهؤلاء القائلون هم الكفار . قال ابن الانباري: الوقف على يا ويلنا وقف حسن ، ثم يبتدىء الكلام بقوله :

﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ أي مضجعنا ظنوا لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول وما داخلهم من الفزع أنهم كانوا نياماً .قرىء: من بعثنا على الاستفهام وبكسر الميم على أنها حرف جر وفي قراءة أبيّ:من أهبنا من هب من نومه إذا انتبه ، وقيل : إنهم يقولون ذلك إذا عاينوا جهنم .

وقال أبو صالح: إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية وعن أبيّ بن كعب في الآية قال : « ينامون

(١) وهذا اللفظ لمسلم .

قبل البعث نومة » ، وعن مجاهد: أنهم يستريحون من العذاب قبيل النفخة الثانية ويذوقون طعم النوم ، انتهى . فعليه يكون قولهم من مرقدنا حقيقة لأن المرقد حقيقة هو مكان النوم وقيل : إن الله يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون . فإذا بعثوا في الثانية عاينوا أهوال القيامة ودعوا بالويل .

﴿ هذا ما وعد الرحمن ﴾ جواب عليهم من جهة الملائكة أو من جهة المؤمنين المتقين وقيل : هو من كلام الكفرة يجيب به بعضهم على بعض. قال بالأول الفراء وبالثاني مجاهد ، وقال قتادة: هي من قول الله سبحانه و(ما) في ﴿ ما وعد﴾ موصولة وعائدها محذوف ، أي هذا الذي وعده الرحمن .

﴿ وصدق ﴾ فيه ﴿ المرسلون ﴾ قد حق عليكم ونزل بكم ، ومفعولا الوعد والصدق محذوفان ، أي وعدكموه الرحمن وصدقكموه المرسلون ، والأصل وعدكم به وصدقكم فيه أو وعدناه الرحمن وصدقناه المرسلون ، على أن هذا من قول المؤمنين أو من قول الكفار أقروا حين لا ينفعهم الإقرار .

﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ كانت ﴾ تلك النفخة الثانية التي حكيت عنهم آنفاً ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ صاحها إسرافيل بنفخه في الصور ﴿ فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ أي فإذا هم مجموعون محضرون لدينا بسرعة للحساب والعقاب .

﴿ فاليوم لا تظلم نفس ﴾ من النفوس ﴿شيئاً ﴾ مما تستحقه أي لا ينقص من ثواب عملها شيئاً من النقص ، ولا تظلم فيه بنوع من أنواع الظلم ، وهذا حكاية لما سيقال لهم حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقاً للحق وتقريعاً لهم .

﴿ ولا تجزون إلا ﴾ جزاء ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا أو إلا بما كنتم تعملونه أي بسببه أو في مقابلته ، ولما ذكر الله سبحانه حال الكافرين أتبعه بحكاية حال عباده الصالحين ، وجعله من جملة ما يقال للكفار يومئذ زيادة لحسرتهم ، وتكميلاً لجزعهم ، وتتميماً لما نزل بهم من البلاء . وما شاهدوه من الشقاء ، فإذا رأوا ما أعد الله لهم من العذاب وما أعده لأوليائه من أنواع النعيم بلغ ذلك من قلوبهم مبلغاً عظيماً ، وزاد في ضيق صدورهم زيادة لا يقادر قدرها فقال:

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل ﴾ لما هم فيه من اللذات التي هي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، عن الاهتمام بأمر الكفار ومصيرهم إلى النار ، وإن كانوا من قراباتهم ، والأولى عدم تخصيص الشغل بشيء معين والشغل هو الشأن الذي يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤونه ، لكونه أهم عنده من الكل ، إما لإيجابه كمال المسرة والبهجة ، أو كمال المساءة والغم ، والمراد هنا هو الأول وما فيه من التنكير والإبهام للإيذان بارتفاعه عن رتبة البيان .

وقال قتادة ومجاهد : شغلهم ذلك اليوم بافتضاض العذارى وبه قال ابن عباس وابن مسعود وعكرمة ، وعن ابن عمر: «أن المؤمن كلما أراد زوجة وجدها عذراء » وقد روي نحوه مرفوعاً[1] ، وعن ابن عباس أيضاً قال في ضرب الأوتار ، وقال أبو حاتم : هذا لعله خطأ من المستمع ، وإنما هو افتضاض الأبكار على شط الأنهار تحت الأشجار .

وقال وكيع : شغلهم بالسماع ، وقال ابن كيسان بزيارة بعضهم بعضاً ، وقيل: شغلهم كونهم ذلك اليوم في ضيافة الله الجبار ، وقيل: شغلهم عما فيه أهل النار على الإطلاق أو عن أهاليهم في النار ، لا يهمهم أمرهم ، ولا يبالون بهم كيلا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم ، والمراد به ما هم فيه من فنون الملاذ التي تلهيهم عما عداها بالكلية .

وأما أن المراد به افتضاض الأبكار أو السماع أو ضرب الأوتار أو

---

(١) رواه ابن الجوزي في تفسيره ٧/٢٧ .

التـزاور أو ضيافة الجبار كما روي كل واحد منها عن واحد من أكابر السلف فليس مرادهم بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط ، بل بيان أنه من جملة أشغالهم وتخصيص كل منهم من تلك الأمور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان إياه.قرىء:شغل بضمتين وبضم الشين وسكون الغين وهما لغتان كما قال الفراء ؛ وقرىء: بفتحتين وبفتح الشين وسكون الغين .

﴿ فاكهون ﴾ وقرىء فاكهين وفكهون قال الفراء : هما لغتان كالفارة والفرة والحاذر والحذر ، وقال الكسائي وابو عبيدة:الفاكه والفاكهة مثل تامر ، ولابن ، والفكه والمتفكه المتنعم .

وقال قتادة : الفكهون المعجبون ، وقال أبو زيد : يقال : رجل فكه إذا كان طيب النفـس ضحوكـاً ، وقـال مجاهد والضحاك كما قال قتادة ، وقال السدي كما قال الكسائي ، وقال ابن عباس : فاكهون فرحـون . وقيـل : ناعمون متلذذون في النعمة من الفكاهة وهي التمتع والتلذذ مأخوذ من الفاكهة وفسرها زاده بطيب العيش والنشاط .

﴿ هم وأزواجهم في ظـلال على الأرائك متكئون ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلها بما يزيدهم سروراً وبهجة من كون أزواجهم معهم على هذه الصفة من الاتكاء على الأرائك تحت تلك الظلال والظلال جمع ظل وقرىء ظل بضم الظاء جمع ظلة والظل هو الموضع الذي لا تقع عليه الشمس ، والظلـة ما سترك عن الشمس ، وعلى القراءتين: فالمراد الفرش والستور التي تـظللهم كالخيـام والحجال ، والأرائـك جمع أريكـة ، كسفائن جمع سفينة ، والمراد بها السرر التي في الحجال . قال أحمد بن يحيى : ثعلب الأريكة لا تكون إلا سريراً في قبة ، وقال مقاتل : إن المراد بالظلال أكنان القصور. وجملة:

لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ مبينة لما يتمتعون به في الجنة من المآكل والمشارب ونحوها ويتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحانية بعد بيان ما لهم فيها من مجالس الأنس ومحافل القدس . أي ولهم فيها فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه .

﴿ ولهم ما يدعون ﴾ ما هذه هي الموصولة ، والعائد محذوف أو موصوفة أو مصدرية ، ويدعون مضارع ادعى . قال أبو عبيد : يدعون يتمنون والعرب تقول ادع على ما شئت أي تمن وفلان في خير ما يدعى أي يتمنى . قال الزجاج : هو من الدعاء أي ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم من دعوت غلامي فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل ، والارتحال بمعنى الرحل . قيل : افتعل بمعنى تفاعل أي ما يتداعونه كقولهم : ارتموا وتراموا .

وقيل : المعنى أن من ادعى منهم شيئاً فهو له لأن الله قد طبعهم على أن لا يدعي أحدمنهم شيئاً إلا وهو يحسن ويجمل به أن يدعيه ، وقرىء يدعون بالتخفيف ومعناه واضح ، قال ابن الأنباري : والوقف على ﴿ يدعون ﴾ وقف حسن ، ثم يبتدىء .

﴿ سلام ﴾ على معنى لهم سلام : وقيل: ان سلام هو خبر(ما)أي :مسلم خالص أو ذو سلامة ، وقال الزجاج : سلام بدل من(ما) أي:ولهم أن يسلم الله عليهم وهذا مُنى أهل الجنة ، والأولى أن يحمل قوله : ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ على العموم وهذا السلام يدخل تحته دخولاً أولياً ، ولا وجه لقصره على نوع خاص ، وان كان أشرف أنواعه تحقيقاً لمعنى العموم ، ورعاية لما يقتضيه النظم

القرآني .

وقيل : إن سلام مبتدأ وخبره الناصب لـ ﴿ قولاً ﴾ أي سلام يقال لهم ﴿ قولاً ﴾ وقيل : التقدير سلام عليكم ، وقرىء سلاماً على المصدرية أو على الحالية بمعنى خالصاً ، والسلام إما من التحية أو من السلامة ، وقرى: يسلم كأنه قال : يسلم لهم لا يتنازعون فيه وانتصاب (قولاً) على أنه مصدر لفعل محذوف أي قال الله لهم ذلك قولاً أو يقوله لهم قولاً .

﴿ من رب رحيم ﴾ أي من جهته قيل : يرسل الله سبحانه إليهم بالسلام وقال مقاتل : إن الملائكة تدخل على أهل الجنة من كل باب يقولون : سلام عليكم يا أهل الجنة من رب رحيم .

وأخرج ابن ماجة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، والبزار وابن أبي حاتم والآجري في الرؤية ، وابن مردويه عن جابر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، وذلك قول الله ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ قال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم » . قال ابن كثير في إسناده نظر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال:إن الله هو يسلم عليهم .

﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ هو على إضمار القول مقابل ما قيل للمؤمنين ، أي ويقال للمجرمين: امتازوا أي اعتزلوا من مازه يميزه ، يقال مزت الشيء من الشيء إذا عزلته عنه ونحيته ، قال مقاتل: معناه اعتزلوا اليوم يعني في الآخرة من الصالحين ، وقال السدي: كونوا على حدة ، وقال الزجاج: انفردوا عن المؤمنين ، وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة ، وقيل: إن لكل كافر في النار بيتاً فيدخل ذلك البيت ويردم بابه فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى

ولا يرى ، فعلى هذا القول يمتاز بعضهم عن بعض . وقال قتادة:عزلوا عن كل خير .

وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض فيمتاز اليهود فرقة ، والنصارى فرقة . والمجوس فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة . وقال داود بن الجراح: يمتاز المسلمون من المجرمين إلا أصحاب الأهواء فإنهم يكونون مع المجرمين . ثم وبخهم سبحانه وقرعهم بقوله :

﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان ؟ ﴾ وهذا من جملة ما يقال لهم ، والعهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة ، والمراد هنا:ما كلفهم الله به على ألسنة الرسل من الأوامر والنواهي ، أي ألم أوصكم وأبلغكم على ألسن رسلي أن لا تطيعوا الشيطان .

قال الزجاج : المعنى ألم أتقدم إليكم على لسان الرسل يا بني آدم ، وقال مقاتل:يعني الذين أمروا بالاعتزال ، وقيل:المراد بالعهد هنا الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهر آدم ، وقيل : هو ما نصبه الله لهم وركزه فيهم من الدلائل العقلية التي في سمواته وأرضه وما أنزل عليهم من أدلة السمع .

وعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم وإنما عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها في مقابلة عبادة الله .

وجملة: ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تعليل لما قبلها من النهي عن طاعة الشيطان وقبول وسوسته ﴿ وأن اعبدوني ﴾ أن في الموضعين هي المفسرة للعهد ، الذي فيه معنى القول ، ويجوز أن تكون مصدرية فيهما أي:ألم أعهد إليكم بأن لا تعبدوا الشيطان وبأن اعبدوني ، أو ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان وفي عبادتي ؟ وتقديم النهي على الأمر لما أن حق التخلية التقديم على التحلية كما في كلمة التوحيد وليتصف به قوله :

﴿ هذا ﴾ أي عبادة الله وتوحيده أو دين الإسلام ﴿ صراط مستقيم ﴾ بليغ في الاستقامة ولا صراط أقوم منه .

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

ثم ذكر سبحانه عداوة الشيطان لبني آدم فقال : ﴿ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، والجملة مستأنفة لتشديد التقريع وتأكيد التوبيخ ، أي والله لقد أضل ، قرىء: جبلاً بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، وبضم الجيم وسكون الباء وبضمتين مع تخفيف اللام ، وبضمتين مع تشديد اللام ، وقرىء بكسر الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام .

قال النحاس: وأبينها القراءة الأولى ، والدليل على ذلك أنهم قد قرأوا جميعاً : والجبلة الأولين بكسر الجيم والباء وتشديد اللام فيكون جبلاً جمع جبلة واشتقاق الكل من جبل الله الخلق أي خلقهم ومعنى الآية: أن الشيطان قد أغوى خلقاً كثيراً ، كما قال مجاهد ، وقال قتادة جموعاً كثيرة وقال الكلبي أمماً كثيرة ، قال الثعلبي: والقراآت كلها بمعنى الخلق ، وقرىء جيلاً بالجيم والياء التحتية ، وقال الضحاك: الجيل الواحد عشرة آلاف ، والكثير ما يحصيه إلا الله عز وجل .

﴿ أفلم تكونوا تعقلون ؟ ﴾ الهمزة للتوبيخ والتقريع والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام كما تقدم في نظائره ، أي أتشاهدون آثار العقوبات ؟ فلم تكونوا تعقلون أو أفلم تكونوا تعقلون عداوة الشيطان لكم ؟ أو أفلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلاً؟ قرىء الفعلان بالخطاب وبالغيبة .

﴿ هذه جهنم التي كنتم توعدون ﴾ بها في الدنيا على ألسنة الرسل ،

والقائل لهم الملائكة ، وهو استئناف خوطبوا به بعد تمام التوبيخ عند إشرافهم على شفير جهنم ، ثم يقولون لهم :

﴿ اصلوها ﴾ أمر تبكيت وإهانة كقوله : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ أي قاسوا حرها وادخلوها ﴿ اليوم ﴾ وذوقوا أنواع العذاب فيها ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ أي بسبب كفركم بالله في الدنيا وطاعتكم للشيطان وعبادتكم للأوثان .

﴿ اليوم نختم على أفواههم ﴾ قال المفسرون إنهم ينكرون الشرك وتكذيب الرسل كما في قولهم : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فيختم الله على أفواههم ختماً لا يقدرون معه على الكلام وفي هذا آلتفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم ثم قال :

﴿ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ أي تكلمت أيديهم بما كانوا يفعلونه وشهدت أرجلهم عليهم بما كانوا يعملون باختيارها بعد إقدار الله تعالى لها على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم. وقرى: لتكلمنا ولتشهد بلام .

كما قيل: سبب الختم على أفواههم ليعرفهم أهل الموقف ، وقيل : ختم على أفواههم لأجل أن يكون الاقرار من جوارحهم لأن شهادة غير الناطق أبلغ في الحجة من شهادة الناطق لخروجه مخرج الإعجاز ، وقيل : ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم في معاصي الله صارت شهوداً عليهم .

وجعل ما تنطق به الأيدي كلاماً وإقراراً لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصي وجعل نطق الأرجل شهادة لأنها حاضرة عند كل معصية ، وكلام الفاعل إقرار وكلام الحاضر شهادة ، وهذا اعتبار الغالب وإلا فالأرجل قد تكون مباشرة للمعصية كما تكون الأيدي مباشرة لها .

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي والبزار وغيرهم عن أنس في الآية قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه قال: « أتدرون مم ضحكت؟ قلنا لا يا رسول الله قال: من مخاطبة العبد ربه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم. فيقول: بلى. فيقول: إني لا أجيز عليّ إلا شاهداً مني فيقول: ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ﴾ بالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل »[1].

وأخرج مسلم والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يلقى العبد ربه فيقول الله له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: إني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول مثل ذلك، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول: آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع فيقول: ألا نبعث شاهدنا عليك فيفكر في نفسه من الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه. ويقال لفخذه: انطقي فتنطق فخذه وفمه وعظامه بعمله ما كان، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط عليه »، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث أبي موسى نحوه[2].

﴿ ولو نشاء ﴾ أن نطمس ﴿ لطمسنا على أعينهم ﴾ أي أذهبنا أعينهم وجعلناها بحيث لا يبدو لها شق ولا جفن، قال الكسائي: طمس يطمس ويطمس والطميس والمطموس عند أهل اللغة الذي ليس في عينيه شق كما في

---

(١) احمد ٢/٤٨.

(٢) اخرجه ابن ابي حاتم ورواه مسلم والنسائي بنحوه.

قوله:(ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم)، قال السدي والحسن : المعنى لتركناهم عمياً يترددون لا يبصرون طريق الهدى ، واختار هذا ابن جرير ، قال ابن عباس في الآية : أعميناهم وأضللناهم عن الهدى ، وقال عطاء ومقاتل وقتادة : المعنى لو نشاء لفقأنا أعينهم وأعميناهم عن غيهم ، وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى فأبصروا رشدهم واهتدوا ، وتبادروا إلى طريق الآخرة .

﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ معطوف على لطمسنا أي تبادروا إلى الطريق ليجوزوه ويمضوا فيه والصراط منصوب بنزع الخافض أي فاستبقوا إليه وقرىء: فاستبقوا على صيغة الأمر . أي فيقال لهم : استبقوا وفي هذا تهديد لهم .

﴿ فأنى ﴾ أي فكيف ﴿ يبصرون ﴾ الطريق ويحسنون سلوكه ولا أبصار لهم ثم كرر التهديد لهم فقال :

﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾ المسخ تبديل الخلقة أي تغيير الصورة وإبطال القوى إلى حجر أو غيره من الجماد أو بهيمة والمكانة المكان أي: لو شئنا لبدلنا خلقهم على المكان الذي هم فيه ،قيل: والمكانة أخص من المكان كالمقامة والمقام ، قال الحسن: أي لأقعدناهم ، وقيل : لمسخناهم في المكان الذي فعلوا فيه المعصية ، وقيل : المعنى لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم قاله ابن عباس ، وقال يحيى بن سلام : هذا كله يوم القيامة قرأ الجمهور: على مكانتهم بالإفراد وقرىء:على مكاناتهم بالجمع .

﴿ فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ﴾ أي لا يقدرون على ذهاب ولا مجيء.قال الحسن : فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم ، وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر ، وقرىء: مضياً بضم الميم وبفتحها وبكسرها ، قيل: والمعنى لا يستطيعون رجوعا ، يقال: مضى يمضي مضياً إذا ذهب في الأرض ورجع يرجع رجوعاً إذا عاد من حيث جاء .

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾

﴿ ومن نعمره ننكسه في الخلق ﴾ قرأ الجمهور: ننكسه بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الكاف مخففة، وقرىء: بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مشددة والتنكيس جعل الشيء أعلاه أسفله، والمعنى: من نطل عمره نغير خلقه، ونجعله على عكس ما كان عليه أولاً من القوة والطراوة قال الزجاج المعنى من أطلنا عمره نكسنا خلقه فصار بدل القوة الضعف، وبدل الشباب الهرم، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾. وقوله: ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾.

﴿ أفلا يعقلون ﴾؟ قرأ الجمهور بالتحتية وقرىء بالفوقية على الخطاب أي أفلا يعلمون بعقولهم أن من قدر على ذلك قدر على البعث والنشور؟ ولما قال كفار مكة إن القرآن شعر، وإن محمداً شاعر، رد الله عليهم بقوله:

﴿ وما علمناه الشعر ﴾ والمعنى نفي كون القرآن شعراً، لأن الشعر كلام متكلف موضوع، ومقال مزخرف مصنوع، منسوج على منوال الوزن والقافية، مبني على خيالات وأوهام واهية، فأين ذلك من التنزيل الجليل المنزه عن مماثلة كلام البشر؟ المشحون بفنون الحكم والأحكام الباهرة. الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، ثم نفى أن يكون النبي شاعراً فقال:

﴿ وما ينبغي له ﴾ أي لا يصح له الشعر ولا يتأتى منه، ولا يتسهل عليه لو طلبه، وأراد أن يقوله بالطبع والسجية، كما جعلناه أمياً لا يهتدي إلى الخط لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدحض، بل كان صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن ينشد بيتاً قد قاله شاعر متمثلاً به كسر وزنه، فإنه لما أنشد بيت طرفة بن العبد المشهور وهو قوله.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

قال ويأتيك من لم تزود بالأخبار ، وأنشد مرة أخرى قول العباس ابن مرداس السلمي :

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

فقال : بين الأقرع وعيينة ، وأنشد أيضاً :

كفى بالإسلام والشيب ناهياً

فقال أبو بكر : يا رسول الله إنما قال الشاعر :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فقال:أشهد أنك رسول الله ، يقول الله عزوجل:﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾

وقد وقع منه صلى الله عليه وسلم كثير من مثل هذا ، قال الخليل: كان الشعر أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام ، ولكن لا يتأتى منه. انتهى ووجه عدم تعليمه الشعر وعدم قدرته عليه التكميل للحجة ، والدحض للشبهة كما جعله الله أمياً لا يقرأ ، ولا يكتب وأما ما روي عنه من قوله صلى الله عليه وسلم .

« هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت »

وقوله :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »[1]

ونحو ذلك فمن الاتفاق الوارد من غير قصد كما يأتي ذلك في بعض آيات القرآن وليس بشعر ولا مراد به الشعر ، بل اتفق ذلك اتفاقاً كما يقع في كثير من كلام الناس فإنهم قد يتكلمون بما لو اعتبره معتبر لكان على وزن الشعر ، ولا يعدونه شعراً ، وذلك كقوله تعالى:﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وقوله ﴿ وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ على أنه قد قال الأخفش : إن قوله: أنا النبي لا كذب ليس بشعر .

(١) ولابن كثير كلام طويل حول هذه النقطة فليراجع هناك .

وقال الخليل في كتاب العين : إن ما جاء من السجع على جزأين لا يكون شعراً ، قال ابن العربي : والأظهر من حاله أنه قال : لا كذب برفع الباء من كذب وبخفضها من عبدالمطلب ، قال النحاس قال بعضهم : إنما الرواية بالاعراب وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعراً لأنه إذا فتح الباء من الأول أو ضمها أو نونها وكسر الباء من الثاني خرج عن وزن الشعر ، وقيل : إن الضمير في (له) عائد إلى القرآن أي :وما ينبغي للقرآن أن يكون شعراً .

أخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم قال : « بلغني أنه قيل لعائشة هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت : كان أبغض الحديث إليه غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس ، فيجعل أوله آخره ، يقول ويأتيك من لم تزود بالأخبار ، فقال أبو بكر ليس هكذا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي »[١] ، وهذا يرد ما نقلناه عن الخليل سابقاً أن الشعر كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استراث الخبر تمثل ببيت طرفة.

ويأتيك بالأخبار من لم تزود[١]

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال:« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل من الأشعار . ويأتيك الخ » ، وأخرج البيهقي في سننه عن عائشة :« قالت ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً .

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشيء كان إلا تحقق

قالت عائشة:ولم يقل تحققا لئلا يعربه فيصير شعراً ، وإسناده هكذا. قال أخبرنا أبو عبدالله الحافظ يعني الحاكم حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم

(١) رواه احمد في المسند وذكره السيوطي في الدر ٥/٢٦٨ والطبري في التفسير ٢٣/٢٧ .

حدثنا أبو محمد عبدالله بن هلال النحوي الضرير حدثنا علي بن عمرو الأنصاري حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن عروة عن عائشة فذكره وقد سئل المزي عن هذا الحديث فقال: هو منكر ولم يعرف شيخ الحاكم ولا الضرير في إسناده.

قال البيضاوي والخازن قال العلماء: ما كان يتزن له بيت شعر وإن تمثل ببيت شعر جرى على لسانه الشريف مكسراً، ولو كان ممن يقول الشعر لتطرقت التهمة عقلاً في أن ما جاء به من عند نفسه، ولهذا قال: ويحق القول الخ كما يأتي لأنه لم يبق إلا العناد الموجب للهلاك وقال القرطبي: إصابة الوزن منه صلى الله عليه وسلم في بعض الأحيان لا توجب أنه يعلم الشعر كقوله: أنا النبي لا كذب الخ والمعول عليه في الانفصال على تسليم أن هذا شعر، إذ التمثل بالبيت لا يوجب أن يكون قائله عالماً بالشعر ولا أن يسمى شاعراً باتفاق العلماء كما أن من خاط خيطاً على سبيل الاتفاق لا يكون خياطاً.

قال الزجاج: أي ما جعلناه شاعراً وهذا لا ينافي أن ينشيء شيئاً من الشعر من غير قصد كونه شعراً. قال النحاس: وهذا أحسن ما قيل في هذا، وقد قيل: إنما أخبر الله عز وجل أنه ما علمه الشعر، وإن لم يخبر أنه لا ينشيء الشعر، وقد قالوا: كل من قال قولاً موزوناً لا يقصد به إلى شعر فليس بشاعر، وإنما وافق الشعر، فما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يعد شعراً وإنما يعد منه ما يجري على وزن الشعر مع القصد إليه، ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر قال.

﴿ إن هو ﴾ أي ما القرآن ﴿ إلا ذكر ﴾ من الأذكار وموعظة من المواعظ يوعظ بها الإنس والجن.

﴿ وقرآن مبين ﴾ أي كتاب من كتب الله السماوية مشتمل على الأحكام الشرعية يقرأ في المحاريب، ويتلى في المتعبدات، وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين والدرجات، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين، وأقاويل الشعراء الكاذبين.

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

﴿ لينذر ﴾ قرىء بالتحتية وبالفوقية وعلى الأولى: المراد القرآن وعلى الثانية: المراد النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ من كان حياً ﴾ يعقل ما يخاطب به أي مؤمناً قلبه صحيح يقبل الحق ويأبى الباطل لأن الكافر كالميت لا يتدبر ولا يتفكر .

﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ أي وتجب كلمة العذاب على المصرين على الكفر ، الممتنعين من الإيمان بالله وبرسوله ، وإيرادهم في مقابلة من كان حياً فيه إشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة التي هي المعرفة أموات في الحقيقة ثم ذكر سبحانه قدرته العظيمة وإنعامه على عبيده . وجحْدَ الكفار لنعمة فقال:

﴿ أولم يروا ﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب من حالهم ، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره، والرؤية هي القلبية أي ؛أولم يعلموا بالتفكر والاعتبار ﴿ أنا خلقنا لهم ﴾ أي لأجلهم. انتفاعهم ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ أي مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا شركة .

وإسناد العمل إلى الأيدي مبالغة في الاختصاص والتفرد بالخلق ، كما يقول الواحد منا: عملته بيدي للدلالة على تفرده بعمله ، وما: بمعنى الذي وحذف العائد لطول الصلة ويجوز أن تكون مصدرية وأتى بهذه الجملة بعد

قوله : خلقنا للاشارة إلى حصر الخلق لهذه النعم فيه تعالى ، واستقلاله بها ، فهو كناية عرفية ، وقيل : تمثيلية ، أي مما تولينا إحداثه ، ولم يقدر على إحداثه غيرنا وقوله :

﴿أنعاماً﴾ مفعول خلقنا ، وهي جمع نعم ، وهي : البقر والغنم والإبل وإنما خصها بالذكر ـ وإن كانت الأشياء كلها من خلق الله وإيجاده ـ لأن النعم أكثر أموال العرب والنفع بها أعم ، وقد سبق تحقيق الكلام فيها ، ثم ذكر سبحانه المنافع المترتبة على خلق الأنعام فقال :

﴿ فهم لها مالكون ﴾ أي ضابطون قاهرون ، يتصرفون بها كيف شاؤوا ، ولو خلقناها وحشية لنفرت عنهم ولم يقدروا على ضبطها ، أو المراد أنها صارت في أملاكهم ومعدودة في جملة أموالهم المنسوبة إليهم نسبة الملك ، وهذا أظهر ليكون قوله :

﴿ وذللناها لهم ﴾ تأسيساً لنعمه على حيالها لا تتمة لما قبلها . أي : جعلناها لهم مسخرة لا تمتنع مما يريدون منها من منافعهم حتى الذبح ، ويقودها الصبي فتنقاد له ، ويزجرها فتنزجر .

﴿ فمنها ركوبهم ﴾ الفاء لتفريع أحكام التذليل عليه . أي : فمنها مركوبهم الذي يركبونه كما يقال : ناقة حلوب أي محلوبة يعني : معظم منافعها الركوب ، وعدم التعرض للحمل لكونه من تتمة الركوب . قرأ الجمهور : ركوبهم بفتح الراء وقرىء : بضمها على المصدر ، وقرأ أبي وعائشة : ركوبتهم . والركوب والركوبة واحد مثل الحلوب والحلوبة والحمول والحمولة . وقال أبو عبيدة : الركوبة تكون للواحدة والجماعة ، والركوب لا يكون إلا للجماعة ، وزعم أبو حاتم أنه لا يجوز فمنها ركوبهم بضم الراء لأنه مصدر ، والركوب ما يركب وأجاز ذلك الفراء . كما يقال : فمنها أكلهم ومنها شربهم .

﴿ ومنها يأكلون ﴾ أي يأكلونه من لحمها ومن للتبعيض ، وإنما غير الأسلوب هنا لأن الأكل يعم الأنعام كلها بخلاف الركوب فهو خاص بالإبل

منها .

﴿ ولهم فيها ﴾ أي لهم في الأنعام بقسميها ﴿ منافع ﴾ غير الركوب لها والأكل منها ، وهي ما ينتفعون به من أصوافها وأوبارها وأشعارها وما يتخذونه من الأدهان من شحومها ، وكذلك الحمل عليها والحراثة بها وجلودها ونسلها .

﴿ و ﴾ لهم فيها ﴿ مشارب ﴾ مما يحصل من ألبانها جمع مشرب وهو موضع الشرب أو الشراب والظاهر أن المراد به ضروعها .

﴿ أفلا يشكرون ﴾ الله على هذه النعم ويوحدونه ويخصونه بالعبادة ، ثم ذكر سبحانه: جهلهم واغترارهم ووضعهم كفران النعم موضع شكرها فقال:

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ من الأصنام ونحوها يعبدونها ولا قدرة لها على شيء ، ولم يحصل لهم منها فائدة ، ولا عاد عليهم من عبادتها عائدة .

﴿ لعلهم ينصرون ﴾ أي رجاء أن ينصروا من جهتهم إن نزل بهم عذاب ، أو دهمهم أمر من الأمور .

﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ مستأنفة لبيان بطلان ما رجوه منها وأملوه من نفعها ، وانعكاس تدبيرهم وجمعهم بالواو والنون جمع العقلاء بناء على زعم المشركين أنهم ينفعون ويضرون ويعقلون .

﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ أي والكفار جند للأصنام يحضرونهم في الدنيا ، قال الحسن : يمنعون منهم ، ويدفعون عنهم ، وقال قتادة : أي يغضبون لهم في الدنيا ، قال الزجاج : ينتصرون للأصنام وهي لا تستطيع نصرهم ، وقيل : المعنى يعبدون الآلهة ويقومون بها فهم لهم بمنزلة الجند ، هذه الأقوال على جعل ضمير (هم) للمشركين وضمير (لهم) للآلهة .

وقيل : (وهم) أي الآلهة (لهم) أي للمشركين جند معدون ومحضرون معهم في النار ، فلا يدفع بعضهم عن بعض ، وقيل : معناه ، وهذه الأصنام لهؤلاء

الكفار جند الله عليهم في جهنم ، لأنهم يلعنونهم ويتبرأون منهم ، وقيل : المعنى إن الكفار يعتقدون أن الأصنام جند لهم يحضرون يوم القيامة لإعانتهم ، ثم سلى سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال:

﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ الفاء لترتيب النهي على ما قبله فلا بد أن يكون عبارة عن خسرانهم وحرمانهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة ، وانعكاس الأمر عليهم بترتيب الشر على ما رتبوه لرجاء الخير ، فإن ذلك مما يهون الخطر ، ويورث السلوة ، والنهي وإن توجه بحسب الظاهر إلى قولهم لكنه في الحقيقة متوجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول هو ما يفيده قوله : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ فإنهم لا بد أن يقولوا : هؤلاء آلهتنا وإنها شركاء لله في المعبودية ، ونحو ذلك .

وهو نهي للرسول صلى الله عليه وسلم عن التأثر لذلك بطريق الكناية على أبلغ وجه وآكده ، وقيل : إنه نهي لهم عن الأسباب التي تحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن النهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن التأثر لما يصدر منهم هو من باب : لا أرينك ههنا ، فإنه يراد به نهي من خاطبه عن الحضور لديه لا نهي نفسه عن الرؤية ، وهذا بعيد ، والأول أولى ، والكلام من باب التسلية كما ذكرنا ، ويجوز أن يكون المراد بالقول المذكور هو قولهم : إنه ساحر وشاعر ومجنون .

﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ تعليل لما تقدم من النهي ، فإن علمه سبحانه بما يظهرون وما يضمرون مستلزم للمجازاة لهم بذلك ، وإن جميع ما صدر منهم لا يعزب عنه سواء كان خافياً أو بادياً سراً أو جهراً مظهراً أو مضمراً ، وتقديم السر على الجهر للمبالغة في شمول علمه بجميع المعلومات ،وقرىء:إنا بالكسر وبالفتح على حذف لام التعليل وهو كثير في القرآن والشعر ، وفي كل كلام ؛ وكسرها أبو حنيفة وفتح الشافعي وكلاهما تعليل كما تقدم .

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿ أولم ير الإنسان ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث وللتعجيب من جهله ، فإن مشاهدة خلقهم في أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم ، على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام وردها ، كما كانت ، والإنسان المذكور في الآية المراد به جنس الإنسان كما في قوله ﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾

ولا وجه لتخصيصه بإنسان معين ؛ كما قيل : إنه عبدالله بن أبيّ وإنه قيل له ذلك لما أنكر البعث. وقال الحسن: هو أمية بن خلف ، وقال سعيد بن جبير: هو العاص بن وائل السهمي ، وقال قتادة ومجاهد: هو أبيّ بن خلف الجمحي ،فإن أحد هؤلاء وإن كان سبباً للنزول فمعنى الآية خطاب للإنسان من حيث هو ، لا إنسان معين ، ويدخل من كان سبباً للنزول تحت جنس الإنسان دخولاً أولياً .

﴿ إنا خلقناه من نطفة ﴾ قذرة خسيسة مدرة خارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة ، والنطفة هي اليسير من الماء ، وقد تقدم تحقيق معناها .

﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة المنفية قبلها داخلة معها في حيز الإنكار، المفهوم من الاستفهام ؛ وإذا هي الفجائية أي . ألم ير الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء وأخسها وأمهنها ففاجأ خصومتنا في أمر قد قامت فيه عليه حجج الله وبراهينه ؛ وشهدت بصحته وتحققه مبدأ فطرته شهادة بينة. والمعنى: العجب من جهل هذا المخاصم ـ مع مهانة أصله ودناءة أوله ـ كيف يتصدى لمخاصمة الجبار؟ ويبرز لمجادلته في إنكار البعث؟ ولا يتفكر في بدء خلقه وأنه من نطفة قذرة وهو غاية المكابرة، والخصيم الشديد الخصومة الكثير الجدال، ومعنى المبين: المظهر لما يقوله الموضح له بقوة عارضته وطلاقة لسانه .

قال ابن عباس: «جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففتّه بيده فقال: يا محمد أيحيى الله هذا بعد ما أرى؟ قال: نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم فنزلت الآيات من آخر يس: أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة الخ[1]» أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في معجمه

وعنه قال : جاء عبدالله بن أبيّ في يده عظم حائل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر مثل ما تقدم. قال ابن كثير: وهذا منكر لأن السورة مكية وابن أبيّ إنما كان بالمدينة، وعنه قال: جاء أبيّ بن خلف الجمحي وذكر نحو ما تقدم ؛ وعنه أيضاً قال : نزلت في أبي جهل وذكر نحو ما تقدم .

﴿ وضرب لنا مثلاً ﴾ بفته العظم والجملة معطوفة على الجملة المنفية داخلة في حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، فهي تكميل للتعجيب من حال الإنسان، وبيان جهله بالحقائق، وإهماله للتفكر في نفسه فضلاً عن التفكر في سائر مخلوقات الله .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ معطوفة على خلقنا ،

(١) رواه الطبري ٢٣/٣٠ والسيوطي في الدر ر٥/٢٦٩ .

وهذه معطوفة عليها ، أي أورد في شأننا قصة عجيبة في نفس الأمر كالمثل في الغرابة ، وهي إنكاره إحياءنا للعظام ، أو قصة عجيبة في زعمه واستبعدها وعدها من قبيل المثل ، وأنكرها أشد الإنكار ، وهي إحياؤنا إياها ، أو جعل لنا مثلاً ونظيراً من الخلق ، وقاس قدرتنا على قدرتهم ، ونفى الكل على العموم فالمثل على الأول هو إنكار إحيائه للعظام ، وعلى الثاني هو إحياؤه لها ، وأما على الثالث فلا فرق بين أن يكون المثل هو الإنكار أو المنكر .

﴿ونسي خلقه﴾ أي خلقنا إياه من المني الدال على بطلان ما ضربه من المثل وذهل عنه ، وترك ذكره على طريقة اللداد والمكابرة ، فهو أغرب من إحياء العظم .

﴿ قال : من يحيي العظام وهي رميم ﴾ بالية استئناف جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل : ما هذا المثل الذي ضربه ؟ فقيل:قال من يحيي العظام وهي رميم؟وهذا الاستفهام للإنكار لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد فأنكر أن الله يحيي العظام البالية حيث لم يكن ذلك في مقدورالبشر. يقال:رم العظم يرم رماً إذا بلي ، فهو رميم ورمام ، وإنما قال : رميم ولم يقل : رميمة مع كونه خبراً للمؤنث لأنه اسم لما بلي من العظام غير صفة ، كالرمة والرفات ، وقيل:لكونه معدولاً عن فاعله ، وكل معدول عن وجهه يكون مصروفاً عن إعرابه كما في قوله:﴿ وما كانت أمك بغياً ﴾ لأنه مصروف عن باغية. كذا قال البغوي والقرطبي ، وقال بالأول صاحب الكشاف .

والأولى أن يقال:إنه فعيل بمعنى فاعل . من رم الشيء صار اسماً بالغلبة أو مفعول ، وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث كما قيل في جريح وصبور .

ومن يثبت الحياة في العظام ويقول:إن عظام الميتة نجسة لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها يتشبث بهذه الآية ، وهي عند الحنفية طاهرة ، وكذا الشعر والعصب لأن الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت .

والمراد باحياء العظام في الآية ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس ، وقد استدل أبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعي بهذه الآية على أن العظام مما تحله الحياة ، وقال الشافعي : لا تحلها الحياة ، وأن المراد بقوله : من يحيي العظام؟ من يحيي أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف ، ورد بأن هذا التقدير خلاف الظاهر ، ثم أجاب سبحانه عن الضارب لهذا المثل فقال ﴿ قل ﴾ أي على سبيل تبكيته وتذكيره بما نسيه من فطرته الدالة على حقيقة الحال .

﴿ يحييها الذي أنشأها ﴾ أي ابتدأها وخلقها ﴿ أول مرة ﴾ من غير شيء ومن قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية .

﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ لا تخفى عليه خافية ولا يخرج عن علمه خارج كائناً ما كان ، أي يعلم تفاصيل المخلوقات بعلمه وكيفية خلقها فيعلم أجزاء الأشخاص المتفتتة المتبددة أصولها وفصولها ، ومواقعها وطريق تمييزها ، وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأعراض والقوى التي كانت فيها أو إحداث مثلها .

وقال الكرخي : يعلمه مجملاً ومفصلاً ، أي قبل خلقه وبعد خلقه ، والآية حجة على من ينكر علمه سبحانه بالجزئيات ونظيره قوله سبحانه : ﴿ إن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾

﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴾ هذا رجوع منه سبحانه إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم فنبه سبحانه على وحدانيته ، ودل على قدرته على إحياء الموات بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندي الرطب .

وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ والشجر المعروف بالعفار إذا قطع منهما عودان مثل السِواكين وضرب أحدهما على الآخر انقدحت منهما النار وهما أخضران ، قيل المرخ هو الذكر والعفار هو الأنثى ويسمى الأول الزند والثاني

الزندة ، تقول العرب : في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار ، أي استكثر منهما وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً ، وقال الحكماء:في كل شجر نار إلا العناب لمصلحة الدق للثياب ، ولذلك تتخذ منه مطارق القصارين .

وبالجملة فمن بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء وانطفائها به ، فمن قدر على جمع الماء والنار في الشجر قدر على المعاقبة بين الموت والحياة في البشر ، وإجراء أحد الضدين على الآخر بالتعقيب أسهل في العقل من الجمع معاً بلا ترتيب ، وقال الأخضر ، ولم يقل الخضر اعتباراً باللفظ ، وقرىء الخضر اعتباراً بالمعنى .

وقد تقرر: أنه يجوز تذكير اسم الجنس وتأنيثه ، كما في قوله:﴿ نخل منقعر ﴾ وقوله: ﴿ نخل خاوية ﴾ فبنو تميم ونجد يذكرونه ، وأهل الحجاز يؤنثونه إلا نادراً ، والموصول بدل من الموصول الأول .

﴿ فإذا أنتم منه توقدون ﴾ أي تقدحون منه النار وتوقدونها من ذلك الشجر الأخضر ثم ذكر سبحانه ما هو أعظم من الإنسان خلقاً فقال :

﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ ﴾ والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر كنظائره ، ومعنى الآية: أن من قدر على خلق السموات والأرض وهما في غاية العظم وكبر الأجزاء يقدر على إعادة خلق البشر الذي هو صغير الشكل ضعيف القوة ، كما قال سبحانه: ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ قال الشهاب: أي مثل هؤلاء الأناس الذين ماتوا ، والمراد هم وأمثالهم على سبيل التقديم والتأخير ، أو المراد هم على طريق الكناية في نحو مثلك يفعل كذا ، قرأ الجمهور: بقادر بصيغة اسم الفاعل ، وقرىء: يقدر بصيغة المضارع ، ثم أجاب سبحانه عما أفاده الاستفهام من الإنكار التقريري بقوله :

﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ أي بلى هو قادر على ذلك ، وهو المبالغ في الخلق والعلم على أكمل وجه وأتمه ، وقرى: وهو الخالق ، ثم ذكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته وتيسير المبدأ والإعادة عليها فقال :

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ أي إنما شأنه سبحانه إذا تعلقت إرادته بشيء من الأشياء أن يقول له: احدث فيحدث من غير توقف على شيء آخر أصلاً ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة النحل ، وفي البقرة ، قرأ الجمهور: فيكون بالرفع على الاستئناف ، وقرأ الكسائي : بالنصب عطفاً على يقول ، ثم نزه سبحانه نفسه عن أن يوصف بغير القدرة فقال :

﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ هذا تنزيه له تعالى عما وصفوه به وتعجيب مما قالوا في شأنه ، والملكوت في كلام العرب لفظ مبالغة في الملك كالجبروت والرحموت كأنه قال: فسبحان من بيده مالكية الأشياء الكلية .قال قتادة: ملكوت كل شيء مفاتح كل شيء . وقرىء: ملكة بزنة شجرة ، وقرىء: مملكة بزنة مفعلة . والملك والملكوت أبلغ من الجميع .

﴿ وإليه ترجعون ﴾ قرأ الجهور بالفوقية على الخطاب مبنياً للمفعول وقرىء: بالتحتية على الغيبة مبنياً للمفعول أيضاً، وقرأ زيد بن علي: على البناء للفاعل أي ترجعون إليه لا إلى غيره ، وتردون وتعادون بعد الموت بلا فوت . وذلك في الدار الآخرة بعد البعث .

ملحق لتفسير سورة يس

ذكر المؤلف في صدر تفسيره لهذه السورة حديث: «اقرأوا يس عند موتاكم» وقلنا: في التعليق على ذلك إننا سننشر في آخر تفسير السورة ملحق يفصل موضوع القراءة على الأموات ننقله من المنار وغيره، وبناء عليه نقول: قال ابن القيم: وهذا يحتمل أن يراد به قراءتها على المحتضر عند موته مثل قوله: لقنوا موتاكم لا إلّه إلا الله ويحتمل أن يراد به القراءة عند القبر، والأول أظهر لوجوه:

أحدها: أنه نظير قوله: لقنوا موتاكم لا إلّه إلا الله.

الثاني: انتفاع المحتضر بهذه السورة لما فيها من التوحيد والمعاد والبشرى بالجنة لأهل التوحيد وغبطة من مات عليه بقوله: ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ فيستبشر الروح بذلك فيحب لقاء الله فيحب الله لقاءه.

الثالث: إن هذا عمل الناس وعادتهم قديماً وحديثاً يقرأون يس عند المحتضر.

الرابع: أن الصحابة لم يكونوا يقرأونها عند القبور ولو فهموا من قوله صلى الله عليه وسلم اقرأوا يس عند موتاكم قراءتها عند القبر لما أخلوا به، وكان ذلك أمراً معتاداً مشهوراً بينهم.

الخامس: ان انتفاعه باستماعها وحضور قلبه وذهنه عند قراءتها في آخر عهده بالدنيا هو المقصود، وأما قراءتها عند قبره لا يثاب على ذلك لأن الثواب إما بالقراءة أو بالاستماع وهو عمل، وقد انقطع عمل الميت.. أهـ.

وكتب صاحب المنار رحمه الله في آخر سورة الأنعام استدراكاً على تفسير قوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ بدأه بتمهيد مهم ثم قال:

أقول هذا تمهيداً لتذكيرك بعدم الاغترار بما لعلك اطلعت أو تطلع عليه من الوجوه التي حمل عليها بعض المتفقهة والمصنفين في تفسير قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فحرفوا الكلم عن مواضعه تارة بالتأويلات السخيفة ، وتارة بدعوى النسخ الباطلة ، وتارة بدعوى أن هاتين الآيتين من شريعة إبراهيم وموسى لا من شرعنا ، وتارة بتخصيصها بالكفار دون المسلمين .

وقد غفل هؤلاء عن كون مضمون الآيتين من قواعد الدين وأصول الإسلام ، الثابتة على ألسنة جميع الرسل ومؤيداً بآيات كثيرة بلفظها ومعناها كآية: ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ وغيرها مما يعلق الفلاح والخسر بالأعمال .

أما هؤلاء المقلدون من المتأخرين فسبب غفلهم وتأويلهم أنهم يحاولون تصحيح كل ما فشا من البدع بين أقوالهم والمنسوبين إلى مذاهبهم وليسوا من أهل الدليل ، ولكنهم لا يتركون ضلالة التأويل ، وأما أهل النظر في أدلة المذاهب منهم فلا هم من النظر في الكتاب والسنة إلا أخذ ما يرونه مؤيداً لمذاهبهم وترك ما سواه بضرب من التأويل ، أو دعوى النسخ أو احتماله بغير دليل .

ولو كان هؤلاء المقلدون العميان هم الذين جوزوا وحدهم للناس إهداء عباداتهم للموتى لهان الخطب ولكن تابعهم على ذلك بعض علماء السنة من أهل الأثر والنظر (كابن تيمية وابن القيم) إذ ظنوا أن الأحاديث الواردة في الدعاء للموتى والإذن للأولاد بأن يقضوا ما على والديهم من صيام أو صدقة أو حج ، تدل على انتفاع الموتى بعبادات الأحياء مطلقاً ، غافلين عن حصر ما صح من ذلك في الأولاد فقط ، وحديث « صام عنه وليه » يتعين أن يراد بالولي هنا الولد ليوافق سائر النصوص ، وولد المرء من عمله ، فانتفاع الميت بعمل ولده الحي يدخل في القاعدة ولا يناقضها .

كلام ابن القيم ورد المنار عليه

قال ابن القيم فإن قيل : فهذا لم يكن معروفاً في السلف ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير ولا ارشدهم النبي صلى الله عليه وسلم إليه وقد ارشدهم إلى الدعاء والاستغفار بالصدقة والحج والصيام ، فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم ولكانوا يفعلونه :

وأجاب ابن القيم عن هذا الاعتراض فقال:

إن مورد هذا السؤال إن كان معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام و . . و . . قيل له: ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال؟ وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات ، وان لم يعترف بوصول تلك الأعمال الى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع .

رد المنار على ابن القيم

أقول وبالله التوفيق : عفا الله عن شيخنا وأستاذنا أما قوله لمورد السؤال إذا كان معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام : ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن . . الخ فنجيب عنه بأن المانع لذلك نصوص القرآن التي جاءت في أن عمل كل عامل له دون غيره والسائل يعترف بأن النبي صلى الله عليه وسلم أذن للأولاد أن يقضوا عن والديهم حقوقاً ثبتت عليهم كما يقضون ديون الناس عنهم ، فهي ليست كقراءة القرآن التي ليست مفروضة على الأعيان في غير الصلاة .

وبهذا كان أداء الحقوق غير معارض للآيات الواردة ، وبهذا بطل قوله وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات .

كلام ابن القيم

فإن قيل : فرسول الله صلى الله عليه وسلم أرشدهم إلى الصوم و . .

و . . دون القراءة .

ثم أجاب ابن القيم : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبتدئهم بذلك بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم ، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له ، وهذا سأله عن الصدقة فأذن له ، ولم يمنعهم مما سوى ذلك .

رد المنار عليه

إن عدم ابتداء الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم بذلك على إطلاقه دليل على أنه ليس من دينه ، وإلا لم يكن مبينا لما أنزل إليه كما أمر به وهذا محال .

وسؤال أولئك الأفراد إياه دليل على أنهم لم يكونوا يعلمون من نصوص الدين ولا من السنة العملية ما يدل على شرعيته ، فلذلك استفتوه فيه ، ولم يستفتوه في العمل عن غير الوالدين لنص القرآن في منعه . ، . اهـ .

* * *

وقد يستدل بعضهم على انتفاع الموتى بعمل الأحياء بحديث: «وضع النبي صلى الله عليه وسلم الجريدتين على القبرين » ،[1] والجواب على ذلك أن هذا واقعة حال في أمر غيبي غير معقول المعنى والظاهر أنه من خصائصه صلى الله عليه وسلم .

وكذلك حديث شبرمة وفيه أنه أخ لي أو قريب أحج عنه ،والجواب: أنه حديث موقوف كما هو الراجح عند احمد ، وقال ابن المنذر لا يثبت رفعه .

* * *

وجاء في كتابنا مشكلات القرآن ما نصه:

(١) انظر مسند أحمد ١٧٢/٤ وقد روي نحوه .

المشكلة العاشرة

هل ينتفع الأموات بعمل الأحياء ؟

قال الله تعالى ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى ﴾ وقال ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ .

القرآن الكريم مملوء بالآيات في هذا المعنى ، وتقرير هذه القاعدة ، وهي أن الإنسان في الآخرة مجزى بعمله لا بعمل غيره ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾

غير أن المسلمين اليوم وقبل اليوم درجوا على الانصراف عن هذه القاعدة فتراهم يقرأون القرآن على الموتى ويتصدقون عنهم ويدعون لهم سواء في ذلك الولد على الوالد أو الوالد على الولد ، أو الزوجة على زوجها : أو الزوج على زوجته أو الأقارب والأصهار . وإذا صارحناهم بأن هذا خطأ لا يقره دين ولا شريعة قالوا :كيف هذا والناس عليه من قديم ، والشيوخ في هذا العصر لا ينكرون .

فإذا قلنا لهم إن الحجة في كلام الله ورسوله فقط لا في عمل الجماهير وسكوت الشيوخ قالوا :إن شيخ الإسلام ابن تيمية قد جوز هذا في بعض كتبه وهو عالم كبير وله شهرة واسعة في الدفاع عن السنة ومحاربة البدع .

ونحن نورد هنا ما قاله ابن تيمية وما رد به عليه أستاذ جليل محقق يحب ابن تيمية ولكن حبه للحق أكبر ، قال الاستاذ[1]:

قال ابن تيمية : من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بما عمله فقوله باطل من وجوه:

أحدها أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره ، وهذا انتفاع بعمل الغير .

---

(١) هو الأستاذ الكبير الشيخ أبو الوفا محمد درويش رحمه الله .

والجواب إن الداعي للإنسان إما أن يكون ولده وإما أن يكون غير ولده أما الولد فقد بينت السنة أن عمله استمرار لعمل الوالد: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث.. أو ولد صالح يدعو لـه » فدعـوة الولـدمن سعي الوالد وعمله .

وأما اذا كان الداعي غير ولده فقد أثبت الواقع المشاهد الذي لا ينكره إلا معاند أن أحداً لا يدعو لأحد إلا لإحسان أو بر نال الداعي من المدعو له وما رأينا أحداً يدعو لأحد اعتباطاً أو مجاناً .

ولا شك أن البر والإحسان إلى المسلمين من الطاعات . وهي من كسب الشخص وسعيه وعمله ، فإذا استجاب الله دعاء الداعي للبار المحسن ، كان ذلك ثواباً لإحسانه وبره ، وبذلك يكون الشخص قد انتفع بكسبه وسعيه وعمله ، إذ لـولا الإحسان والبر ما دعا الداعي .

فقد انتفع الشخص بكسبه وسعيه وعمله لا بعمل غيره .

وإذا فرضنا أن الداعي لم ينله من المدعو له إحسان ولا بر ، أفلا يدعو له بالخير لأنه من إخوانه المسلمين المؤمنين ، والإيمان رحم بين المؤمنين ؛ ولولا إسلامه وإيمانه ما دعا له ، لأن المسلم يعتبر المسلمين إخوة ويعتبر الدعاء لهم من البر بهم ، والإسلام والإيمان من كسب العبد وسعيه وعمله ، فإذا انتفع المسلم باستجابة الله تعالى لدعاء مسلم من إخوانه ، كـان انتفاعـه بسبب إسلامه وإيمانه ، أي بسبب كسبه وعمله قبل كل شيء .

والله تعالى جعل الدعاء للمؤمن من ثواب إيمانه ، قال تعالى: ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

فلولا صبرهم ما سلمت عليهم الملائكة ، وتسليم الملائكة دعاء بالسلامة وهو ثواب صبرهم ، وصبرهم من كسبهم وسعيهم وعملهم ، وهذا شيء من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى إقامة دليل ولا برهان ، فهو في حكم البدهيات التي لا تفتقر إلى نظر ولا استدلال .

فثبت بذلك أن انتفاع المؤمن بدعاء المؤمنين ، سواء عليه ، أكانوا من ولده أم من غيرهم : إنما هو انتفاع بكسبه وسعيه وعمله لا بكسب غيره ولا بسعي سواه ولا بعمل الناس .

قال ابن تيمية :

ثانيها : أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع لأهل الموقف في الحساب ، ثم لأهل الجنة في دخولها ، ثم لأهل الكبائر في الخروج من النار ، وهذا انتفاع بعمل الغير .

ونقول وبالله نعتصم وبقوله الحق نتأيد : أما في الموقف فالشفاعة لا تنفع الكفار ، ولا هي بمغنية عنهم شيئاً ، فهم منتقلون من كربة إلى كربات ، ومن شدة إلى شدات وحسبنا دليل على ذلك قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ ٤٨ .

والآيات في معناها كثير.

فكيف يقال مع هذه النصوص الصريحة : إنهم انتفعوا بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم أو إنهم انتفعوا بعمل غيرهم ؟ وهم أعداء الله وأعداء رسوله الذين حبطت أعمالهم ، وضل سعيهم ، ولا يقام لهم يوم القيامة وزن ، ولا تنالهم من الرسول صلى الله عليه وسلم شفاعة ولا من الله تعالى رحمة .

وأما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر فتكون شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ثواباً لإيمانهم . ولولا إيمانهم لم ينالوا هذه الشفاعة ، فهم في واقع الأمر وحقيقته قد انتفعوا بكسبهم واستفادوا بسعيهم ، وقطفوا ثمرة عملهم فكيف يقال إنهم انتفعوا بعمل غيرهم ، وما انتفاعهم بعد فضل الله ورحمته إلا بمحض عملهم .

وأما شفاعته صلى الله عليه وسلم لأهل الجنة في دخولها فهي كذلك ثواب أعمالهم لقوله تعالى ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ فلولا إنهم آمنوا

وعملوا الصالحات ما دخلوا الجنة ولا وجدوا ريحها ولا نالتهم شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهم في حقيقة الأمر وواقعه ينتفعون بسعيهم وكسبهم وعملهم ، ولولا أعمالهم ما استحقوا شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

فكيف يقال إنهم انتفعوا بعمل غيرهم ؟

وأما شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر في الخروج من النار ؛ فإنها لن تكون إلا بعد أن تمسهم النار بذنوبهم ويصيروا حمماً أو فحماً كما جاء في حديث مسلم ولولا أنهم مؤمنون ما أذن الله في الشفاعة لهم ، فالشفاعة لهم وخروجهم من النار من ثواب إيمانهم ، وإيمانهم من كسبهم وسعيهم وعملهم فكيف يقال : إنهم انتفعوا بعمل غيرهم .

ثم قال ابن تيمية :

ثالثها : إن كل نبي وصالح له شفاعة وذلك انتفاع بعمل الغير .

ونقول : إن هذه الشفاعات لا تنفع ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ لقوله تعالى ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ ٢٦ النجم . والآيات في معناها كثيرة .

فالشفاعة مشروط فيها بحسب نصوص القرآن الكريم الإذن والرضا ، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يأذن في الشفاعة لهم ، ولا يأذن للنبي صلى الله عليه وسلم في الشفاعة لأهل الكبائر لخروجهم من النار إلا بعد أن تمسهم النار بذنوبهم وتطهرهم من أوزارهم ويبقى إيمانهم وهو موضع رضا الكريم سبحانه .

فشفاعة الأنبياء والصالحين لا تكون إلا بعد الإذن والرضا وإذاً فتكون للمؤمنين لا لغيرهم ، والله تعالى قد جعل هذه الشفاعات ثواباً للإيمان وصالح العمل فهؤلاء الذين يشفع لهم الأنبياء والصالحون في حقيقة الأمر وواقعه منتفعون بإيمانهم وأعمالهم وسعيهم وكسبهم ، ولولا ذلك ما شفع لهم شافع

ولا نفعتهم شفاعة الشافعين .

فكيف يقال : إنهم انتفعوا بعمل غيرهم ؟

ثم قال ابن تيمية:

رابعها : إن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الأرض وذلك منفعة بعمل الغير .

ونقول : إن الله تعالى بين لنا في كتابه العزيز دعاء الملائكة واستغفارهم وبين لنا كذلك من مِن أهل الأرض تستغفر لهم الملائكة ، فقال تعالى في سورة غافر:﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم(٧)ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيزالحكيم (٨)وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم (٩)﴾.

ألم تر كيف وقف الملائكة عند حدهم ولم يطلبوا من ربهم إلا ما يقتضيه عدله وحكمته ؟

ليس هذا الدعاء والاستغفار إلا تسبيحاً لله وتنزيهاً له بذكر صفات فضله وعدله ورحمته، فحين أخبر الله تعالى عن ملائكته الكرام أنهم يستغفرون لم يذكر أنهم يستغفرون لكل من دب ودرج على وجه الأرض ولكن ذكر أنهم يستغفرون للذين آمنوا؛ فدل على أن استغفار الملائكة للمؤمنين من ثواب إيمانهم.

وحين حكى سبحانه قوله بين أنهم لم يقولوا : اغفر لكل مصر على ذنبه ، أو مجاهر بمعصية ربه . بل بين أنهم يقولون:﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ .

فقد أثنوا على الله تعالى بسعة الرحمة والعلم ، وسألوه أن يغفر للذين تابوا واتبعوا سبيله : أي سلكوا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله

عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين :

ولا جرم أن الله تعالى وعد أن يغفر لهؤلاء جميعاً .

فالملائكة الكرام لا يسألون ربهم إلا تصديق وعده ، بدليل قوله‌تعالى: ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾

وحين طلبوا ذلك لمن يتصل بهم من أولي قرباهم ، لم يطلبوه لكل قريب ولو خب في الإثم ووضع ،ولو تمرغ في حمأة الفساد بل طلبوه لمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . فهم لم يطلبوا المغفرة إلا لأهل الصلاح .

فلولا أنهم مؤمنون ، وأنهم تابوا واتبعوا سبيل الله ، ولولا أن آباءهم وأزواجهم وذرياتهم صالحون ما استغفرت لهم الملائكة .

إذاً لا يكون استغفار الملائكة إلا ثواباً لإيمانهم وتوبتهم واتباعهم سبيل الله .

وإذاً فهم ينتفعون بإيمانهم وتوبتهم واتباعهم سبيل الله أي أنهم منتفعون بسعيهم وكسبهم وعملهم .

فكيف يقال : ان هؤلاء منتفعون بعمل غيرهم ؟

ثم قال رحمه الله:

ثامنها : أن الميت ينتفع بالصدقة عنه والحج والصوم وبالعتق بنص السنة والإجماع، وهو من عمل الغير .

ونقول : ان الصدقة التي وردت السنة بانتفاع الميت بها هي ما يقوم بأدائها ولده من بعده ومثلها العتق والحج والصوم ، وقد أسلفنا أن ولد الميت من كسبه بنص الحديث الشريف وقد بينا أن كل ما يعمله الولد نيابة عن والديه من الصدقة والحج فإنه لهما وينتفعان به ، وذلك من فضل الله ورحمته فليس للوالدين إلا ما سعيا بنفسهما أو بولدهما الذي ينوب عنهما وهو كسبهما .

قال ابن تيمية : إن المدين الذي امتنع الرسول صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة وقضى دين الآخر علي بن أبي طالب ، وانتفع بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم وبردت جلدته بقضاء دينه وهو من عمل الغير.

ونقول : إن المدين الذي مات وعليه دين يقضي دينه مما ترك ، إذ لا تركة إلا بعد وفاء الديون ، فإن لم يكن له مال أصبح دينه في ذمة ورثته يجب عليهم أداؤه وهذا المدين إن كان قد استدان وفي نيته أداء الدين ولكن الموت أعجله عن الوفاء فلم يتح له الوفاء حتى مات ، فلا إثم عليه . إذ لم يكن عدم الوفاء بتقصير منه ، ولا بسبق نية وإصرار .

وإن كان قد استدان وهو عازم على ألا يوفي ، فإن نية السوء هذه تلازمه منذ وصل مال الدائن إلى يده حتى لقي حتفه ، وهو مؤاخذ بها ومسؤول عنها ولا يخليه من تبعتها أن الدين قد أداه عنه غيره ، لأنه ليس مسؤولاً عن الدين فقط ، بل عن نية الغدر والإتلاف أيضاً ، فلا يغني عنه أن غيره أدى عنه الدين .

ولكن الله تعالى لا يرضى أن تضيع الحقوق ، فجعل الدين في ذمة الورثة يدفعونها إلى الدائن إن كانوا موسرين ، فإن كانوا معسرين ﴿ فنظرة إلى ميسرة ﴾ وقد شدد الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم في أداء الدين ، حتى لقد كان لا يصلي على المدين إذا مات ولم يخلف ما يقضي به دينه ليحمل جماعة المسلمين على أن يتضامنوا في أداء دينه حتى يظفر بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم على جنازته .

والشريعة الإسلامية سنت مبدأ التضامن الاجتماعي ، والتكافل القومي وجعلت مال الشخص في يده يتصرف فيه بالمعروف كيف يشاء ، مالم تكن بجماعة المسلمين حاجة ماسة إليه فإذا مست إليه حاجتهم فهو مالهم جميعاً قال تعالى :﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ أي لا يأكل بعضكم مال بعض

بالباطل .

ولكنه أضاف الأموال إليهم جميعاً ليعلم كل فرد أن المال الذي في يده هو مال الأمة ، وأن أموال الأفراد تكون الثروة العامة للأمة ، فأبو قتادة حين دفع دين الميت المدين لم يزد على أن تصدق على ورثته بما يؤدي دينه ، فإن كان هناك ثواب يرجى ، وأجر يمنح ، فهو لهذا المتصدق ولا شيء منه للميت إذ لا سعي له ولا عمل ، وإن كان الميت سيء القصد ، فاسد النية مات وهو مصر على عدم الوفاء ، فإنّ وفاء أبي قتادة لا يغني عنه شيئاً .

فبطل القول بأن في هذا انتفاع الميت بعمل غيره وثبت أن ليس للإنسان إلا ما سعى ولا يظلم ربك أحداً .

قال ابن تيمية : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن صلى وحده ؛ ألا رجل يتصدق على هذا فيصلي معه ؟ قد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير .

نقول : بل حصل له فضل الجماعة بنيته إذ لو بقي على نية الصلاة فذاً لم يحصل له فضل الجماعة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » ولو خرج من بيته يريد أن يصلي في المسجد في جماعة ، فلم يجد أحداً واضطر أن يصلي منفرداً لكان له أجر نيته ، ولو اكتظ المسجد بالمسلمين وصلوا كلهم أفذاذاً لم يكن لأحد منهم فضل الجماعة .

وإذاً لا يكسب فضل الجماعة إلا بالنية ، ونية الرجل من كسبه وسعيه وعمله فلا يصح أن يقال : أن هذا حصل له فضل الجماعة بعمل غيره ﴿ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾ .

ثم قال ابن تيمية : الصلاة على الميت والدعاء له في الصلاة انتفاع للميت بصلاة الحي عليه ، وهو عمل غيره .

ونقول : كلا بل انتفاعه بعمل نفسه ، فلولا أنه من زمرة المسلمين ما

فرض الله على المسلمين الصلاة عليه ، فصلاة المسلمين عليه ودعاؤهم له من ثواب إيمانه ، وإيمانه من كسبه كما تقدم ، فلو لم يكن مؤمناً ما صلى عليه المؤمنون ، ولا دعوا له .

* * *

ويظهر أن الإمام ابن تيمية قد رجع عن كل ما قاله هنا ، فقد قال في بعض فتاويه (فلم يكن من عادة السلف إذا صلوا أو صاموا أو حجوا تطوعاً أو قرأوا القرآن أن يهدوا ثواب ذلك للموتى) انظر مختصر الفتاوى لابن تيمية ص (١٧١)

ويقول : لم يكن من عادة السلف إهداء ذلك الى موتى المسلمين بل كانوا يدعون لهم فلا ينبغي الخروج عنهم ـ انظر تفسير المنار (ص ٢٦ جـ ٨) .

فصل

في قراءة القرآن على الموتى

إذا كان العلامة (أبو الوفاء محمد درويش) قد قوم الخطأ الذي سقط فيه الإمام ابن تيمية في البحث السابق فقد سبقه المرحوم صاحب المنار الى تقويم الخطأ الذي تورط فيه العلامة ابن القيم ، فقد أطال ابن القيم في جواز قراءة القرآن للموتى قياساً على الصدقة والدعاء . . الخ .

وكان هذا التقويم من هذين الشيخين آية جديدة على ما أوتيا من شجاعة أدبية ؛ وأن حبهما للإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم لم يمنعهما من الرد عليهما وآية جديدة على أن العصمة لله وحده .

وقد أطال صاحب المنار في تفنيد أدلة جواز قراءة القرآن للموتى (وقد تقدم هنا) وختم هذا البحث القيم بقوله :

وإذ قد علمت أن حديث قراءة سورة يس على الموتى غير صحيح وإن أريد به من حضرهم الموت ، وانه لم يصح في هذا الباب حديث قط ، كما قال المحقق الدارقطني فاعلم أن ما اشتهر وعم البدو والحضر من قراءة الفاتحة للموتى لم يرد فيه حديث صحيح ولا ضعيف فهو من البدع المخالفة لما تقدم من النصوص القطعية ، ولكنه صار بسكوت اللابسين لباس العلماء وبإقرارهم له ثم بمجاراة العامة عليه من قبيل السنن المؤكدة أو الفرائض المحتمة .

وخلاصة القول: أن المسألة من الأمور التعبدية التي يجب فيها الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة وعمل الصدر الأول من السلف الصالح ؛ وقد علمنا أن القاعدة المقررة في نصوص القرآن الصريحة والأحاديث الصحيحة أن الناس لا يجزون في الآخرة إلا بأعمالهم (٨٢ : ١٩) ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ (٣١ ـ ٢٢) ﴿ واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ وأن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ أقرب أهل

عشيرته إليه بأمر ربه أن: « اعملوا لا أغني عنكم من الله شيئاً » فقال ذلك لعمه وعمته ولابنته سيدة النساء وأن مدار النجاة في الآخرة على تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح .

والثواب ما يثوب ويرجع إلى العامل من تأثير عمله في نفسه ـ الخ ما تقدم شرحه مع التذكير بالآيات الكثيرة والأحاديث فيه ، وكل ذلك من الأخبار وقواعد العقائد فلا يدخلها النسخ .

وورد مع ذلك الأمر بالدعاء لأحياء المؤمنين وأمواتهم في صلاة الجنازة وفي غيرها ، فالدعاء عبادة ثوابها لفاعلها سواء استجيب أم لا ، ويستحيل شرعاً وعقلاً استجابة كل دعاء لتناقض الأدعية ولاقتضاء الاستجابة ألا يعاقب فاسق ولا مجرم إلا إذا اتفق وجود أحد لا يدعو له أحد برحمة ولا مغفرة في صلاة ولا غيرها ، ولما يترتب على ذلك من تعطيل كثير من النصوص أو عدم صدقها .

وورد في الأخبار جواز صدقة الأولاد عن الوالدين ودعائهم لهما وقضاء ما وجب عليهما من صيام أو صدقة أو نسك ، وقد بينا حكمته مع النصوص فيه ، والظاهر من هذا أن الوالدين ينتفعان ببعض عمل أولادهما لأن الشارع ألحقهم بهما ، فيسقط عنهما ما ينوبان عنهما فيه من أداء دين الله تعالى كديون الناس .

فمن أراد أن يتبع الهدى ، ويتقي جعل الدين تابعاً للهوى ، فليقف عند النصوص الصحيحة ؛ ويتبع فيها سيرة السلف الصالح ويعرض عن أقيسة بعض الخلف المروجة للبدع ؛ وإذا زين لك الشيطان أنه يمكنك أن تكون أهدى وأكمل عملاً بالدين من الصحابة والتابعين فحاسب نفسك على الفرائض والفضائل المجمع عليها والصحيحة التي يضعف الخلاف فيها .

وانظر أين مكانك منها فإن رأيت ولو بعين العجب والغرور أنك بلغت مد أحدهم أو نصيفه من الكمال فيها ، فعند ذلك تعذر في الزيادة عليها ،

وهيهات هيهات لا يدعي ذلك إلا جهول مفتون ، أو من به مس من الجنون وأن أكثر المتعبدين بالبدع ؛ مقصرون في أداء الفرائض أو في المواظبة على السنن ، ومنهم المصرون على الفواحش والمنكرات ؛ كإصرارهم على ما التزموا في المقابر من العادات ، كاتخاذها أعياداً تشد إليها الرحال ، ويجتمع لديها النساء والرجال والأطفال ؛ ولا سيما في ليلتي العيدين وأول جمعة من رجب ، وتذبح عندها الذبائح ؛ وتطبخ أنواع المآكل ؛ فيأكلون ثم يشربون ، ويبولون ويغوطون ويلغون ويصخبون ويقرأ لهم القرآن من يستأجرون لذلك من العميان ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون .[1]

(١) والحمد لله فقد تم بفضل الله ثم بجهود المخلصين بمنع بعض البدع في بعض الأقطار الاسلامية ونسأل الله سبحانه وتعالى ان يكلل هذه الخطوات لإنهاء هذه الشواذات انه سميع مجيب .

فصل

هل يتأذى الأموات بعمل الأحياء

قدمنا لك الأدلة الكافية في عدم انتفاع الأموات بعمل الخير من الأحياء ، فما القول في الموضوع إذا انعكس الأمر ؟ هل يتأذى الميت إذا صدر من الحي ما حرمه الله ورسوله ؟ ليس في هذا إلا قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه » رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر والمراد به النياحة كما صرح به في بعض الروايات عنه وعن أبيه وورد التصريح بعدم المؤاخذة بالبكاء المجرد وقد أوله بعضهم بأنه يعذب بما نيح عليه إذا أوصى أهله به وكان ممن يرْضى به ، ويحتمل أن يكون المراد بتعذيب الميت بنواح الحي عليه أنه يشعر ببكائه فيؤلمه ذلك لا أن الله تعالى يعذبه به ويؤاخذه عليه والله أعلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة قال : توفيت أم عمرو بنت أبان بن عثمان فحضرت الجنازة فسمع ابن عمر بكاء فقال : ألا تنهى هؤلاء عن البكاء فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الميت يعذب ببكاء الحي عليه» فأتيت عائشة فذكرت لها ذلك. فقالت: «والله إنك لتخبرني عن غير كاذب ولا متهم ولكن السمع يخطىء وفي القرآن ما يكفيكم: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

وقال الشيخ محمد عبدالسلام في رسالته: (القراءة للأموات) ما نصه:

وبعد فقد سألنا أخ لنا في الله تعالى عن قراءة القرآن: هل يصل ثوابها للموتى ؟ فأجبناه بما يأتي:

أخرج أبو داود في سننه: «أنه صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت فإنه الآن

يسأل»[١] حديث حسن وأخرج أيضاً أبو داود وغيره باسناد حسن: أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا وضع الميت في لحده قال: «بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله».

فليس في هذه الأحاديث أنه قرأ سورة لا هو ولا أحد أصحابه على القبر كما يفعل ذلك القراء الآن.

وكذا رواية مسلم عن أبي هريرة قال زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: «استأذنت ربي في أن استغفر لها فلم يأذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور، فانها تذكر الموت ـ وفي رواية ـ فان فيها عبرة، فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة»[٢].

فظهر أن المعروف عنه صلى الله عليه وسلم إنما هو الاستغفار لا تلاوة القرآن. وهذا هو المنقول والمعقول أما تلاوة القرآن التي هي أحكام الدين وآدابه وحلاله وحرامه، فلا يمكن أن يفيد الميت شيئاً قط. والقرآن والسنة الثابتة معنا على ذلك.

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي أن بريدة الأسلمي قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، إنا إن شاء الله بكم لاحقون أنتم فرطنا[٣] ونحن لكم تبع، ونسأل الله لنا ولكم العافية»[٤] وليس في هذا الحديث أيضاً سوى التسليم على أهل المقابر وطلب العافية لهم من الله، وليس فيه ما يشم منه رائحة إباحة تلاوة القرآن للأموات.

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله

---

(١) صحيح الجامع/ ٩٥٦.
(٢) احمد ٢/٤٤١.
(٣) فرطنا أي سبقتمونا.
(٤) صحيح الجامع/ ٣٥٩٢ بطوله.

عليه وسلم كلما كانت ليلتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل إلى البقع فيقـول: « السلام عليكم دار قـوم مؤمنين ، وأتاكم ما توعدون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد »[1] وهذا ليس فيه سوى طلب المغفرة لأهل الجبانة فلم يقرأ قرآنا .

(١) مقبرة بالمدينة .

فصل

(فيما ينتفع به الإنسان بعد موته)

نعم ينتفع الميت بكل ما قررته شريعة الاسلام في كتاب الله وهدي رسوله فقد ورد في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إذ مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له[1]».

وينتفع الميت بما ورد في حديث: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علماً نشره ، وولداً صالحاً تركه ، ومصحفاً ورثه أو مسجداً بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، تلحقه بعد موته » رواه ابن ماجة وابن خزيمة .

وينتفع الميت بعد موته بسنة حسنة سنها فعمل بها من بعده كما روى مسلم في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء - وفي رواية - من سن سنة حسنة فله أجرها ما عمل بها في حياته وبعد مماته حتى تترك »[2] .

وينتفع الميت بالصدقة عنه كما روى البخاري: «أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمي توفيت أينفعها إن تصدقت عنها ؟ قال نعم »[3]

وفي المسند والسنن عن سعد بن عبادة (رض) أنه قال: «يا رسول الله إن أم سعد ماتت فأي الصدقة أفضل ؟ قال « الماء » فحفر بئرا وقال: هذا لأم سعد؛ فسقي الماء من الصدقات التي ينتفع بها الميت من ولده».

---

(١) صحيح الجامع/ ٦١٨١ و ٦١٨٢ .

(٢) صحيح الجامع/ ٨٠٥ .

(٣) صحيح الجامع/ ٦٨٢ .

وأخرج مسلم أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن أبي ترك مالاً ولم يوص فهل يكفي أن أتصدق عنه؟ قال نعم».

وينتفع الميت بدعاء المسلمين واستغفارهم له لقوله تعالى: ﴿ والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ وفي السنن مرفوعاً: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء».

هذا هو الوارد في هذا الباب مما ينفع الأموات بسعي الأحياء وليس فيها دليل واحد يستأنس به أو يشم منه رائحة جواز قراءة القرآن للموتى أو سورة مخصوصة كسورة (يس) أو غيرها أو عمل عتاقة بسورة الإخلاص مائة ألف مرة أو سبحه بلا إله إلا الله ألف مرة وسنسرد عليك هنا إن شاء الله أقوال المفسرين والمحدثين والأصوليين وأئمة المذاهب المعروفة مما يدلك دلالة واضحة على أن كل ما عليه الناس في مآتمهم وعلى قبورهم لا يتفق وشرائع الإسلام وهدي الرسول عليه السلام .

أقوال المفسرين

تفسير الامام ابن كثير :

قال رحمه الله عند قوله تعالى:﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فانما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد كما قال:﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى ﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه .

قال : ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه أن القراءة لا يصل ثوابها إلى الموتى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم اليه بنص ولا إيماء ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولو كان خيراً لسبقوا إليه وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء : فأما الدعاء والصدقة فذلك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده أو علم ينتفع به». فهذه الثلاثة في الحقيقة من سعيه وكده وعمله كما جاء في الحديث: « أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وأن ولده من كسبه »[1] والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس هو أيضاً من سعيه

(١) احمد ٣٦/١ .

وعمله . وثبت في الصحيح :« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً »[١]. أ هـ .

تفسير الإمام الشوكاني :

قال رحمه الله عند قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ والمعنى ليس لـه إلا أجر سعيـه وجـزاء عمله ولا ينفـع أحـداً عمـل أحـد وهـذا العمـوم مخصص بمثل قوله سبحانه ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم ﴾ وبمثل ما ورد في شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد ومشروعية دعاء الأحياء للأموات ونحو ذلك .

ولم يصب من قال: أن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور ، فإن الخاص لا ينسخ العام بل يخصصه فكل ما قام الدليل على أن الانسان ينتفع به وهو من غير سعيه كان مخصصاً لما في هذه الآية من العموم أ هـ .

تفسير الإمام الخازن .

قال رحمه الله عند هذه الآية :﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ بعد أن قدم النصوص الدالة على جواز الدعاء والصدقة والحج عن الميت : والمشهور من مذهب الشافعي أن قراءة القرآن لا يصله ثوابها ، وقال جماعة من أصحابه: يصله ثوابها ، وبه قال أحمد . وأما الصلوات فلا يصله عند الشافعي والجمهور أ هـ .

تفسير المنار :

قال رحمه الله في تفسيره عند آية :﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ في آخر سورة الأنعام بعد بحث طويل قال ما حاصله: إن كل ما جرت به العادة من قراءة القرآن والأذكار وإهداء ثوابها إلى الأموات واستئجار القُراء وحبس الأوقاف على ذلك بدعٌ غير مشروعة ، ومثلها ما يسمونه إسقاط الصلاة ولو كان لها أصل في الدين لما جهلها السلف ولو

(١) صحيح الجامع/ ٦١١٠ .

علموها لما أهملوا العمل بها .

وقال أيضاً : وإن حديث قراءة سورة يس على الموتى غير صحيح وإن أريد به من حضرهم الموت . وأنه لم يصح في هذا الباب حديث قط كما قال بذلك المحدث الدارقطني .

واعلم أن ما اشتهر وعم البدو والحضر من قراءة الفاتحة للموتى لم يرد فيه حديث صحيح ولا ضعيف ، فهو من البدع المخالفة لما تقدم من النصوص القطعية ولكنه صار بسكوت اللابسين لباس العلماء وباقرارهم له ، ثم بمجاراة العامة عليه من قبيل السنن المؤكدة أو الفرائض المحتمة .

قال : وخلاصة القول أن المسألة من الأمور التعبدية التي يجب فيها الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة وعمل الصدر الأول من السلف الصالح .

قد علمنا أن القاعدة المقررة في نصوص القرآن الصريحة والأحاديث الصحيحة أن الناس لا يجزون في الآخرة إلا بأعمالهم:﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ وقال تعالى:﴿ واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ وإن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ أقرب أهل عشيرته إليه بأمر ربه:« أن اعملوا لا أغني عنكم من الله شيئاً » وإن مدار النجاة في الآخرة على تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح أ هـ .

ونقل السيد رشيد رضا عن الحافظ بن حجر أنه سئل عمن قرأ شيئاً من القرآن وقال في دعائه : اللهم اجعل ثواب ما قرأته زيادة في شرف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فأجاب بقوله : هذا مخترع من متأخري القراء لا أعرف لهم سلفاً أ هـ .

« نقول » إن كثيراً من المتمشيخين الذين لم يفهموا معنى آية من الكتاب العزيز ولم يفهموا معنى الآية ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ ولا معنى الحديث

الصحيح: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »[١] وحديث: « وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة »[٢] هؤلاء هم الذين يتـأكلون بالقرآن فحسابهم على الله .

(١) أحمد ٦/١٤٦ .

(٢) أحمد ٤/١٢٦ .

أقوال أئمة الحديث

قال الإمام النووي في شرح مسلم في باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه : عند حديث عائشة أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: « يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها ولم توص ، وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال نعـم » وفي هذا الحديث أن الصدقة عن الميت تنفع الميت ويصل ثوابها . وهو كذلك بإجماع العلماء وكذا أجمعوا على وصول الدعاء وقضاء الدين بالنصوص الواردة في الجميع ، ويصح الحج عن الميت والصوم للأحاديث الصحيحة فيه والمشهور من مذهبنا أن قراءة القرآن لا يصله ثوابها أ هـ .

وقال الإمام الصنعاني في كتاب سبل السلام عند حديث ابن عباس قال : « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال: « السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم أنتم سلفنا ونحن بالأثر »[1] رواه الترمذي بإسناد حسن .

قال : في الحديث دليل على أن الإنسان إذا دعا لأحد أو استغفر يبدأ بالدعاء لنفسه والاستغفار لها ، وعليه وردت الأدعية القرآنية ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا ﴾ ﴿ فاستغفر لذنبك وللمؤمنين ﴾ وفيه أن هذه الأدعية ونحوها نافعة للميت بلا خلاف . وأما غيرها من قراءة القرآن له : فالشافعي يقول : لا يصل ذلك إليه .

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله في شرح المنتقى :

والمشهور من مذهب الشافعي وجماعة من أصحابه أنه لا يصل إلى الميت ثواب قراءة القرآن .

ونقول: أن مما يدل دلالة واضحة على أن القرآن لا ينفع الموتى ولا يتلى

(١) ضعيف الجامع/ ١١٦٧ .

على قبورهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البيهقي بلفظ: « اقرؤا سورة البقرة في بيوتكم ولا تجعلوها قبوراً » وأيضاً « صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً »[1] رواه الترمذي والنسائي وأبو يعلي والضياء المقدسي ، وصححه السيوطي في الصغير فلو كان القرآن يتلى لنفع الأموات ويقرأ على قبورهم لما قال النبي - الذي هو ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ - اقرأوا وصلوا في بيوتكم ولا تجعلوها قبوراً . وإنما قال هذا لأن القبور ليست محلاً لقراءة القرآن ولا للصلاة ، ولهذا لم يرد حديث واحد بسند صحيح ولا ضعيف مقبول أنه صلى الله عليه وسلم قرأ القرآن ولا شيئاً منه مرة واحدة في حياته كلها مع كثرة زيارته للقبور وتعليمه للناس كيفية زيارتها .

(١) صحيح الجامع/ ٣٦٧٨ . .

أقوال أئمة المذاهب الأربعة

مذهب أبي حنيفة :

قال في كتاب الفقه الأكبر للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان للإمام ملا على القارىء الحنفي (ص ١١٠): ثم القراءة عند القبور مكروهة عند أبي حنيفة ومالك وأحمد رحمهم الله في رواية لأنه محدث لم ترد به السنة .أ هـ . وكذلك قال شارح الإحياء (ج ٣ ص ٢٨٠) .

مذهب الشافعي :

استدل الإمام الشافعي على عدم وصول ثواب القراءة بآية: ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ وبحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله ، الخ» وقال النووي في شرح هذا الحديث : وأما قراءة القرآن وجعل ثوابها للميت والصلاة عنه ونحوها فذهب الشافعي والجمهور أنها لا تلحق الميت. أ هـ، وكرر ذلك في عدة مواضع من شرح مسلم .

وقال : وفي شرح المنهاج لابن النحوي: لا يصل إلى الميت عندنا ثواب القراءة على المشهور أ هـ .

وسئل العز بن عبدالسلام عن ثواب القراءة المهدى للميت هل يصل أو لا؟ فأجاب بقوله: ثواب القراءة مقصور على القارىء ولا يصل إلى غيره قال : والعجب من الناس من يثبت ذلك بالمنامات وليست المنامات من الحجج .

مذهب المالكية :

قال الشيخ ابن أبي جمرة : إن القراءة عند المقابر بدعة وليست بسنة . كذا في المدخل وقال الشيخ الدردير في كتابه الشرح الصغير (ج ١ ص ١٨٠) وكره قراءة شيء من القرآن عند الموت وبعده وعلى القبور لأنه ليس من عمل

السلف وإنما كان من شأنهم الدعاء بالمغفرة والرحمة والاتعاظ أ هـ .وكذلك في حاشية العلامة العدوي على شرح أبي الحسن .

مذهب الحنابلة .

قال الإمام أحمد لمن يراه يقرأ على القبر : يا هذا إن قراءة القرآن على القبر بدعة . وقال الإمام ابن تيمية . ونقل الجماعة عن أحمد كراهة القرآن على القبور ، وهو قول جمهور السلف وعليه قدماء أصحابه وقال أيضاً : والقراءة على الميت بعد موته بدعة بخلاف قراءة (يس) على المحتضر فإنها تستحب .

وقال : ولم يكن من عادة السلف إذا صلوا تطوعاً أو صاموا تطوعاً أو حجوا تطوعاً أو قرأوا القرآن يهدون ثواب ذلك إلى موتى المسلمين ، فلا ينبغي العدول عن طريق السلف .

وقال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (ج١ ص١٤٦): ولم يكن من هديه صلى الله عليه وسلم أن يجتمع للعزاء ويقرأ له القرآن لا عند قبره ولا غيره . وكل هذا بدعة حادثة مكروهة .

وأما حديث: ﴿اقرأوا على موتاكم يس﴾ فهو حديث معلول مضطرب الإسناد مجهول السند . وعلى فرض صحته فلا دلالة فيه قطعاً ، فإن المراد من قوله (موتاكم) أي من حضره مقدمات الموت حيث يكون ضعيف البنية ساقط الأعضاء ، قد أقبل على الله بكلية فيقرأ عليه ما يزداد به قوة قلب ، فهذا قطعاً من عمله في حياته . وخصت (يس) بهذه الحالة لما فيها من ذكر الله وتوحيده وتبشيره بما أعده لعباده الصالحين . فهذه المعاني كلها تجدها في سورة يس . وهذا ملخص ما قاله الفخر الرازي . والعلامة العزيزي على الجامع الصغير في شرحه لهذا الحديث .

وقال الفيروزبادي : قراءة القرآن بدعة ومكروه .

كلام علماء الأصول :

قال صاحب كتاب طريق الوصول إلى إبطال البدع بعلم الأصول بعد ما ذكر قاعدة أصولية نفيسة ما نصه : من هذه القاعدة الجليلة تعلم أن أكثر ما تفعله العامة من البدع المذمومة ولنذكر لك أمثلة :

الأول : قراءة القرآن على القبور رحمة بالميت ، تركه النبي صلى الله عليه وسلم وتركه الصحابة مع قيام المقتضى للفعل ، والشفقة للميت وعدم المانع منه ، فبمقتضى القاعدة المذكورة يكون تركه هو السنة وفعله بدعة مذمومة ، وكيف يعقل أن يترك الرسول صلى الله عليه وسلم شيئاً نافعاً لأمته يعود عليها بالرحمة ويتركه الرسول صلى الله عليه وسلم طول حياته ولا يقرأه على ميت مرة واحدة ؟

الثاني : قراءة الصمدية بعدد معلوم أو الجلالة بعدد معلوم . القرآن في ذاته عبادة لقارئه يتقرب بقراءته وبسماعه إلى الله تعالى ولا ينازع في ذلك أحد ، إنما النزاع في قراءته للميت ليكون عتقاً لرقبته من النار .

مع العلم بأن القرآن ما نزل للأموات وإنما نزل للأحياء نزل ليكون تبشيراً للمطيع وإنذاراً للعاصي ، نزل لنهذب به نفوسنا ونصلح به شؤوننا ، أنزل الله القرآن كغيره من الكتب السماوية ليعمل على طريقه العاملون ، ويهتدي بهديه المهتدون ، قال جل شأنه:﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ .

فهل سمعتم أن كتاباً من الكتب السماوية قرىء على الأموات أو أخذت عليه الأجور والصدقات ؟ ويقول الله خطابا لنبيه ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ .

أكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على أصحابه عدداً معلوماً من

الصمدية أو عدداً معلوماً من الجلالة ليكون ذلك عتقاً لرقبتهم ، وإنقاذاً لهم من النار ؟ مع العلم بأن من ليس بمعصوم في حاجة إلى تكفير السيئآت ورفع الدرجات ، أم كانت سنته أن يدفن الرجل من أصحابه ويذهب كل إلى عمله ليس له إلا ما قدم ؟ هذه كانت سنته وهذه طريقته والله تعالى يقول: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ فلنتأس به في الفعل ، كما نتأسى به في الترك أ هـ. كلام صاحب طريق الوصول .

فصل في أشياء تتعلق بذلك

وأما ما يروى عن ابن عمر أنه أوصى بقراءة الفاتحة وخواتيم البقرة على قبره ، فهو أثر شاذ لم يصح سنده ، ولم يوافقه عليه أحد من الصحابة ، وكذلك ما يروى من قراءة الفاتحة والصمدية والمعوذتين وألهاكم والكافرون وإهدائها لأهل المقابر فباطل لمخالفتها لأقوال النبي وأفعاله وأقوال وأفعال أصحابه .

- **ومن البدع** : قراءة القرآن في الشوارع والطرقات وعلى أبواب الأضرحة للتعيش والارتزاق ، إذ في ذلك تسول فاحش بالقرآن فهو امتهان للقرآن ، والتسول يحرمه الدين الإسلامي تحريماً باتاً ، وهو بالقرآن أشد تحريماً ولكن يجب على العلماء أن يفهموا الحكومة والأغنياء أنه فرض عليهم أن ينفقوا على هؤلاء العميان وأن يستخدموهم في أي عمل كصناعة الزنابيل وخيزران الكراسي وما يليق بهم من الصناعات .

- **ومن البدع** : نصب السرادقات (الصواوين) يوم وفاة الميت وعمل السبحة التي هي عبارة عن التهليل ألف مرة من المعزين ، ويهبون ثوابها للميت وأصلها منام رآه بعض المتمشيخين فأذاعه بين إخوانه الجهلاء فاتخذوها سنة ثم حديث من قرأ: قل هو الله أحد ألف مرة فقد اشترى نفسه من النار ، موضوع وفيه مجاشع الكذاب .

- **ومن البدع** : والمنكر أنهم يجددون الحزن كل خميس بعد وفاة الميت إلى يوم الأربعين أو إلى أول عيد له ، ويعملون السرادقات ويحضرون القراء وينتظرون مجيء الناس إليهم للتعزية ، وقد روى الإمام أحمد وابن ماجة بإسناد صحيح عن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال : « كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعة الطعام بعد دفنه من النياحة » وقال الشافعي : يكره الجلوس للتعزية . وقال الأوزاعي مثله . وقال الإمام أحمد: وهو من فعل الجاهلية وأنكره .

- **ومن البدع** : ذهاب النساء والرجال إلى المقابر في الأعياد والجمع ومعهم القرص والبلح لتوزيعها على القراء وغيرهم ، ومن عيوب القراء أنهم يقولون للجالسات على القبر : أقرأ سورة هنا يا ست ثم يتشاجر معها بعد القراءة لقلة ما تعطيه ، وهذا قبيح جداً يحط من كرامة القراء ورجولتهم . وعلاج ذلك أن تمنع الحكومة في شدة وحزم هذه المهازل قبل وقوعها فلا تسمح للنساء بالخروج إلى المقابر وتجري على هؤلاء القـراء ما يغنيهم عن ذلك ، كما يجب على العلماء أن يذكروا وينكروا ذلك العمل عند كل مناسبة .

- **ومن البدع** : تسهير القراء في شهر رمضان إذ لم يكن هذا من فعل السلف الصالح ولا هو من تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم وليس في الكتب الصحيحة بل ولا غيرها ما يدل على جواز ذلك . وإنما المطلوب شرعاً أن نتدارس القرآن كما ورد أنه صلى الله عليه وسلم: «كان إذا دخل العشر الأخير من رمضان شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله »[1] رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

- **ومن البدع** : قراءة سورة ياسين ٤٠ مرة بقصد إهلاك شخص أو إضرار طائفة وغاب عن هؤلاء أن الله أنزل القرآن شفاء ورحمة وأرسل الرسول رحمة للعالمين ، وما أنزل الله علينا القرآن لنشقى ، وهذا من الجهلاء شنيع ، لكنه من أهل العلم أشنع وأفظع ، ولكن ضللهم هؤلاء بقولهم خذ من القرآن ما شئت لما شئت « ويس » لما قرأت له . وكلاهما باطل لا أصل له .

- **ومن البدع** : قراءة سورة الكهف بالمساجد عـلى الهيئة المعـروفة ، والسنة أن يقرأها يوم الجمعة كل مسلم ومسلمة لحديث: «من قـرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتيـن » وفـي رواية: « أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق » وهذان الحديثان ضعيفان وهما يفيدان أن الكل مطلوب منه قراءة سورة الكهف ولكن التشويش بها من

---

(١) صحيح الجامع ٦٣٤٦ و٦٣٤٧ .

قارىء واحد ممنوع شرعاً وعقلاً وفي الحديث: «لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن» رواه مالك في الموطأ وأبو داود في سننه .

وروى الإمام أحمد ومسلم والنسائي مرفوعاً: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال» .

ـ **ومن البدع** : قراءة سورة تبارك جماعة على صوت واحد كما يفعل ذلك جماعة الخلوتية وغيرهم ، أما السورة نفسها فقراءتها سنة: «إن سورة من القرآن ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهي تبارك الذي بيده الملك»[1] رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان .

ـ **ومن البدع** : قراءة سورة الفاتحة لروح النبي صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الظهر وقراءتها بعد صلاة العصر لروح عمر وبعد صلاة المغرب لروح عثمان وبعد صلاة العشاء لروح علي ويعتقدون أنهم بهذا يحضرونهم عند تغسيلهم بعد الموت أو عند سؤال القبر ، وتلك بدع وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان .

ـ **ومن البدع** : قول بعض المصلين عقب التسليم من صلاة الجمعة فوراً (الفاتحة لسيدي الحسين) أو يقول: «للسيد البدوي) أو(الفاتحة على هذه النية) وهذا جهل قبيح ، ولكن لماذا يقره العلماء ويسكتون عليه ؟ الحق أن الكل أجمع على ترك أوامر الدين ولا قوة إلا بالله .

ـ **ومن البدع** : تعليق المصحف على الصغير أو الكبير كحجاب أو للنظرة . وكذا من البدع كتابة شيء من القرآن لهذا الغرض والمشروع قراءة آية الكرسي عند النوم أو المعوذتين أو قراءة الأدعية الواردة في السنة لهذا فليعلم .

ـ **ومن البدع** : تعليق سورة (ألم نشرح) في ورقة على الدكاكين لجلب

---

(١) صحيح الجامع ٦٢٧٧ .

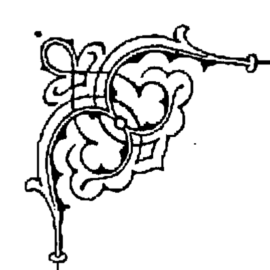
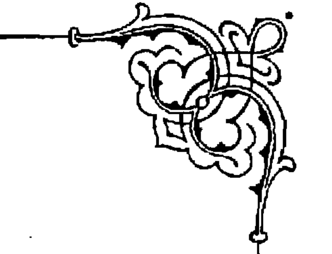
الزبون ، والمطلوب حسن المعاملة وحسن الخلق والصدق وعدم رفع الأسعار فإن هذا حقاً يجلب الزبون ، وقد نهى الاسلام عن التعليق حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من علق فقد أشرك»[1]

- ومن البدع : أنهم عندما يمرون بقبر أو تابوت أو قبة يتجهون إلى القبلة رافعين أيديهم إلى السماء قائلين: الفاتحة لصاحب هذا المقام ويكثرون من الدعاء ثم يمسحون وجوههم بأيديهم قائلين: راعنا يا سيدي راعنا سقت عليك النبي ، وهذا منهم بدعة وجهل وضلال ، وهذه كبدعة زائري القبور فإنهم أيضاً يقولون: الفاتحة لروح أمواتنا وأموات المسلمين كافة عامة ، ثم يقول يا حي يا قيوم ويقرأ الفاتحة .

(تم الملحق)

---

(١) روى بمعناه ضعيف الجامع ٥٧١٥ وصحيح الجامع ٦٥٧٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصافات

﴿ هي مائة واثنتان وثمانون آية وهي مكية ﴾

قال القرطبي : في قول الجميع . قال ابن عباس : نزلت بمكة

وعن ابن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم « يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات » أخرجه النسائي والبيهقي في سننه .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ يس والصافات يوم الجمعة ثم سأل الله أعطاه سؤله » أخرجه ابن أبي داود في فضائل القرآن وابن النجار في تاريخه .

وعنه: « أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله ملوك حضرموت عند قدومهم عليه أن يقرأ عليهم شيئاً مما أنزل إليه قرأ : والصافات صفا . حتى بلغ رب المشارق والمغارب » الحديث أخرجه أبو نعيم في الدلائل والسلفي في الطيوريات .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾

﴿ والصافات صفاً ﴾ الواو للقسم ، والمقسم به الملائكة ، والمراد بالصافات التي تصف في السماء من الملائكة كصفوف الخلق في الدنيا قاله ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة .

وعن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟ قالوا وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال : يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف[1] » ، أخرجه أبو داود .

وقيل : إنها تصف أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد ، وقال الحسن: صفاً كصفوفهم عند ربهم في صلاتهم ، وقيل: المراد بالصافات هنا الطير كما في قوله : ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ﴾ والأولى ، هو الأول والصف ترتيب الجمع على خط كما يصف في الصلاة ، وقيل : الصافات جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفاً في الصلاة وفي الجهاد ذكره القشيري :

﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ أي الفاعلات للزجر من الملائكة إما لأنها تزجر السحاب كما قال السدي ، وإما لأنها تزجر عن المعاصي بالمواعظ والنصائح ، وقال قتادة : المراد بالزاجرات الزواجر من القرآن ، وهي كل ما ينهي ويزجر

(١) صحيح الجامع/ ٢٦٤٥ .

عن القبيح والأول أولى ، وانتصاب صفاً وزجراً على المصدرية لتأكيد ما قبلهما وقيل: المراد بالزاجرات العلماء لأنهم هم الذين يزجرون أهل المعاصي عن المعاصي والزجر في الأصل الدفع بقوة ، وهو هنا قوة التصويت ومنه زجرت الإبل والغنم إذا أفزعتها بصوتك .

﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ أي الملائكة التي تتلو القرآن كما قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جبير والسدي ، وقيل: المراد جبريل وحده فذكر بلفظ الجمع تعظيماً له مع أنه لا يخلو من أتباع له من الملائكة ، وقال قتادة: المراد كل من تلا ذكر الله وكتبه ، وقيل: المراد آيات القرآن ووصفها بالتلاوة وإن كانت متلوة ، كما في قوله : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل ﴾ وقيل: لأن بعضها يتلو بعضاً ويتبعه .

وذكر الماوردي: أن التاليات هم الأنبياء يتلون الذكر على أممهم ؛ وانتصاب ذكراً على أنه مفعول به ، ويجوز أن يكون مصدراً كما قبله ،قيل: وهذه الفاء في قوله: فالزاجرات فالتاليات إما لترتيب الصفات أنفسها في الوجود ، أو لترتيب موصوفاتها في الفضل ؛ وفي الكل نظر .

﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ جواب القسم أي: أقسم الله بهذه الأقسام أنه واحد ليس له شريك وأجاز الكسائي فتح إن الواقعة في جواب القسم وإنما أقسم بهذه الأشياء للتنبيه على شرف ذواتها وكمال مراتبها ، والرد على عبدة الأصنام في قولهم ، وللتأكيد لما تقدم لا سيما والقرآن أنزل بلغة العرب ، وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عندهم ، قال ابن الأنباري : الوقف على (لواحد) وقف حسن ثم يبتدىء .

﴿رب السموات والأرض﴾ على معنى هو ربهما، وقيل: غير ذلك، والمعنى في الآية: إن وجود هذه المخلوقات على هذا الشكل البديع من أوضح الدلائل على وجود الصانع وقدرته وأنه رب ذلك كله ، أي خالقه ومالكه ﴿ وما بينهما ﴾ أي من المخلوقات والكائنات .

﴿ ورب المشارق ﴾ أعاد الرب فيها لما فيها من غاية ظهور آثار الربوبية وتجددها كل يوم ، قيل: أراد مشارق الكواكب ، والظاهر أنها مشارق الشمس ، قيل : إن الله خلق للشمس كل يوم مشرقاً ومغرباً بعدد أيام السنة تطلع كل يوم من واحد منها ، وتغرب في واحد ، كذا قال ابن الأنباري وابن عبد البر ، وأما قوله في سورة الرحمن ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ فالمراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلع منه الشمس في الأيام الطوال ، وأقصر يوم في الأيام القصار ، وكذلك في المغربين .

وأما ذكر المشرق والمغرب بالإفراد فالمراد بهما الجهة التي تشرق منها الشمس والجهة التي تغرب فيها ، واقتصر على المشارق اكتفاء على حد: ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ أي والمغارب للشمس ، ولم يعكس لأن شروق الشمس سابق على غروبها ، وأيضاً فالشروق أبلغ في النعمة وأكثر نفعاً من الغروب ، فذكر المشرق تنبيها على كثرة إحسان الله تعالى على عباده ، ولهذه الدقيقة استدل إبراهيم عليه السلام بالمشرق فقال : ﴿ إن الله يأتي بالشمس من المشرق ﴾ .

قال الكرخي : وجمع هنا المشرق وحذف مقابله وثناه في الرحمن وجمعه في المعارج وأفرده في المزمل مع ذكر مقابله في الثلاثة لأن القرآن نزل على المعهود من أساليب كلام العرب وفنونه ، ومنها الإجمال والتفصيل والذكر والحذف والتثنية والجمع ، والإفراد باعتبارات مختلفة ، فأفرد وأجمل في المزمل أراد مشرق الصيف والشتاء ومغربها ، وجمع وفصل في المعارج ، أراد جميع مشارق السنة ومغاربها، وهي تزيد على سبعمائة ، وثنى وفصل في الرحمن أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيها ، وجمع وحذف هنا أراد جميع مشارق السنة ، واقتصر عليه لدلالته على المحذوف كما مرت الإشارة إليه ، وخص ما هنا بالجمع موافقة للجموع أول السورة ، وبالحذف مناسبة للزينة إذ هي إنما تكون غالباً بالضياء والنور ، وهما ينشآن من المشرق لا من المغرب وما في الرحمن بالتثنيه موافقة للتثنيه في ﴿ يسجدان ﴾ وفي :﴿ فبأي آلاء ربكما

تكذبان ﴾ .

وبذكر المقابلين موافقة لبسط صفاته تعالى وإنعاماته ثم ، وما في المعارج بالجمع موافقة للجمع قبله وبعده ، وبذكر المقابلين موافقة لكثرة التأكيد في القسم وجوابه ، وما في المزمل بالإفراد موافقة لما قبله من إفراد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وما بعده ، من إفراد ذكر الله تعالى ، وبذكر المقابلين موافقة للحصر في قوله: لا إله إلا هو ، ولبسط أوامر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ثمة .

﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ المراد بالسماء الدنيا التي تلي الأرض من الدنو وهو القرب ، فهي أقرب السموات إلى الأرض ، قرأ الجمهور بإضافة زينة إلى الكواكب والمعنى زيناها بتزيين الكواكب ، أي بحسنها وقرىء: بتنوين زينة وخفض الكواكب على أنها بدل من الزينة على أن المراد بالزينة الاسم لا المصدر ، والتقدير بعد طرح المبدل منه : إنا زينا السماء بالكواكب فإن الكواكب في أنفسها زينة عظيمة فإنها في الليلة المظلمة في أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة على سطح أزرق .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه بتنوين زينة ونصب الكواكب ، على أن الزينة مصدر ، وفاعله محذوف ، والتقدير بأن الله زين الكواكب بكونها مضيئة حسنة في أنفسها ، أو تكون الكواكب منصوبة بإضمار أعني ، أو بدلاً من السماء بدل اشتمال ، وقيل : المعنى بضوء الكواكب لأن الضوء والنور من أحسن الصفات وأكملها ، ولو لم تحصل هذه الكواكب في السماء لكانت شديدة الظلمة عند غروب الشمس ؛ وقيل : زينتها أشكالها المتناسبة والمختلفة في الشكل ، كشكل الجوزاء وبنات نعش ، وغيرها وقيل: غيرذلك.

﴿ وحفظاً ﴾ أي حفظناها حفظاً ، وقيل : زيناها بالكواكب للحفظ، وقيل: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً ﴿ من كل شيطان مارد ﴾ أي عات متمرد خارج عن الطاعة ، يرمي بالكواكب والشهب ، كقوله: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾

لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾

﴿ لا يسّمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ مستأنفة لبيان حالهم بعد حفظ السماء منهم ، وقال أبو حاتم: أي لئلا يسمعوا ثم حذف أن فرفع الفعل وكذا قال الكلبي ، قال النسفي: وفيه تعسف يجب صون القرآن عن مثله ، فإن كل واحد من الحرفين غير مردود على انفراده ، ولكن اجتماعهما منكر ، والفرق بين سمعت فلاناً يتحدث ، وسمعت إليه يتحدث ، وسمعت حديثه ، وإلى حديثه ، أن المعدى بنفسه يفيد الإدراك والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك انتهى. والملأ الأعلى أهل السماء الدنيا فما فوقها ، وسمى الكل منهم أعلى بإضافته إلى ملأ الأرض لأنهم سكان السماء ، والضمير في يسمعون للشياطين ، وقيل: إن جملة (لا يسمعون) صفة لكل شيطان .

وقيل: جواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فما حالهم بعد حفظ السماء عنهم ؟ فقال : ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ قرأ الجمهور: بسكون السين وتخفيف الميم ، وقرىء بتشديدهما والأصل يتسمعون فالأولى تدل على انتفاء سماعهم دون استماعهم ، والثانية تدل على انتفائهما وفي معنى الأولى قوله تعالى : ﴿ انهم عن السمع لمعزولون ﴾ قال مجاهد: كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون ، واختار الثانية أبو عبيدة قال لأن العرب لا تكاد تقول سمعت إليه ، وتقول تسمعت إليه ، وكان ابن عباس يقرأ مخففة وقال: إنهم كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون .

﴿ ويقذفون من كل جانب دحوراً ﴾ أي يرمون من كل جانب من جوانب السماء ونواحيها وجهاتها بالشهب إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع ،

والدحور الطرد ، تقول : دحرته دحـراً ودحوراً طردته ، قرئ يقذفون مبنياً للمفعول وللفاعل ، وهي غير مطابقة لما هو المراد من النظم القرآني ، وقيل : دحوراً أي مدحورين ، وقيل : هو جمع داحر نحو قاعد وقعود فيكون حالاً ، وقيل : إنه مصدر لمقدر أي يدحرون دحـوراً .

وقال الفراء : إن المعنى يقذفون بما يدحرهم أي بدحور ثم حذفت الباء فانتصب بنزع الخافض ، قرأ الجمهور دحوراً بضم الدال ، وقرئ بفتحها ، واختلف هل كان هذا الرمي لهم بالشهب قبل المبعث أو بعده ، فقال بالأول طائفة وبالآخر آخرون ، وقالت طائفة بالجمـع بين القولين إن الشياطين لم تكن ترمى قبل المبعث رميـاً يقطعها عن السمع ، ولكن كانت ترمى وقتاً ولا ترمى وقتاً آخر وترمى من جانب ولا ترمى من جانب آخر ثم بعد المبعث رميت في كل وقت ومن كل جانب حتى صارت لا تقدر على استماع شيء .

﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ أي دائم لا ينقطع والمراد به العذاب في الآخرة غير العذاب الذي لهم في الدنيا من الرمي بالشهب ، وقال مقاتـل : يعني دائماً إلى النفخة الأولى ، والأول أولى .

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب الدائم وقال السدي وأبو صالح والكلبي هو الموجع الذي يصل وجعه إلى القلب ، مأخوذ من الوصب أو الوصوب وهو المرض ، وقيل هو الشديد .

﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ الاستثناء هو من قوله ﴿ لا يسمعون ﴾ أو من قوله ﴿ ويقذفون ﴾ وقيل الاستثناء راجع إلى غير الوحي لقوله :﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ بل يخـطف الواحد منهم خطفة مما يتفاوض فيه الملائكة ، ويدور بينهم مما سيكون في العالم قبـل أن يعلمه أهـل الأرض ، والخطف الاختلاس مسارقة وأخذ الشيء بسرعة ، قرأ الجمهور :خطف بفتح الخاء وكسر الطاء مخففة وقرئ بكسرهما وتشديد الطاء وهي لغة تميم بن مر وبكر بن وائل وقرئ بفتح الخاء وكسر الطاء مشددة : وقرأ ابن عباس بكسرهما مع تخفيف

الطاء ، وقيل إن الاستثناء منقطع .

﴿ فأتبعه ﴾ أي لحقه وتبعه ﴿ شهاب ثاقب ﴾ أي نجم مضيء أو مستوقد فيحرقه أو يقتله ويخبله ، وربما لا يحرقه ، فيلقي إلى إخوانه ما خطفه وليست الشهب التي ترجم بها هي من الكواكب الثوابت ، بل من غير الثوابت وأصل الثقوب الإضاءة. قال الكسائي : ثقبت النار تثقب ثقابة إذا اتقدت وهذه الآية هي كقولـه :

﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ ، قال ابن عباس: إذا رمى الشهاب لم يخطىء ، من رمي به ، وتلا: فأتبعه شهاب ثاقب وقال: لا يقتلون بالشهاب ولا يموتون ، ولكنها تحرق وتخبل وتجرح في غير قتل .

قال سليمان الجمل قالوا: إنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب بل يجوز أن تنفصل منها شعلة يرمي بها الشيطان والكواكب باقية بحالها ، وهذا كمثل القبس الذي يؤخذ من النار وهي على حالها ويعود الشيطان مرة أخرى مع أنه يعلم أنه يصاب ولا يصل إلى مقصوده رجاء نيل المطلوب . وطمعاً في السلامة ، كراكب البحر فإنه يشاهد الغرق أحياناً لكن يعود إلى ركوبه رجاء السلامة ونيل المقصود .

﴿ فاستفتهم ﴾ أي اسأل الكفار المنكرين للبعث ﴿ أهم أشد خلقاً ﴾ ؟ وأقوى أجساماً وأعظم أعضاء وأمتن بنية وأشق إيجاداً وأصعب خلقاً ﴿ أم من خلقنا ﴾ من السموات والأرض والجبال والملائكة ؟ قال الزجاج : المعنى فاسألهم سؤال تقرير أهم أحكم صنعة ؟ أم من خلقنا قبلهم ممن قبلهم من الأمم السالفة؟ يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم وقد أهلكناهم بالتكذيب فما الذي يؤمنهم من العذاب . قرىء : أم من خلقنا بتشديد الميم وهي أم المتصلة عطفت من على هم وقرىء بتخفيفها وهو استفهام ثان فالهمزة للاستفهام أيضاً ، ومن مبتدأ وخبره محذوف أي الذين خلقناهم أشد فهما جملتان مستقلتان ، وغلب من يعقل على غيره فلذلك أتى بـ (من) قاله

السمين وتكتب (أم) مفصولة عن (من) في هذا الموضع ثم ذكر خلق الإنسان فقال :

﴿ إنا خلقناهم ﴾ أي في ضمن خلق أبيهم آدم ﴿ من طين لازب ﴾ أي لاصق. يقال: لزب يلزب لزوبا إذا لصق من باب دخل ، وقال قتادة وابن زيد: اللازب اللاصق ، وقال عكرمة : اللازب اللزج ، وقال سعيد ابن جبير: اللازب الجيد الذي يلصق باليد ، وقال مجاهد: هو اللازم والعرب تقول: طين لازب ولازم تبدل الباء من الميم واللازم الثابت كما يقال: صار الشيء ضربة لازب ومنه قول النابغة :

لا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

وحكى الفراء عن العرب طين لاتب بمعنى لازم ؛ واللاتب الثابت ، قال الأصمعي: واللاتب اللاصق مثل اللازب ، والمعنى في الآية أن هؤلاء كيف يستبعدون المعاد وهم مخلوقون من هذا الخلق الضعيف ، ولم ينكره من هو مخلوق خلقاً أقوى منهم وأعظم وأكمل وأتم ، وقيل: إن اللازب هو المنتن قاله مجاهد والضحاك .

قيل وقد قرىء لازم ولاتب ولا أدري من قرأ بذلك ، قال ابن عباس : لازب ملتصق ، وقال : اللزج الجيد ، وقال اللازب والحمأ والطين واحد ، كان أوله تراباً، ثم صار حمأ منتناً، ثم صار طيناً لازباً فخلق الله منه آدم .

وعن ابن مسعود : اللازب الذي يلصق بعضه إلى بعض . والآية تشهد عليهم بالضعف لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة ، أو احتجاج عليهم بأن الطين اللازب ـ الذي خلقوا منه ـ تراب فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله؟ حيث قالوا : أئذا كنا تراباً ، وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث ، والغرض من هذا السياق إثبات المعاد والرد عليهم في دعوى استحالته ، ثم أضرب سبحانه عن الكلام السابق فقال :

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)

﴿ بل عجبت ﴾ يا محمد من قدرة الله سبحانه أو من تكذيبهم إياك ، قرأ الجمهور بفتح التاء من عجبت على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقرىء بضمها ، وقال الفراء: قرأها الناس بنصب التاء ورفعها والرفع أحب إليّ لأنها عن علي وعبدالله وابن عباس ، قال : والعجب إن أسند إلى الله فليس معناه من الله كمعناه من العباد .

قال الهروي : قال بعض الأئمة معنى بل عجبت بل جازيتهم على عجبهم لأن الله أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الخلق ، كما قال : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ وقالوا:﴿ إن هذا لشيء عجاب ﴾ ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ؟ ﴾ وقال علي بن سليمان : معنى القراءتين واحد ، والتقدير : قل يا محمد : بل عجبت لأن النبي صلى الله عليه وسلم مخاطب بالقرآن ، قال النحاس : وهذا قول حسن ، وإضمار القول كثير ، وقيل : إن معنى الإخبار من الله سبحانه عن نفسه بالعجب أنه ظهر من أمره وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين ، قال الهروي : ويقال معنى عجب ربكم أي رضي ربكم وأثاب ، فسماه عجباً ، وليس بعجب في الحقيقة فيكون معنى عجبت هنا عظم فعلهم عندي . وحكى النقاش:أن معنى بل عجبت بل أنكرت .

قال الحسن بن الفضل : التعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه ، وهو لغة العرب ، وقيل: معناه الإنكار والذم ، وسئل الجنيد رحمه الله عن هذه الآية فقال : إن الله لا يعجب من شيء ولكن وافق رسوله ولما عجب رسوله قال : ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾ ، أي هو كما تقوله ، وقيل : معناه أنـه بلغ في كمال قدرته وكثرة مخلوقاته إلى حيث عجب منها[1] .

﴿ و ﴾ هؤلاء لجهلهم ﴿ يسخرون ﴾ منها والواو للحال ، أي والحال ، أنهم يسخرون أو للاستئناف والمعنى: ويسخرون منك بسبب تعجبك ؛ أو بما تقوله من إثبات المعاد ﴿ وإذا ذكروا لا يذكرون ﴾ أي واذ وعظوا بموعظة من مواعظ الله أو مواعظ رسوله لا يتعظون بها ولا ينتفعون بما فيها. قال سعيد ابن المسيب : أي إذا ذكر لهم ما حل بالمكذبين ممن كان قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا .

﴿ وإذا رأوا آية ﴾ أي معجزة من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم كانشقاق القمر ﴿ يستسخرون ﴾ أي يبالغون في السخرية. قـال قتادة : يسخرون ويقولون : إنها سخرية ، يقال : سخر واستسخر بمعنى مثل : قر واستقر ، وعجب واستعجب ، والأول أولى ، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، وقيـل :المعنى يستدعون السخرى من غيرهم ، وقال مجاهـد: يستهزئـون ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي ما هذا الذي تأتينا به إلا سحر واضح ظاهـر .

﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظامـاً أئنا لمبعوثون ﴾ الاستفهام للإنكـار أي أنبعث إذا متنا ، فالعامل في إذا هو ما دل عليه أئنا لمبعوثون ، وهو أنبعث ؟ لا نفس مبعوثون لتوسط ما يمنع من عمله فيه ، فبدلوا الفعلية بالاسمية ، وقدموا الظرف وكرروا الهمزة مبالغة في الإنكار ، وإشعاراً بأن البعث مستنكـر في نفسه ، وفي هذه الحالة أشد استنكاراً وهذا الإنكار للبعث منهم هو السبب

---

(١) روى أحمد في مسنده ١٥١/٤ : ان الله عز وجل ليعجب من الشاب ليس له صبوه .

الذي لأجله كذبوا الرسل وما نزل عليهم ، واستهزأوا بما جاؤوا به من المعجزات ، وقد تقدم تفسير معنى هذه الآية في مواضع .

﴿ أو آباؤنا الأولون ﴾ هو مبتدأ وخبره محذوف أي آباؤنا الأولون مبعوثون يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل ، وقيل : معطوف على إن واسمها ، وقيل : على الضمير في مبعوثون لوقوع الفصل بينهما والهمزة للإنكار داخلة على حرف العطف ولهذا قرأ الجمهور بفتح الواو وقرىء :بسكونها على أن أو هي العاطفة ، وليست الهمزة للاستفهام ، ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عنهم تبكيتاً لهم فقال :

﴿ قل نعم ﴾ كلكم مبعوثون ﴿ وأنتم داخرون ﴾ أي صاغرون ذليلون والخطاب لهم ولآبائهم بطريق التغليب ، والجملة حال من فاعل ما دل عليه نعم ، قال الواحدي : والدخور أشد الصغار ، ثم ذكر سبحانه أن بعثهم يقع بزجرة واحدة فقال : ﴿ فإنما ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فإنما .

﴿ هي زجرة واحدة ﴾ أو لا تستصعبوه ، فإنما هي زجرة واحدة ، والضمير للقصة أو البعثة المفهومة مما قبلها أي إنما قصة البعث أو البعثة صيحة واحدة من إسرافيل بنفخة في الصور عند البعث ، وقال الحسن : هي النفخة الثانية ، وسميت الصيحة زجرة لأن المقصود منها الزجر من قولك : زجر الراعي الإبل أو الغنم إذا صاح عليها .

﴿ فإذا هم ﴾ أحياء بصراء ﴿ ينظرون ﴾ أي يبصرون سوء أعمالهم أو ينتظرون ما يفعل الله بهم من العذاب والأول أولى .

﴿ وقالوا : ﴾ أي قال أولئك المبعوثون لما عاينوا البعث الذي كانوا يكذبون به في الدنيا ﴿ يا ويلنا ﴾ دعوا بالوّيل على أنفسهم ، قال الزجاج : الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ، وقال الفراء : إن أصله يا وي لنا ووي بمعنى الحزن ، كأنه قال : يا حزن لنا ، قال النحاس : ولو كان كما قال لكان منفصلاً ، وهو في المصحف متصل ، ولا نعلم أحداً يكتبه إلا متصلاً والوقف هنا تام لأن ما بعده كلام مستقل وجملة .

﴿ هذا يوم الدين ﴾ تعليل لدعائهم بالويل على أنفسهم ، والدين الجزاء ، فكأنهم قالوا : هذا اليوم الذي نجازى فيه بأعمالنا من الكفر والتكذيب للرسل فأجابتهم الملائكة بقولهم : ﴿ هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴾ ويجوز أن يكون هذا من قول بعضهم لبعض ، والفصل الحكم والقضاء لأنه يفصل فيه بين المحسن والمسيء .

﴿ احشروا الذين ظلموا ﴾ هو أمر من الله سبحانه للملائكة بأن يحشروا المشركين ﴿ وأزواجهم ﴾ وهم أشباههم في الشرك والتابعون لهم في الكفر والمشايعون لهم في تكذيب الرسل ، كذا قال قتادة وأبو العالية ، وقال الحسن ومجاهد : والمراد بأزواجهم نساؤهم المشركات الموافقات لهم على الكفر والظلم ، وقال الضحاك أزواجهم قرناؤهم من الشياطين يحشر كل كافر مع شيطانه ، وبه قال مقاتل .

قال ابن عباس : تقول الملائكة للزبانية هذا القول أو خطاب من بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم إلى الموقف ، وقيل : من الموقف إلى الجحيم ، وعن عمر بن الخطاب قال : أمثالهم الذين هم مثلهم يجيء أصحاب الربا مع أصحاب الربا وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر ، أزواج في الجنة وأزواج في النار ، وعن ابن عباس أيضاً قال : أشباههم ، وفي لفظ نظراؤهم ، أي من العصاة عابد الصنم مع عبدة الأصنام وعابد الكوكب مع عبدة الكواكب ، كقوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ ولا مانع من حمل الآية على الجميع .

﴿ وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ من الأصنام والشياطين ونحوها ، وهذا العموم المستفاد من ما الموصولة ، فإنها عبارة عن المعبودين لا عن العابدين كما قيل : مخصوص ، لأن من طوائف الكفار من عبد المسيح ، ومنهم من عبد الملائكة ، فيخرجون بقوله : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ ووجه حشر الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل هو زيادة التبكيت لعابديها ، وتخجيلهم وإظهار أنها لا تنفع ولا تضر ، وقيل : الموصول عبارة عن المشركين خاصة جيء به لتعليل الحكم بما في حيز صلته ، فلا عموم

ولا تخصيص .

﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أي عرفوا هؤلاء المحشورين طريق النار وسوقوهم إليها ، يقال : هديته الطريق وهديته إليها أي دللته عليها ، وفي هذا تهكم بهم وقال ابن عباس : وجهوهم ودلوهم إلى طريق النار .

﴿ وقفوهم ﴾ أي احبسوهم في الموقف ، يقال : وقفت الدابة أقفهاوقفاً فوقفت هي وقوفاً يتعدى ولا يتعدى ، وهذا الحبس لهم يكون قبل السوق إلى جهنم أي وقفوهم للحساب ، ثم سوقوهم إلى النار بعد ذلك ، كأن الملائكة سارعوا إلى ما أمروا به من حشرهم إلى الجحيم فأمروا بذلك .

﴿ إنهم مسؤولـون ﴾ تعليل للجملة الأولى أي ذلك ليس للعفو عنهم ، ولا ليستريحوا بتأخير العذاب في الجملة ، بل ليسألوا لكن لا عن عقائدهم ، وأعمالهم ، كما قيل ، فإن ذلك قد وقع قبل الأمر بهم إلى الجحيم ، بل عما ينطق به قوله الآتي : مالكم بطريق التهكم والتوبيخ . قال الكلبي : أي مسؤولون عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم أي جميعها ، وقال الضحاك : عن خطاياهم ، وقيل : عن لا إله إلا الله . وقيل : عن ظلم العباد ، وقال ابن عباس : احبسوهم إنهم محبوسون .

وأخرج البخاري في تاريخه والدارمي والترمذي وابن جرير والحاكم وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً معه يوم القيامة لازماً به لا يفارقه ، وإن دعا رجل رجلاً ، ثم قرأ:وقفوهم إنهم مسؤولون[1] » .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع :عن عمره فيم أفناه وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه وفي رواية عن شبابه فيم أبلاه » ،[2] وأخرجه الترمذي .

---

(١) رواه ابن ابي حاتم وابن جرير والترمذي عن انس بن مالك مرفوعاً .
(٢) صحيح الجامع ٧١٧٦/٧١٧٧ .

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥)

﴿ مالكم لا تناصرون ﴾ أي أيُّ شيء لكم لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا ، وتأخير هذا السؤال إلى ذلك الوقت لأنه وقت تنجيز العذاب وشدة الحاجة إلى النصرة ، وحالة انقطاع الرجاء عنها بالكلية ، فالتوبيخ حينئذ أشد وقعاً وتأثيراً وأصل تناصرون تتناصرون فطرحت إحدى التاءين تخفيفاً ، وقيل : الإشارة بقوله : (مالكم) إلى قول أبي جهل يوم بدر نحن جميع منتصر ، ثم أضرب سبحانه عما تقدم إلى بيان الحالة التي هم عليها هنالك فقال:

﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ أي منقادون لعجزهم عن الحيلة ، قال قتادة :مستسلمون خاضعون في عذاب الله ، وقال الأخفش : ملقون بأيديهم ، يقال استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع .

﴿ وأقبل بعضهم ﴾ أي بعض الكفار ﴿ على بعض يتساءلون ﴾ أي يتلاومون ويتخاصمون ، قيل : هم الأتباع والرؤساء يسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ وتقريع ومخاصمة ، قال ابن عباس : ذلك إذا بعثوا في النفخة الثانية وقال مجاهد : هو قول الكفار للشياطين ، وقال قتادة : هو قول الإنس للجن ، والأول أولى لقوله : ﴿ قالوا إنكم تأتوننا ﴾ في الدنيا .

﴿ عن اليمين ﴾ أي من جهة الحق والدين والطاعة وتصدوننا عنها قال

الزجاج:كنتم تأتوننا من قبل الدين فتروننا أن الدين والحق ما تضلوننا به ، واليمين عبارة عن الحق ، وهذا كقوله تعالى إخبارا عن إبليس:

﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم ﴾ .

قال الواحدي : قال أهل المعاني: إن الرؤساء كانوا قد حلفوا لهؤلاء الاتباع أن ما يدعونهم إليه هو الحق فوثقوا بإيمانهم فمعنى تأتوننا عن اليمين أي من ناحية الأيمان التي كنتم تحلفونها فوثقنا بها ، قال : والمفسرون على القول الأول . وقيل : المعنى تأتوننا عن اليمين التي نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك عن جهة النصح ، والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح ، وقيل : اليمين بمعنى القوة أي تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر ، كما في قوله : ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ أي بالقوة ، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر وكذلك جملة :

﴿ قالوا : بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ أي قال الرؤساء أو الشياطين لهؤلاء القائلين : كنتم تأتوننا عن اليمين ، بل لم تكونوا مؤمنين ولم نمنعكم من الإيمان والمعنى أنكم لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم عن الإيمان إلى الكفر ، بل كنتم من الأصل على الكفر فأقمتم عليه ، أجابوا بأجوبة خمسة الأول ﴿ بل لم تكونوا ﴾ الخ .

والثاني قوله : ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ أي قوة وقدرة وتسلط بقهر وغلبة حتى ندخلكم في الكفر ونخرجكم من الإيمان .

والثالث قوله : ﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾ أي متجاوزين الحد في الكفر والضلال .

والرابع قوله : ﴿ فحق علينا ﴾ أي وجب علينا وعليكم ولزمنا ﴿ قول ربنا ﴾ يعنون قوله تعالى : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ ﴿ إنا ﴾ جميعاً ﴿ لذائقون ﴾ العذاب الذي ورد به الوعيد ، قال الزجاج : أي إن المضل والضال في النار.

الخامس:﴿ فأغويناكم ﴾ أي أضللناكم عن الهدى ودعوناكم إلى ما كنا فيه من الغي وزينا لكم ما كنتم عليه من الكفر ، فاستجبتم لنا باختياركم ، واستحبابكم الغي على الرشد .

﴿ إنا كنا غاوين ﴾ فلا عتب علينا في تعرضنا لإغوائكم بتلك الدعوة لأنا أردنا أن تكونوا أمثالنا في الغواية ، ومعنى الآية:أقدمنا على إغوائكم لأنا كنا موصوفين في أنفسنا بالغواية ، فأقروا ههنا بأنهم تسببوا لإغوائهم لكن لا بطريق القهر والغلبة ، ونفوا عن أنفسهم فيما سبق أنهم قهروهم وغلبوهم فقالوا:﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ ثم أخبر الله سبحانه عن الاتباع والمتبوعين بقوله :

﴿ فإنهم يومئذ ﴾ أي يوم إذ يتساءلون ويتحاورون ويتخاصمون بما سبق ﴿ في العذاب مشتركون ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية ﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ أي بأهل الإجرام ، وهم المشركون كما يفيده قوله سبحانه : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم ﴾ قولوا ﴿ لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ عن القبول .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله »[١] .

وأنزل الله في كتابه .

وذكر قوماً استكبروا فقال : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ وقال: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله استكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قضية المدة ، وعن ابن عباس قال : كانوا إذا لم يشرك بالله يستنكفون .

---

(١) اخرجه ابن ابي حاتم عن ابي هريرة مرفوعاً .

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾

﴿ ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر ﴾ أي لقول شاعر ﴿ مجنون ﴾ لا يعقل : يعنون النبي صلى الله عليه وسلم ، فحكى الله سبحانه صدقه ورد عليهم بقوله : ﴿ بل جاء بالحق ﴾ يعني القرآن المشتمل على التوحيد والوعد والوعيد ﴿ وصدق المرسلين ﴾ أي صدقهم فيما جاؤوا به من التوحيد والوعيد وإثبات الدار الآخرة ، ولم يخالفهم ولا جاء بشيء لم تأت به الرسل قبله .

﴿ انكم ﴾ بسبب شرككم وتكذيبكم ﴿ لذائقو العذاب الأليم ﴾ أي الشديد ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب لإظهار كمال الغضب عليهم ، قرأ الجمهور: لذائقو بحذف النون وخفض العذاب ، وقرىء بحذفها ونصب العذاب ، وأجاز سيبويه أيضاً ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ بنصب الصلاة على هذا التوجيه ، وقد قرىء بإثبات النون ونصب العذاب على الأصل ، ثم بين سبحانه إن ما ذاقوه من العذاب ليس إلا بسبب أعمالهم فقال :

﴿ وما تجزونْ إلاّ ﴾ جزاء ﴿ ما ﴾ أو بما ﴿ كنتم تعملون ﴾ من الكفر والمعاصي، ثم استثنى المؤمنين فقال: ﴿إلاّ عباد الله المخلصين ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة بفتح اللام ، أي الذين أخلصهم الله لطاعته وتوحيده وقرىء بكسرها أي الذين أخلصوا لله العبادة والتوحيد ، والاستثناء إما متصل على تقدير تعميم الخطاب في تجزون لجميع المكلفين ؛ أو منقطع ، أي لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب .

﴿ أولئك ﴾ المخلصون ﴿ لهم رزق ﴾ يرزقهم الله إياه ﴿ معلوم ﴾ في

حسن منظره وطيبه ولذته ورائحته وطعمه وعدم انقطاعه ، قال قتادة: يعني الجنة وقيل: معلوم الوقت وهو أن يعطوا منه بكرة وعشياً كما في قوله: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ والنفس إليه أسكن.

وقيل: معلوم خصائصه من الدوام ، وتمحض اللذة ، وقيل: معلوم القدر الذي يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله تعالى ، وقيل: هو المذكور في قوله بعده ﴿ فواكه ﴾ فإنه بدل من رزق أو هو فواكه ، وهذا هو الظاهر ؛ والفواكه جمع فاكهة وهي الثمار كلها رطبها ويابسها وخصص الفواكه بالذكر لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه كذا قيل والأولى أن يقال: إن تخصيصها بالذكر لأنها أطيب ما يأكلونه وألذ ما تشتهيه أنفسهم ، وقيل: إن الفواكه من أتباع سائر الأطعمة فذكرها يغني عن ذكر غيرها.

﴿ وهم مكرمون ﴾ في محل نصب على الحال أي: ولهم من الله عز وجل إكرام عظيم برفع درجاتهم عنده وسماع كلامه ولقائه في الجنة أو مكرمون في نيل ثواب يصل إليهم من غير تعب وسؤال ، كما عليه رزق الدنيا. قرىء: مكرمون بتخفيف الراء وبتشديدها .

﴿ في جنات النعيم على سرر متقابلين ﴾ قال عكرمة ومجاهد معنى التقابل أنه لا ينظر بعضهم في قفا بعضهم تواصلاً وتحاباً ، وقيل: إنها تدور بهم الأسرة كيف شاءوا فلا يرى بعضهم قفا بعض ، قرأ الجمهور: سرر بضم الراء وقرىء بفتحها ، وهي لغة بعض تميم قيل: على سرر مكللة بالدر والياقوت والزبرجد ، والسرير ما بين صنعاء إلى الجابية وما بين عدن إلى أيلة وقيل : تدور بأهل المنزل الواحد والله أعلم. ذكره القرطبي .

ثم ذكر سبحانه صفة أخرى لهم فقال : ﴿ يطاف عليهم بكأس ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أو في محل نصب على الحال ، والكأس عند أهل اللغة ما كان من الزجاج ، وهو اسم شامل لكل إناء فيه الشراب ، فإن كان فارغاً فليس بكأس ، وقد تسمى الخمر كأساً تسمية للشيء باسم محله ، قال الشاعر :

وكأساً شربت على لذة   وأخرى تداويت منها بها

وقال الضحاك والسدي : كل كأس في القرآن فهي الخمر ، قال النحاس وحكى من يوثق به من أهل اللغة : أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر كأساً ، فإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح كما يقال للخوان إذا كان فيه طعام مائدة فإذا لم يكن عليه طعام لم يقل له مائدة .

﴿ من معين ﴾ صفة لكأس ، قال الزجاج: أي من خمر تجري كما تجري العيون على وجه الأرض ظاهرة تراها العيون ، والمعين: الماء الجاري وقوله ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ صفتان لكأس قال الزجاج: أي ذات لذة ، فحذف المضاف ويجوز أن يكون الوصف بالمصدر لقصد المبالغة في كونها لذة ، ولا يحتاج إلى تقدير المضاف ، قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ، له لذة لذيذة. يقال : شراب لذ ولذيذ ، كما يقال : نبات غض وغضيض ، واللذيذ كل شيء مستطاب ، وقيل : البيضاء هي التي لم تعتصرها الرجال ثم وصف هذه الكأس من الخمر بغير ما يتصف به خمر الدنيا فقال :

﴿ لا فيها غول ﴾ أي لا تغتال عقولهم فتذهب بها ، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع ، قال الفراء : العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء ، وقال أبو عبيدة: الغول أن تغتال عقولهم ، وقال الواحدي: الغول حقيقته الإهلاك ، يقال: غاله غولاً واغتاله أي أهلكه ،. والغول: كل ما اغتالك أي أهلكك ، ومنه الغول بالضم شيء توهمته العرب ، ولها فيه أشعار كالعنقاء .

﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ أي يسكرون. يقال: نزف الشارب فهو منزوف ونزيف إذا سكر قرأ الجمهور: ينزفون مبنيا للمفعول . وقرىء: بضم الياء وكسر الزاي من أنزف الرجل إذا ذهب عقله من السكر فهو نزيف ومنزوف ومنزف ، يقال: أحصد الزرع إذا آن حصاده وأقطف الكرم إذا حان قطافه.

قال الفراء: من كسر الزاي فله معنيان يقال: أنزف الرجل إذا فنيت خمره ، وأنزف إذا ذهب عقله من السكر ، وتحمل هذه القراءة على معنى لا ينفد شرابهم لزيادة الفائدة ، قال النحاس: والقراءة الأولى أبين وأصح في المعنى

لأن معنى ينزفون عند جمهور المفسرين لا تذهب عقولهم فنفى الله سبحانه عن خمر الجنة الآفات التي تلحق في الدنيا من خمرها ، من الصداع والسكر .

وقال الزجاج وأبو علي الفارسي معنى لا ينـزفون بكسر الـزاي : لا يسكرون ، قال المهدوي :لا يكون معنى ينزفون يسكرون. لأن قبله لا فيها غول أي لا تغتال عقولهم ، فيكون تكريراً ، وهذا يقوي ما قاله قتادة: إن الغول وجع البطن وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وقال الحسن: إن الغول الصداع ، وبه قال ابن عباس .

وقال ابن كيسان هو المغص فيكون معنى الآية لا يكون فيها نوع من أنواع الفساد المصاحبة لشرب الخمر في الدنيا من مغص أو وجع بطن أو صداع أو عربدة أو لغو أو تأثيم ، ولا هم يسكرون منها ، ويؤيد هذا أن أصل الغول الفساد الذي يلحق في خفاء يقال: اغتاله اغتيالاً إذا أفسد عليه أمره في خفية ، ومنه الغول والغيلة: القتل خفية ، وقرىء: ينزفون بفتح الياء وكسر الزاي ، وقرىء: بفتح الياء وضم الزاي .

عن ابن عباس قال : في الخمر أربع خصال السكر والصداع والقيء والبول فنزه الله خمر الجنة عنها ، فقال : ﴿ لا فيها غول ﴾ أي لا تغول عقلهم من السكر ، ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ قال: لا يقيئون عنها كما يقيء صاحب خمر الدنيا عنها .

وعنه قال: هي الخمر ليس فيها وجع بطن ، قال في النهر: ذكر أولاً الرزق وهو ما تتلذذ به الأجسام ، وثانياً الإكرام وهو ما تتلذذ به النفوس ، ثم ذكر المحل الذي هم فيه وهو جنات النعيم ، ثم أشرف المحل وهو السرر . ثم لذة التأنس بأن بعضهم مقابل بعضاً وهو أتم السرور وآنسه ثم المشروب وأنهم لا يتناولون ذلك بأنفسهم بل يطاف عليهم بالكؤوس ، ثم وصف ما يطاف عليهم به من الطيب وانتفاء المفاسد ، ثم ذكر تمام النعمة الجسمانية وختم بها كما بدأ باللذة الجسمانية من الرزق وهي أبلغ الملاذ وهي التأنس بـالنساء فقال:

وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾

﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي نساء حابسات الأعين غاضات العيون قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم ، والقصر: معناه الحبس ، وقيل: القاصرات المحبوسات على أزواجهن والأول أولى ، لأنه قال قاصرات الطرف ولم يقل مقصورات.

﴿ عين ﴾ أي عظام العيون جمع عيناء وهي الواسعة العين ، والذكر أعين قال الزجاج: معنى عين كبار الأعين حسانها ، وقال مجاهد العين حسان العيون عظام المقلة ، وقيل: نجل العيون بضم النون جمع نجلاء وهي التي اتسع شقها سعة غير مفرطة ، وقال الحسن: هن الشديدات بياض العين الشديدات سوادها والأول أولى .

﴿ كأنهن بيض ﴾ جمع بيضة وهو معروف ﴿ مكنون ﴾ أي مصون مستور من كننته إذا جعلته في كن ، قال الحسن وابن زيد: شبهن ببيض النعام تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونه أبيض في صفرة ، وهو أحسن ألوان النساء عند العرب ، وإلا فأحسنها عند العجم والروم: الأبيض المشرب بحمرة وقال سعيد بن جبير والسدي: شبههن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدي ، وبه قال ابن جرير قال المبرد: وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة : كأنه بيض النعام المغطى بالريش .

وقيل: المكنون المصون عن الكسر أي إنهن عذارى وقيل: المراد بالبيض اللؤلؤ كما في قوله وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون والأول أولى ، وإنما قال مكنون ولم يقل مكنونات لأنه وصف البيض باعتبار اللفظ ، وعن ابن عباس في قوله: ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال اللؤلؤ المكنون : وعنه قال بياض البيضة

ينزع عنها فوفها وغشاؤها .

﴿ فأقبل بعضهم على بعض ﴾ يعني أهل الجنة في الجنة ﴿ يتساءلون ﴾ أي يسأل هذا ذاك ، وذاك هذا حال شربهم عن أحوالهم التي كانت في الدنيا ، وما جرى لهم ، وما عملوه ، وذلك من تمام نعيم الجنة ، والتقدير فيقبل بعضهم على بعض وإنما عبر عنهم بالماضي للتأكيد والدلالة على تحقق وقوعه ، قيل: المعنى يشربون ويتحادثون على الشراب كعادة الشراب ، قال الشاعر:

فما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

﴿ قال قائل منهم ﴾ أي من أهل الجنة في حال إقبال بعضهم على بعض بالحديث وسؤال بعضهم لبعض: ﴿إني كان لي قرين ﴾ أي صاحب ملازم لي في الدنيا كافر بالبعث منكر له. قيل: كان قرينه شيطاناً ، وقيل: كان من الإنس وقيل : كانا أخوين ، وقيل : كانا شريكين أحدهما كافر اسمه قطروس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وهما اللذان قص الله خبرهما في سورة الكهف في قوله: واضرب لهم مثلاً رجلين ، والأول أولى.

﴿ يقول ﴾ لي ﴿ أئنك لمن المصدقين ﴾ بالبعث والجزاء وهذا الاستفهام من القرين لتوبيخ ذلك المؤمن وتبكيته بإيمانه ، وتصديقه بما وعد الله به من البعث، وكان هذا القول منه في الدنيا، قرأ الجمهور: مصدقين بتخفيف الصاد من التصديق أي لمن المصدقين بالبعث وقرىء: بتشديدها ولا أدري من قرأ بها ومعناها بعيد لأنها من التصدق لا من التصديق ، ويمكن تأويلها بأنه أنكر عليه التصدق بماله لطلب الثواب ، وعلل ذلك باستبعاد البعث ثم ذكر ما يدل على الاستبعاد للبعث عنده وفي زعمه فقال :

﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون؟ ﴾ أي لمجزيون بأعمالها ومحاسبون بها بعد أن صرنا تراباً وعظاماً ، وقيل : معنى مدينون مسوسون يقال : دانه إذا ساسه ، وقد اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة فقرأ نافع الأولى والثانية بالاستفهام بهمزة والثالثة بكسر الألف من غير الاستفهام ووافقه الكسائي إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين ، وابن عامر الأولى والثالثة

بهمزتين ، والثانية بكسر الألف من غير استفهام والباقون بالاستفهام في جميعها ثم اختلفوا ، فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعده ساكنة خفيفة ، وأبو عمرو مطولة وعاصم وحمزة بهمزتين .

﴿ قال : هل أنتم مطلعون ؟ ﴾ القائل هو المؤمن الذي في الجنة بعد ما حكى لجلسائه فيها ما قاله له قرينه في الدنيا ، أي هل أنتم يا إخواني مطلعون إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين الذي قال لي تلك المقالة ؟ كيف منزلته في النار فيقول أهل الجنة أنت أعرف به منا.

قال ابن الأعرابي : والاستفهام هو بمعنى الأمر ، أي اطلعوا ، وقيل القائل هو الله سبحانه ، وقيل: الملائكة والأول أولى ، قرأ الجمهور: مطلعون بتشديد الطاء مفتوحة ، وبفتح النون فاطلع ماضياً مبنياً للفاعل من الطلوع ، وقرأ ابن عباس ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو: بسكون الطاء وفتح النون فاطلع بقطع الهمزة مضمومة وكسر اللام ماضياً مبنياً للمفعول ، وقرىء: مطلعون بتخفيف الطاء وكسر النون : فاطلع مبنياً للمفعول ، وأنكرها أبو حاتم وغيره ، قال النحاس: هي لحن ، لأنه لا يجوز الجمع بين النون والإضافة ، ولو كان مضافاً لقال: هل أنتم مطلعي ، وإن كان سيبويه والفراء قد حكيا مثله ، ولكنه شاذ خارج عن كلام العرب .

﴿ فاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ أي فاطلع ذلك المؤمن على النار ؛ الذي صار يحدث أصحابه في الجنة بما قال له قرينه في الدنيا ، فرأى قرينه في وسط الجحيم ، وقال الزجاج: سواء كل شيء وسطه ، قال النحاس: فاطلع فيه قولان: أحدهما أن يكون فعلاً مستقبلاً أي فاطلع أي أنا ، والثاني أن يكون فعلاً ماضياً أي المؤمن ، قال ابن مسعود في الآية: اطلع ثم التفت إلى أصحابه فقال: لقد رأيت جماجم القوم تغلي ، قال ابن عباس: «إن في الجنة كوى ينظر منها أهلها إلى النار» ، جمع كوة وهي الثقب في الحائط وهي بفتح الكاف وضمها وفي الجمع وجهان كسرها وضمها لكن مع الكسر يصبح المد والقصر ، ومع الضم يتعين القصر .

قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ قال ﴾ ذلك الذي من أهل الجنة لما اطلع على قرينه ورآه في النار ﴿ تالله إن كدت لتردين ﴾ أي لتهلكني بالإغواء ، وفيه معنى التعجب ، قال الكسائي :الردى الهلاك .قال المبرد :لو قيل(لتردين) لتوقعني في النار لكان جائزاً قال مقاتل :المعنى والله لقد كدت أن تغويني ، فأنزل منزلتك والمعنى متقارب فمن أغوى إنساناً فقد أهلكه.

﴿ ولولا نعمة ربي ﴾ أي رحمته وإنعامه علي بالإسلام وهدايتي إلى الحق وعصمتي عن الضلال ﴿ لكنت ﴾ معك في النار ﴿ من المحضرين ﴾ قال الماوردي :ولا يستعمل أحضر إلا في الشر . ولما تم كلامه مع ذلك القرين الذي هو في النار عاد إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة فقال:﴿ أفما نحن بميتين ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري وفيها معنى التعجب ، والفاء للعطف على محذوف كما في نظائره أي :أنحن مخلدون منعمون ؟ فما نحن بميتين ، وقرأ زيد بن علي بمائتين .

قال ابن عباس :في الآية قول الله لأهل الجنة ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ قال :هنيئاً أي لا تموتون فيها ، فعند ذلك قالوا :أفما نحن بميتين إلى قوله الفوز العظيم ، وقيل :هذا السؤال من أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت ، وقيل :من قولهم توبيخاً للكفار لما كانوا ينكرونه من البعث وإنه ليس

إلا الموت في الدنيا والأول أولى .

﴿ إلا موتتنا الأولى ﴾ التي كانت في الدنيا ، وقوله: هذا كان على طريقة الابتهاج والسرور بما أنعم الله عليهم من نعيم الجنة الذي لا ينقطع ، وأنهم مخلدون لا يموتون أبداً ، والاستثناء مفرغ ، وقيل:منقطع بمعنى لكن ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ كما يعذب الكفار ثم قال:مشيراً إلى ما هم فيه من النعيم ﴿ إن هذا ﴾ الأمر العظيم والنعيم المقيم والخلود الدائم الذي نحن فيه ﴿ لهو الفوز العظيم ﴾ الذي لا يقادر قدره ، ولا يمكن الإحاطة بوصفه .

﴿ لمثل ﴾ أي لنيل مثل ﴿ هذا ﴾ العطاء والفضل العظيم ﴿ فليعمل العاملون﴾ فإن هذه هي التجارة الرابحة لا العمل للدنيا الزائلة ، وحظوظها المشوبة بالآلام السريعة الانصرام ، فإنها صفقة خاسرة ، نعيمها منقطع ، وخيرها زائل ، وصاحبها عن قريب منها راحل ، وهذا من تمام كلامهوقيل: إن هذا من قول الله سبحانه قاله ابن عباس وقيل من قول الملائكة والأول أولى .

وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال: «كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده في يدي ، فرأى جنازة فأسرع المشي حتى أتى القبر ، ثم جثا على ركبتيه فجعل يبكي حتى بل الثرى ثم قال: لمثل هذا فليعمل العاملون » وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: «دخلت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم على مريض يجود بنفسه فقال: لمثل هذا فليعمل العاملون» .

﴿ أذلك ؟ ﴾ الذي ذكره من نعيم الجنة وهو مبتدأ وخبره ﴿ خير ﴾ و ﴿ نزلاً ﴾ تمييز والنزل في أصل اللغة الفضل والريع فاستعير للحاصل من الشيء والرزق الذي يصلح أن ينزلوا معه ويقيموا فيه ، والخيرية بالنسبة إلى ما اختاره الكفار على غيره ، والمعنى: قل يا محمد لقومك على سبيل التوبيخ والتبكيت والتهكم: أذلك الرزق المعلوم الذي حاصله اللذة والسرور خير نزلاً .

﴿ أم شجرة الزقوم؟ ﴾ أي التي حاصلها الألم والغم ، قال الزجاج:المعنى أذلك خير في باب الإنزال التي يبقون بها نزلاً أم نزل أهل النار؟ وهو الزقوم وهو ما يكره تناوله ، قال الواحدي : وهو شيء مر كريه يكره أهل النار على تناوله فهم يتزقمونه فهي على هذا مشتقة من التزقم ؛ وهو البلع على جهد لكراهتها ونتنها ؛ واختلف فيها : هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب ؟ أم لا ؟ على قولين أحدهما : أنها معروفة من شجر الدنيا ، فقال قطرب : إنها شجرة مرة كريهة الرائحة تكون بتهامة من أخبث الشجر ، وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل ، وقيل : شجرة مسمومة متى مست جسد أحد تورم فمات والإضافة من إضافة المسمى إلى الاسم.

القول الثاني : أنها غير معروفة في شجر الدنيا؛ وقيل:إنه قال ابن الزبعري لصناديد قريش : إن محمداً يخوفنا بالزقوم وهي بلسان بربر الزبد والتمر، وقيل:هي بلغة أهل اليمن؛ قال قتادة : لما ذكر الله هذه الشجرة افتتن بها الظلمة فقالوا كيف تكون في النار شجرة ؟ فأنزل الله تعالى:

﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ قال الزجاج: أي حين افتتنوا بها وكذبوا بوجودها ، ولم يعلموا أن من يقدر على خلق حيوان وهو السمندل يعيش في النار ؛ ويتلذذ بها يقدر على خلق الشجر في النار وحفظه منها ، وقيل: معنى جعلها فتنة لهم أنها محنة لهم لكونهم يعذبون بها ؛ والمراد بالظالمين هنا الكفار أو أهل المعاصي الموجبة للنار ، ثم بين سبحانه أوصاف هذه الشجرة رداً على منكريها فقال:

﴿ إنها شجرة تخرج ﴾ أي تنبت ﴿ في أصل الجحيم ﴾ أي في قعرها وأسفلها قال الحسن:أصلها في قعر جهنم وأغصانها ترفع إلى دركاتها .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : مر أبو جهل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس فلما بعد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى ﴾ ؛ فلما سمع أبو جهل قال: من

توعد يا محمد ؟ قال إياك ، قال بم توعدني ؛ قال أوعدك بالعزيز الكريم فقال: أبو جهل أليس أنا العزيز الكريم ؟ فأنزل الله :﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم إلى قوله ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ فلما بلغ أبا جهل ما نزل فيه جمع أصحابه فأخرج إليهم زبداً وتمراً فقال :تزقموا من هذا فوالله ما يتوعدكم محمد إلاّ بهذا فأنزل الله :﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ الآية ؛ وعنه قال:لو أن قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلى الأرض لأفسدت على الناس معايشهم ، ثم قال الله تعالى:

﴿ طلعها ﴾ الطلع حقيقة اسم لثمر النخل أول بروزه ، فإطلاقه على ثمر هذه الشجرة مجاز بالاستعارة ، والمعنى ثمرها وما تحمله ﴿ كأنه ﴾ في تناهي قبحه وهوله وشناعة منظره ﴿ رؤوس الشياطين ﴾ فشبه المحسوس بالمتخيل ؛ وإن كان غير مرئي للدلالة على أنه غاية في القبح كما يقولون في تشبيه من يستقبحونه كأنه شيطان ، وفي تشبيه من يستحسنونه كأنه ملك كما في قوله تعالى:﴿ ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

قال الزجاج والفراء :الشياطين حيات هائلة لها رؤوس وأطراف ، وهي من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسماً ، وقيل: إن رؤوس الشياطين اسم لنبت قبيح معروف باليمن يقال له الأستن ، ويقال له الشيطان ، قال النحاس: وليس ذلك معروفاً عند العرب ، وقيل:هو شجر خشن منتن مر منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين ، وقيل:هو شجر يقال له الصرم فعلى هذا قد خوطب العرب بما تعرفه وهذه الشجرة موجودة ، فالكلام حقيقة وقيل: إنه خاطبهم بما ألفوه من الاستعارات .

﴿ فإنهم لآكلون ﴾ لشدة جوعهم أو لقهرهم على الأكل ﴿ منها ﴾ أي من الشجرة أو من طلعها ، والتأنيث لاكتساب الطلع والتأنيث من إضافته إلى الشجرة ﴿ فمالئون منها البطون ﴾ وذلك أنهم يكرهون على أكلها حتى تمتلىء بطونهم فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة .

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ ثم إن لهم عليها ﴾ أي على الشجرة بعد الأكل منها ﴿ لشوباً من حميم ﴾ الشوب الخلط ، قال الفراء: يقال شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشيء يشوبها شوباً وشيابة ، وقال ابن عباس: شوباً مزجاً أي يخالط طعامهم ويشاب بالحميم وهو الماء الحار ، فأخبر الله سبحانه أنه يشاب لهم طعامهم من تلك الشجرة بالماء الحار ليكون أفظع لعذابهم وأشنع لحالهم كما في قوله: ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾[1] قرأ الجمهور: بفتح الشين وهو مصدر وقرأ شيبان النحوي بالضم ، قال الزجاج: المفتوح مصدر والمضموم اسم بمعنى المشوب كالنقض بمعنى المنقوض .

﴿ ثم إن مرجعهم ﴾ بعد شرب الحميم وأكل الزقوم ﴿ لإلى الجحيم ﴾ وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه وهو خارج الجحيم كما تورد الإبل ثم يردون إلى الجحيم كما في قوله سبحانه: ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ وهذا قول الأقل والجمهور على أنه داخلها وأنهم لا يخرجون أصلاً ، وقيل: إن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولها. قال أبو عبيدة: ثم بمعنى الواو ، وقرأ ابن مسعود: ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم وعنه قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء أهل الجنة وأهل النار ، وقرأ: أن مقيلهم لإلى الجحيم .

(١) عن ابي امامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول : « يقرب ـ إلى اهل النار ـ ماء فيتكرهه فإذا ادني منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه فيه ، فإذا شربه قطع امعاءه حتى تخرج من دبره (رواه ابن ابي حاتم) .

﴿ إنهم ألفوا ﴾ أي وجدوا ﴿ آباءهم ضالين ﴾ تعليل لاستحقاقهم ما تقدم ذكره ، أي صادفوهم كذلك فاقتدوا بهم تقليداً وضلالة ، لا لحجة أصلاً قال أبو السعود : أي بتقليد آبائهم في الدين من غير أن يكون لهم أو لآبائهم شيء يتمسك به أصلاً .

﴿ فهم على آثارهم يهرعون ﴾ أي من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أو لا ، مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل والإهراع الإسراع الشديد ، وقال الفراء: الإسراع برعدة ، وقال أبو عبيدة: يهرعون يستحثون من خلفهم ، يقال : جاء فلان يهرع إلى النار إذا استحثه البرد إليها ، وقال المفضل: يزعجون من شدة الإسراع ، قال الزجاج : هرع وأهرع إذا استحث وأزعج ، والمعنى يتبعون آباءهم في سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم وذلك في الدنيا .

﴿ ولقد ضل قبلهم ﴾ أي قبل هؤلاء المذكورين ﴿ أكثر الأولين ﴾ من الأمم الماضية بالتقليد ، ورفض الدليل وترك النظر وإيثار التأويل ﴿ ولقد أرسلنا فيهم منذرين ﴾ أي أرسلنا في هؤلاء الأولين رسلاً أنذروهم العذاب وحذروهم عواقب التقليد ، وبينوا لهم الحق فلم ينجع ذلك فيهم ، وكذلك لا ينجع في مقلدة هذا الزمان فما أشبه الليلة بالبارحة .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أي الذين أنذرتهم الرسل فإنهم صاروا إلى النار ، قال مقاتل: يقول كان عاقبتهم العذاب ، يحذر كفار مكة ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يتأتى منه التمكن من مشاهدة آثارهم ، ثم استثنى عباده المؤمنين فقال :

﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي إلا من أخلصهم الله بتوفيقهم إلى الإيمان والتوحيد ، وإيثار الدليل ، وترك التقليد ، وقرىء: المخلصين بكسر اللام أي الذين أخلصوا لله طاعتهم ولم يشوبوها بشيء بغيرها .

ولما ذكر سبحانه أنه أرسل في الأمم الماضية منذرين ذكر تفصيل بعض ما أجمله فيما سبق فقال:

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾

﴿ ولقد نادانا نوح ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، والمراد أن نوحاً دعا ربه على قومه لما عصوه فأجاب الله دعاءه وأهلك قومه بالطوفان ، فالنداء هنا هو نداء الدعاء لله ، والاستغاثة به ، كقوله: ﴿رب لا تـذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ وقوله: ﴿إني مغلوب فانتصر ﴾ ،وحـاصل ما يأتي من القصص سبع :قصة نوح ، وقصة إبراهيم ، وقصة إسماعيل ، وقصة موسى وهارون ، وقصة إلياس ، ولوط ويونس ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ له نحن أي دعانا فأجبناه وأهلكنا قومه ، والواو للتعظيم .

﴿ ونجيناه وأهله ﴾ المراد بأهله أهل دينه ، وهم من آمن معه وكانوا ثمانين أو زوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم الثلاث ﴿ من الكرب العظيم ﴾ هو الغرق وقيل تكذيب قومه له وما يصدر إليه منهم من أنواع الأذى.

﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ وحدهم دون غيرهم كما يشعر به ضمير الفصل وذلك لأن الله أهلك الكفرة بدعائه ، ولم يبق منهم باقية ، ومن كان معه في السفينة من المؤمنين ماتوا كما قيل ولم يبق إلا أولاده قال سعيد بن المسيب:كان ولد نوح ثلاثة والناس كلهم من ولد نوح فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى ، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب السند

والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم ويافث أبو الصقالب والترك والخزر ويأجوج ومأجوج وغيرهم وقيل: إنه كان لمن مع نوح ذرية كما يدل عليه قوله: ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ وقوله: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ فيكون على هذا معنى الآية: ذريته وذرية من معه دون ذرية من كفر، فإن الله أغرقهم فلم يبق لهم ذرية والأول أولى .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال: « حام وسام ويافث »[1] وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه عن سمرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم» والحديثان هما من سماع الحسن عن سمرة، وفي سماعه منه مقال معروف وقد قيل: إنه لم يسمع منه إلا حديث العقيقة فقط، وما عداه فبواسطة قال ابن عبد البر .

وقد روي عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم والخطيب في تالي التلخيص عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولد نوح ثلاثة سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم، وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم، وولد حام القبط والبربر والسودان» وهو من حديث إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيب عنه .

قلت: في الآية دليل على أن الطوفان عم كل البلاد، وشمل جميع العباد، ولم يبق أحد من الناس سوى من كان معه في السفينة، والفرس

(١) اخرجه احمد والترمذي وصحيح الجامع/ ٦١٤٥ .

وسائر المجوس والكلدانيون أهل بابل والهند وأهل الصين وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان ، وأقر به بعض الفرس لكنهم قالوا لم يسكن الطوفان بسوى الشّام والمغرب ، ولم يعم العمران كله ، ولا أغرق إلا بعض الناس ، ولم يتجاوز عقبة حلوان ، ولا بلغ إلى ممالك المشرق ، قالوا: ووقع في زمان طهمورث ، وأن أهل المغرب لما أنذر حكماؤهم بالطوفان اتخذوا المباني العظيمة كالهرمين بمصر ونحوهما ليدخلوا فيها عند حدوثه ، ولما بلغ طهمورث الإنذار بالطوفان قبل كونه بمائة واحدى وثلاثين سنة أمر باختيار مواضع في مملكته صحيحة الهواء والتربة ، فوجد ذلك بأصبهان فأمر بتجليد العلوم ودفنها فيها في أسلم المواضع، ويشهد لهذا ما وجد بعد الثلثمائة من سني الهجرة في حي من مدينة أصفهان من التلال التي انشقت عن بيوت مملوءة أعدالاً عدة كثيرة قد ملئت من لحاء الشجر التي تلبس بها القسي، وتسمى التور مكتوبة بكتابة لم يدر أحد ما هي ، ذكره المقريزي في الخطط ، وقال بعض محققي الهنود : إن سري كشن الهندي قد أخبر قبل وفاته بسبعة أيام أن بلدة دواركا ستغرق عن قريب وأشار إلى حصول الطوفان بأرض الهند ، والحق ما دلت عليه هذه الآية وغيرها من عموم الغرق للعمران ، وشمول الطوفان لجميع الأرض ونوع الإنسان ، ولا يلتفت إلى قول من أنكره أو أوله أو خصه ببعض الأمكنة دون بعضها فإنه إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ يعني في الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة من أمم وقال ابن عباس : يقول ، يذكر بخير ، والمتروك هذا هو قوله : ﴿ سلام على نوح ﴾ أي تركنا هذا الكلام بعينه ، والسلام هو الثناء الحسن ، أي يثنون عليه ثناء حسناً ، ويدعون له ويترحمون عليه . قال الزجاج: تركنا عليه الذكر الجميل إلى يوم القيامة ، وذلك الذكر هو قوله: ﴿سلام على نوح ﴾ قال الكسائي في ارتفاع سلام وجهان : أحدهما : وتركنا عليه في الآخرين يقال سلام .

والثاني : أن يكون المعنى وأبقينا عليه ، وتمّ الكلام ، ثم ابتدأ فقال:

سلام على نوح أي سلامة له من أن يذكر بسوء في الآخرين ، قال المبرد: أي تركنا عليه هذه الكلمة باقية يعني يسلمون عليه تسليماً ، ويدعون له ، وهو من الكلام المحكي كقوله ﴿سورة أنزلناها﴾ ، وقيل :إنه ضمن تركنا معنى قلنا. قال الكسائي : وفي قراءة ابن مسعود سلاماً منصوب بتركنا أي تركنا عليه ثناء حسنا وقيل :المراد بالآخرين أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿ في العالمين ﴾ أي سلام ثابت أو مستمر أو مستقر على نوح في العالمين من الملائكة ، والجن والإنس ، وهذا يدل على عدم اختصاص ذلك بأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما قيل:

﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها من التكرمة لنوح بإجابة دعائه وبقاء الثناء من الله عليه ، وبقاء ذريته أي إنا كذلك نجزي من كان محسناً في أقواله وأفعاله ، راسخاً في الإحسان معروفاً به ، والكاف في كذلك نعت مصدر محذوف أي جزاء كذلك الجزاء .

﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ هذا بيان لكونه من المحسنين وتعليل له بأنه كان عبداً مؤمناً مخلصاً لله وذلك إجلال لشأن الإيمان وشرفه وترغيب في تحصيله والثبات عليه ، والازدياد منه . كما قال في مدح إبراهيم:﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى ، فلا يقال: كيف مدح الرسول بذلك ؟ مع أن مرتبتهم فوق مرتبة المؤمنين .

﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أي الكفرة الذين لم يؤمنوا بالله ولا صدقوا نوحاً معطوف على نجيناه ، والترتيب حقيقي لأن نجاتهم بركوب السفينة حصلت قبل غرق الباقين ، والشهاب فهم أنه معطوف على قوله:﴿ وجعلنا ذريته ﴾ فجعل الترتيب إخبارياً لأن إغراق الآخرين كان قبل جعل ذريته باقين ، ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم وبين أنه ممن شايع نوحاً فقال .

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ أي من أهل دينه وممن شايعه ووافقه على الدعاء إلى الله ، وإلى توحيده والإيمان به ، قال مجاهد وابن عباس أي على

منهاجه وسنته ، قال الأصمعي : الشيعة الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع وهو الحطب الصغار التي توقد مع الكبار حتى تستوقد ، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة ، وما كان بينهما إلا نبيان هود وصالح والذين قبل نوح ثلاثة إدريس وشيث وآدم ، فجملة من قبل إبراهيم من الأنبياء ستة ، والمعنى كان من أتباعه في أصل الدين وإن اختلفت فروع شرائعهما أو كان بين شريعتهما اتفاق كلي أو أكثري ، وإن طال الزمان ، وقال الفراء: المعنى وإن من شيعة محمد لإبراهيم ، فالهاء على هذا في شيعته لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وكذا قال الكلبي ، ولا يخفى ما في هذا من الضعف والمخالفة للسياق .

﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ أي مخلص من الشرك والشك أو من آفات القلوب وقيل: هو الناصح لله في خلقه ، وقيل: الذي يعلم أن الله حق وأن الساعة قائمة وأن الله يبعث من في القبور ، ومعنى مجيئه إلى ربه يحتمل وجهين أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته ، والثاني عند إلقائه في النار ، وجاء استعارة تصريحية تبعية. شبه إخلاصه قلبه بمجيئه بتحفة كأنه جاء به تحفة من عنده في أنه فاز بما يستجلب به رضاه ، والظرف في قوله إذا جاء منصوب بفعل محذوف ، أي أذكر ، وقيل: بما في الشيعة من معنى المتابعة ، قال أبو حيان: لا يجوز لأن فيه الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي وهو إبراهيم ، والأولى أن يقال إن لام الابتداء تمنع ما قبلها عن العمل فيما بعدها .

﴿ إذ ﴾ أو وقت إذ ﴿ قال لأبيه ﴾ آزر ﴿ وقومه ﴾ من الكفار ﴿ ماذا ﴾ أي أيُّ شيء ﴿تعبدون .أئفكاً آلهة دون الله تريدون﴾ انتصاب(إفكاً)على أنه مفعول لأجله أي أتريدون آلهة من دون الله للإفك ، وتقديم هذه المعمولات للفعل عليه للاهتمام ، وقيل: انتصاب (إفكاً) على أنه مفعول به لتريدون والآلهة بدل منه جعلها نفس الإفك مبالغة ، وهذا أولى من الوجه الأول ، وقيل . أتريدون آلهة آفكين أو ذوي إفك .قال المبرد: الإفك أسوأ الكذب وهو الذي لا يثبت ويضطرب ، ومنه ائتفكت بهم الأرض .

فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾

﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وما ترونه يصنع بكم وهو تحذير مثل قوله : ﴿ ما غرك بربك الكريم ؟ ﴾ وقيل : المعنى أي شيء توهمتموه بالله حتى أشركتم به غيره ؟ .

﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ أي إليها ﴿ فقال إني سقيم ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم بذلك لئلا ينكروا عليه ، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم لتلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم في الغد يوم عيد يخرجون إليه، وأراد أن يتخلف عنهم فاعتل بالسقم ، وذلك أنهم كلفوه أن يخرج معهم إلى عيدهم فنظر إلى النجوم أي في علمها أو في كتبها يريهم أنه مستدل بها على حاله : فلما نظر إليها قال : إني سقيم أي مشارف للسقم .

وقال الحسن : إنهم لما كلفوه أن يخرج معهم تفكر فيما يعمل فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من الرأي أي فيما طلع له منه فعلم أن كل شيء يسقم فقال : إني سقيم ، قال الخليل والمبرد : يقال للرجل إذا فكر في الشيء يدبره نظر في النجوم ، وقيل: كانت الساعة التي دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعة تعتاده فيها الحمى ، وقال الضحاك : معنى إني سقيم سأسقم سقم الموت لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ، ثم يموت ، وهذا تورية وتعريض كما قال للملك لما سأله عن سارة : هي أختي يعني أخوة الدين .

وقال سعيد بن جبير : أشار لهم إلى مرض يسقم ويعدي وهو الطاعون ، وكانوا يهربون من ذلك .

قال ابن عباس : سقيم أي مريض ، وقال أيضاً : مطعمون ولهذا قال : ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ أي تركوه وذهبوا مخافة العدوى .

﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ يقال: راغ يروغ روغاً وروغاناً إذا مال، ومنه طريق رائغ أي مائل ، وقال السدي : ذهب إليهم ، وقال أبو مالك : جاء إليهم ، وقال الكلبي : أقبل عليهم ، والمعنى متقارب . وكانت اثنين وسبعين صنماً من حجر وخشب وذهب وفضة ونحاس وحديد ورصاص ، وكان كبيرها من ذهب مكللاً بالجواهر ﴿ فقال ﴾ إبراهيم للأصنام التي راغ إليها استهزاء وسخرية ﴿ ألا تأكلون ؟ ﴾ من الطعام الذي كانوا يصنعونه لها وخاطبها كما يخاطب من يعقل لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة وكذا قوله :

﴿ ما لكم لا تنطقون ؟ ﴾ فإنه خاطبهم خطاب من يعقل والاستفهام للتهكم بهم ، لأنه قد علم أنها جمادات لا تنطق ، قيل: إنهم تركوا عند أصنامهم طعامهم للتبرك بها وليأكلوه إذا رجعوا من عيدهم ، وقيل: تركوه للسدنة ، وقيل : إن إبراهيم هو الذي قرب إليها الطعام مستهزئاً بها .

﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ أي فمال عليهم ضربهم ضرباً ، مصدر مؤكد لفعل محذوف ، أو هو مصدر لراغ لأنه بمعنى ضرب ، قال الواحدي : قال المفسرون يعني بيده اليمنى يضربهم بها : وقال السدي : بالقوة والقدرة لأن اليمين أقوى اليدين ، قال الفراء وثعلب : ضرباً بالقوة واليمين القوة ، وقال الضحاك والربيع ابن أنس : المراد باليمين اليمين التي حلفها حين قال : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ وقيل :المراد باليمين هنا العدل كما في قوله:﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ﴾ أي بالعدل ، واليمين كناية عن العدل كما أن الشمال كناية عن الجور وأولى هذه الأقوال أُولاها .

﴿ فأقبلوا إليه يزفون ﴾ أي أقبل إليه عبدة تلك الأصنام يسرعون لما

علموا بما صنعه بها فقالوا نحن نعبدها وأنت تكسرها ، ويزفون في محل نصب على الحال حال من فاعل أقبلوا ، قرأ الجمهور بفتح الياء من زف الظليم يزف إذا عدا بسرعة ، وقرئ: بضم الياء من أزف يزف أي دخل في الزفيف ، أو يحملون غيرهم على الزفيف .

قال الأصمعي: أزففت الإبل أي حملتها على أن تزف ، وقيل: هما لغتان يقال : زف القوم وأزفوا وزفت العروس وأزففتها حكي ذلك عن الخليل، قال النحاس: زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة ، يعني يزفون بضم الياء ، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء وشبهها بقولهم: اطردت الرجل أي صيرته إلى ذلك ، وقال المبرد: الزفيف الإسراع .

قال الزجاج: الزفيف أول عدو النعام وقال قتادة والسدي معنى يزفون يمشون وقال الضحاك يسعون ، وقال يحيى بن سلام: يرعدون غضباً ، وقال مجاهد: يختالون أي يمشون مشي الخيلاء ، وقيل: يتسللون تسللاً بين المشي والعدو والأولى تفسيره بيسرعون ، وقال ابن عباس: يزفون يخرجون وقرىء: يزفون على البناء للمفعول ؛ وقرىء: على زنة يرمون ، وحكى الثعلبي عن الحسن ومجاهد وابن السميفع أنهم قرأوا يرفون بالراء المهملة وهي ركض بين المشي والعدو ولما أنكروا على إبراهيم ما فعله بالأصنام ذكر لهم الدليل الدال على فساد عبادتها و ﴿ قال ﴾ مبكتا لهم ومنكراً عليهم:

﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ أي أتعبدون أصناماً أنتم تنحتونها ، والنحت النجر والبري؛ نحته ينحته بالكسر نحتاً أي براه والنحاتة البراية ، ووجه التوبيخ ظاهر وهو أن الخشب والحجر قبل النحت والإصلاح ما كان معبوداً البتة فإذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه إلا آثار تصرفه عن هيئته ، فلو صار معبوداً لهم عند ذلك لزم أن الشيء الذي لم يكن معبوداً إذا حصل فيه آثار صار معبوداً وفساده واضح .

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾

﴿ والله خلقكم وما تعلمون ﴾ أي وخلق الذي تصنعونه على العموم ويدخل فيها الأصنام التي تنحتونها دخولاً أولياً ويكون معنى العمل هنا التصوير والنحت ونحوهما نحو عمل الصائغ السوار ، أي صاغه ويرجحه ما قبله ، أي أتعبدون الذي تنحتون ، أو خلقكم وخلق عملكم ، وجعلها الأشعرية دليلاً على خلق أفعال العباد لله تعالى وهو الحق ، فإن فعلهم كان بخلق الله فيهم فكان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك ، ويرجح على الأول بعدم الحذف ، ويجوز أن تكون (ما) استفهامية أي أيُّ شيء تعملون ، ومعنى الاستفهام التوبيخ والتقريع ، ويجوز أن تكون نافية ، أي أن العمل في الحقيقة ليس لكم فأنتم لا تعملون شيئاً وقد طول صاحب الكشاف الكلام في رد قول من قال إنها مصدرية ، ولكن بما لا طائل تحته ، وجعلها موصولة أولى بالمقام وأوفق بسياق الكلام ، والجملة إما حالية أو مستأنفة .

﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كالجملة التي قبلها ، قالوا هذه المقالة لما عجزوا عن جواب ما أورده عليهم من الحجة الواضحة فتشاوروا فيما بينهم أن يبنوا له حائطاً من حجارة ويملأوه حطباً ويضرموه ، ثم يلقوه فيه ، والجحيم النار الشديد الاتقاد. قال الزجاج: وكل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم ، والألف واللام في جحيم عوض عن المضاف إليه أي في جحيم ذلك البنيان ، ثم لما ألقوه فيها نجاه الله منها وجعلها عليه برداً وسلاماً وهو معنى قوله : ﴿ فأرادوا به كيداً ﴾ مكراً وحيلة أي احتالوا لإهلاكه .

﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ أي المقهورين المغلوبين بإبطال كيدهم وجعله

برهاناً نيراً على علو شأنه ، لأنها قامت له بذلك عليهم الحجة التي لا يقدرون على دفعها ولا يمكنهم جحدها ، فإن النار الشديدة الاتقاد ، العظيمة الاضطرام ، المتراكمة الجمار ، إذا صارت بعد إلقائه فيها برداً وسلاماً ولم تؤثر فيه أقل تأثير كان ذلك من الحجة بمكان يفهمه كل من له عقل . وصار المنكر له سافلاً ساقط الحجة ، ظاهر التعصب ، واضح التعسف ، وسبحان من يجعل المحن لمن يدعو إلى دينه منحاً ، ويسوق إليهم الخير بما هو من صور الضير .

﴿ و ﴾ لما انقضت هذه الواقعة وأسفر الصبح لذي عينين ، وظهرت حجة الله لإبراهيم ، وقامت براهين نبوته وسطعت أنوار معجزته .

﴿ قال : إني ذاهب إلى ربي ﴾ أي مهاجر من مولدي وبلد قومي الذين فعلوا ما فعلوا تعصباً للأصنام وكفراً بالله وتكذيباً لرسله إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه أو إلى حيث أتمكن من عبادته ، وهذه الآية أصل في الهجرة والعزلة وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام وذلك حين خلصه الله من النار .

﴿سيهدين﴾ فيما نويت إلى المكان الذي أمرني بالذهاب إليه أو إلى مقصدي ، وقيل : ذاهب بعملي وعبادتي وقلبي ونيتي ، فعلى هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن والأول أظهر ، قيل : إن الله سبحانه أمره بالمصير إلى الشام وقد سبق بيان هذا في سورة الكهف مستوفى قال ابن عباس : قال هذا حين هاجر قال مقاتل فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد فقال:

﴿ رب هب لي﴾ ولداً صالحاً ﴿ من الصالحين ﴾ يعينني على طاعتك ويؤنسني في الغربة . هكذا قال المفسرون ، وعللوا ذلك بأن الهبة قد غلب معناها في الولد ، فتحمل عند الإطلاق عليه ، وإذا وردت مقيدة حملت على ما قيدت به ، كما في قوله:﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ وعلى فرض أنها لم تغلب في طلب الولد فقوله :

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾

﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ يدل على أنه ما أراد بقوله : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ إلا الولد ، والمعنى: بشرناه به على لسان الملائكة الذين جاؤوا له في صورة الأضياف ، ثم انتقلوا من قريته إلى قرية لوط كما تقدم في هود ، ويأتي في الذاريات ، ومعنى حليم أن يكون حليماً عند كبره فكأنه بشر ببقاء ذلك الغلام حتى يكبر ويصير حليماً لأن الصغير لا يوصف بالحلم ، قال الزجاج : هذه البشارة تدل على أنه مبشر بابن ذكر وأنه يبقى حتى ينتهي في السن ويوصف بالحلم .

﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ في الكلام حذف كما تشعر به هذه الفاء الفصيحة النقد فوهبنا له الغلام فنشأ حتى صار إلى السن التي يسعى فيها مع أبيه في أمور دنياه معيناً له على أعماله. قال مجاهد: أي لما شب وأدرك سعيه سعي إبراهيم ، قال ابن عباس : شب حتى بلغ سعيه سعي أبيه في العمل ، وقال مقاتل: لما مشى معه ، قال الفراء: كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة ، وقال الحسن: هو سعي العقل الذي تقوم به الحجة ، وقال ابن زيد: هو السعي في العبادة ، وقيل: هو الاحتلام .

﴿ قال ﴾ إبراهيم لابنه لما بلغ ذلك المبلغ : ﴿ يا بني ﴾ بفتح الياء وكسرها سبعيتان ﴿ إني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ أي أفعل الذبح ، أو أومر به فهما احتمالان ويشير للثاني قوله : افعل ما تؤمر ، ويشير للأول : قد صدقت الرؤيا ، والمعنى إني رأيت في المنام هذه الرؤيا .

قال مقاتل : رأى إبراهيم ذلك ثلاث ليال متتابعات ، قال قتادة : رؤيا الأنبياء حق إذا رأوا شيئاً فعلوه وقد اختلف أهل العلم في الذبيح هل هو إسحق أو إسماعيل عليهما السلام ، قال القرطبي : فقال أكثرهم : الذبيح إسحق وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب ، وابنه عبد الله وهو الصحيح عن ابن مسعود ورواه أيضاً عن جابر وعلي وابن عمر وعمر بن الخطاب قال : فهؤلاء سبعة من الصحابة. قال : ومن التابعين وغيرهم علقمة والشعبي ومجاهد وسعيد بن جبير وكعب الأحبار ، وقتادة ومسروق وعكرمة والقاسم بن أبي برزة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط والزهري والسدي وعبد الله بن أبي الهذيل ومالك بن أنس كلهم قالوا : الذبيح إسحق ، وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى ، واختاره غير واحد منهم النحاس وابن جرير الطبري وغيرهما .

قال: وقال آخرون هو إسماعيل وممن قال بذلك أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة ، وروي ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضاً كما سيجيء ومن التابعين سعيد بن المسيب والشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وعلقمة .

وعن الأصمعي قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعي أين عزب عنك عقلك ومتى كان إسحق بمكة ، وإنما كان إسماعيل بمكة ، قال ابن كثير في تفسيره : وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحق وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى يقال: عن بعض الصحابة وليس في ذلك كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أخبار أهل الكتاب ، وأخذ مسلماً من غير حجة ، وكتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح ، وقال بعد ذلك ﴿ وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ﴾ انتهى .

واحتج القائلون بأنه إسحق بأن الله عز وجل قد أخبرهم عن إبراهيم حين فارق قومه وهاجر إلى الشام مع امرأته سارة وابن أخيه لوط فقال : ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ أنه دعا فقال : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ وقال تعالى: ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ ولأن الله قال : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ فذكر أنه في الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم ، وإنما بشر بإسحق لأنه قال: وبشرناه بإسحق وقال هنا : بغلام حليم ، وذلك قبل أن يعرف هاجر ، وقبل أن يصير له إسماعيل ، وليس في القرآن أنه بشر بولد إلا إسحق ، قال الزجاج: الله أعلم أيهما الذبيح انتهى ، وهذا مذهب ثالث وهو الوقف عن الجزم بأحد القولين وتفويض علم ذلك إلى الله تعالى ، وما استدل به الفريقان يمكن الجواب عنه ، والمناقشة له .

ومن جملة ما احتج به القائلون بأنه إسماعيل أن الله وصفه بالصبر دون إسحاق ، كما في قوله: ﴿ واسماعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ وهو صبره على الذبح ووصفه بصدق الوعد في قوله: ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به ، ولأن الله سبحانه قال: ﴿ وبشرناه بإسحق نبياً ﴾ فكيف يأمره بذبحه ، وقد وعده أن يكون نبياً ، وأيضاً فإن الله قال: ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ فكيف يؤمر بذبح إسحق قبل إنجاز الوعد في يعقوب . وأيضاً ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة فدل على أن الذبيح إسماعيل .

ولو كان إسحق لكان الذبح واقعاً ببيت المقدس وكل هذا إيضاً يحتمل المناقشة والمسألة ليست من العقائد التي كلفنا بمعرفتها فلا نسأل عنها في القيامة فهي مما لا ينفع علمه ، ولا يضر جهله . وزعم ابن عباس أن الذبيح إسماعيل، وعنه قال: المفدي إسماعيل وهو الأظهر ، وعنه قال : فدي إسماعيل بكبشين أملحين أقرنين أعينين ، وعن ابن عمر قال: «إسماعيل ذبح عنه

إبراهيم الكبش » .

وعن الفرزدق الشاعر قال: « رأيت أبا هريرة يخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول: إن الذي أمر بذبحه إسماعيل » ، وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال نبي الله داود يا رب أسمع الناس يقولون رب إبراهيم وإسحق ويعقوب فاجعلني رابعاً ، قال: إن ابراهيم ألقي في النار فصبر من أجلي ، وإن إسحق جاد لي بنفسه ، وإن يعقوب غاب عنه يوسف ، وتلك بلية لم تنلك » .

أخرجه البزار وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه وفي إسناده الحسن بن دينار البصري وهو متروك . .

عن علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، وأخرج الديلمي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه ، وعن ابن مسعود قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذبيح إسحق »[1] أخرجه الدارقطني في الأفراد والديلمي .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً مثله ، وعن ابن مسعود قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم « من أكرم الناس ؟ قال يوسف بن يعقوب بن إسحق ذبيح الله » ، أخرجه الطبراني وابن مردويه .

وعن ابن مسعود موقوفاً مثله وعن العباس مثله أخرجه البخاري في تاريخه وغيره في غيره ، وعن علي قال كبش أعين أبيض أقرن قد ربط بسمرة في أصل ثبير ، وعن ابن عباس قال فدي إسماعيل بكبشين أملحين أقرنين أعينين .

وبما سقناه من الاختلاف في الذبيح هل هو إسحق أو إسماعيل ؟ وما استدل به المختلفون في ذلك تعلم أنه لم يكن في المقام ما يوجب القطع أو يتعين رجحانه تعيناً ظاهراً وقد رجح كل قول طائفة من المحققين المنصفين

(١) وانظر ما كتبه ابن الجوزي في زاد المسير ص ٧٢/٧ .

كابن جرير فإنه رجح أنه إسحق ، ولكنه لم يستدل على ذلك إلا ببعض ما سقناه ههنا وكابن كثير فإنه رجح أنه إسماعيل وجعل الأدلة على ذلك أقوى وأصح وليس الأمر كما ذكره فإنها إن لم تكن دون أدلة القائلين بأن الذبيح إسحق لم تكن فوقها ولا أرجح منها ، ولم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك شيء ، وما روي عنه فهو إما موضوع أو ضعيف جداً ولم يبق إلا مجرد استنباطات من القرآن كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق ، وهي محتملة ولا تقوم حجة بمحتمل ، فالوقف هو الذي لا ينبغي مجاوزته ، وفيه السلامة من الترجيح بلا مرجح ومن الاستدلال بالمحتمل .

﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ قرىء: بضم التاء الفوقية وكسر الراء والمفعولان محذوفان أي انظر ماذا تريني إياه من صبرك واحتمالك ، وقرىء: بفتح التاء والراء من الرأي ، وهو مضارع رأيت وقرىء ترى بضم التاء وفتح الراء مبنياً للمفعول ، أي ماذا يخيل إليك ويسنح لخاطرك ؟ قال الفراء: في بيان معنى القراءة : الأولى انظر ماذا ترى من صبرك وجزعك .

وقال الزجاج : لم يقل هذا أحد غيره وإنما قال العلماء : ماذا تشير أي ما تريك نفسك من الرأي ؟ وقال أبو عبيد : إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة ، وكذا قال أبو حاتم ، وغلطهما النحاس . وقال : هذا يكون من رؤية العين وغيرها ، ومعنى القراءة الثانية ظاهر واضح وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله وإلا فرؤيا الأنبياء وحي وامتثالها لازم لهم متحتم عليهم .

﴿ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ به مما أوحي إليك من ذبحي و(ما) موصولة . وقيل : مصدرية على معنى افعل أمرك ، والمصدر مضاف إلى المفعول وتسمية المأمور به أمراً والأول أولى ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ على ما ابتلاني به من الذبح ، والتعليق بمشيئة الله سبحانه تبرك بها منه .

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦)﴾

﴿ فلما أسلما ﴾ أي استسلما لأمر الله وأطاعاه ، وانقادا له وخضعا ، قرأ الجمهور:أسلما ، وقرأ علي وابن مسعود وابن عباس:فلما سلما أي فوضا أمرهما إلى أمر الله ، وروي عن ابن عباس أنه قرأ:استسلما ، قال قتادة: أسلم أحدهما نفسه لله ، وأسلم الآخر ابنه ، يقال: سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد ، وقد اختلف في جواب(لما) ماذا هو ؟ فقيل محذوف تقديره : ظهر صبرهما أو أجزلنا لهما أجرهما ، أو فديناه بكبش ، هكذا قال البصريون ، وقال الكوفيون : الجواب هو ناديناه ، والواو زائدة مقحمة ، واعترض عليهم النحاس بأن الواو من حروف المعاني ولا يجوز أن تزاد ، وقال الأخفش : الجواب وتله للجبين والواو زائدة ، وروي هذا أيضاً عن الكوفيين ، ويرد عليه اعتراض النحاس كما ورد على الأول .

﴿ وتله للجبين ﴾ أي صرعه وأسقطه على شقه ، وقيل : هو الرمي بقوة وأصله من رماه على التل ، وهو المكان المرتفع ، أو من التليل وهو العنق ، أي رماه على عنقه ، ثم قيل :لكل إسقاط وإن لم يكن على تل ولا على عنق ، وفي القاموس:تله تلا من باب قتل فهو متلول وتليل صرعه وألقاه على عنقه وخده ، يقال : تللت الرجل إذا ألقيته ، والتل الصرع والدفع ، والمراد أنه أضجعه على جبينه على الأرض ، والجبين ما انكشف من الجبهة قاله السمين .

وفي المصباح : الجبين ناحية الجبهة من محاذاة النزعة إلى الصدغ ، وهما جبينان عن يمين الجهة وشمالها ، قاله الأزهري وابن فارس وغيرهما فتكون الجبهة بين جبينين ، وجمعه جبن بضمتين مثل بريد وبرد ، وأجبنة مثل أسلمة، وقيل: المعنى كبه على وجهه كيلا يرى منه ما يؤثر الرقة لقلبه ، واختلف في

الموضع الذي أراد ذبحه فيه فقيل: هو مكة في المقام ، وقيل في المنحر بمنى عند الجمار ، وقيل : على الصخرة التي بأصل جبل ثبير ، وقيل بالشام .

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ أي عزمت على الإتيان بما رأيته ، قال المفسرون: لما أضجعه للذبح نودي من الجبل يا إبراهيم الخ وجعله مصدقاً بمجرد العزم ، وإن لم يذبحه لأنه قد أتى بما أمكنه ، والمطلوب استسلامهما لأمر الله ، وقد فعلا. قال القرطبي: قال أهل السنة: إن نفس الذبح لم يقع ولو وقع لم يتصور رفعه ، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل ، لأنه لو حصل الفراغ من امتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفداء ، قال: ومعنى صدقت الرؤيا فعلت ما أمكنك ، ثم امتنعت لما منعناك ، هذا أصح ما قيل في هذا الباب ، وقالت طائفة: ليس هذا مما ينسخ بوجه لأن معنى ذبحت الشيء قطعته ، وقد كان إبراهيم يأخذ السكين فيمر بها على حلقه فتنقلب كما قال مجاهد .

وقال بعضهم: كان كلما قطع جزءاً التأم وقالت طائفة منهم السدي: ضرب الله على عنقه صفحة نحاس فجعل إبراهيم يحز ولا يقطع شيئاً وهذا كله جائز في القدرة الإلهية ، لكنه يفتقر إلى نقل صحيح فإنه أمر لا يدرك بالنظر وإنما طريقه الخبر ، ولو كان قد جرى ذلك لبينه الله تعظيماً لرتبة اسماعيل وإبراهيم وكان أولى بالبيان من الفداء .

وقال بعضهم: إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيقي الذي هو فري الأوداج وإنهار الدم ، وإنما رأى أنه أضجعه للذبح فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقي فلما أتى بما أمر به من الاضجاع قيل له: قد صدقت الرؤيا وهذا كله خارج عن المفهوم . ولا يظن بالخليل والذبيح أن يفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة ، حتى يكون منهما التوهم ، وأيضاً لو صحت هذه الأشياء لما احتيج الى الفداء .

أخرج الطبراني عن ابن عباس قال : « لما أراد إبراهيم أن يذبح إسحق

قال لأبيه : إذا ذبحتني فاعتزل لا أضطرب فينتضخ عليك دمي ، فشده فلما أخذ الشفرة وأراد أن يذبحه نودي من خلفه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا » ، واخرج أحمد عنه مرفوعاً مثله مع زيادة ، وأخرجه عنه موقوفاً .

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه من طريق مجاهد عنه قال : « فلما أسلما سلما ما أمرا به وتله وضع وجهه إلى الأرض فقال: لا تذبحني وأنت تنظر ، عسى أن ترحمني فلا تجهز علي ، وأن أجزع فأنكص فأمتنع منك ، ولكن اربط يدي إلى رقبتي ثم ضع وجهي إلى الأرض فلما أدخل يده ليذبحه فلم تحل المدية حتى نودي أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فأمسك يده .

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « رؤيا الأنبياء وحي»، أخرجه ابن أبي حاتم وأخرجه البخاري وغيره من قول عبيد بن عمير ، واستدل بهذه الآية .[1]

﴿إنا كذلك﴾ أي كما جزيناك ﴿ نجزي المحسنين ﴾ أي نجزيهم بامتثال الأمر بالخلاص من الشدائد والسلامة من المحن . فالجملة كالتعليل لما قبلها قال مقاتل: جزاه الله سبحانه بإحسانه في طاعته العفو عن ذبح ابنه .

﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ الابتلاء والبلاء الاختبار والمعنى إن هذا هو الاختبار الظاهر حيث اختبره الله في طاعته بذبح ابنه وقيل: إن هذا لهو النعمة الظاهرة حيث سلم الله ولده من الذبح وفداه بالكبش. يقال: أبلاه الله إبلاء وبلاء إذا أنعم عليه والأول أولى وإن كان الابتلاء يستعمل في الاختبار بالخير والشر ومنه: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ ولكن المناسب للمقام المعنى الأول قال أبو زيد : هذا في البلاء الذي نزل به في أن يذبح ولده ، قال: وهذا من البلاء المكروه .

---

(١) زاد المسير ٧/٧٣ .

وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾

﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ الذبح اسم المذبوح ، وجمعه ذبوح كالطحن اسم للمطحون ، وبالفتح المصدر ، ومعنى عظيم عظيم القدر ، ولم يرد عظيم الجثة وإنما عظم قدره لأنه فدى به الذبيح أو لأنه متقبل ، قال النحاس : العظيم في اللغة يكون للكبير وللشريف ، وأهل التفسير على أنه ههنا للشريف ، أي المتقبل ، قال الواحدي : قال أكثر المفسرين ومنهم ابن عباس: « أنزل عليه كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً » ، وقال الحسن ما فدي إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه ، قال الزجاج: قد قيل إنه فدي بوعل والوعل التيس الجبلي ، ومعنى الآية جعلنا الذبح فداء له وخلصناه به من الذبح ، قال ابن عباس : بكبش عظيم متقبل ، قيل: قد بقي قرناه معلقين على الكعبة إلى أن احترق البيت في زمن ابن الزبير ، قال الشعبي :رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة .

وقال ابن عباس : والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد يبس. انتهى . ومن المعلوم المقرر أن كل ما هو من الجنة لا تؤثر فيه النار فلم يطبخ لحم الكبش بل أكلته السباع والطيور تأمل .

قال أبو السعود : لما ذبحه السيد إبراهيم قال جبريل : الله أكبر الله أكبر الله أكبر فقال الذبيح : لا اله إلا الله والله أكبر ، فقال إبراهيم :الله أكبر ولله الحمد ، فبقي هذا سنة انتهى . عن ابن عباس:«أن رجلاً قال : نذرت لأذبح نفسي فقال ابن عباس : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ ثم

تلا : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ فأمره بكبش فذبحه » وقد استشهد أبو حنيفة بهذه الآية فيمن نذر بذبح ولده أنه يلزمه ذبح شاة .

﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي في الأمم الآخرة التي تأتي بعده ولا وقف عليه لأن قوله : ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ مفعول وتركنا ، والسلام الثناء الجميل وقال عكرمة : سلام منا ، وقيل : سلامة من الآفات ، والكلام في هذا كالكلام في قوله : سلام على نوح في العالمين وقد تقدم في هذه السورة بيان معناه .

﴿ كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من انقاد لأمر الله ، ولم يقل : إنا كذلك هنا ، كما في غيره لأنه قد سبق في هذه القصة فاستخف بتركه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ أي الذين أعطوا العبودية حقها ورسخوا في الإيمان بالله وتوحيده .

﴿ وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ﴾ أي بشرنا إبراهيم بولد يولد له ويصير نبياً بعد أن يبلغ السن التي يتأهل فيها لذلك ، ونبياً منصوب على الحال ، وهي حال مقدرة . وقال ابن عباس : إنما بشر نبياً حين فداه الله من الذبح ، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده .

قال الزجاج : إن كان الذبيح إسحق فيظهر كونها مقدرة والأولى أن يقال : إن من فسر الذبيح بإسحق جعل البشارة هنا خاصة بنبوته . وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه ، ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة ، فإن وجود ذي الحال ليس بشرط وإنما الشرط المقارنة للفعل وقوله : ﴿ من الصالحين ﴾ كما يجوز أن يكون صفة (لنبياً) يجوز أن يكون حالاً من الضمير المستتر فيه فتكون أحوالاً متداخلة .

﴿ وباركنا عليه ﴾ أي على إبراهيم ﴿ وعلى إسحق ﴾ بمرادفة نعم الله عليهما وقيل : كثرنا أولادهما وقيل : إن الضمير في عليه يعود إلى اسماعيل وهو بعيد . وقيل : المراد بالمباركة هنا هي الثناء الحسن عليهما إلى يوم القيامة . وقيل : أخرجنا من صلبه ألف نبي أولهم يعقوب وآخرهم عيسى .

﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ أي محسن في عمله بالإيمان والتوحيد ، وظالم لها بالكفر والمعاصي ، لما ذكر الله سبحانه البركة في الذرية بين أن كون الذرية من هذا العنصر الشريف والمحتد المبارك ، ليس بنافع لهم ولا يجري أمر الخبث والطيب على العرق والعنصر .

فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر ، وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر ، بل انما ينتفعون بأعمالهم لا بآبائهم فإن اليهود والنصارى وإن كانوا من ولد إسحق فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال المبين ، وإن العرب وإن كانوا من ولد إسماعيل فقد ماتوا على الشرك إلا من أنقذه الله بالإسلام ، وفيه تنبيه على أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة ، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاقب على ما اجترحت يداه لا على ما وجد من أصله وفرعه، ولما فرغ سبحانه من ذكر إنجاء الذبيح من الذبح وما منّ عليه بعد ذلك من النبوة ذكر ما منّ به على موسى وهرون فقال:

﴿ ولقد مننّا على موسى وهرون ﴾ يعني بالنبوة وغيرها من النعم العظيمة التي أنعم الله بها عليهما ﴿ ونجيناهما وقومهما ﴾ المراد بقومهما هم المؤمنون من بني إسرائيل ﴿ من الكرب العظيم ﴾ هو ما كانوا فيه من استعباد فرعون اياهم ، وما كان يصيبهم من جهته من البلاء ، وقيل : هو الغرق الذي أهلك فرعون وقومه ، والأول أولى .

﴿ ونصرناهم ﴾ جاء بضمير الجمع . قال الفراء: الضمير لموسى وهرون وقومهما لأن قبله: ﴿ونجيناهما وقومهما ﴾ وقيل : الضمير عائد على الاثنين موسى وهارون تعظيماً لهما . والأول أولى ﴿ فكانوا ﴾ بسبب نصرنا وتأييدنا ﴿ هم الغالبين ﴾ على عدوهم من القبط بعد أن كانوا تحت أسرهم وقهرهم وهم تأكيد أو بدل أو فصل وهو الأظهر .

﴿ وآتيناهما الكتاب ﴾ أي التوراة ﴿ المستبين ﴾ البين الظاهر فيما أتى به من الحدود . والأحكام . يقال: استبان كذا أي صار بيناً .

وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾

﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ أي القيم الذي لا اعوجاج فيه وهو دين الإسلام فإنه الطريق الموصلة إلى الحق والصواب عقلاً وسمعاً أو إلى المطلوب وهو الجنة ﴿ وتركنا عليهما في الآخرين سلام ﴾ منا ﴿ على موسى وهرون ﴾ أي أبقينا عليهما في الأمم المتأخرة الثناء الجميل وقد قدمنا الكلام في السلام وكذلك تقدم في هذه السورة تفسير قوله ﴿ إنا كذلك ﴾ أي كما جزيناهما ﴿ نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ تعليل لإحسانهما بالإيمان وإظهار لجلالة قدره وأصالة أمره .

﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ﴾ قال المفسرون هو نبي من أنبياء بني إسرائيل وقصته مشهورة مع قومه ، قيل : وهو إلياس بن ياسين من سبط هرون أخي موسى ، قال ابن إسحق وغيره : كان إلياس هو القيم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع ، وقال قتادة : هو إدريس ، وقيل: هو ابن عم اليسع والأول أولى .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الخضر هو الياس »[1]

---

(١) ضعيف الجامع ٢٩٤٠ .

أخرجه ابن مردويه ، قرىء: إلياس بهمزة مكسورة مقطوعة ويـوصلها وهما سبعيتان وتوجيههما أنه اسم أعجمي تلاعبت به العرب فقطعوا همزته تارة ووصلوها أخرى . وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب : وإن إدريس لمن المرسلين ، وقرىء:إبليس وقالوا فيه : إلياسين كإسرافيل قيل: في الإلياس والخضر : إنهما حيان وقيل : إلياس وكّل بالفيافي كما وكّل الخضر بالبحار ، قال السيوطي في الاتقان قال وهب : إن إلياس عمر كما عمر الخضر وأنه يبقى إلى آخر الدنيا أ هـ .

وقال الحسن البصري: قد هلكا ولا نقول كما يقول الناس إنهما حيان وهو الراجح نظراً في الأدلة والله أعلم ، وعلمه أتم وأحكم .

ثم اختلف في كون الخضر نبياً مرسلاً أو نبياً فقط أو هو من الأولياء ، وأما إلياس فهو نبي مرسل باتفاق ، وذكر الثعلبي أنه كان إلياس على صفة موسى في الغضب والقوة ، نشأ نشأة حسنة يعبد الله ، جعله الله نبياً رسولاً وآتاه آيات وسخر له الجبال والأسود وغيرهما ، وتوهم قوم أن اليسع هو إلياس وليس كذلك لأن الله تعالى أفرد كل واحد بالذكر وقال وهب:اليسع صاحب إلياس وكانا قبل زكريا ويحيى وعيسى وقيل: إلياس هو إدريس وهذا غير صحيح لأن إدريس جد نوح وإلياس من ذريته ، وقيل: إلياس هو الخضر وقيل:لا بل الخضر هو اليسع .

﴿ إذ ﴾ ظرف لقوله لمن المرسلين أو متعلق بمحذوف أي :اذكر يا محمد إذ ﴿ قال لقومه ألا تتقون ﴾ عذاب الله ، ثم أنكر عليهم بقوله : ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ هو اسم لصنم كانوا يعبدونه أي: أتعبدون صنماً وتطلبون الخير منه ؟ قال ثعلب:اختلف الناس في قوله سبحانه (بعلاً) فقالت طائفة :البعل هنا الصنم وكان الشيطان يدخل في جوفه ويتكلم بالضلال والخدمة يحفظونه ويعلمونه الناس ، وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه فاعتنوا به وعظموه حتى أخدموه بأربعمائة خادم ، وجعلوهم أبناءه .

وقالت طائفة:البعل هناك ملك ، وقال اسحق امرأة كانوا يعبدونها ، قال الواحدي والمفسرون يقولون: رباً وهو بلغة اليمن يقولون للسيد والرب البعل قال النحاس:القولان صحيحان أي أتدعون صنماً عملتموه رباً.وكان موضعه يقال له :بك فركب وصار:بعلبك وهو من بلاد الشام .

﴿ وتذرون أحسن الخالقين ﴾ أي تتركون عبادة أحسن من يقال له : خالق بأي معنى كان كما قاله الآمدي،وانتصاب الاسم الشريف في قوله : ﴿ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ على أنه بدل من أحسن هذا على قراءة حمزة والكسائي والربيع بن خيثم وابن أبي إسحق وغيرهم منهم قرأوا بنصب الثلاثة الأسماء ، وقيل: النصب على المدح . وقيل : على عطف البيان ، وحكى أبو عبيد:أن النصب على النعت.قال النحاس : وهو غلط ، وإنما هو بدل ولا يجوز النعت لأنه ليس بتحلية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وغيرهما بالرفع . قال أبو حاتم:بمعنى هو الله ربكم ، قال النحاس وأولى ما قيل أنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف ، وحكي عن الأخفش: أن الرفع أولى وأحسن.قال ابن الأنباري:من رفع او نصب لم يقف على أحسن الخالقين على جهة التمام لأن الله مترجم عن أحسن الخالقين على الوجهين جميعاً ، والمعنى أنه خالقكم وخالق من قبلكم فهو الذي تحق له العبادة .

﴿ فكذبوه فإنهم ﴾ بسبب تكذيبه ﴿ لمحضرون ﴾ في العذاب أو في النار ، وقد تقدم أن الإحضار المطلق مخصوص بالشر ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي من كان مؤمناً به من قومه ، قرىء بكسر اللام وفتحها كما تقدم ، والمعنى:على الكسر أنهم أخلصوا لله وعلى الفتح أن الله استخلصهم من عباده ، والاستثناء متصل ، وفيه دلالة على أن في قومه من لم يكذبه فلذلك استثنوا ، وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على آل ياسين ﴾ قرأ نافع وابن عامر:بإضافة آل بمعنى آل ياسين ، وقرأ الباقون

بكسر الهمزة وسكون اللام موصولة بياسين إلا الحسن فإنه قرأ: الياسين بإدخال آلة التعريف على ياسين ، قيل : المراد على هذه القراءة كلها الياس ، وعليه وقع التسليم ، ولكنه اسم أعجمي ، والعرب تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية ويكثر تغييرهم لها .

قال ابن جني: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً ؛ فياسين وإلياس وإلياسين شيء واحد ، قال الأخفش : العرب تسمي قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم ، فيقولون المهالبة على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلب ، قال : فعلى هذا أنه سمي كل رجل منهم بالياسين . قال الفراء : نذهب بالياسين إلى أن نجعله جمعاً فنجعل أصحابه داخلين معه في اسمه ، قال أبو علي الفارسي : تقديره الياسيين إلا أن اليائين للنسبة حذفتا كما حذفتا في الأشعرين والأعجمين ورجح الفراء وأبو عبيدة قراءة الجمهور ، قالا: لأنه لم يقل في شيء من السور على آل فلان ، إنما جاء بالاسم كذلك الياسين ، لأنه إنما هو بمعنى الياس أو بمعنى الياس وأتباعه .

وقال الكلبي : المراد بآل ياسين آل محمد صلى الله عليه وسلم ، قال الواحدي : وهذا بعيد لأن ما بعده من الكلام وما قبله لا يدل عليه ، قال ابن عباس : نحن آل محمد آل ياسين . وقيل : آل القرآن لأن ياسين من أسماء القرآن ، وفيه بعد بعيد .

وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي كما جزيناه ببقاء سيرته الحسنة في الآخرين وتقدم أيضاً تفسير قوله : ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ مستوفى .

﴿ وإن لوطاً لمن المرسلين ﴾ قد تقدم ذكر قصة لوط عليه السلام مستوفى ﴿ إذ نجيناه وأهله أجمعين ﴾ الظرف متعلق بمحذوف هو اذكر ، ولا يصح تعلقه بالمرسلين لأنه لم يرسل وقت تنجيته .

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿ إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ قد تقدم أن الغابر يكون بمعنى الماضي ويكون بمعنى الباقي . فالمعنى: إلا عجوزاً في الباقين في العذاب أو الماضين الذين قد هلكوا ﴿ ثم دمرنا الآخرين ﴾ أي أهلكناهم بالعقوبة والمعنى :أن في نجاته وأهله جميعاً إلا العجوز وتدمير الباقين من قومه الذين لم يؤمنوا به دلالة بينة على ثبوت كونه من المرسلين .

﴿ وإنكم لتمرون عليهم ﴾ خاطب بهذا العرب أو كفار مكة على الخصوص أي تمرون على منازلهم التي فيها آثار العذاب ﴿ مصبحين ﴾ أي داخلين في وقت الصباح وهو من أصبح التامة ﴿ وبالليل ﴾ المعنى تمرون على منازلهم في ذهابكم إلى الشام ورجوعكم منه نهاراً وليلاً ، والوقف عليه مطلق والباء للملابسة .

﴿ أفلا تعقلون ؟ ﴾ ما تشاهدونه في ديارهم من آثار عقوبة الله النازلة بهم ، فإن في ذلك عبرة للمعتبرين وموعظة للمتدبرين . وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام كما ختم قصة من قبلهما لأن الله تعالى قد سلم على جميع المرسلين في آخر السورة فاكتفى بذلك عن ذكر كل واحد منفرداً بالسلام .

﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ يونس هو ذو النون وهو ابن متى ، قال

المفسرون : وكان يونس قد وعد قومه العذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج عنهم وقصد البحر وركب السفينة ، فكان بذهابه إلى البحر كالفار من مولاه فوصف بالإباق وهو معنى قوله : ﴿ إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ أي المملوء وأصل الإباق الهرب من السيد ، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه وصف به فهو استعارة تصريحية أو مجاز مرسل من استعمال المقيد في المطلق وقال المبـــرد: تأويل ابق تباعد أي ذهب إليه . ومن ذلك قولهم عبد أبق . وقد اختلف أهل الـعلم:هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إياه أو بعده ؟ .

﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ المساهمة:أصلها المغالبة وهي الاقتراع ، وهو أن يخرج السهم على من غلب ، قال المبرد : أي فقارع أهل السفينة ، قال: وأصله من السهام التي تجال ، والمعنى: فصار من المغلوبين. قال : يقال دحضت حجته وأدحضها الله وأصله من الزلق عن مقام الظفر ، قال ابن عباس اقترع فكان من المقروعين .

وعنه قال بعث الله يونس إلى أهل قريته فردوا عليه ما جاءهم بـه فامتنعوا منه ، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه أني مرسل إليهم العذاب في يوم كذا وكذا فاخرج من بين أظهرهم فأعلم قومه الذي وعد الله من عذابه إياهم فقالوا : ارمقوه فإن خرج من بين أظهركم فهو والله كائن ما وعدكم ، فلما كانت الليلة التي وعدوا بالعذاب في صبيحتها أدلج فرآه القوم فحذروا فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم وفرقوا بين كل دابة وولدها ثم عجوا إلى الله وأنابوا واستقالوا فأقالهم الله وانتظر يونس الخبر عن القرية وأهلها حتى مر به مار ، فقال : ما فعل أهل القرية ؟ قال : إن نبيهم لما خرج من بين أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب فخرجوا من القرية إلى براز من الأرض ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها ، ثم عجوا إلى الله وتابوا فتقبل منهم ، وأخر عنهم العذاب ، فقال يونس عند ذلك: لا أرجع إليهم كذاباً

ابداً ، ومضى على وجهه. أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم .

ومعنى هذه المساهمة أن يونس لما ركب السفينة احتبست. فقال الملاحون

ههنا عبد أبق من سيده وهذا رسم السفينة إذا كان فيه آبق لا تجري ، فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس. فقال : أنا الآبق وزج نفسه في الماء وقد قدمنا الكلام على قصته وما روي فيها في سورة يونس فلا نكرره .

﴿ فالتقمه الحوت ﴾ يقال: لقمت اللقمة والتقمتها إذا ابتلعتها أي فابتلعه الحوت ومعنى ﴿ وهو مليم ﴾ هو مستحق للوم ، يقال رجل مليم إذا أتى بما يلام عليه . وأما الملـوم فهو الذي يلام سواء أتى بما يستحق أن يلام عليه أم لا ، وقيل: المليم المعيب يقال : ألام الرجل إذا عمل شيئاً صار به معيباً ، وقيل: داخل في الملامة ، وقال ابن عباس: المليم المسيىء ، قال سعيد بن جبير لما استهموا جاء حوت إلى السفينة فاغراً فاه ينتظر أمر ربه حتى إذا ألقى نفسه في الماء أخذه الحوت .

﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ أي الذاكرين لله أو المصلين له أو من القائلين ﴿ لا إلَه إلا أنت ﴾ الآية ، وقيل: من العابدين ، وقال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة ، وقال الحسن: ما كانت له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملاً صالحاً فشكر الله تعالى له طاعته القديمة .

﴿ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ أي لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم البعث وقيل للبث في بطنه حياً ، واختلف المفسرون كم أقام في بطن الحوت ؟ فقال السدي والكلبي ومقاتل بن سليمان: أربعين يوماً ، وقال الضحاك: عشرين يوماً ، وقال عطاء: سبعة أيام ، وقال مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام ، وقيـل: ساعة واحدة ؛ وقيـل: التقمة ضحى ولفظه عشية وفي هذه الآية ترغيب في ذكر الله وتنشيط للذاكرين له .

﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾

﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ النبذ الطرح ، والعراء قال ابن الاعرابي هو الصحراء وقال الأخفش: الفضاء وقلل أبو عبيدة: الواسع من الأرض ، وقال الفراء: المكان الخالي وروي عن أبي عبيدة أيضاً أنه قال: هو وجه الأرض ، وقيل: الأرض الخالية عن الشجر والنبات ، وقيل: بالساحل ، قاله ابن عباس ؛ والمعنى أن الله طرحه من بطن الحوت في الصحراء الواسعة التي لا نبات فيها ، أو أمرنا الحوت بنبذه وإنما أضاف النبذ إلى نفسه وإن كان الحوت هو النابذ لأن أعمال العباد مخلوقة لله .

﴿وهو﴾ عند إلقائه ﴿سقيم﴾ لما ناله في بطن الحوت من الضرر، قيل: صار بدنه كبدن الطفل حين يولد ، وقيل: كالفرخ الممعط أي المنتوف شعره وقيل كان قد بلي لحمه ورق عظمه ولم تبق له قوة ، وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ وقوله في موضع آخر ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبذ بالعراء ، وأجاب النحاس وغيره بأن الله سبحانه أخبر ههنا أنه نبذ بالعراء وهو غير مذموم ، ولولا رحمته عز وجل لنبذ بالعراء وهو مذموم .

﴿ وأنبتنا عليه شجرة ﴾ فوقه تظلل عليه ، وقيل: معنى عليه عنده ، وقيل:

معنى عليه له أي مظلة له ﴿ من يقطين ﴾ هو شجرة الدباء وقال المبرد:اليقطين يقال لكل شجرة ليس لها ساق ، بل يمتد على وجه الأرض نحو الدباء والبطيخ والحنظل ، فإن كان لها ساق تقلها فيقال لها شجرة فقط ، وهذا قول الحسن ومقاتل وغيرهما ، وقال سعيد بن جبير: هو كل شيء ينبت ثم يموت من عامه قال الجوهري: اليقطين ما لا ساق له من الشجر كشجر القرع ونحوه. قال الزجاج: اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان أي أقام به؛ فهو يفعيل. وقيل: هو اسم أعجمي.

قال المفسرون: كان يستظل بظلها من الشمس وقيض الله له أروية من الوحش تروح عليه بكرة وعشية فكان يشرب من لبنها حتى اشتد لحمه ونبت شعره ثم أرسله الله بعد ذلك ، قال ابن عباس: يقطين القرع . وعليه الجمهور وفائدته أن الذباب لا يجتمع عنده . وأنه أسرع الأشجار نباتاً وامتداداً وارتفاعاً .

قال ابن جزي: وخص الله القرع لأنه يجمع برد الظل ، ولين الملمس ، وكبر الورق ، وأن الذباب لا يقربه فإن جسد يونس حين ألقي لم يكن يتحمل الذباب ، وقيل : اليقطين شجرة التين ، وقيل: الموز ، وقال سعيد بن جبير : اليقطين كل شيء يذهب على وجه الأرض ، وعنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعدما نبذه الحوت وهو معنى قوله : ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ هم قومه الذين هرب منهم إلى البحر وجرى له ما جرى بعد هربه ، كما قصه الله علينا في هذه السورة : وهم أهل نينوى .

قال قتادة: أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل قبل أن يصيبه ما أصابه و﴿ أو ﴾ في قوله أو يزيدون ، قيل بمعنى الواو ، والمعنى ويزيدون ، وقال الفراء: أو ههنا بمعنى بل وهو قول مقاتل والكلبي وأبي عبيدة ، وقال المبرد والزجاج والأخفش: أو ههنا على أصله والمعنى أو يزيدون في تقديركم إذا رآهم الرائي ، قال هؤلاء: مائة ألف أو يزيدون ، فالشك إنما دخل على حكاية قول المخلوقين وقرأ جعفر بن محمد: ويزيدون بدون ألف الشك .

قال السمين الشك بالنسبة إلى المخاطبين ، والإبهام بالنسبة إلى أن الله أبهم أمرهم . والإباحة بالنسبة إلى الناظر ، وكذلك التخيير أي هو مخير بين أن يحزرهم كذا أو كذا .

وقد وقع الخلاف بين المفسرين هل هذا الإرسال هو الذي كان قبل التقام الحوت له وتكون الواو وأرسلناه لمجرد الجمع بين ما وقع له مع الحوت وبين إرساله إلى قومه من غير اعتبار تقديم ما تقدم في السياق ، وتأخير ما تأخر ، أو هو إرسال له بعدما وقع له من الحوت ما وقع ، على قولين وقد قدمنا الإشارة إلى الاختلاف بين أهل العلم: هل كان قد أرسل قبل أن يهرب من قومه إلى البحر ؟ أو لم يرسل إلا بعد ذلك ؟ .

والراجح أنه كان رسولاً قبل أن يذهب إلى البحر كما يدل عليه ما قدمنا في سورة يونس ، وبقي مستمراً على الرسالة .

وهذا الإرسال المذكور هنا هو بعد تقدم نبوته ورسالته. قال سعيد ابن جبير: انما كانت رسالة يونس بعدما نبذه الحوت ، ثم تلا: (فنبذناه بالعراء) الى قوله (إلى مائة ألف أو يزيدون)، وقد تقدم ما يدل على أن رسالته كانت من قبل ذلك ، وليس في الآية ما يدل على ما ذكره كما قدمنا .

وقيل: يجوز أن يكون إرساله إلى قوم آخرين غير القوم الأولين وفيه بعد وأخرج الترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي بن كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله هذا قال : « يزيدون عشرين ألفاً » قال الترمذي غريب .

وكذا روي عن الكلبي ومقاتل وعن ابن عباس قال: يزيدون ثلاثين ألفاً ، وروي عنه أنهم يزيدون بضعة وثلاثين ألفاً ، وكذا روي عن الحسن وروي عن ابن عباس: أنهم يزيدون بضعة وأربعين ألفاً وقال سعيد بن جبير : سبعين ألفاً ولا يتعلق بالخلاف في هذا كثير فائدة .

﴿ فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ أي وقع منهم الإيمان بعدما شاهدوا أعلام نبوته فمتعهم الله في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم ، ومنتهى أعمارهم . ولما كانت قريش وقبائل من العرب يزعمون أن الملائكة بنات الله أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم باستفتائهم على طريقة التقريع والتوبيخ فقال : ﴿ فاستفتهم ﴾ أي استخبرهم يا محمد .

﴿ ألربك البنات ولهم البنون ؟ ﴾ أي كيف يجعلون لله على تقدير صدق ما زعموه من الكذب أدنى الجنسين ؟ وأوضعهما وهو الإناث ولهم أعلاهما وأرفعهما وهم الذكور ، وهل هذا إلا حيف في القسمة لضعف عقولهم وسوء إدراكهم ؟ ومثله قوله : ﴿ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ ثم زاد في توبيخهم وتقريعهم فقال :

﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ﴾ فأضرب عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه في التبكيت والتهكم بهم ، أي كيف جعلوهم إناثاً وهم لم يحضروا عند خلقنا لهم ، وهذا كقوله : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ؟ ﴾ فبين سبحانه أن مثل ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة ، ولم يشهدوا ولا دل دليل على قولهم من السمع ، ولا هو مما يدرك بالعقل حتى ينسبوا إدراكه إلى عقولهم ثم أخبر سبحانه عن كذبهم فقال :

﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾ استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت الأمر بالاستفتاء مسوق لإبطال مذهبهم الفاسد ببيان أنه ليس مبناه إلا الإفك الصريح ، والافتراء القبيح من دون دليل ولا شبهة دليل ؛ فإنه لم يلد ولم يولد ، قرأ الجمهور:ولد الله فعلاً ماضياً مسنداً إلى الله وقرىء:بإضافة ولد إلى الله على أنه خبر مبتدأ محذوف ؛ أي يقولون:الملائكة ولد الله ، والولد بمعنى مفعول يستوي فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ، ثم كرر سبحانه تقريعهم وتوبيخهم فقال :

أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾

﴿ أصطفى البنات على البنين ؟ ﴾ قرأ الجمهور: بفتح الهمزة على أنها للاستفهام الإنكاري وقد حذف معها همزة الوصل استغناء بها عنها ، وقرىء بهمزة وصل تثبت ابتداء وتسقط درجاً ، ويكون الاستفهام منوياً قاله الفراء وحذف حرفه للعلم به من المقام ، أو على أن اصطفى وما بعده بدل من الجملة المحكية بالقول ، وعلى تقدير عدم الاستفهام والبدل فقد حكى جماعة من المحققين منهم الفراء أن التوبيخ يكون باستفهام وبغير استفهام كما في قوله : ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ وقيل : هو على إضمار القول والاصطفاء أخذ صفوة الشيء.

﴿ ما لكم كيف تحكمون ؟ ﴾ جملتان استفهاميتان ليس لإحداهما تعلق بالأخرى من حيث الإعراب استفهمهم أولاً عما استقر لهم ، وثبت استفهام إنكار ، وثانياً استفهام تعجب من هذا الحكم الذي حكموا به ، والمعنى أي شيء ثبت لكم كيف تحكمون لله بالبنات ؟ وهو القسم الذي تكرهونه ولكم بالبنين وهو القسم الذي تحبونه ﴿ أفلا تذكرون ؟ ﴾ أي تتذكرون والمعنى ألا تعتبرون وتتفكرون فتتذكرون بطلان قولكم .

﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾ أي حجة واضحة ظاهرة على هذا الذي تقولونه ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له من مسند حسي أو عقلي ، وحيث انتفى كلاهما فلا بد من مستند نقلي ، وهو إضراب عن توبيخ إلى توبيخ ،

وانتقال من تقريع إلى تقريع ﴿ فأتوا بكتابكم ﴾ أي فأتوا بحجتكم الواضحة على هذا أو فأتوا بالكتاب الذي ينطق لكم بالحجة ويشتمل عليها ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تقولونه .

﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ التفات للغيبة للإيذان بانقاطعهم عن درجة الخطاب ، واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ، وتحكى جناياتهم للآخرين قال أكثر المفسرين : إن المراد بالجنة هنا الملائكة ، قيل لهم : جنة لأنهم لا يرون ، وقال مجاهد : هم بطن من بطون الملائكة يقال لهم : الجنة ، وقال أبو مالك : إنما قيل لهم الجنة لأنهم خزان على الجنان ، والنسب الصهر قال قتادة والكلبي : قالوا لعنهم الله إن الله صاهر الجن . فكانت الملائكة من أولادهم قالا : والقائل بهذه المقالة اليهود ، وقال مجاهد والسدي ومقاتل : إن القائل بذلك كنانة وخزاعة ، قالوا : إن الله خطب إلى سادات الجن فزوجوه من سروات بناتهم فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن ، وقال الحسن : أشركوا الشيطان في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه . وقال ابن عباس : زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان ، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله :

﴿ ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴾ أي علموا أن هؤلاء الكفار الذين قالوا هذا القول يحضرون النار . ويعذبون فيها لكذبهم في قولهم ذلك ، والمراد به المبالغة في التكذيب ببيان أن الذين ادعى هؤلاء لهم تلك النسبة ، ويعلمون أنهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذبونهم في ذلك ، ويحكمون بأنهم معذبون لأجله حكماً مؤبداً وقيل : علمت الجنة أنهم أنفسهم يحضرون للحساب والأول أولى لأن الإحضار إذا أطلق فالمراد به العذاب ، وقيل : المعنى ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون إلى الجنة ، ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه الكريمة فقال :

﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ أو هو حكاية لتنزيه الملك لله عز وجل عما وصفه به المشركون ذكره العمادي ، وأشار له أبو السعود . والاستثناء في قوله ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ منقطع ، والتقدير : لكن عباد الله المخلصين بريئون

عن أن يصفوا الله بشيء من ذلك ، وقد قرىء: بفتح اللام وكسرها ومعناهما ما بيناه قريباً ، وقيل هو استثناء من المحضرين أي إنهم يحضرون النار إلا من أخلص فيكون متصلاً لا منقطعاً ، قاله أبو البقاء . وعلى هذا تكون جملة التسبيح معترضة ، ثم خاطب الكفار على العموم أو كفار مكة على الخصوص فقال :

﴿ فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ أي فإنكم وآلهتكم التي تعبدون من دون الله لستم بفاتنين على الله بإفساد عباده ، وإضلالهم ، وعلى متعلقة بفاتنين والواو في وما تعبدون إما للعطف على اسم إن أو هو بمعنى مع وما موصولة أو مصدرية أي فإنكم والذي تعبدون أو وعبادتكم ومعنى فاتنين مضلين ، يقال: فتنت الرجل وأفتنته ويقال فتنه على الشيء وبالشيء كما يقال : أضله على الشيء ، وأضله به ، قال الفراء: أهل الحجاز يقولون فتنته ، وأهل نجد يقولون: أفتنته ، ويقال: فتن فلان على فلان امرأته ، أي أفسدها عليه ، فالفتنة هنا بمعنى الإضلال والإفساد ، قال مقاتل: يقول ما أنتم بمضلين أحداً بآلهتكم إلا من قدر الله له أن يصلى الجحيم .

و(ما) في (ما أنتم) نافية . (وأنتم) خطاب لهم ولمن يعبدونه على التغليب ، قال الزجاج: أهل التفسير مجمعون فيما علمت أن المعنى ما أنتم بمضلين أحداً إلا من قدر الله عز وجل عليه أن يضل ، والجملة تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين ببيان عجزهم عن إغوائهم وإضلالهم، والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام .

﴿ إلا من هو صال الجحيم ﴾ أي إلا من سبق له في علم الله الشقاوة وأنه سيدخل النار ، والاستثناء مفرغ قاله السمين . وهذا من حيث اللفظ ، وأما من حيث المعنى فهو استثناء من المفعول المقدر ، وقال ابن عباس: في الآية إنكم يا معشر المشركين وما تعبدون يعني الآلهة ما أنتم عليه بمضلين إلا من سبق في علمه أنه سيصلى الجحيم ، وعنه قال: يقول إنكم لا تضلون أنتم ولا أضل منكم إلا من قضيت عليه أنه صال الجحيم وعنه قال: لا تفتنون إلا من

هو صال الجحيم ، قرأ الجمهور:صال بكسر اللام لأنه منقوص مضاف حذفت الياء لالتقاء الساكنين وحمل على لفظ من فأفرد كما أفرد هو .

وقرأ الحسن وابن أبي عبلة:بضم اللام مع واو بعدها ، وروي عنهما أنهما قرآ:بضم اللام بدون الواو ، فأما مع الواو فعلى أنه جمع سلامة بالواو حملاً على معنى من ، وحذفت نون الجمع للاضافة ، وأما بدون الواو فيحتمل أن يكون جمعاً ، وإنما حذفت الواو خطأ كما حذفت لفظاً ، ويحتمل أن يكون مفرداً وحقه على هذا كسر اللام .

قال النحاس وجماعة أهل التفسير يقولون:إنه لحن لأنه لا يجوز هذا قاضي المدينة ، والمعنى أن الكفار وما يعبدونه لا يقدرون على إضلال أحد من عباد الله إلا من هو من أهل النار وهم المصرون وإنما يصر على الكفر من سبق القضاء عليه بالشقاوة ، وأنه ممن يصلى النار أي يدخلها . ثم قال الملائكة مخبرين للنبي صلى الله عليه وسلم كما حكاه الله سبحانه عنهم ﴿ وما منا ﴾ في الكلام حذف والتقدير وما منا أحد أو وما منا ملك .

﴿ إلا له مقام معلوم ﴾ في عبادة الله ، وقيل:التقدير وما منا إلا من له مقام معلوم ، رجح البصريون التقدير الأول ، ورجح الكوفيون الثاني . قال الزجاج هذا قول الملائكة وفيه مضمر ، والمعنى وما منا ملك إلا له مقام معلوم يعبد ربه فيه لا يتجاوزه ، وقيل: مقام معلوم في القربة والمشاهدة ، وقيل: يعبد الله على مقامات مختلفة كالخوف والرجاء والمحبة والرضاء ، والأول أولى ، وقيل: هو من كلام النبي والمؤمنين ، أي وما منا إلا له مقام معلوم في الجنة أو بين يدي الله في القيامة ، وفيه بعد ثم قالوا:

﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ أي في مواقف الطاعة أو حول العرش ، داعين للمؤمنين ، قال قتادة: هم الملائكة صفوا أقدامهم ، وقال الكلبي: صفوف الملائكة في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض ، أو نحن الصافون له في الصلاة ، وهذا على القول الثاني أنهم المؤمنون ، والأول أظهر .

وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ أي المنزهون لله المقدسون له عما أضافه إليه المشركون ، وقيل: المصلون ، وقيل: المراد بقولهم (المسبحون) مجموع التسبيح باللسان وبالصلاة ، والمقصود: أن هذه الصفات هي صفات الملائكة ، وليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم بنات الله .

وعن ابن عباس قال: هذه الملائكة وعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم » وذلك قول الملائكة ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ﴾ اخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه وغيرهم .

وعن العلاء ابن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً لأصحابه : « أطت السماء وحق لها أن تئط ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد ، ثم قرأ: وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون » أخرجه محمد بن نصر وابن عساكر .

وعن ابن مسعود قال : « إن من السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائماً أو ساجداً ، ثم قرأ : وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن مردويه عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، إن السماء أطت وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله » ،[1] قيل : الأطيط أصوات الأقتاب ، وقيل :

---

(١) روى مسلم في صحيحه ١/٣٧١ عن حذيفة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا بصفوف الملائكة . . . .

أصوات الإبل وحنينها .

وقد ثبت في الصحيح وغيره: «أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بأن يصفوا كما تصف الملائكة عند ربهم ، فقالوا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال : يقيمون الصفوف المقدمة ويتراصون في الصف». قال القرطبي : قال مقاتل : هذه الآيات الثلاث نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى ، فتأخر جبريل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أهنا تفارقني ؟ فقال جبريل : ما أستطيع أن أتقدم عن مكاني هذا . وأنزل الله حكاية عن قول الملائكة :﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ إلى آخرها».

﴿ وإن كانوا ليقولون ﴾ إن مخففة من الثقيلة ، وفيها ضمير شأن محذوف ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، أي وإن الشأن كان كفار العرب ليقولون الخ ، وهذا رجوع إلى الإخبار عن المشركين . أي كانوا قبل المبعث المحمدي إذا عيروا بالجهل قالوا :

﴿ لو أن عندنا ذكراً من الأولين ﴾ أي كتاباً من كتبهم كالتوراة والإنجيل ﴿ لكنا عباد الله المخلصين ﴾ أي لأخلصنا العبادة له ، ولم نكفر به كما كفروا فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار ، والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب .

﴿ فكفروا به ﴾ قال ابن عباس : لما جاء المشركين من أهل مكة ذكر الأولين ، وعلم الآخرين ؛ كفروا بالكتاب والفاء هي الفصيحة الدالة على محذوف مقدر في الكلام ، قال الفراء : تقديره فجاءهم محمد بالذكر ، فكفروا به ، وهذا على طريق التعجب منهم ، ونظير ذلك قوله : في سورة فاطر : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ﴾ والمراد بالنذير الرسول ، وقد قيل هنا : إن الذكر هو الرسول ﴿ فسوف يعلمون ﴾ عاقبة كفرهم ومغبة تكذيبهم ، وما يحل بهم من الانتقام ، وفي هذا تهديد لهم شديد .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ مستأنفة مقررة للوعيد وتصديرها بالقسم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونها أي وبالله والمراد بالكلمة ما وعدهم الله به من النصر والغلبة والظفر على الكفار. قال مقاتل: عني بالكلمة قوله سبحانه: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ وقال الفراء: سبقت كلمتنا بالسعادة لهم، والأولى تفسير هذه الكلمة بما هو مذكور هنا فإنه قال: ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ فهذه هي الكلمة المذكورة سابقاً وهذا تفسير لها وإنما سماها كلمة وهي كلمات لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة فهو مجاز من إطلاق الجزء على الكل.

﴿ وإن جندنا ﴾ المراد بجند الله حزبه وهم الرسل وأتباعهم، والجند الأنصار والأعوان والجمع أجناد وجنود، والواحد جندي، فالياء للوحدة مثل روم ورومي وجند بفتحتين بلد باليمن. قال الشيباني: جاء هنا على الجمع يعني قوله:

﴿ لهم الغالبون ﴾ من أجل أنه رأس آية، وهذا الوعد لهم بالنصر والغلبة لا ينافيه انهزامهم في بعض المواطن، وغلبة الكفار لهم، فإن الغالب في كل موطن هو انتصارهم على الأعداء وغلبتهم لهم فخرج الكلام مخرج الغالب على أن العاقبة المحمودة لهم على كل حال، وفي كل موطن كما قال سبحانه: ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ والمراد الوعد بعلوهم على عدوهم، في مقادم

الحجاج وملاحم القتال في الدنيا . وعلوهم عليهم في الآخرة ، وعن ابن عباس :إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في العقبى ، والحاصل أن قاعدة أمرهم وأساسه الظفر والنصرة ، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة فالعبرة للغالب ، ويعطي الأكثر حكم الكل ويلحق القليل بالعدم أو الغلبة باعتبار عاقبة الحال ، وملاحظة المآل ، ثم أمر سبحانه رسوله بالإعراض عنهم والإغماض عما يصدر منهم من الجهالات والضلالات فقال :

﴿ فتول عنهم حتى حين ﴾ أي أعرض عنهم إلى مدة معلومة عند الله سبحانه وهي مدة الكف عن القتال ، قال السدي ومجاهد : حتى نأمرك بالقتال وقال قتادة : إلى الموت . وقيل : إلى يوم بدر ، وقيل : إلى يوم فتح مكة.قيل هذه الآية منسوخة بآية السيف والأول أولى ؛ وكان صلى الله عليه وسلم أول الأمر مأموراً بالتبليغ والإنذار والصبر على أذى الكفار تأليفاً لهم . ثم أمر بالجهاد في السنة الثانية من الهجرة . قال ابن حجر رحمه الله :وغزواته صلى الله عليه وسلم سبع وعشرون غزوة ، قاتل في ثمان منها بنفسه: بدر وأحد والمصطلق والخندق وقريظة ؛ وخيبر ، وحنين ، والطائف أهـ.

﴿ وأبصرهم ﴾ إذا نزل بهم العذاب بالقتل والأسر ؛ وما هيأنا لهم ﴿ فسوف يبصرون ﴾ ذلك عن قريب حين لا ينفعهم الإبصار ؛ وسوف هنا للوعيد لا للتبعيد ؛ إذ ليس المقام مقامه ، كما تقول : سوف أنتقم منك ؛ وأنت متهيء للانتقام ؛ قاله الكرخي ولذا عبر بالإبصار عن قرب الأمر كأنه حاضر قدامه . مشاهد له . خصوصاً إذا قيل : إن الأمر للفور ، وقيل : يبصرون العذاب يوم القيامة ؛ ثم هددهم سبحانه بقوله : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ؟ ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم : متى هذا العذاب؟.

﴿ فإذا نزل بساحتهم ﴾ إذا نزل عذاب الله لهم بفنائهم والساحة في اللغة فناء الدار الواسع الخالي من الأبنية وجمعها سوح ، قال الفراء:نزل بهم ، نزل بساحتهم سواء ؛ قال الزجاج : وكان عذاب هؤلاء بالقتل ، قيل: المراد به

نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بساحتهم يوم فتح مكة شبه العذاب بجيش هجم عليهم ؛ فأناخ بفنائهم بغتة وهم في ديارهم . ففي الضمير المستتر في نزل استعارة بالكناية والنزول تخييل.قرأ الجمهور:نزل مبنياً للفاعل . وقرىء:مبنياً للمفعول والجار والمجرور قائم مقام الفاعل .

﴿ فساء صباح المنذرين ﴾ أي بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي صباحهم وخص الصباح بالذكر لأن العذاب كان يأتيهم فيه وإن وقع في وقت آخر ، وفي التعبير بالمنذرين إقامة الظاهر مقام المضمر واللام للجنس لا للعهد فإن افعال الذم والمدح تقتضي الشيوع للإبهام والتفصيل فلا يجوز أن تقول:بئس الرجل هذا ونعم الرجل هذا إذا أردت رجلاً بعينه .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال : « صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وقد خرجوا بالمساحي فلما نظروا إليه قالوا : محمد والخميس ، فقال : الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » الحديث .

ثم كرر سبحانه ما سبق تأكيداً للوعد بالعذاب وتسلية على تسلية : فقال :

﴿ وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون ﴾ حذف مفعول أبصر هنا وذكره أولاً إما لدلالة الأول عليه . فتركه هنا اختصاراً أو قصداً إلى التعميم للإيذان بأن ما يبصره من أنواع عذابهم لا يحيط به الوصف ،وقيل: هذه الجملة المراد بها أحوال القيامة والجملة الأولى: المراد بها عذابهم في الدنيا وعلى هذا فلا يكون من باب التأكيد ، بل من باب التأسيس ، ثم نزه سبحانه نفسه عن قبيح ما يصدر منهم فقال :

﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ العزة الغلبة والقوة والمراد تنزيهه عن كل ما يصفونه ، مما لا يليق بجنابه الشريف ورب العزة بدل من

ربك ، وأضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل : ذي العزة كما تقول صاحب صدق لاختصاصه به، وقيل: المراد العزة المخلوقة الكائنة بين خلقه ويترتب على القولين مسألة اليمين، فعلى الأول ينعقد بها اليمين لأنها صفة من صفاته بخلاف الثاني، فإنه لا ينعقد بها اليمين قاله السمين، ثم ذكر ما يدل على تشريف رسله وتكريمهم فقال .

﴿ وسلام على المرسلين ﴾ أي الذين أرسلهم إلى عباده ، وبلغوا رسالاته وهو من السلام الذي هو التحية ، وقيل معناه: أمن لهم وسلامة من المكاره .

أخرج ابن سعد وابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سلمتم على المرسلين فسلموا عليّ فإنما أنا بشر من المرسلين » .

وعن أنس مرفوعاً نحوه بأطول منه عند ابن مردويه وعمم الرسل بالسلام بعدما خص البعض في السورة لأن في تخصيص كل بالذكر تطويلاً .

﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ إرشاد لعباده إلى حمده على إرسال رسله إليهم مبشرين ومنذرين ، وتعليم لهم كيف يصنعون عند إنعامه عليهم وما يثنون به عليه ، وقيل: إنه الحمد على هلاك المشركين ، ونصر الرسل عليهم ، والأولى: أنه حمد لله سبحانه على كل ما أنعم به على خلقه أجمعين ، كما يفيده حذف المحمود عليه ، فإن حذفه مشعر بالتعميم كما تقرر في علم المعاني، والحمد هو الثناء الجميل لقصد التعظيم .

عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أراد أن يسلم من صلاته قال: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن مردويه .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: كنا نعرف انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة بقوله: سبحان ربك إلى آخرها .

وأخرج الخطيب نحوه من حديث أبي سعيد ، وأخرج الطبراني عن زيد ابن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من قال : «دبر كل صلاة سبحان ربك الآيات ثلاث مرات فقد اكتال بالمكيال الأوفى من الأجر» ، وأخرج حميد بن زنجويه في ترغيبه عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه نحوه .

وعن علي رضي الله تعالى عنه : «من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحان ربك إلى آخرها» ذكره النسفي والخازن، قال النسفي اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوه إليه مما هو منزه عنه وما عاناه المرسلون من جهتهم وما خولوه في العاقبة من النصرة عليهم ، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون والتسليم على المرسلين والحمد لله رب العالمين على ما قيض لهم من حسن العواقب.


خاتمة الجزء
الحادي عشر
تم بعون الله الجزء الحادي عشر من كتاب فتح البيان في
مقاصد القرآن ويليه الجزء الثاني عشر وأوله تفسيرة سورة ص .



فهرس الجزء الحادي عشر